على
ابن جابر
الحربى

مَنهجُ الدعوة النبويّة فِى المرحلة المكيّة

الزهراء
للإعلام
العربى



بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربى
قسم النشر

ص .ب : ١٠٢ مدينة نصر – القاهرة – تلغرافياً : زهراتيف – تليفون ٦٠١٩٨٨ – ٦١١١٠٦ – تلكس ٩٤٠٢١ رائف

: 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 611106 - Telex : 94021 Raef U N

بسم الله الرحمن الرحيم

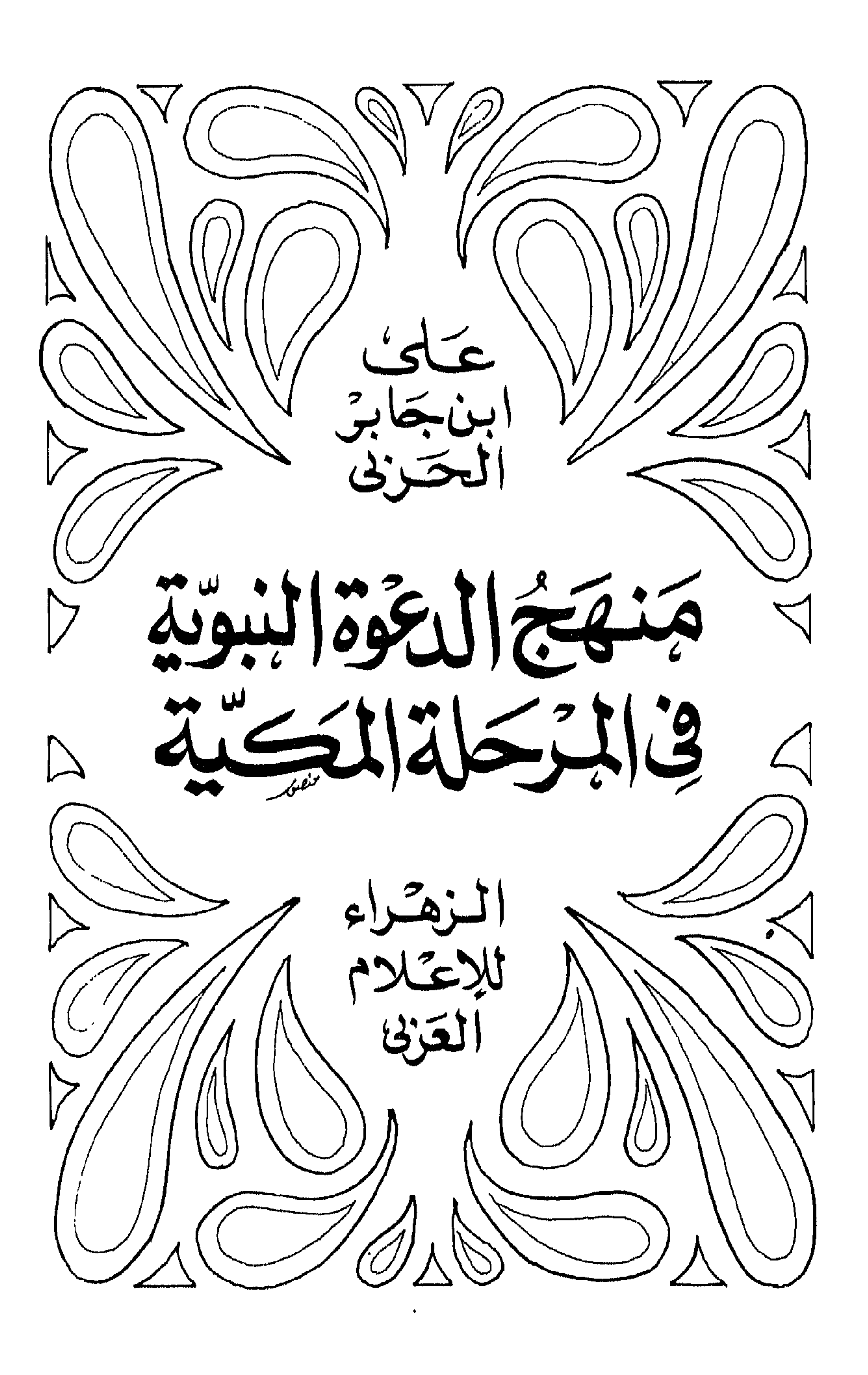
﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾

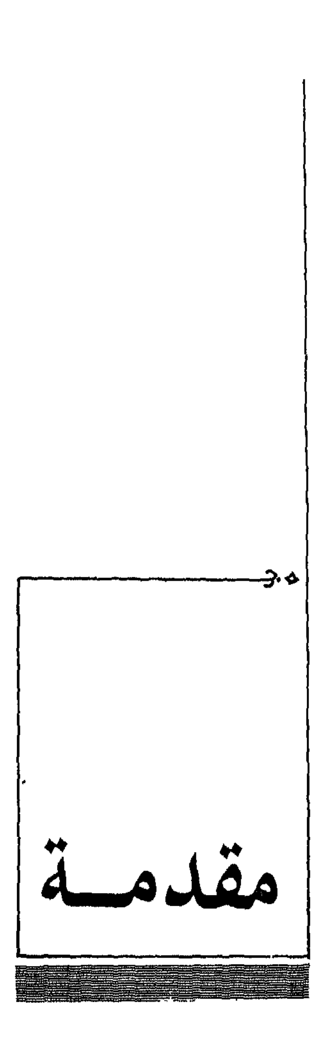
صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

تصميم الغلاف : عصمت داوستاشي
إخراج فني: صلاح بيصار


على
ابن جابر
الحربى
منهج الدعوة النبويّة
فى المرحلة المكيّة
الزهراء
للإعلام
العربى



مقدمــة

بقلم : إبراهيم بن على الوزير



رسل الله للبشر هم الأسوة الحسنة منذ اقتضت الإرادة الإلّهية خلق الإنسان خليفة فى الأرض، مزودا بأجهزة الخلافة من سمع وبصر وفؤاد وفى أحسن تقويم، ومنحته « المشيئة » الإلّهية المطلقة « حرية المشيئة » المحدودة الخاصة بالمسئولية والخلافة ، ليحمل بحكم تكوينه وما زود به، الأمانة التى أشفقت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، فكان « ظلوماً » ، إذ لم يف بحمل تلك الأمانة المقدسة أمانة الطاقات التى زود بها والتسخير الهائل لتلك الطاقات إلا القليل « جهولا » للتبعات الهائلةِ الخطر على كافة المستويات الفردية والأسرية والعائلية والعالم كله وفى شتى المجالات العديدة ، ونتيجة لحمل الأمانة تلك ، سار الإنسان فى خطين :

– خط « **من تاب الله عليه** » من المؤمنين والمؤمنات فى مجتمع تواب غير معصوم(*) مكون من نوع ذلك « الكائن الخليفة » .

– وخط « **أسباب العذاب** » وذلك للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من نفس ذلك « الكائن الخليفة » . أيضاً وبذلك كانت نتيجتان :

* من نجح فى الامتحان العظيم ، بالوفاء بما حمل به . .

(*) إلا أفراد منه فيما يختص بأمانة التبليغ عن الله وحمل الهدى إلى الناس .

* ومن سقط فيه بخسران نفسه .. وذلك بأحد أمرين : الذى لايتصف « بالصدق » ، فكان منافقا يظهر غير مايبطن .. وذلك الذى لايستخدم عقله لرؤية الحقيقة الساطعة ، أعمى عن رفع الله له إلى آفاق الكرامة فكان مشركا بالواحد الأحد .

﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السمٰوت والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ سورة الأحزاب ٧٢ و ٧٣ .

وقد أسجد الله لهذا الخليفة الإنسان ملائكته تكريما ورمزا للتسخير العظيم، وسخر له الشمس والقمر دائبين والسمٰوات ، ومافى الأرض جميعا كلها بأمره فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، ووجد بهذا الفسق عن الأمر الإلٰهى الصراع[١] مع قوى الشر لتبدأ الحياة من خلال التفوق والالتزام بالحق واتباع هدى الله، وذلك ليرتفع الإنسان إلى أعلى عليين، أو يهبط بالانفلات عن التزام الحق إلى أسفل سافلين فى مهاوى الصراع والضياع والخسران .

وأسكن الخليفة الإنسان آدم وحواء الجنة لايجوع فيها ولايعرى ونُهيا - اختبارا لمشيئة الخطأ والصواب فيهما - أن يأكلا من الشجرة فدلاهما بغرور[٢] فأكلا منها، ولكنه كان من مجتمع الخير مجتمع التوابين : ﴿ **ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ . ولم يكن من مجتمع المصرين على الخطأ .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾ .

(٢) عدوهما الذى حذرهما الله منه والذى أعلن عداءه لهذا الخليفة منذ اللحظة الأولى : أرأيت هذا الذى كرمت على لأحتنكن ذريته إلا قليلا وإلى قوله تعالى ﴿ **أنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ وإلى قوله تعالى ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ وإلى قوله ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ .

مجتمع الأشرار[1] « أنظرنى إلى يوم الوقت المعلوم » . وأهبط الإنسان إلى الأرض الذى أعد ليكون خليفة فيها نتيجة لتحمله المسئولية ونتيجة الخطأ والصواب بعضهم لبعض عدو ، إرادات متصارعة تسبب المخاوف والأحزان والضياع والخسران مالم يهتد بموعود الله فى الهدى :

﴿ **فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون** ﴾ سورة البقرة الآية ٣٨.

فكان الهدى هو الوحى – « الرسالة » – و « الرسل » الذين هم من البشر وليسوا ملائكة فكانوا القدوة الحسنة التى يمكن الاقتداء بها وتحقيقها واقعا فى الحياة، فهم بشر فى إمكان الإنسان السوى فطرة وعقلا والتزاما بمنهج الوحى والاقتداء بهم والسير على نهجهم وتجسيد سلوكهم فى واقع الحياة لمن كان يرجو :

* **الله .**
* **واليوم الآخر .**
* **وذكر الله كثيرا .**

يرجو الله فيتبع هديه ويكون له فى الرسول الأسوة الحسنة، ويرجو اليوم الآخر فيبنى لما هو باق لا لما هو فان، فيعمل الصالحات التى تثمر نعيما خالدا لايحول ولايزول .

ويذكر الله كثيرا فلا تزل به الأهواء ولاتنزلق به الشهوات فى طريق العمل الشرير الهادم لسعادته وخيره فى الحياتين، فيؤثر مايهبط به إلى وحل الطين عما يحلق به فى مناخات الآفاق العالية من الطيبات والحسن الأسمى والأعلى والأجمل والأكمل .

---

(١) مجتمع الشر ذلك الذى أصر على الخطأ وكان الشيطان إمام الأشرار الأول ومن يصر على الخطيئة فهو يسير فى طريق الشيطان .

لذلك لم تكن الرسل ملائكة، وإنما بشر يوحى إليهم ليمكن الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم فلا يتعلل الإنسان بعدم قدرته على سلوك رفيع فى صراط من أنعم الله عليهم بمنهج الوحى، فهم بشر لهم كل تكوين الإنسان، وختمت الرسالات بمن هو رحمة للعالمن والأسوة الحسنة لكل البشر ولكل الأمكنة والأزمنة فهو أسوة لا لقومه فحسب بل للعالمين وإلى انتهاء آخر إنسان على الأرض .

لذلك فقد كانت سيرة الرسول وستظل موضع دراسة واهتمام الإنسانية إلى يوم القيامة فهو نبع الهدى وهو السراج المنير ، والنبأ العظيم ، والصراط المستقيم ، الذى أنعم الله به على الإنسانية بعيدا عن خطين :

– خط المغضوب عليهم بسبب من محادات الله خالق الإنسان ومولاه وسيده وإلهه . .

– و « خط الضالين » الذين يضلون عن الطريق المرسوم فيكون بذلك الضياع فى الحياتين وكلّما تقدمت المعارف الإنسانية وكلما نشط الدعاة المخلصون فى مجال التربية والدعوة والجهاد المستمر لبناء الإنسان وبناء الحياة الأفضل ورسم طريق الواجبات وحماية الحقوق المشروعة وتحقيق سبيل العدل وحماية المشيئة الحرة التى منحها الله لهذا الإنسان – كلما اشتدت الحاجة لدراسة السيرة من زواياها المختلفة . .

وسيظل هذا ينبوعا للدارسين والباحثين، يتدفق عليهم بما يخصب العقول والأفكار، ومايثرى طريق العمل لتثمر الجهود المخلصة الشجرة الإنسانية الطيبة التى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . .

ولقد كان القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – هو السيرة الأولى لهذا الرسول البشر وكما قالت أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها : « كان خلقه القرآن » . ثم يأتى ماصح من السنة فى ضوء آيات الوحى، ثم تأتى كتب المغازى والسير

وآلاف البحوث والدراسات فى مختلف الأزمنة والأمكنة والألسن قديما وحديثا .. واليوم والمسلمون يحاولون الخروج من عصور الانحطاط التى تردّى فيها المسلمون يوم فقدوا الأسوة ونقضوا عرى الإسلام عروة عروة، أولها نقضا للحكم وآخرها نقضا للصلاة[1] .

اليوم يجد المسلم الحق وتجد الحركات الإسلامية فى محمد الرسول البشر رحمة الله للعالمين الأسوة الحسنة للاقتداء والسير على سنن علمى يفضى إلى النصر المبين والظفر المتوج بخيرى الدنيا والآخرة . فماذا صنع باحثنا فى رسالته التى جاءت فى أوانها ؟ لقد قام بهذا المجهود الكبير، فكان هذا العمل الجيد الذى جلى فيه حقائق السيرة وقدمها برنامج عمل وتطبيق، يستفيد منه العاملون فى الجهاد العظيم لإنقاذ الإنسانية فى عالم اليوم الذى ساد فيه منطق القوة على منطق الحق لتكون القوة فى خدمة الحق ولتكون الأسوة ماثلة للعيان أمام العاملين المخلصين .

لقد ذكر الباحث أن سبب رسالته هو أنه لما كان يواصل دراسته الجامعية كانت تتجاذبه أفكار الجماعات الإسلامية القائمة فى الميدان، وقد أدرك بعمق وفهم أسباب القصور عند كثير من الحركات الإسلامية التى يؤخذ عليها بحق القصور عن ذلك المنهج فى ذزاه وآفاقه السامية والتردى أحيانا فى التعصب والتنازع وعدم سعة الأفق وعدم احترام الرأى الآخر، مع أن الدرس النبوى يعلم ما يؤدى إلى الآفاق المتسعة ، والخصب والتجديد والنماء والتعاون فيما يسع الجميع واحترام حرية الآخرين **« قل كل يعمل على شاكلته »** . **« ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات »** . وقد لخص من تلك الأسباب مايلى ومانقله بتصرف وبعض إضافات توضيحية فى سطور كمعالم لهذا البحث القيم ، لقد درس المواقف

(١) إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لتنقضن عرى الإسلام عروة غروة وفى رواية كما ينقض الحبل قوة قوة فكلما نقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها وأولها نقضا للحكم وآخرها للصلاة » رواه الإمام أحمد عن فيروزالديلمى جـ٨ ص ٢٣٢ وعن أبى أمامه الباهلى جـ ٥ ، ص ٢٥١ .

الفكرية ومن ثم البرامج التطبيقية للحركات الإسلامية العاملة فى الميدان وقسمها حسب طبيعة علملها والخصائص المميزة بعضها عن بعض إلى أربع جماعات .

١ - المقتصرة على التبليغ وعلى حد تعبير باحثنا تلك التى لاتشكل تجمعا حركيا منظما ذا خطة مدروسة وقادرا على مواجهة مخططات أعداء الإسلام وقواه المنظمة، وقد حلل هذا الاتجاه بدقة وإنصاف، وخلص إلى أن أسلوبها سيظل قاصرا على موقف دفاعى فى مواجهة تحديات الأفكار الإلحادية والمادية عموما ، وهو أسلوب لا يؤثر فى غير المتدينين ، وثمراته العملية فى واقع الحياة وتسييرها جد ضئيل .

٢ - حركة أولئك الذين يظنون أن تخطى المدارس الاجتهادية المذهبية والتعامل مع النصوص مباشرة سيقضى على الخلافات المذهبية وهو اتجاه محمود من حيث فتح باب الاجتهاد للمؤهلين له،ولكن بالنسبة لهدف القضاء على الخلافات فذلك غير صحيح وغير متحقق، فالمدارس الإسلامية مصادر اجتهادها واستنباطها هو النصوص، وبذلك يكون اتجاه هذه الحركة لايزيد عن إيجاد مذهب اجتهادى إلى جانب المذاهب الأخرى، ومهما حاول الاجتهاد الفردى أو الجماعى إيجاد خط واحد فى الفهم، فهو أمر متعذر وغير مطلوب ومناقض لمعنى الاجتهاد نفسه، فإن الخلاف سيبقى قائما لاختلاف النظر فى النصوص نفسها كما هو واقع فى اختلاف النظر فى فهم الأدلة القرآنية . واتفاق الأمة فى المسائل الظنية وهى بطبيعة دلاليتها تحتمل وجوها متعددة مهما كانت أصولها قطعية أمر يكاد يكون مستحيلا، وأؤكد هنا تأييداً لوجهة نظر المؤلف أن ذلك ليس مطلوبا فاختلاف الأفهام مقصود للشارع يخصب ويجدد وينمى الخير فى الأمة شريطة احترام بعضهم البعض وعدم التفرق والعداء والكراهية، فيفرون من الخطأ المأجور خطأ الاجتهاد إلى ماهو محرم قطعا ، منهى عنه قطعا - التفرق فى الدين - إن النصوص القطعية

الورود القطعية الدلالة وما أجمعت عليه الأمة وماعلم من الدين ضرورة هو الذى لاينبغى لأحد الخلاف فيه إذ هو العاصم من الهلاك، فهو الحسم والقطع الذى لاخلاف فيه، أما ماعدا هذه الدائرة فهو كما قلنا مجال الخصب والتجدد والنمو، وماللاجتهاد على حد تعبير علمائنا العظام فيه مسرح، وهذا المعنى العظيم هو سر صلاحية شريعة الإسلام لكل زمان ومكان ولكل تطورات الحياة وسيرها الدائم فى الاكتشاف والإبداع ونمو العلم فى مجال تحقيق الأسماء التى جعلت ملائكة الرحمن تردد مقتنعة « سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا » .

٣ - جماعة تهتم بباطن الفرد وتهذيب روحه، وقد انتقد الباحث بحق الاقتصار على هذا الجانب وحده إذ المنهج الإسلامى التربوى والإعدادى على حد تعبير الباحث يأخذ فى اعتباره الكينونة الإنسانية ككل يهتم بالروح والعقل والجسد .

٤ - وجماعة هدفها يبدأ من تربية الفرد وإعداده وينتهى بإقامة الحكم لله وحده ثم الانطلاق فى الأرض لإعلاء دين الله، وهى الجماعة التى يرى الباحث أنها تلتقى مع الجماعات الإسلامية فى أهم ماتدعو إليه كل منها . وهنا أود التنبيه أن لها سلبياتها الخاصة بها مثل ضيقها بالحركات الإسلامية الأخرى، وعدم إدراك تعدد الأفهام، وعدم احترام الرأى الآخر، ورغم رفعها للشعار العظيم « نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه » إلا أن ذلك لايجد سبيله إلى التطبيق فى معظم الأحيان وفى كثير من القواعد التنظيمية لتلك الجماعة، كذلك فإن شعار الحكم لله هو كلمة حق إذا فهمت على وجهها الصحيح، وكان على الباحث أن يقف عندها موضحا لما لها من أهمية، فهى من المزالق المخيفة للجماعات والمفكرين خلال القرون والأجيال من تاريخ أمة الإسلام، لأن الذى يحكم فى غير القطعيات الورود والدلالة باسم الله لا باسم الاجتهاد، إنما يفترى الكذب حين ينسب رأيه إلى الله على سبيل

القطع، وقد نعى الله على أمم خلت وصلت بها المبالغة إلى جعل رأيها هو الحاسم القطعى باسم الله فى التحليل والتحريم بمجرد الفهم الذى يحتمل الصواب والخطأ سواء كانت أفرادا أم مجامع .

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » . ولقد كان صديق هذه الأمة رضوان الله عليه يردد فى معظم القضايا إن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان . كذلك فإن الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكن يقول عندما يعلن الرأى فى مسائل غير قطعية الورود والدلالة وإنما هى اجتهادية « هذا حكم الله » . إنما كان يدعو أهل بدر ويدعو المهاجرين والأنصار ويجعل الأمر شورى بين المسلمين ، وواجه الإمام على عليه السلام ، شعار « لاحكم إلا لله » بقوله — المضىء للأجيال — « كلمة حق يراد بها باطل ، ولابد للناس من إمرة » ، يتحقق بها العدل والأمن « ومعلوم أن الأمر شورى سواء بالنسبة للمسئولين عنها اختيارا لهم أو الشئون التى تدار بها المجتمعات « وأمرهم شورى بينهم » فالاهتداء بالنصوص القاطعة الورود والدلالة هو حكم الله والاجتهاد هو تعامل بشرى مع النصوص فيه المثوبة والأجر فى حالتى الصواب والخطأ « ولا تنزلوا الناس على حكم الله ورسوله ، وأنزلوهم على حكمكم .. فلأن تخفر ذمتك خير لك من أن تخفر ذمة الله ورسوله »[1]،ولا سبيل إلى حكم الله إلا على سبيل القطع واليقين ، إنه لاينبغى لفرد ولا لجماعة أن تدعى أن فهمها هو الفهم المعصوم . والإسلام يضىء أمام العقل للفرد والجماعة سبل الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية فى دائرة المثوبة من أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر .. إن الله جعل

---

(١) صحيح مسلم شرح النووى الجهاد والسير جـ ١٢ ص ٣٧ وفى أبى داود كتاب الجهاد باب رقم ٩ دعاء المشركين جـ٣ ص ١ هـ وفى الترمذى فى آخر كتاب السير باب ماجاء فى وصيته صلى الله عليه وآله وسلم فى القتال متن الترمزى جـ٥ ص ١٣٢ وفى مسند ابن ماجه فى كتاب الجهاد باب ٣٨ وباب وصية الإمام .

هداه فيما ينقذ البشر من هلاكهم الدنيوى والأخروى بصفةٍ قاطعة تمضى مع الفطرة والعقل فى سنن واحد ونسق واحد وهى « الثوابت » وتترك التيسيرات والمتحول والوسائل المتعددة والمتجددة ، للاجتهاد وما للعقل فيه مسرح وشورى المؤمنين تهتدى بالنصوص وتستنبط لها الأحكام بما يتفق مع المصالح فى شمولها وفى إطار من القسط الذى هو غاية ماتهدف إليه شريعة الله وفى إطار الثوابت القاطعة اليقينية، فليس فى الإسلام إلباس الفهم والأدلة الظنية – التى تلزم فقط من توصل إليها باجتهاده أو من قلده – ثوب قداسة « الوحى » والهيمنة على الناس بذلك . فقطعيات الشريعة لاتحتمل إلا معنى واحدا تختلف فيه العقول . وظنياتها هى مجال الاجتهاد الذى تختلف فيه الأفهام والذى يُنَفَّذُ منها بالنسبة لمجتمع المؤمنين ماتجمع عليه شورى المؤمنين وذلك هو سبيلهم الملزم وبذلك تتوحد الأمة .

فى الرأى تصطرع العقول وليس تضطغن القلوب

والخلاف فى الرأى لايفسد للود قضية . .

إن شعار الحكم لله قضية يجب توضيحها فهى ليست مثارة فى الأزمنة الحديثة فحسب بل كانت إحدى مشاكل الماضى – الخوارج – مثلا وستظل مشكلة الحاضر والمستقبل ويجب أن تحسمها الفعاليات النافذة فى الحركات الإسلامية مهتدية بالوحى وبفقه السيرة العظيم . وفى رأينا أن الجدير بالولاء لهى تلك الجماعة المسلمة التى تتصف بالشمول فى المنهج والوضوح فى الهدف والتى تتصف جميعها بالابتعاد قدر الإمكان عن سلبيات الحركات الإسلامية المعاصرة من خلال برنامج عملى وتطبيقى وتربوى حى فى واقع العمل والحياة لامجرد شعارات قولية لاحظ لها فى مجالات التطبيق السلوكى والقولى والعملى ، مع احترام الرأى الآخر لفرد أو جماعة بكل سماح وثقة وسعة أفق .

وبذلك تستفيد الحركة من دروس السنة التاريخية والعلمية والحياتية والكونية المتجهة لتحرير الإنسان من العبودية لغير الله قهراً أو إكراها، ليختار بحرية تامة مايريد إما شاكرا وإما كفورا مع بناء متواصل لمقومات العدل السياسى والمالى والاجتماعى الذى يشمل كينونة الإنسان على الأرض .

وعلى كل حال فقد وفق الباحث فى دراسته لمناهج الحركة الإسلامية وخط سيرها كما أنه حدد بدقة الصعوبات التى واجهته، وحوافز البحث وأهدافه وأهميته، ذاكرا منهجه وتقسيمه للبحث إلى أبواب ذى فصول غاية فى الأهمية، سواء الأبواب أو الفصول من حيث منهج الدعوة من الناحية العقلية والروحية واستدلالاتها الكونية والتاريخية، وإثبات الرسالة بالبراهين العلمية والعقلية التى لايسع الإنسان السوى غير الإيمان بها والتسليم للحقيقة، كما فصل مراحل الدعوة وأسلوب التكوين السرى والجهر بالدعوة وأركانها من شهادتين وصلاة وزكاة وصيام وحج، ومن التركيز على العقيدة وأهميتها والإيمان بها والصفات الشخصية لصاحب الرسالة والإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وأثر ذلك فى حياة الإنسان بصفته فردا فى جماعة وأمة وعالم، وكما اشتملت هذه الفصول على الأركان، فإنها كذلك ركزت على مكارم الأخلاق وآثارها السامية فى حياة الفرد والجماعة والمجتمع المثالى لإنسانية رفيعة يظلها نور وتسام يحقق أقصى مايمكن من السعادة فى الحياتين . .

وفصّل البحث جهاد الدعوة ومنهجها العملى وتحمل الابتلاء والأذى ، والنماذج الرائعة التى أبرزتها تلك الأحداث الجليلة فى تاريخ العالم وأسلوب التذكير والجدل والإعداد المستمر ومواجهة الهجمة الشرسة لأعداء الدعوة ، الذى وصل ذروته من قبل أعداء الدعوة إلى المقاطعة وإلى شن التعذيب بوسائله المختلفة وفى مواجهة ذلك لم يتأثر العمل العظيم ولم تكتف الدعوة بالدفاع والصبر والثبات عن إيجابياتها الحركية فى إعداد الدعاة وشمول

الدعوة حتى بلغت ذروتها بالهجرة الأولى المتوفرة فيها الحماية من الاضطهاد[1] ثم بيعة العقبة وذكر أسباب تقبل الأنصار لهذه الدعوة وتوج العمل المستمر وفق ذلك النهج الرسالى العظيم بالهجرة الثانية إلى أرض الإسلام فبناء دار الإسلام الأولى على الأرض ، كما ركز الباحث على العبر المستفادة من ذلك والحكمة من عدم الإذن بالقتال آنذاك . كما تحدث قبل ذلك عن خلاصة حياة الرسول الأسوة قبل البعثة وهى القاعدة بالنسبة للدعوة والداعية بصفته أعد لرسالة ، تلك الحياة التى أقيم عليها صرح النبوة الشامخ ومافى حياته من مثال لحياة الرسل التى لم يسجلها التاريخ . .

بعد أن انتهى من دراسته الموسعة الرائعة فيما توصل إليه من نتائج عملية فى ضوء الحقائق الساطعة التى هى خلاصة لبحث عميق وجهد متواصل وإخلاص للحقيقة فى أسلوب علمى دقيق ، لخص تلك النتائج لبحثه فى منهجية موضوعية متكاملة لاغنى للقارىء عن قراءتها ، قراءة دراسة وتأمل واستفادة .

إن هذه « الرسالة » فى فقه السيرة العملى لبناء أفضل حياة ممكنة على وجه الأرض، هى بداية رائدة ينبغى أن تتلوها دراسات، فالآفاق واسعة سعة الحياة والأزمنة ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا كان البحث قد اقتصر على المرحلة المكية، فذلك هو الأساس الذى تم عليه صرح البناء الشامخ المقدس . وإن استكمال دراسة بناء ذلك الصرح وذلك المثل الحى لبناء المجتمع الأفضل والدولة الإنسانية فى أكمل ذراها السامقة فى ظلال الفطرة المنضبطة بنور العقل وهدى الوحى، لهو مجال واسع للباحثين والدارسين .

إن الإنسان بصفته فرد له كيانه الخاص به وباعتباره فى عائلة وفى مجتمع وفى دولة وفى عالم فى حاجة إلى منهج شمولى يتناول على نسق منسجم الكينونة الإنسانية . إن الضمير والسلوك والعائلة

---

(١) إشارة إلى الهجرة الأولى إلى الحبشة .

والمجتمع والدولة والعالم فى حاجة إلى منهج النبوة يتربى على سناها، ويقتدى بخطواتها فى طريق الحياة المنطلق نحو الخلود والبقاء، وهنا ما أحوج الفرد والعائلة والمجتمع والدولة والعالم إلى تلك الأسوة الحسنة ضوءا فكريا فى العقول وسلوكا ومنهج حياة .

وقد كانت الخاتمة هى خلاصة ذلك المنهج النظرى، والبرنامج التطبيقى والنتائج والآثار المترتبة على ذلك، ونلخصها هنا بتصرف وإيضاح لأهميتها كخطوط رئيسية لهذه الدراسة القيمة ولاغنى عن استعادة قراءتها مفصلة بعد الانتهاء من قراءة البحث كما توصل إليه باحثنا المدقق :

١ – تقسيم مراحل الدعوة والتدرج بها من السرية إلى الجهر ، ومن الإعداد إلى القوة . .

٢ – الإعداد بالتربية والإيمان والعمل وفق العقيدة القائمة على العلم المستيقن هى التى استعلت فى نفوسهم على العذاب وعلى كل رغائب الحياة . .

٣ – أسلوب الحكمة والقول الحسن والعمل الصالح المشرق ذلك الأسلوب الذى يعنى تلطفا فى الوسائل وثبات فى المبادىء ولايعنى ذلك قط المساومة أو التراجع أو التفريط وإنما حسن الأداء وسداده وطيبه .

٤ – الصبر والاستمرارية والمثابرة وعدم استعجال النتائج دون تفريط فى الفرص السانحة .

٥ – لاعمل إلا بجماعة ، ولاجماعة إلا بقيادة ، ولاقيادة إلا بتنظيم .

٦ – تهيئة القوى المساندة وإن كانت لاتتفق مع المنهج المهم أن لاتعاديه .

٧ – إبعاد الأتباع عن ساحة المواجهة إلى حينها – حتى إذا حان

الوقت وسخرت السنن، جاءت القاعدة المتفقة مع الحق والسنن .. أما اتفاقها مع الحق فمشروعيتها من حيث هى دفع للظلم وتمكين للعدل وأما اتفاقها مع السنن فهى فى توازن القوة بالإعداد المعنوى والمادى، ولم ينشر الإسلام بالسيف كما يدعى ذو الأغراض دون برهان أو أثارة من علم وإنما انتشر عن طريق قوة الحقيقة وانسجامه مع الفطرة وقيامة على البرهان والإقناع والموعظة والأسوة الحسنة .

والواقع الذى لايمترى فيه منصف أن سيوف الشرك كانت هى القائمة ظلما وعدوانا على رؤوس المؤمنين مع شن صنوف الاضطهاد والعدوان حتى أخرج المؤمنون بالإسلام من ديارهم فكانت هجرتان – الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة،ثم أذن لهم بالقتال وكان هذا الإذن مسببا بعد أن كان محرما ولم يكن القتال بعد ذلك والمسلمون فى مرحلة القوة إلا دفاعا عن حرية بلاغ أو تحريرا للمستضعفين فى الأرض تحقيقا للعدل ، وتحريرا للإنسان .

٨ – استخدام الوسائل لنشر الدعوة بالتنظيم الدقيق والعمل المتواصل ، الاتصال الفردى والجماعى وتكليف من أسلم بتبليغ من لم يسلم مع استخدام كل وسائل الإقناع ووسائل الاتصالات المتاحة .

٩ – إثارة الوجدان وإيجاد التوازن فى النفس وفق قاعدة الثواب والعقاب .

١٠ – لفت النظر إلى الآيات فى الكون والأنفس لتكون موضع دراسة وبحث وفهم ولتدل على بارئها وعلى الحقائق الساطعة التى ترقى بالإنسان وتعد للحياة الأكرم .

١١ – الاهتمام بالأصول لا الفروع فكثيرا مايقع الدعاة وتقع الجماعات فى الفروع دون الأسس والأصول التى تبنى عليها الفروع .

١٢ – الهجرة تعنى الحركة فعدم صلاحية مكان ما أو جماعة ما لا تعنى الركود، فالأرض منها الطيب والنكد والجماعات منها الخبيث ومنها الطيب والإصلاح يتناول هذه وتلك فى عاجل الأمر وآجله، والإسلام يعنى الحركة والحركة تعنى الحياة والركود يعنى الموت .

١٣ – إنه لا أداة لتلك الحركة إلا بتربية جيل جديد على المنهج الذى تربت عليه الجماعة الأولى فى العهد المكى والذى ينبغى أن يكون أسوة لكل حركة إسلامية على مدى التاريخ ، فهو بعد الرسول فى سننه القولية والعملية دليل البناء الإسلامى فى كل زمان ومكان . من أين نبدأ ؟ ما هو المطلوب بعد نقطة البدء ؟ ما هى وسيلة الأداء .. ؟ ذلك مايجيب عليه العهد المكى . « الكتاب » « الرسول » . الجماعة الأولى فإن استطاع المسلمون أن يعيدوا سيرتها فى أنفسهم فى أى جيل من أجيالهم فهو الخير لهم ولكل البشرية،وإن لم يستطيعوا على حد تعبير باحثنا فلن تذهب محاولاتهم هباء،لأنهم سيكونون أثناء هذه المحاولة قد ارتفعوا بأنفسهم إلى أقصى طاقاتهم فيكون الخير على كل حال . .

والباحث فى رسالته العلمية القيمة هذه؛ إذ يجعل قبلة المسلمين العملية بحق هى « مكة » وليست واشنطن أو موسكو أو سواهما من عواصم العالم فى الأرض؛ لايغفل الاستفادة من تقدم الإنسان فى أى مكان على الأرض فى مجال الأسماء والحكمة التى لها قيمة مؤثرة فى الحياة يستفيد منها فى ضوء الوحى فالحكمة ضالة المؤمن وهو أحق بها أنى وجدها .

١٤ – أولت الفرد اهتمامها وعنايتها من حيث تربيته وإعداده إعدادا خاصا وملاحقته بالمنهج القولى والعملى حتى يصلب عوده وإلا فهو كالنبتة الصغيرة فى مهب الرياح .

١٥ – أخرجت الدعوة البشرية من الظلمات إلى النور .

١٦ – أسست القاعدة لانطلاقات الحق إلى يوم القيامة .

١٧ – إن الإسلام قام على ذروة سامية من التضحية والاستشهاد ونكران الذات والثبات على المبادىء وتجسيدها حية فى الناس .

وفى أروع النتائج وأسمى الأهداف ماتوصل إليه باحثنا وهو دعوته المخلصة للجماعات الإسلامية العاملة فى الميدان للتعاون فى الأمور المتفق عليها وهى ماكانت قطعية الورود قطعية الدلالة – وأن يعذر كل منها الأخرى فى غير المتفق عليه من الأفكار والوسائل والأساليب والفروع والمناهج فيما للعقول والاجتهاد فيه مسرح لامجرد شعار ترفعه وإنما خط عمل يلتزمه الأفراد والجماعة،ويتجلى واضحا فى السلوك والحركة والعمل ، أؤكد هنا أن الكراهية والغمز واللمز وعدم الثقة بين الأفراد والجماعات الإسلامية إلا بمن يكون فى الجماعة التى يرتضيها هذا أو ذاك أو الزعم أن هذه الجماعة أو تلك هى جماعة المسلمين وهى فى حقيقتها جماعة من المسلمين لا أكثر إن ذلك إنما يعبد الطريق إلى الشقاق والتفرق المحرم على المسلمين جماعات وأفراداً . قطعا نصاً ودلالة . والحب والتعاون والولاء فيما بينهم فرضٌ واجب قطعى الورود والدلالة .

ذلك درس يجب أن يعيه العاملون للإسلام أفرادا وحركات وهم يعدون الأمة للخروج من عصور التخلف والانحطاط نحو الإنابة إلى الله والأخذ بسننه الغلابة الصارمة التى لامرد لها ولاتحويل وتلك هى إحدى المعالم المضيئة للطريق .

ذلك هو البحث قام على أسلوب علمى وتجرد للحقيقة وصبر على الدرس واستخلاص النتائج وإخلاص للحق، فهى رسالة للفهم والدراسة والاستفادة فى مجال التنظير والتطبيق، ونحن لا نقرر بأن كل ماجاء فيها لاخطأ فيه فهى كأى عمل إنسانى غير معصوم منه، ولكن حسب صاحبها الاجتهاد المؤهل بوسائل الاجتهاد فى البحث

والدراسة والذى هو على كل حال فى دائرة الأجر والمثوبة فى حالتى الصواب والخطأ . فهو صواب البصيرة أو خطأ الباحث الجاد الذى يمسك مصباحه ليضيء له السبيل لا الحاطب بليل .

وكنت أود الإشارة إلى تنديد المؤلف بالاحتفاء بالمولد النبوى مع أنها مسألة خلافية الدافع لوجهتى النظر فيها القصد الحسن واختلاف الفهم، ولقد احتفت آيات كريمات بذكر تفاصيل مولد المسيح عليه السلام فى سورة مريم بآيات بينات خلدت الذكرى، ولما رأى الرسول اليهود يحتفون بيوم عاشوراء لنجاة موسى من فرعون قال كلمته الموحية « نحن أحق بموسى » واحتفى باليوم صياما وتخليدا لذكرى يوم عظيم فى التاريخ، والرسول لايصل إلى مكانته أحد بعد أن وصف الله رسالته بأنها رحمة للعالمين وهو وصف لايدانيه أى وصف لنبى مرسل أو ملك مقرب، وفى الاحتفاء بذكراه إحياء لمنهجه وشخصه الأسوة فى النفوس والقلوب ، فى الصغار والكبار أمام المؤمن والكافر .. روعة الذكرى تهز النفوس وتحيى الموات وتستعاد فيها تفاصيل السيرة ودروسها الباقية على الدهر . .

ومع ذلك أو سواه، فحسب مؤلف هذه الرسالة أنه دل على الصراط الحق والأسوة الحسنة، صراط الذى أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. والأسوة الحسنة معين الخير الذى لاينضب .

جزاه الله عن رسوله العظيم الذى أحبه أروع الحب وأعلاه ببيان نهجه والتزام آدابه وتعاليمه وأوامره ونواهيه .

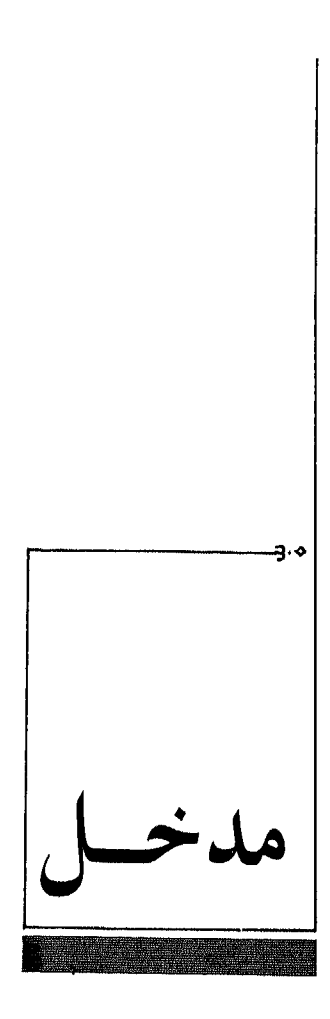
وكتب الله لهذه الأمة عودة جميلة إلى النهج لتعود مسيرة حضارة البشرية كلها بما انتهت إليه، ترقب بزوغ فجرها الذى يخرجها من الظلمات إلى النور وكل شهادات أولى العلم تشير إلى

تلك الحقيقة المتجلية فى عالم اليوم «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾

يوم الاثنين – عيد الأضحى
المبارك – عام ١٤٠٥ هـ ،
المدينة المنورة
إبراهيم بن على الوزير





مدخل



الحمد لله القائل : ﴿ يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾[1] .

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، الهادى بدعوته إلى الصراط المستقيم، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، القائل : (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك) .

وفى رواية : (لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء[2]) .

(وبعد) .

فإن كلمة الدعوة هى أحسن كلمة تقال في الأرض ، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء ،[3] ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾[4] .

لما كنت أواصل الدراسة الجامعية، كانت تتجاذبني أفكار الجماعات الإسلامية القائمة في الميدان، وكنت آنذاك خالي الذهن عن منهج وحركة كل

---

(١) الاحزاب : ٤٥ ــ ٤٧

(٢) ابن ماجه جـ ١ ص ٤ ــ ١٦ ــ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي طـ الحلبى

(٣) بشرطين : هما الإخلاص ، والمطابقه لمنهج الرسول ﷺ

(٤) فصلت : ٣٣ ــ

منها ، علما بأن كل جماعة تتعصب لأفكارها ، ومناهجها بل تدافع عنها بشدة ، لأنها تعتقد أن منهاجها وأفكارها هي الصواب ، وأن أفكار غيرها هي الخاطئة ، إلا أن بعضها أشد من بعض في التعصب والدفاع ، لذلك وقفت متحيرا في الحكم عليها من حيث الخطأ والصواب ، ولما خالطت تلك الجماعات ، وعرفت المناهج والاتجاهات ، وجدت بينها البون الشاسع .

فبعضها تُلْزم أتباعها ببذل أوقات معينة للقيام بهذا الواجب إلى الله فى سائر أنحاء العالم ، وتدعو الآخرين إلى مثل ذلك ، وهم مع ما يبدو من حرارة إيمانهم في الدعوة إلى الله ، وحماستهم وصدقهم لايستطيعون أن يكسبوا الجولة مع الجاهلية ، إن بقى أسلوبهم الحالي أسلوبا لهم في المستقبل ، أو حتى مجرد الوقوف فى وجهها على المدى البعيد ، لأسباب منها :

أ ـــ إنها لا تشكل تجمعا حركيا منظما ذا خطة مدروسة ، وقادرا على مواجهة مخططات أعداء الإسلام ، وقواهم المنظمة .

ب ـــ يكاد يقتصر عملهم على جماعة المسجد ، ثم تأثيرهم حتى فى هؤلاء تأثير وقتى ، إذ ليس لديهم اتصال منظم ومستمر مع هؤلاء الأفراد ، أو رعاية وتعهد كافيان لتعهد هذه البذور ، حتى تنمو وتترعرع وتثمر .

ويمكن القول : بأنهم يعملون على قاعدة (قل كلمتك وامش) .

جـ ـــ إنهم يعتمدون كثيرا على جانب الترغيب والترهيب ، ولذلك فإن أسلوبهم سيظل قاصرا عن مواجهة تحديات الأفكار الإلحادية ، والمادية عموما ، وهذا أسلوب لا يؤثر فى غير المتدينين ، ولابد من مرحلة سابقة لهذه المرحلة .

٢ ـــ وهناك جماعة إسلامية أخرى ، تعتقد أن سبب ذل المسلمين هو اختلافهم في فهم الإسلام وتعصبهم ، وجمودهم على آراء المذاهب المختلفة ، ثم تناحرهم فى كثير من الفترات ، وتقاتلهم أحيانا بسبب الخلافات المذهبية فهذه الجماعة ـــ وهذا حالها ـــ تحصر كل همها فى العمل على استنباط الأحكام الفقهية من القرآن الكريم وما صح من السنة مباشرة ، بحيث لاتكون حركة ذات منهج فى التربية ، والتكوين ، والتخطيط ، وليس لديهم أهداف

مرحلية محددة ، وتقتصر دعوتها على جمهور المتدينين ، بل على عدد محدود من هؤلاء ، ويبذل دعاتها وقتا وجهدا كبيرين فى الدعوة إلى فرعيات ليس من مصلحة الدعوة الإسلامية الاشتغال بها والتركيز عليها في وقت يواجه فيه الإسلام حربا شرسة لاجتثاثه من الجذور .

وترى هذه الجماعة أن أول خطوات العمل الإسلامى، تصفية الأحاديث الضعيفة عن الصحيحة،وهذا عمل علمي مفيد ، إلا أن السلف الصالح قد أغنانا عن كثير من هذا العناء ، وترك لنا ثروة هائلة فى هذا الفن ومصطلحه ، ويجب أن تنصب الجهود الآن على تربية وإعداد الجيل ، وإنقاذه من الكفر الداهم ، ومن الأفكار المادية الجارفة .

ومهما حاولنا اتباع الأدلة الصحيحة ، فإن الخلاف سيبقي قائما ، لاختلاف النظر في النصوص نفسها ـــ كما تجد اختلاف النظر في فهم الأدلة القرآنية ـــ واتفاق الأمة على أمر فرعي يكاد أن يكون مستحيلا .

٣ ـــ وهناك جماعة أخرى أيضا تهتم بباطن الفرد وتهذيب روحه ، وذلك مطلوب لاغبار عليه ، ولكن الخطورة فى الاقتصار على هذا الجانب ، وإهمال الجوانب الأخرى .

وفى هذا انحراف كبير فى الفهم والمنهج التربوى والإعدادى معا .

فالإسلام ليس شعائر تعبدية فقط ، وإنما هو إلى جانب كونه عقيدة ، فهو شعائر تعبدية ونظام حياة .

والمنهج الإسلامي التربوى والإعدادى يأخذ في اعتباره الكينونة الإنسانية ككل ، يهتم بالروح والعقل والجسد .

كما أن الحياة في الإسلام ليست دنيا فقط ،ولا آخرة فقط ، وإنما هي دنيا وآخرة ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾[1] .

---

(١) القصص : ٧٧

٤ – وهناك جماعة أخرى ، إذا قرنتها بسابقاتها يتبين لك أنها تتميز بالصفات التالية :

أ – إنها دعوة فى طبيعتها تكامل ، وفى أهدافها شمول ، فهى لاتقتصر من الإسلام على جانب دون آخر ، ولا تضخم جانبا على حساب آخر .

هدفها يبدأ من تربية الفرد وإعداده ، وينتهى بإقامة الحكم لله وحده ، ثم الانطلاق فى الأرض لإعلاء دين الله .

تفهم الإسلام بشموله ، فهو فى نظرها ذلك النظام الشامل الذى يجب أن يهيمن على جميع شئون الحياة .

ب – هى جماعة عندها وضوح فى أهدافها ، ووسائلها ، وإدراك لما يجرى حولها ، ومعرفة لضراوة المعركة التى يخوضها أعداء الله ضد الإسلام .

جـ – تؤثر الناحية العملية ، إذ إن لها منهجا فكريا تربويا جهاديا ، تقدم الإسلام للناس فى صورة نماذج بشرية ، تترجم الأقوال إلى أعمال وسلوك .

د – ونظرا لشمولها فى أمورها فهى تلتقى مع الجماعات الإسلامية ، فى أهم ماتدعو إليه كل منها .

من الصعوبات التى واجهتنى : .

من المعلوم أن أى بداية فى عمل ما تكون صعبة على الإنسان فى حياته ، تجد علامة تلك الصعوبة فى ضعف النتائج ، ومحضّر رسالة مثل هذه الرسالة ، واحد ممن تواجهه تلك الصعوبات ، تنطبق عليه سنة الله تعالى فيها .

ولما بدأت فى الكتابة ترددت كثيرا لتساؤلات خطرت ببالي :

كيف يسوغ لمثلي أن يكتب عن منهج من أرسله الله داعيا للعالمين ، وكدت أن أترك الكتابة لأبحث عن موضوع جديد ، لما شعرت به من العجز ، ويعلم الله أني كنت أمسك القلم بيدى، فأظل متحيرا ماذا أكتب وقد غصت المكتبات بكتب السير والمغازى ، والشمائل والمعجزات لفطاحل العلماء ، من المتقدمين

والمتأخرين ، بين مطولات ، ومختصرات ، بشتى الأساليب، ولكن الأهداف والحوافز ، وأهمية الموضوع شجعني على المضي في البحث ، فطلبت من الله العون والتوفيق ، إنه نعم المعين والموفق .

حوافز البحث

١ ــ الاختلاف الشديد بين الدعاة المعاصرين في المناهج والأهداف .
٢ ــ نشر الدعاية : كل جماعة ــ مع الأسف الشديد ــ ضد الأخرى .
٣ ــ بلبلة أفكار العامة،حتى أمست لا تدرى لمن تستجيب من تلك الجماعات !.

أهداف البحث

١ ــ أريد أن أبين ــ ما استطعت ــ المنهج الذى سلكه الرسول ﷺ ــ في الدعوة إلى الله سبحانه ــ في العهد المكي ، لعله يكون منهجا أو مرجعا لتلك الجماعات العاملة في الميدان .
٢ ــ أريد أن أبين أن طريق الدعوة الإسلامية الصحيحة ، ليست مفروشة بالورود ، إنما تحتاج إلى التضحيات وبذل الجهود .
٣ ــ ليس الغرض دراسة السيرة النبوية الخالدة من جميع جوانبها ، أو إضافة جديد إلى ماورد فيها ، بل أنا وأمثالي عالة على المصادر الأصيلة فيها .

وإنما الغرض من ذلك دراسة جانب واحد من جوانب حياة الرسول ﷺ المليئة بالخير والبركة ، والنور والهدى للعالمين ، ألا وهو المنهج المكي في الدعوة إلى الله تعالى .

أهمية البحث

تلك الحوافز والأهداف ، ترشح الموضوع أن يكون ذا أهمية تستحق العناية ــ بغض النظر عن كونى أوفّى المقام حقه أولا ــ لأن الرجوع إلى منهج الرسول ﷺ فيه سعادتى الدنيا والآخرة ، كيف لا ، وهو الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى .

وقد أمر الله ـــ سبحانه ـــ بالتحاكم عند النزاع ، إلى الله ورسوله ، في عدة مواضع من القرآن ، لا في الأحكام الفقهية فحسب ، بل في جميع المجالات ونفى الله الإيمان عن المعرضين عن ذلك بقوله : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ .

ولم يكتف بذلك . بل لابد من الإذعان والقبول ﴿ **ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾[1] .

كما أوجب الله الاقتداء بالرسول ﷺ ـــ ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾[2] وكل يأخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة ﷺ .

منهجي في البحث

من المعلوم أن مصادر السيرة النبوية هي معظم المادة لموضوع البحث . وقد قدم لنا علماؤها ـــ رحمهم الله ـــ مالولاه لما استطعنا أن نقول شيئا ، ولكن الأخذ منها دون تمحيص لا يتفق ومنهج البحث العلمي ، وحاجتها إلى الدراسة والتحقيق لا يخفى على الباحث .

وهذا ديْن واجب ـــ فى نظرى ـــ على كواهل العلماء ، وبالأخص المتخصصين ولذلك فقد سلكت الآتى :

١ ـــ إذا وجدت النص في كتب السيرة ، لاتطمئن نفسي حتى أجده في الصحيحين أو في أحدهما ، أو في سائر الأمهات ، أو في بعضها ـــ وستجد معظم النصوص التى استخرجتها من كتب السيرة مدعومة من كتب الحديث .

٢ ـــ لا تطمئن نفسي أيضا حتى أجد الحكم على الحديث ـــ في غير الصحيحين ـــ من أئمة الأعلام .

٣ ـــ إذا لم أجد ذلك الحكم أبحث عن سنده ـــ وهذا قليل جدا ـــ حتى أقف على مافيه من مقال لأهل هذا الشأن ، وبناء على قواعدهم التى وضعوها

---

(١) سورة النساء : ٦٥

(٢) سورة الأحزاب : ٢١

أستطيع الحكم على الإسناد .

٤ ــ إذا لم أقف على شيء من ذلك وعجزت عنه ، نقلته وعزوته إلى مصدره ولزمت السكوت .

٥ ــ وأحيانا أقتطف الشواهد من النصوص للاكتفاء والاختصار .

٦ ــ وقد حاولت ــ قدر الإمكان ــ أن أجمع بين الجانب العلمي وبين الجانب التربوى الروحى، وأن يشتمل البحث على قطع من العبر النابضة بالحيوية والتأثير .

وقد ركزت على العقيدة وجهاد الدعوة لما لهما من الأهمية .

وتركت تراجم الأعلام خوفا من تضخم الرسالة، لكثرة مافيها من أعلام، ولكن معظمهم من الصحابة ، واكتفيت بشهرتهم، وقد كفانا مؤونة البحث أئمتنا ــ رحمهم الله ــ كالحافظ فى الإصابة، وابن عبد البر فى الاستيعاب وغيرهما .

٧ ــ سلكت غالبا عند الاستدلال بالنصوص ، المنهج القائل : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

تقسيم البحث :

وقد قسمت الرسالة إلى مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة ذكرت فى التمهيد خمس نقاط :

(١) الحالة الدينية فى الجزيرة العربية ، وأن التدين أمر فطرى بغض النظر عن كونه حقا أو باطلا .

(٢) الوثنية ، تحدثت عن نشأتها فى الجزيرة العربية ، ولمحة عن أخلاق الجاهلية فيها .

(٣) اليهودية ذكرت فيها متى ومن أين أخذت هذه التسمية ، وانتشارها فى الجزيرة قبل البعثة ، كما تحدثت عن سياسة اليهود الخبيثة، وتحريفهم الديانة المنزلة على أنبيائهم .

(٤) النصرانية ، وتحدثت فيها عن،نسبتها ومعناها،وانتشارها،فى الجزيرة ثم تغلغلها،ثم ذكرت لمحة عن تحريف الديانة التى جاء بها عيسى عليه السلام .

(٥) الحكمة فى اختيار العرب لحمل الدعوى . ذكرت فيه خصائصهم ثم آراء العلماء فى ذلك وأسهمت فى ذلك بملاحظات خفيفة .

الباب الأول : الرسول ﷺ والدعوة .

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : كلمة سريعة عن حياة الرسول حتى البعثة ، تحدثت فيه عن النسب الشريف لصاحب الرسالة الخاتمة محمد ﷺ، وعن مولده،ورضاعه فحادثة شق الصدر، وبينت أنها مرتان مع ذكر الأدلة على ذلك، ثم سفره إلى الشام مع عمه ، وقصة لقائه بحيرا . ثم ناقشت الخلاف وعقبت عليه بصحة القصة فى جملتها دون التفاصيل ، ثم أشرت إلى حياة الكدح ورعيه الغنم ، ثم شهوده حرب الفجار مع أعمامه،فشهوده حلف الفضول،فزواجه بأم المؤمنين خديجة ــ رضى الله عنها ــ رغبة فى نبلها وعفتها وذكائها ، لالمتعة جسدية . ثم أشرت إلى قدرته لحل المشكلات الطارئة، كحل مشكلة الحجر الأسود ، بعد التوتر الشديد ثم تحنثه فى غار حراء ، وما كان هنالك من الخوارق .

ثم تحدثت عن إثبات الوحى، وأنه الفيصل الوحيد بين من يبلغ عن ربه ، وبين من يشرع بواسطة رأيه، مع ذكر أنواعه والأدلة على ذلك، وعجز ملوك البلاغة عن الإتيان بمثله ثم نتائج ظاهرة الوحى ، ثم ذكرت صورة مصغرة للعالم حال البعثة .

الفصل الثانى : منهج الدعوة من الناحية العقلية والروحية وفيه ثلاثة مباحث :

(أ) الاستدلالات الكونية ، وقد تحدثت فيه عن منهج القرآن الكريم فى مخاطبة كيان الإنسان ــ فى قضية الألوهية ــ من كل جوانب الكون والحياة إلى أن يصل به إلى النتيجة المطلوبة ، وهى الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى .

(ب) الاستدلالات التاريخية : تحدثت فيه عن بعض أهداف القصص القرآنى ، ونماذج عن الأحداث التاريخية ، التى نزلت بمكذبى رسل الله عليهم الصلاة والسلام

(جـ) منهج الدعوة من الناحية الروحية ، وإثارة الوجدان بالترغيب والترهيب، ذكرت فيه أن الإنسان يحب ما ينفعه ، ويبغض ما يضره لما فيه من غريزة حب الذات ، وأن مخاطبة العقول لا تثير الوجدان ، ولا تغذى النفوس كالترغيب فى الثواب، والترهيب من العقاب .

الفصل الثالث : مراحل الدعوة ، وفيه مرحلتان : الأولى : السرية ، وهى خطوتان :

(أ) الاتصال الفردى بالأقرب فالأقرب ، ثم تكليف من أسلم تبليغ من لم يسلم ، كما تحدثت عن تحديد الهدف من الدعوة ، وعن أسلوب الحكمة فيها .

(ب) التكوين السرى،وقد ذكرت أنه تم فى أول جامعة إسلامية دار الأرقم ، وأنه من ضروريات الدعوة ، وقد أوردت الأدلة الصحيحة على ذلك،كما بينت غربة الإسلام فى بدئه وأنه سيعود غريبا كما بدأ .

وأن العودة لا ترتبط بزمان ولا مكان ، وأن المصلحين سيكونون غرباء كما كان محمد ﷺ وأصحابه غرباء ، ثم تكلمت على الحكمة فى السر بالدعوة ، وعلى سبق الضعفاء إلى الدخول فى الإسلام .

المرحلة الثانية : الجهر بالدعوة .

وقد تحدثت فيها عن صعوده ﷺ على الصفا هاتفا ببطون قريش:(ياصباحاه إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) .

وقد ناقشت الأحاديث الواردة فى هذا مناقشة علمية أدليت فيها بدلوى ، كما ذكرت الحكمة فى البدء بالأقربين .

ثم ذكرت تقسيم مراحل الدعوة الجهرية ، وخلاف العلماء فيها مع ذكر الأدلة ومناقشتها وترجيح الراجح منها ، ثم مناقشة بعض المستشرقين فى الطعن فى المرحلة الأخيرة العامة مع الرد على زعمهم الباطل بالأدلة العلمية .

الباب الثانى : أركان الدعوة .

وفيه فصلان :

الفصل الأول : التركيز على العقيدة ، وفيه المباحث الآتية ، وقد قدمت لها بأهمية العقيدة وأنها أساس الدين الإسلامى .

المبحث الأول : تحدثت فيه عن تقرير وحدانية الربوبية،وأنها أمر فطرى ثم وحدانية الألوهية،وأنه الذى حصل فيه النزاع بين الأنبياء والأمم ، وذكرت نماذج من ذلك .

وقد ركزت حسب الطاقة ـــ على هذا المبحث لما له من الأهمية،ولما يترتب عليه من آثار .

المبحث الثانى : إثبات الرسالة ، تحدثت عن أهميتها والإيمان بها ، والصفات الشخصية لصاحب الرسالة،ثم بينت شهادة الخصوم والأتباع ، ومعجزة القرآن الكريم ، ثم ذكرت عدة شواهد على ذلك،كما بينت أن إنكار رسالة محمد ﷺ ـــ طعن فى الرب ـــ سبحانه وتعالى .

المبحث الثالث : تحدثت فيه عن الإيمان بالملائكة وأثره فى حياة الإنسان .

المبحث الرابع : تحدثت فيه عن الإيمان بالكتب وأهميتها .

المبحث الخامس : تحدثت فيه عن الإيمان بالرسل والواجب نحوهم ، والحاجة إليهم .

المبحث السادس : تحدثت فيه عن الإيمان باليوم الآخر،مع ذكر الأدلة النقلية والعقلية ، على أنه مقتضى العدل ، كما ذكرت شبهة المنكرين له ، ومناقشتها ، والرد عليها ، ثم ذكرت بعض ما فى القرآن من جدل يتعلق بذلك ، وما للإيمان به من أهمية ، فالحكمة فى ذلك ، فأثر الإيمان به فى سلوك المؤمن .

المبحث السابع : الإيمان بالقدر ، وقد ذكرت تعريفه،وكراهة الخوض فيه، لخفائه وأسراره ، ثم أثره فى سلوك العبد المؤمن به ، ثم أشرت إلى تشويهه والرد على هذا التشويه .

الفصل الثانى : تقرير الصلاة،والزكاة،ومكارم الأخلاق .

وفيه المباحث الآتية :

المبحث الأول : تشريع الصلاة ، تحدثت فيه عن مشروعية الصلاة،وأنها عريقة فى الديانات وقبل الإسراء والمعراج ، مع ذكر الخلاف فى ذلك مع شىء من التفاصيل ، ثم أثرها فى توثيق الصلة بين العبد وربه .

المبحث الثانى : الزكاة ، وقد تحدثت فيه عن قدمها مع ذكر الخلاف فى فرضيتها فى العهد المكى فالتفصيل فى ذلك ، ثم أثرها فى بناء المجتمع المسلم .

المبحث الثالث : الدعوة الأخلاقية ، بدأته بمقدمة ، ثم الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وما يترتب عليها .

أ ــ الكبائر وتعريفها وتحريمها ، والوعيد الشديد لمرتكبيها .

ب ــ محو التقاليد الجاهلية ، ومعناها ، واحتجاج المشركين بالتقليد ، وذمهم فى ذلك .

الباب الثالث : جهاد الدعوة .

وفيه أربعة فصول،وقد بدأته بمقدمة ذكرت فيها معناه وأنواعه وما له من الأهمية .

الفصل الأول : تحمل الأذى:ذكرت أنه سنة الله عز وجل فى الدعوة والدعاة قديما وحديثا ، وأنه الدراسة التى يترتب عليها نجاح الدعاة ورسوبهم ، كل على حسب طاقته،ثم تحدثت عن الحكمة فى الابتلاء ليعلم الصادق من غيره ، ثم ذكرت أنواعها،ونماذج من تحمله ــ ﷺ ــ أذى المشركين،وأنه من مقدمات النصر،ثم التوجيه الربانى،والتسلية للنبى ﷺ،وما حصل للرسل قبله، فتوجيه لدعاة الإسلام ، ثم تحدثت عن نماذج من فتنة الجيل الأول ، فظلال على تلك النماذج .

الفصل الثانى : مواجهة الخصوم بدأته بمقدمة تحدثت فيها عن شرف الدعوة والداعية ، وضمنته ثلاثة مباحث :

المبحث الأول:مفاوضة قريش الفاشلة والجنونية مع الرسول ﷺ،ومع عمه أبى طالب ثم إعلان الحق بصراحة:(والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر

فى يسارى: على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أموت دونه ، ماتركته) .

المبحث الثانى : الهجرة إلى الحبشة ، تحدثت فيه بأنها كانت فى غاية من السرية ، كما تحدثت عن وفد قريش إلى النجاشى فتصوير جعفر للجاهلية ، والإسلام ، وعما أجابهم النجاشى ، فعودتهم بالفشل،ثم ذكرت العبرة من ذلك .

المبحث الثالث : المقاطعة العامة ، ذكرت فيه بنودها ، وتعاهد المشركين على الوفاء بها ، ثم ما كسبته الدعوة أثناء الحصار،من تصدع صفوف المشركين مما أدى إلى نقض الصحيفة ثم نتائج المقاطعة .

الفصل الثالث : إعداد الدعاة ، وقد تحدثت فيه عن أهمية ، وكيفيته وما فيه من العناء وما يحتاج إليه ، وما هو النبع الذى ينبغى أن يستقى منه ، ثم منهج الأخذ من ذلك النبع الصافى ، فمنهج التلقى ضمنته تنبيها للدعاة المعاصرين .

الفصل الرابع : الاتجاه إلى دعوة العرب الوافدين إلى الموسم وفيه أربعة مباحث، بدأتها بتمهيد ربطته بما قبله ، ثم تحدثت عن توسيع رقعة الدعوة المستمرة ، وعن طلائع الأنصار .

المبحث الأول : تحدثت فيه عن بيعة العقبة الأولى،وذكرت نصها الذى عليه مدار الإسلام،كما أشرت إلى الخلاف فى ذلك .

المبحث الثانى : إرسال البعوث إلى طيبة،تحدثت فيه عن توسع الدعوة ، وعن نتائجها الثقافية،والسياسية ، وكيف ينهج الداعية المسلم منهج الدعوة .

ثم تحدثت عن أسباب تقبل الأنصار الإسلام ، والعبرة المستفادة من ذلك .

المبحث الثالث : بيعة العقبة الكبرى ، وقد تحدثت فيها عن المنهج الذى سلكه الرسول ﷺ ، حين التقى برجالها والأخذ والعطاء المتبادلين فيها ، وأنها كانت فى غاية من السرية ، كما ذكرت نصها ، ثم اكتشاف قريش أمرها ، ثم تحدثت عن الحكمة فى عدم الإذن بالقتال حينذاك .

المبحث الرابع : قيمة العهد المكى ، وقد تحدثت فيه عن أثر الإعداد النبوى فى تلك الجماعة التى غيرت مجرى التاريخ .

أما الخاتمة:فقد ذكرت فيها النتائج التى توصلت إليها من خلال البحث .

وبهذا أكون قد أنهيت موضوع الرسالة،ولى فى الله عز وجل كبير أمل أن يوفقنى لإعطاء الموضوع حقه فى المستقبل إن شاء الله .

أما هذه الرسالة،فهى كبعض الخطوط العريضة لفتح الباب أو كمعالم يهتدى بها الباحث إلى الوصول للغرض المنشود ، ومعلوم أن الخطأ والنسيان من طبيعة الإنسان،فالكمال لله وحده ، غير أنى بذلت جهد المقل ، راجيا من الله — عز وجل — أن ينفعنى به أولا والمسلمين ثانيا ، إنه ولى ذلك والقادر عليه والحمد لله رب العالمين .. وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

معنى منهج الدعوة .

قبل أن تكون هذه الكلمة علما على المنهج والتخطيط الحركى هى مركب إضافى،تتوقف معرفته على معرفة جزأيه اللذين هما كلمة (منهج) وكلمة (الدعوة).إذن فلابد من معرفة كل منهما ، فالمنهج والمنهاج ، هو الطريق الواضح يقال نهج الطريق : أبانه ، وأوضحه وسلكه والجمع نهجات ، ونهج ، ونهوج ، وأنهج الطريق ، وضح واستبان وصار نهجا واضحا بينا،وفلان يستنهج سبيل فلان ، أى يسلك مسلكه ، والنهج الطريق المستقيم ، وانتهجت الطريق بينته ، وانتهجته استبنته [1] .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا [2] ﴾ .

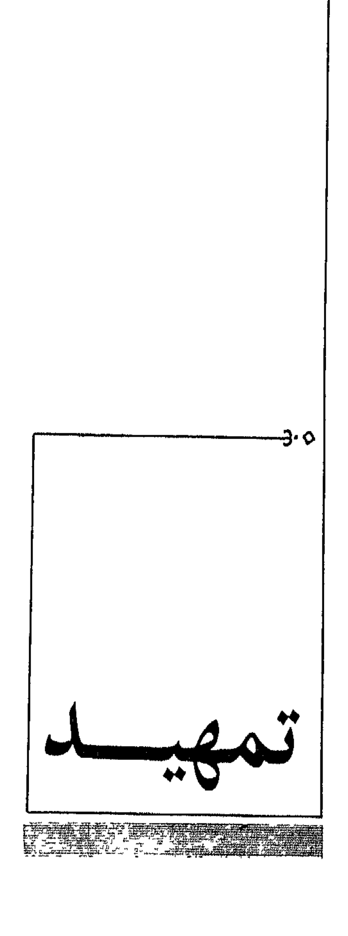
(١) انظر لسان العرب لابن منظور (٢ : ٣٨٣) ، ط بيروت دار صادر مختار الصحاح (ص ٧٠٧) ، محمد ابن أبى بكر الرازى ، ط / الحلبى ١٣٦٩ هـ أساس البلاغة للزمخشرى (ص ٩٩٨) دار الشعب بالقاهرة .
(٢) المائدة : ٤٨ . أى سبيلا وسنة .

والدعوة من الدعاء إلى الشيء بمعنى الحث على قصده ، ومنه قوله تعالى: ﴿ **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين**[1] ﴾ . وعرفها بعضهم بأنها نقل الأمة من محيط إلى محيط ، وبعضهم قال : هي حث الناس على فعل الخير ، وترك الشر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى نظرى : أن منهج الدعوة الإسلامية اصطلاحا، هو الحركة الإسلامية بشقيها: النظرى والتطبيقى من حيث هى تربية وإعداد جيل إسلامى ، تحكمه دولة إسلامية ، كما هو منهج النبى ﷺ الذى سنتحدث عنه إن شاء الله تعالى .

---

(١) يوسف : ١٠٨ .




تمهيد



ب

(١) الحالة الدينية فى الجزيرة العربية .

بعون الله سنبحث فى هذه النقطة عما يلى :

(أ) هل كانت للعرب فى جزيرتها ديانة سماوية ؟ وإذا وجدت فما هى ؟ وعلى لسان من ؟

(ب) أو كانت همجية [1] لاديانة لها ؟

(جـ) أو كانت لها ديانة سماوية فانحرفت عنها ؟

إننا لا نستطيع أن نتحدث عن عقيدة التوحيد عند العرب قبل الإسلام ، استنادًا إلى مالدينا من كتابات جاهلية،ولعدم ورود شىء عن ذلك ، فالنصوص التى وصلت إلينا ، هى نصوص فيها أسماء أصنام وليس فيها مايفهم منه شىء عن التوحيد عند العرب،قبل الميلاد وبعده،إلا ماورد من النصوص العربية الجنوبية المتأخرة ، من عبادة الإآله (ذسموى)[2]

وهى عبادة ظهرت متأخرة فى اليمن،بتأثير اليهودية والنصرانية اللتين دخلتا اليمن ، ووجدتا لهما أتباعا هناك ، بل حتى هذه العبادة لانستطيع أن نتحدث عنها حديثا يقينيا ، فنقول: إنها عبادة توحيد خالص ، تعتقد بوجود إآله واحد، على نحو مايفهمه أهل القول بالتوحيد .

---

(١) الحمق وسوء التدبير ، وأصله دود يتفقأ عن ذباب وبعوض ويقال للرعاع همج ا .هـ . المصباح المنير (٢ : ٣١٤) ، احمد بن محمد الفيومى ، ط / الحلبى ، القاموس المحيط للفيروز ابادى (١ : ٢١٣) .

(٢) اى صاحب السماء بمعنى إله السماء ، كذا فى المفصل .

على أن مالدينا من المعلومات يمكننا – على قلته – من أن نصور هذه الحالة تصويرا أقرب إلى الحقيقة ، بأن دهماء[١] العرب كانوا يدينون بالدين الوثنى مع قلة قليلة من الحنفاء[٢] .

أصناف ديانة العرب .

من المعلوم أن التدين غريزة فى الإنسان ، بصرف النظر عن كون المعبود حقا أو باطلا . وقد زخرت كتب الأديان والتواريخ بذلك ، وأن العرب كانوا على دين واحد ، هو دين إبراهيم ، حنيفا[٣] مسلما الذى بعث[*] بأمر الله من جديد ، فتجسد فى الإسلام .

وأن العرب كغيرهم قد ضلوا الطريق ، وعموا عن الحق ، وغووا بعبادتهم الأصنام ، حببها لهم الشيطان ، ومن اتبع هواه منهم ، وعلى رأسهم ناشر عبادة الأصنام فى الجزيرة العربية (عمور بن لحى) وأصنافهم كالآتى :

(١) الحنفاء :

وهم الموحدون المقرون بالخالق ، المصدقون بالبعث والإعادة ، وبإثابة المطيع ومعاقبة العاصى ، كأمية بن أبى الصلت ، وقس بن ساعدة الأيادى ، ورئاب الشنى ، وبحيرا الراهب ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، ولقد لقيه النبى – ﷺ – قبل الوحى بأسفل بلدح ، فقدمت إلى النبى سفرة ، فأبى أن يأكل منها قائلا : (أى زيد) (إنى لست آكلا مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ماذكر اسم الله عليه) .

وأنه كان يعيب على قريش ذبائحهم ، ويقول :

(الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله[٤]) .

(١) العدد الكثير وجماعة الناس . القاموس (٤ : ١١٥) ، مؤسسة الحلبى .

(٢) انظر التفاصيل فى المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (٦ : ٣٤ – ٣٥) ط/ بيروت . تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والدينى والاجتماعى لحسن إبراهيم حسن (١ : ٦٩) مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثامنة ١٩٧٤ م .

(٣) الحنيف المائل عن الشرك إلى التوحيد ، ومنه (ان إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) سورة النحل : ١٢٠ .

(*) اى الدين وفى هذا التعبير تجوز .

(٤) البخارى سندى من حديث طويل عن ابن عباس (٢ : ٣١٦ – ٣١٧) ط الحلبى .

إنكاراً لذلك ، وإعظاماً له .

قال الحافظ : (وكان ممن طلب التوحيد ، وخلع الأوثان ، وجانب الشرك ، لكنه مات قبل البعثة ، وقد أورد حديث عامر بن ربيعة،وفيه أن زيدًا قال : إنى خالفت قومى ، واتبعت ملة إبراهيم وإسماعيل ، وماكانا يعبدان — وكانا يصليان إلى هذه القبلة — وأنا أنتظر نبيا من بنى إسماعيل يبعث ، ولا أرانى أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه ، وأشهد أنه نبى وإن طالت بك حياة فأقرئه منى السلام ، قال عامر : فلما أسلمت أعلمت النبى — ﷺ — بخبره ، قال : فرد عليه السلام وترحم عليه ، قال ولقد رأيته فى الجنة يسحب ذيولا .

وفى رواية : (غفر الله له ورحمه ، فإنه مات على دين إبراهيم [1]) .

وأما ماورد فى ورقة بن نوفل فإنه مشهور عند أهل هذا الشأن [2] .

وأما قس بن ساعدة ، فيكفى شهادة النبى ﷺ بأنه شهده بعكاظ على جمل أحمر، يقول للناس اجتمعوا فكل من فات فات ، وكل شىء آت آت .

وفى رواية : من عاش مات ، ومن مات فات ... إن فى السماء لخبرا وإن فى الأرض لعبرا .

مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ إن لله لدينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه [3] .

ومنهم أيضا:عبد المطلب بن هاشم فقد ذكره المسعودى فى الحنفاء،وأنه

---

(١) انظر فتح البارى للحافظ ابن حجر العسقلانى (٧ : ١٤٣) المطبعة السفية .

(٢) انظر البخارى (١ : ٧) ، البداية والنهاية لابن كثير (٢ : ٣٧) وما بعدها ، ط/ بيروت طبعة أولى .

(٣) انظر البداية والنهاية (٢ : ٢٣٠) ومابعدها وراجع ابن أبى الصلت المصدر نفسه (٢ :٢٢٠) ومابعدها ، كذلك بحيرا الراهب (ص ٢٢٩) ومابعدها ، وفى رئاب الشنى مروج الذهب للمسعودى (٢ : ١٢٦) ، تحقيق محيى الدين ، ط/ السعادة ، الرابعة ١٣٨٤ هـ .

كان مقرا بالتوحيد ، مثبتا للوعيد ، تاركا للتقليد ، ثم ذكر حفر بئر زمزم ، وحادثة الفيل ، ووقوفه بباب الكعبة قائلا :

يارب لا أرجو لهم سواكا	يارب فامنع منهمو حماكا
إن عدو البيت من عاداكا	فامنعهمو أن يخربوا قراكا

فأرسل الله سبحانه عليهم الطير الأبابيل ... الخ [1] .

بهذا يتبين صحة القول،بأن التدين أمر فطرى فى الإنسان ــ حسب فهمى ــ لقول الله تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم**[2] ﴾ ..

ولقوله عليه الصلاة والسلام : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ، ويمجسانه ويشركانه ... [3]) .

(٢) منكرو البعث والإعادة :

هؤلاء أقروا بالخالق ، وبحدوث العالم ، وأنكروا البعث والإعادة،وهم الذين أخبر القرآن عنهم بقوله:﴿ **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم**[4] ﴾ ، فاستدل عليهم بالنشأة الأولى ، سؤال أورده ملحد ، اقتضى جوابا ، فكان فى قوله تعالى:« **ونسى خلقه** ﴾ ماوفى بالجواب وأقام الحجة ، ولتأكيدها وزيادة تقريرها قال: ﴿ **قل يحييهاالذى أنشأها أول مرة**[5] ﴾ إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على الاختراع قدر على الإعادة ، ﴿**وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**[6]﴾ أى هين عليه ، ﴿**أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد**[7]﴾ وهؤلاء

---

(١) مروج الذهب (٢ : ١٢٧ ــ ١٢٨) وفيه خلاف يتطلب بحثا مستقلا .

(٢) الروم : ٣٠ .

(٣) مسلم عن ابى هريرة (٨ :٥٣) ، وفى رواية له (وأنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وأنهم اتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم (٨ : ١٥٩) ، البخارى (٣ : ١٧٣) .

(٤) يس : ٧٨

(٥) يس ٧٩

(٦) الروم : ٢٧ .

(٧) ق : ١٥ .

هم الدهريون الذين حكى عنهم القرآن، « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » ، إشارة إلى الطبائع المحسوسة فى العالم السفلى، وقصراً للحياة والموت على تركبها وتحللها ، فالجامع هو الطبع ، والمهلك هو الدهر ﴿ **وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون**[1] ﴾ .

وقد صرح القرآن الكريم بكفرهم فى عدة مواضع منها قوله تعالى: ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير**[2] ﴾ وهذا الإنكار يستلزم تكذيب الرسل .

وقد أمر الله ــ سبحانه وتعالى ــ رسوله محمداً ــ ﷺ ــ أن يقسم بربه العظيم ، على وقوع المعاد ردا على من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فى ثلاثة مواضع من القرآن لا رابع لهن ، هذه هى الأولى والثانية قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم** ﴾ الآية[3] ، والثالثة قوله تعالى : ﴿ **ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وماأنتم بمعجزين** ﴾[4] .

(٣) منكرو الرسل : عباد الأصنام :

وهؤلاء هم مقرون بالخالق والبعث ، ونوع من الإعادة ، وكذبوا الرسل ، وعبدوا الأصنام ، وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله فى الآخرة وحجوا إليها ، ونحروا لها الهدايا ، وقربوا القرابين ، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا ، وهم الدهماء[5] من العرب ، وهم الذين قال الله سبحانه عنهم ﴿ **مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾[6] كما حكى قولهم استهزاء وتكذيبا للرسول ﷺ (**وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق**) إلى قوله: ﴿ **إن تتبعون إلا رجلا مسحورا**[7] ﴾ فاستدل عليهم بأن المرسلين

---

(١) الجاثية : ٢٤ .
(٢) التغابن : ٧ .
(٣) سبأ : ٣ .
(٤) يونس : ٥٣ .
(٥) العدد الكثير من الناس . القاموس (١ :٢١٣) ، الناشر مؤسسة الحلبى .
(٦) الزمر : ٣ .
(٧) الفرقان : ٧ ــ ٨ .

كلهم كانوا كذلك بقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق** [1] ﴾ .

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية ، وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

ومنهم المار على عنجهيته [2] الراكب لهمجيته [3].

ومنهم من دان بالمجوسية ، ومنهم من توقف ، فلم يعتقد شيئا ومنهم من تزندق .

ومنهم من آمن بتحكيم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة ، وببطلان كل شيء مما جاء في الإسلام عن يوم الدين [4] .

وقد قسمهم الإمام الشهرستاني رحمه الله تحت عنوان (معطلة العرب) إلى ثلاثة أقسام ، وهم القسم الثاني والثالث ممن ذكرنا آنفا باعتبار تقسيمنا ، وأما القسم الثالث باعتبار تقسيمه ، وهو قوله :

منكرو الخالق والبعث والإعادة .

فيقال : إن إنكار االبعث والإعادة تكرار ، وهم الدهريون ، وقد سبق الحديث عنهم .

وأما إنكار الخالق ، أي إسناده إلى صنف من أصناف العرب واستدلاله بقوله تعالى:﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون** [5] ﴾ فالآية لا تحتم هذا المعنى بل ولا وجه استدلال على إنكار الخالق،والآيات القرآنية تدل على أنهم مقرون بوجود

---

(١) الفرقان : ٢٠ .

(٢) الجهل والحمق والكبر كما في القاموس (٤ : ٢٨٨) .

(٣) الصواب لهمجيته .

(٤) انظر الملل والنحل للشهرستاني (٢ : ٢٣٥ ـــ ٢٣٦) تحقيق محمد سيد كيلاني ، ط/ بيروت ، مروج الذهب (٢ : ١٢٦ ـــ ١٢٧) ، المفصل (٦ : ٣٤) .

(٥) الجاثية : ٢٤ .

الخالق كقوله تعالى: ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** [1] ﴾ .

وقد رجعت إلى عدة تفاسير للآية الكريمة التى استدل بها الإمام الشهرستانى ــ رحمه الله ــ،وكلهم متفقون على أن كل مافيها اختبار من الله تعالى عن قول الدهرية ، بإنكارهم البعث بعد الموت ، وإنكارهم للآخرة،وإليك ما قالوه : قال إمام المفسرين ابن جرير : (يقول تعالى ذكره وقال هؤلاء المشركون الذين تقدم خبره عنهم : « **ما حياة الا حياتنا الدنيا التى نحن فيها ، لاحياة سواها ، تكذيبا منهم بالبعث بعد الممات** [2] ») .

وقال ابن كثير : (يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار،ومن وافقهم من مشركى العرب ، فى إنكار المعاد (وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) أى ماثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ، ويعيش آخرون وماثم معاد ولاقيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد [3]) .

وقال القرطبى : (هذا إنكار منهم للآخرة ، وتكذيب للبعث وإبطال للجزاء [4]) .

وقال الشوكانى : (... وعلى كل تقدير،فمرادهم بهذه المقالة إنكار البعث وتكذيب الآخرة [5]) .

يؤكد ذلك إقرار المشركين بالربوبية ، وإنما هم مشركون فى الألوهية،أو الإلهية بعبادة غير الله معه ، بقصد الزلفى ، ولذلك استنكروا دعوة النبى ﷺ، حينما دعاهم إلى توحيد الألوهية ، فقالوا (**أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب**[6]) وكانوا يذعنون لله بالألوهية والربوبية ، وكانوا يبتهلون إليه عند

---

(1) لقمان : ٢٥ وأمثالها فى سورة المؤمنون : ٨٤ ــ ٨٩ ويونس : ٣١ : ٣٢ .

(2) جامع البيان فى تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبرى (٢٥ : ١٥١) ط/ الحلبى ١٣٨٨هـ .

(3) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٧ : ٢٥٣) تحقيق البناء عاشور : غنيم ط/ الشعب بالقاهرة بدون تاريخ .

(4) تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن احمد الأنصارى القرطبى (٧ :٥٩٩) . ط . الشعب بالقاهرة بدون تاريخ .

(5) فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير لمحمد بن على الشوكانى (٥ : ٩) ط/ الحلبى .

(6) (ص . ٥) .

الشدائد بدليل قوله تعالى:﴿ **هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق** [1] .. ﴾ .

وقوله تعالى:﴿ **وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا** [2] ﴾ .

ويروى القرآن عقائدهم فى آلهتهم بعبارتهم أنفسهم فيما يأتى :

﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** [3] **ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** [4] ﴾ .

ما كانت أذهانهم تجوز أن دعاء أحد من البشر يحظى بالقبول عند الله مباشرة بدون واسطة وشفاعة وكانت لديهم شبهات مقصورة على هاتين الشبهتين :

(١) إنكار البعث ، بعث الأجساد .

(٢) جحد البعث ، بعث الرسل .

فعلى الأولى قالوا : ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون** [5] ﴾ . إلى أمثالها من الآيات .

وعبروا عن ذلك فى أشعارهم فقال بعضهم : حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو ...

وعلى الثانية فكان إنكارهم لبعث الرسول ﷺ فى الصورة البشرية أشد ، وإصرارهم على ذلك أبلغ ، وأخبر التنزيل عنهم بقوله تعالى:﴿ **وما منع الناس**

---

(١) يونس : ٢٢ ـــ ٢٣ .

(٢) الإسراء : ٦٧ .

(٣) الزمر : ٣ .

(٤) يونس : ١٨ .

(٥) الواقعة : ٤٧ ـــ ٤٨ .

أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا [1] ﴾ ﴿ **أبشر يهدوننا** [2] ﴾ فمن كان يعترف بالملائكة،كان يريد أن يأتى ملك من السماء ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك** [3] ﴾ .

ومن كان لا يعترف بهم كان يقول : الشفيع والوسيلة لنا إلى الله تعالى هم الأصنام المنصوبة ، أما الأمر والشريعة من الله إلينا فهو المنكر [4]، بل كانوا يتصورون أن الملائكة بنات الله،تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، مع أنهم يكرهون البنات بل يئدونها ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذًا قسمة ضيزى** [5] ﴾ ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين** [6] ﴾ .

وقد كان العرب يعظمون الحرم والكعبة ، ويحجون ويعتمرون،على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام،ويطوفون بالبيت ويقفون على عرفة ومزدلفة، ويهدون البدن،ويلبون مع إدخالهم ما ليس منها :

لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك .. إلا شريك هو لك .. تملكه وما ملك .

يوحدونه بالتلبية ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيده ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** [7] ﴾ .

---

(١) الإسراء : ٩٤ .

(٢) التغابن : ٦ وهى بكمالها (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد) .

(٣) الفرقان : ٧ تمامها وتصحيحها (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) .

(٤) انظر الملل والنحل للشهرستانى (٢ : ٢٣٥) المتوفى ٥٤٨ هـ تحقيق محمد سيد كيلانى ، ط/ دار المعرفة بيروت .

(٥) النجم : ٢١ ــ ٢٢ .

(٦) الصافات : ١٤٩ ــ ١٥٧ .

(٧) يوسف : ١٠٦ .

أى مايوحدوننى لمعرفة حقى إلا جعلوا معى شريكا من خلقى .

فكان أول من غير دين إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة،وحمى الحامية،عمرو بن ربيعة وهو لحى بن حارثة ..

مرض مرضا شديدا فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برئت ، فأتاها فاستحم بها فبرىء ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال:ماهذه ؟ فقالوا نستسقى بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة .

وهكذا اجتالتهم الشياطين،إلى أن عبدوا ما استحبوا،ونسوا ماكانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم غيره،وصاروا إلى ماكانت عليه الأمم قبلهم ، وانتجثوا [1] ماكان يعبد قوم نوح عليه السلام [2] .

(٢) الوثنية .

سبق أن ذكرنا الحالة الدينية فى الجزيرة العربية فى الفقرة الماضية وأنها كانت متنوعة ، فزحف ظلام الوثنية،فملأ البقاع،إلى أن بلغ بهم الحمق،فعبدوا الحجارة،والأوثان،والأنصاب،واستقسموا بالأزلام ــ ماعدا الحنفاء القلائل ــ حتى كان بعضهم يصنع لنفسه صنما من التمر والحلوى،فإذا جاع أكله .

فمتى نشأت الوثنية ؟

سبق أن ذكرنا أن أول من جاء بالأصنام وعبدها ودعا العرب إلى عبادتها هو (عمرو بن لحى) وأنه أول من سيب السوائب،يؤيد ذلك حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا (رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار ،

---

(١) استحرجوا .

(٢) انظر الأصنام (ص ٦ ــ ٨) لأبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى وهو أول من كتب فى موضوعه حسبما قرأت للمؤرخين لكثرة نقلهم عنه وقد حققه أحمد زكى ووضح ماله وماعليه من الجرح والتعديل وهو نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٤٣هـ الناشر الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

وانظر السيرة النبوية ابن هشام (١ : ٧٦) ومابعدها تحقيق مصطفى السقا ــ إبراهيم الإبيارى ــ عبد الحفيظ شلبى ــ الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ مطبعة الحلبى .

كان أول من سيب السوائب [1]) .

وعند ابن إسحاق أنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان .

وزاد الأزرقى فى أخبار مكة (على رأسه فروة فقال له رسول الله ﷺ : من فى النار ؟ قال : من بينى وبينك من الأمم) قلت وهذا موضع خلاف يحتاج إلى بحث مستقل والله أعلم بصحة الزيادة .

وفى رواية أخرى لابن الكلبى (أن عمرو بن لحى كان له رئى من الجن كان يكنى أبا ثمامة ، فقال:له عجل بالمسير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة ... ايت ضف جدة ، تجد فيها أصناما معدة ، فأوردها تهامة ولاتهاب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجاب ، فأتى شط جدة ، فاستثارها[*] ثم حملها حتى أوردها تهامة وحضر الحج ، ودعا العرب إلى عبادتها قاطبة [2]) .

وقال الدكتور جواد على :(والرأى الدائع بين الإخباريين ، عن كيفية نشوء عبادة الأصنام قريب من رأى بعض العلماء المحدثين فى هذا الموضوع :

عندهم أن الناس لم يتعبدوا فى القديم من بادىء بدء للأصنام،ولم يكونوا ينظرون إليها على أنها أصنام تعبد ، إنما صوروها ونحتوها لتكون صورة أو رمزا،تذكرهم أو يذكرهم بالآله أو الآلهة ، أو الأشخاص الصالحين ، فلما مضى عهد طويل عليها ، نسى الناس أصلها ، ولم يعرفوا أمرها فاتخذوها أصناما وعبدوها من دون الله [3]) .

قلت : ولعله يشير بذلك إلى أصنام قوم نوح ، وهى أسماء رجال صالحين منهم،فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم ، أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون ، أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك

---

(١) البخارى (٣ : ١٣٦) ط/ الحلبى .

(٢) الاصنام (ص ٥٤) .

(*) استغاث بها ا هـ قاموس جرامى ٣٨١ .

(٣) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (٦ : ٢٨) .

وتنسخ العلم،عبدت كما فى البخارى عن ابن عباس [1] .

أول من نصب الأصنام فى الكعبة وحولها .

كانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وعددها ستون وثلثمائة صنم [2] ، وكان أعظمها هبل ، وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش وهو كذلك فجعلوا له يدا من ذهب .

وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وكان يقال له: هبل خزيمة [3] .

وروى الأزرقى أن البئر التى كانت فى جوف الكعبة ، كانت فى يمين من دخلها ... يقال:إن إبراهيم وإسماعيل حفراها ، ليكون فيها مايهدى للكعبة ، فلم تزل كذلك حتى كان (عمرو بن لحى [4]) فقدم بصنم يقال له هبل من ــ هيب ــ من أرض الجزيرة (كما سبق) .

وكان من أعظم أصنام قريش عندها فنصبه على البئر فى بطن الكعبة،وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم بدأ به على أهله ، بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده [5] .

وقال إبن اسحاق : (واتخذوا أى قريشا إسافا ونائلة،على موضع زمزم ينحرون عندهما،وكان إساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم،فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين) .

وذكر حديث عائشة رضى الله عنها لفظه : (مازلنا نسمع أن إسافا ونائلة كانا رجلا وامرأة من جرهم ، أحدثا فى الكعبة (أى وقع عليها فى الكعبة) فسمخهما الله تعالى حجرين والله أعلم) .

---

(١) انظر البخارى (جـ ٣) تفسير سورة نوح (ص ٢٠٨) طـ/ الحلبى .
(٢) كما فى البخارى (٣ : ١٥١) .
(٣) انظر الأصنام (ص ٥٤) .
(٤) عمرو بن لحى هو أبو خزاعة كما رواه البخارى مرفوعا عن أبى هريرة (٢ : ٢٦٨) .
(٥) انظر اخبار مكة للأزرقى (١ : ٣٣) بدون ذكر الطبع والتاريخ .

واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد أحد منهم سفرا تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع ، حين يتوجه إلى سفره .

وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به ، قبل أن يدخل على أهله .

فلما بعث الله نبيه محمدا ﷺ بالتوحيد قالت قريش : (أجعل الآلهة إلٰها واحدا إنَّ هذا لشيء عجاب [1]) .

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة،لها سدنة وحجاب،وتهدى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها .

وهى تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده ، واتخذوا العزى ، وكانت العرب تسمى بها (عبد العزى) وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ، ويتقربون ، وكذلك اللات ومناة [2]) .

قال ابن الكلبى : (وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ ذكرها يوما فقال : لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومى [3]) .

قلت : وهذا مردود لأن أهل الحديث طعنوا فى ابن الكلبى وجرحوه [*] ولأنه يتنافى وعصمة الأنبياء المجمع عليها .

ولما روى عن على بن أبى طالب مرفوعا : (ماعبدت صنما ولا شربت خمرا قط ومازلت أعرف أن الذى هم عليه كفر [4]) .

---

(١) (ص ٥) .

(٢) السيرة النبوية ابن هشام (١ : ٨٢ ــ ٨٣) .

(٣) الأصنام (ص ١٨ ــ ١٩) (*) انظر ميزان الاعتدال للذهبى حـ ٤ ص ٣٠٤ تحقيق البجاوى ط بيروت .

(٤) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووى (١ : ٢٤) بدون سند وكان الأليق عدم ذكر ذلك وإنما ذكرتها للرد عليها .

ولما روى عن زيد بن حارثة أيضا أنه قال : (فوالذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما قط،حتى أكرمه الله بالذى أكرمه وأنزل عليه [١]) .

واشتهرت العرب بعبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرا أمام الحرم ، وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب .

فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام ، والأوثان ، وسموا طوافهم الدوار .

فكان الرجل إذا سافر، فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا، وجعل ثلاثة أثافى [٢] لقدره، واذا ارتحل تركه فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك ...) .

وإذا لم يجد حجرا جمع حثية من التراب ، وحلب عليها شاته ثم طاف بها [٣] .

وقد كثرت الأصنام ، والأوثان والأزلام [٤]، إلى أن بلغ الأمر بالعرب فى جزيرتها،أن استقلت كل قبيلة بصنم خاص ، تتعصب له وتدافع عنه وتحميه ، وتفتخر به ، كقول أبى سفيان يوم أحد (اعل هبل) مرتين وكقوله أيضا (لنا العزى ولا عزى لكم) .

فأجيب عن الأولى بـ (الله أعلى وأجل)،وعن الثانية (الله مولانا والكافرون لا مولى لهم [٥]) .

وخير ما يوضح ذلك هو القرآن الكريم،لا سيما السور المكية،كسورة الأنعام

---

(١) البداية والنهاية (٢ : ٢٨٨) .

(٢) الأثافى هى الثلاثة الأحجار التى يوضع عليها القدر عند طبخ الطعام .

(٣) انظر الأصنام (ص ٣٣) ، البخارى (٣ : ٧٩) عن ابى رجاء العطاردى موقوف .

(٤) الصنم يقال : هو الوثن المتخذ من الحجارة والخشب يروى عن ابن عباس . ويقال الصنم المتخذ من الجواهر المعدنية التى تذوب والوثن هو المتخذ من حجر أو خشب . وقال ابن فارس : الصنم ما يتخذ من خشب أو نحاس أو فضة . والأزلام جمع الزلم بفتح اللام وتضم الزاى وتفتح وهى الأقداح ، كانت العرب فى الجاهلية تكتب عليها الأمر والنهى وتضعها فى وعاء فإذا أراد أحدهم أمرا أدخل يده واخرج قدحا ، فإن خرج مافيه الأمر مضى لقصده وإن خرج ما فيه النهى كف . مصباح (١ : ٢٧٣ ـــ ٣٧٤) .

(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١١٤ ـــ ١١٥ .

والنحل ، والنجم وغيرها .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مافوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام) ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين** [1] ﴾ .

قال ابن العربى : (وهذا الذى قاله كلام صحيح ، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة فى تنويع الحلال والحرام سفاهة بغير علم ، ولاعدل ، والذى تصرفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظم جهلا وأكثر جرما ، فإن الاعتداء على الله أعظم من الاعتداء على المخلوقات[2]) .

والآيات هى قوله تعالى : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء مايحكمون . وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليُرْدُوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله مافعلوه فذرهم ومايفترون . وقالوا هذه أنعام وحرث حجر [3] **لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون .**

وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم .

قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وماكانوا مهتدين [4] ﴾ .

---

(١) الأنعام : ١٤٠ . وانظر أثر ابن عباس فى البخارى (٢ : ٢٦٩) .

(٢) تفسير القرطبى (٣ : ٢٥٢٦) دار الشعب شارع قصر العينى بالقاهرة .

(٣) لفظة مشتركة وأصله المنع ومنه العقل لمنعه عن القبائح وهو هنا بمعنى الحرام وهو مصدر بمعنى اسم المفعول أى محجورا .
فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية للشوكانى (١ : ١٦٧) ط/ الحلبى ، وانظر المصباح المنير الفيومى (١ : ١٣٢) ط/ الحلبى .

(٤) الأنعام : ١٣٦ — ١٤٠ .

ففى هذه الآيات الكريمات ، ذم وتوبيخ[1] من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعا وكفرا ، وشركا ، إذ بينت أنواعا من جهالاتهم ، وركاكات أقوالهم ، وذلك تنبيه على ضعف عقولهم ، وقلة محصولهم وتنفير للعقلاء عن الالتفات إلى كلامهم .

فمنهم من كان يقتل ولده خشية أن يأكل معه ﴿ **ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا**[2] ﴾ .

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار ﴿ **وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت**[3] ﴾ .

﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألاساء مايحكمون**[4] ﴾ .

ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿ **ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون**[5] ﴾ وقد رد الله عليهم أقوالهم الشنيعة ، مستنكرا بشدة ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذًا قسمة ضيزى**[6] ﴾ .

كما اشتهروا بالعرافة والكهانة والطيرة والتنجيم وغير ذلك كما هو معروف فى مظانه .

إن الإنسان ليعجب وهو يستعرض هذه الضلالات وماتحمله أصحابها من أعباء وخسائر وتضحيات وانحراف عن شرع الله ونهجه .

يعجب للانحراف يكلف الناس حتى فلذات أكبادهم ، فوق تعقيد الحياة

---

(١) وبخته توبيخا : لمته وعنفته وعتبت عليه كلها بمعنى . وقال الفارابى عيرته . مصباح (٢ : ٣٢٠) .

(٢) الاسراء : ٣١ .

(٣) التكوير : ٨ ـــ ٩ .

(٤) النحل : ٥٨ ـــ ٥٩ .

(٥) النحل : ٥٧ .

(٦) النجم : ٢١ ـــ ٢٢ . ومعنى ضيزى أى جور وظلم وغير ذلك .

واضطرابها، والسير فيها بلا ضابط، سوى الوهم والهوى والتقليد الأعمى .

فلما بعث النبى ﷺ انتشلهم من حمأة الشرك والخرافة إلى قمة التوحيد ، ومن العبودية للعبيد إلى العبودية لرب العبيد [1] .

تعليق على أثر ابن عباس السابق ذكره :

قلت : وقد أشكل أثر ابن عباس حيث قال : (إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مافوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم** ـــ إلى قوله ـــ **قد ضلوا وماكانوا مهتدين** ﴾ .

وهذه الآية رقمها ١٤٠ ـــ أربعون ومائة ، وهى آية واحدة .

وقد رجعت إلى فتح البارى للحافظ ابن حجر رحمه الله، ولم أجد له كلاما يتعلق بهذا الأثر ، أعنى أرقام الآيات إلا تفسير كلمة (أولادهم) بقوله (أى بناتهم [2]) .

ثم وعد بأنه سيبين ذلك فى التفسير ، فبحثت عما وعد به فى تفسير سورة المائدة والأنعام فى مظان الآيات المناسبة لما نحن بصدده [3] وهى قوله تعالى ﴿ **ماجعل الله من بحيرة ولاسائبة ولا وصيلة ولاحام** [4] ﴾ حيث جاء هنا بحديث عائشة رضى الله عنها مرفوعا بلفظ (رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبة وهو أول من سيب السوائب) وفى لفظ (يجر قصبه فى النار [5]) وفى لفظ آخر (رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار) .

ولم أجد كلاما حول الموضوع ، اللهم إلا أن يكون فى موضع آخر .

---

(١) انظر فى ظلال القرآن لسيد قطب (٨ : ١٢٢٢) ط/ دار الشروق الطبعه الشرعية الرابعة ١٣٩٧ هـ .

(٢) فتح البارى (٦ : ٥٥١) ط/ السلفية .

(٣) الصدد بفتحتين القرب وداره صدد المسجد ، ودارى صدد داره اى قبالته وقربه . ا هـ قاموس (١ : ٣٠) ، مصباح (١ : ٣٥٩) .

(٤) المائدة : ١٠٣ . .

(٥) انظر الفتح للحافظ (٨ : ٢٨٣) ، والحديث مخرج فى الصحيح عن عائشة وأبى هريرة رضى الله عنهما فى عدة مواضع منها (٣ : ١٢٦ ـــ ١٢٧) بعدة ألفاظ عنهما .

وقد رجعت إلى كتب التفسير فوجدت ابن كثير [١] روى أثر ابن عباس كما فى البخارى، وكذلك الشوكانى فى فتح القدير [٢] .

وقال إمام المفسرين ابن جرير الطبرى[٣] : حدثنى الحرث قال: حدثنا عبد العزيز قال : (إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مابعد المائة من سورة الأنعام ، قوله : ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ...** ﴾ الآية .

وعليه فيكون مابعد المائة مباشرة من قوله تعالى ﴿ **بديع السموات والأرض** ﴾ الآية ، وحينئذ يكون عدد الآيات الشارحة لجهل العرب أربعين آية .

وأما على رواية البخارى، فمعلوم أن مافوق الثلاثين ومائة، يبدأ من آية إحدى وثلاثين ومائة وهى قوله تعالى ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** ﴾ .

وعليه فتكون الآيات التى بينت جهل العرب هى من هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم ...** ﴾ الآية لكن هذا التخريج لايتفق وظاهر أثر ابن عباس من حيث الأرقام .

أما مقارنة رواية ابن جرير برواية البخارى، فيمكن الجمع بينهما من حيث المعنى، إذ ماتضمنته الأرقام يصح أن يكون وصفا لجهل العرب .

لكن رواية البخارى أصابت المحز، لولا سقوط ماسيأتى بيانه .

وأما من حيث الصحة (فالقول ماقالت حذام [٤]) .

وبعد الدراسة لما سبق تبين لى ــ والله أعلم ــ سقوط حرف الجر

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ : ٣٤٠) تحقيق عاشور عنيم ــ البنا ــ ط/ دار الشعب .

(٢) فتح القدير (٢ : ١٦٨) .

(٣) تفسير الطبري جـ ٨ ص ٥١ .

(٤) اى القول السديد المعتد به ، وهو مثل يضرب فى التصديق قاله لجيم ابن صعب وكانت حذام امرأته فقال فيها : (إذا قالت حذام فصدقوها ، فإن القول ماقالت حذام) ويروى فانصتوها . أى أنصتوا لها كقوله تعالى (وإذا كالوهم أو وزنوهم) أى كالوا لهم أو وزنوا لهم . ا هـ مجمع الأمثال (٢ : ١٠٦) .

ـــ إلى ـــ من أثر ابن عباس المذكور فى البخارى،أو تأخره عن موضعه المناسب فيكون تصحيح الأثر المذكور كالآتى :

إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مافوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام إلى قوله تعالى : ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وماكانوا مهتدين** ﴾ وبهذا يزول الإشكال إن شاء الله تعالى،لتناسب الأثر مع الآيات والله أعلم .

تصوير جعفر للجاهلية .

وقال جعفر بن أبى طالب مجيبا للنجاشى ـــ أثناء هجرته للحبشة فى جواره ـــ حينما سأله عما جاء به النبى ﷺ فقال:(أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية،نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسىء الجوار،ويأكل القوى منا الضعيف،فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا منا،نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة،وصلة الرحم،وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات،وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... [1]) .

وقال الغزالى : (ولو تقصينا تاريخ البشر ـــ على ضوء الإيمان بالله والاستعداد للقائه ـــ لوجدنا العالم أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه ، أو بمحموم غاب عنه ـــ فى ثورة الألم ـــ رشده ، فهو يهذى

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام (١ : ٣٣٦) .
وذكر الصيام هنا هل المراد به مطلق صيام أو صيام يوم عاشوراء كما هو ثابت فى الصحيحين عن عائشة أن قريشا كانت تصومه فى الجاهلية وكان رسول الله ﷺ يصومه كذا فى البخارى (١ : ٣٤١) ، ومسلم (٣ : ١٤٦) الناشر مكتبة الجمهورية العربية شارع الصنادقية بالأزهر الشريف . أما القول بأنه صوم رمضان فغير محتمل لأنه فرض فى السنة الثانية من الهجرة كما فى سبل السلام للصنعانى (٢ : ١٥٠) ولما فى الصحيحين أن النبى ﷺ لما قدم المدينة صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه ووجه الاستدلال من الحديث أن رمضان لم يفرض إلا فى المدينة وليس فى مكة =

ولايدرى [١]) .

لمحة عن بعض أخلاق الجاهلية .

إذا رجعنا إلى التاريخ نجد المستوى الأخلاقى فى جزيرة العرب منحطا فى الدرك الأسفل فى جوانب شتى، مع ماكان فيه من فضائل، كالشجاعة والكرم والوفاء .

كان التظالم فاشيا فى المجتمع الجاهلى ، تعبر عنه حكمة الشاعر زهير بن أبى سلمى :

ومن لايذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لايظلم الناس يظلم[٢]

وكانت الحروب تستمر عشرات السنين لأتفه الأسباب، كحرب داحس والغبراء والبسوس[٣] .

وكانت الخمر والميسر من التقاليد الفاشية فى المجتمع، كما يقول طرفة بن العبد :

فلولا ثلاث هن من زينة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عودى[٤]

فمنهن سبقى العاذلات بشربة ... كميت متى ماتعل بالماء تزيد [٥]

---

(١) فقه السيرة للغزالى ص ١٦ طبعة سابعة .

= المصدران نفسهما . وأما الزكاة وفرضيتها فى مكة ففيه خلاف وسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله .
وقد روى هذه القصة أى تصوير جعفر للجاهلية الإمام أحمد فى مسنده رقم ١٧٤٠ كذا فى فقه السيرة وقد صححها الألبانى فيها (ص ١٢١) كما أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٣ : ٦٩ ــ ٧٠) عن ابن اسحق .
وقد وجدته فى السير والمغازى له (٣ : ٢١٣ ــ ٢١٤) تحقيق سهيل زكار ــ دار الفكر ط/ أولى ١٣٩٨ هـ .

(٢) من معلقته المشهورة كما فى جواهر الأدب لأحمد الهاشمى (٢ : ٥١) يعنى أن من لم يدفع الظلم بمثله يظلم .

(٣) داحس والغبراء قبيلتا عبس ونبيان ابنى بغيض تسابقا فلطم السابق فثارت الحرب أربعين سنة . انظر التفاصيل فى تاريخ الإسلام السياسى (١ : ٥٥ ــ ٥٦) .
والبسوس بين قبيلتى بكر وتغلب بسبب ناقة تملكها عجوز من بكر تدعى البسوس كما فى المصدر نفسه (ص ٥٣) .

(٤) الجد أبو الاب وأبو الام والعظمة والحظ والفتى ولعل مراد الشاعر القسم بواحد من ذلك وقوله لم احفل من حفل القوم فى المجلس اجتمعوا واحتفلوا من باب ضرب والجمع محافل كمجلس ومجالس ا هـ مصباح (١ : ١٠٠ ــ ١٠١ ، ١٤٥) ، وفى رواية عيشه بدل زينة .

(٥) كميت خمر تضرب إلى السواد وتعل بصب الماء عليها . ا هـ جواهر (٢ : ٧٤) .

وقول عمرو بن كلثوم :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ... ولاتبقي خمور الأ ندرينا

إلى أن قال :

صددت الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا [1]

وكانت الدعارة[2] — فى صور شتى — من معالم هذا المجتمع .

كما روت عائشة رضى الله عنها : (إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء :

(١) فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها .

(٢) ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها [3] أرسلى إلى فلان،فاستبضعى منه،ويعتزلها زوجها ولايمسها أبدا،حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد .

(٣) ونكاح آخر : يجتمع الرهط مادون العشرة ، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت،ومر عليها ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع،حتى يجتمعوا عندها تقول لهم :

قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت فهو ابنك يافلان تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، لايستطيع أن يمتنع به الرجل .

(٤) ونكاح رابع [4] يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لاتمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا،كن ينصبن على أبوابهن رايات ، تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا

---

(١) المرجع نفسه (ص ٦٠ — ٦١) اى اسقينا الصبوح وهو شرب الخمر فى الغداة والأندرين قرية بالشام .

(٢) الدعارة شراسة الخلق ويقال للرجل الخبيث المفسد دعر فهو داعر بين الدعارة والعود أدخن ولم يتقد والفسق والخبث . ا هـ قاموس (٢ : ٢٩) ، مصباح (١ : ٢٠٨) .

(٣) اى حيضتها .

(٤) هكذا رواية البخارى بإثبات أل فى (الرابع) أما لفظ ابى داود فبدون ال هكذا (ونكاح رابع) .

لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاط به ، ودعى ابنه لايمتنع من ذلك . فلما بعث الله محمدا ﷺ بالحق،هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم [(١)] .

وكان الرجال يطوفون بالكعبة عراة ، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعا مفرجا ثم تطوف فيه . عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عريانة فتقول من يعيرنى تطوافا ؟ تجعله على فرجها وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله   فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** [(٢)] ﴾ .

وقال ﷺ:(لايحج بعد العام مشرك،ولايطوف بالبيت عريان [(٣)]) .

ومن أخلاقهم المذمومة الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب،إذ كانت لهم مواسم،كعكاظ،وذى المجنة،والمجاز ، يجتمعون فيها للتفاخر والتنافر .

فلما جاء الإسلام غير ذلك الميزان الذى كانوا يزنون به الرجال،قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** [(٤)] ﴾ .

وقال ﷺ : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لايتركونهن الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب [(٥)] .

وكانوا يفتخرون بالأموال وإنفاقها كما فعلت قريش فى بدر برياسة أبى جهل حيث قال : (والله لانرجع حتى نرد بدرا،فننحر الجزور،ونطعم الطعام،ونسقى الخمور ، وتعزف علينا القيان،ويسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون

---

(١) البخارى (٣ : ٢٤٣) سنن أبى داود مع عون المعبود بشرح ابن قيم الجوزية (٦ : ٢٦٣ ـــ ٣٦٥) الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة فى ظلال القرآن (٧ : ١٠٠٧) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى (ص ٥٦) وما بعدها ط/ السادسة ١٣٨٥ هـ الناشر دار الكتاب العربى ـــ بيروت .

(٢) مسلم (٨ : ٢٤٣ ـــ ٢٤٤) والاية فى سورة الأعراف : ٣١ .

(٣) طرف من حديث رواه مسلم (٤ : ١٠٧) .

(٤) الحجرات : ١٣ .

(٥) مسلم (٣ : ٤٥) .

يهابوننا أبدا بعدها فامضوا [1]) .

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون[2] ﴾ .

﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا [3] ﴾ .

﴿ وقالو نحن أكثر أموالا وأولادًا وما نحن بمعذبين [4] ﴾ .

وقد رد عليهم القرآن الكريم فكرتهم هذه الخاطئة مبينا أن الأمر ليس كذلك وإنما المؤهلات التي تقربهم عند الله هي الإيمان والأعمال الصالحة **﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون [5] ﴾ .**

هذا ومن المعلوم أن التنديد بأخلاقيات الجاهلية،قد بدأ منذ اللحظة الأولى مع التنديد بفساد تصوراتهم الاعتقادية،واستمر معه حتى النهاية .

وفي ذلك دلالة معينة لاينبغي أن تغيب عن أذهاننا وهي أهمية العنصر الأخلاقي في هذا الدين وتعمقه إلى الجذور العقيدية ذاتها،وارتباط التصور الاعتقادي بالسلوك الأخلاقي،في شتى مناحي الحياة .

إن الأخلاق ليست شيئا ثانويا في هذا الدين،وليست كذلك محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري،إنما هي ركيزة من ركائزه ، كما أنها شاملة للسلوك البشري كله .

فالقرآن يندد بأخلاقيات الجاهلية منذ السورة الأولى ، سورة العلق . وسيأتي

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام (١ : ٦١٨ — ٦١٩) .

(٢) الأنفال : ٣٦ . قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية بعد أن ذكر أسباب نزولها (وعلى كل تقدير فهي عامة وإن كان سبب نزولها خاصا فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم تجد شيئا ... المرجع نفسه (٣ : ٥٩٤) .

(٣) النساء : ٣٨ .

(٤) سبأ : ٣٥ .

(٥) سبأ : ٣٧ .

بيان ذلك إن شاء الله فى (الدعوة الأخلاقية) .

(٣) اليهودية) .

يمكن أن تكون اليهودية مأخوذة من الهود ، بمعنى التوبة على حد قول موسى عليه السلام ﴿ **إنا هدنا إليك**[١] ﴾ .

ويمكن أن تكون مأخوذة من التهويد ، وهو الترجيع بالصوت فى اللين والتطريب .

وقد كان أحبار اليهود إذا قرأوا على العامة أتوا بنغمات صوتية خاصة مع غنة شديدة ومد بالخياشيم على حد قوله تعالى فيهم:﴿ **يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب** [٢] ﴾ .

ويمكن أن يكون لفظ اليهود منسوبا إلى يهوذا[٣] أخى يوسف الصديق عليه السلام .

ويمكن أن يكون من المهاودة وهى المواعدة على حد قوله تعالى ﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر** [٤] ﴾ .

واليهود هم الزاعمون بأنهم أتباع موسى ـــ عليه السلام ـــ ولم نجد فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ﷺ إطلاق اليهود على سبيل المدح .

على أننا لانستطيع أن نحدد بالضبط التاريخ،الذى أطلقت فيه هذه الكلمة، على هذه الطائفة من الناس،ونحن نجزم بأنها لم تعرف فى عهد موسى عليه السلام ، وإنما كانوا يعرفون فى عهده ببنى إسرائيل .

ويطلق عليهم كذلك قوم موسى ، كما يطلق عليهم أهل الكتاب [٥] .

أقول : أطلق عليهم هذا الاسم فى سنة (٥٣٨) قبل الميلاد وقصة ذلك

---

(١) الأعراف : ١٥٦ .

(٢) آل عمران : ٧٨ .

(٣) هو الابن الرابع ليعقوب عليه السلام اسرائيل ـــ ويكون إطلاقه على جميع بنى إسرائيل على سبيل التغليب .

(٤) الأعراف : ١٤٢ وفى القاموس : المهاودة ، المواعدة ص ٣٤٩ .

(٥) الأديان والفرق (ص ١٢) لعبد القادر شيبة الحمد ـــ مطابع شركة المدينة بجدة .

أن بختنصر ملك بابل أغار على يهوذا سنة (٥٨٦) قبل الميلاد ، فحطمها ، وهزمها ، وسبى الصالحين للعمل من أهلها ، وبقوا فى السخرة مسخرين فى بابل لمدة[*] (٣٨) عاما حتى قام (كورش) ملك الفرس بغزو بابل ، والاستيلاء عليها ، وكانت تربطه باليهود صلة من ناحية جدته (استير) ، فأمل اليهود أن يعيدهم إلى وطنهم فطافوا فى مظاهرات هاتفين (هائدون) فأطلق عليهم الفرس اسم اليهود ، وعلى ديانتهم اليهودية[١] . وقد وردت لفظة (اليهود) فى مواضع من سورة البقرة[٢] ، ومن سورة المائدة[٣] ، ومن سورة التوبة[٤] .

وقد عبر القرآن الكريم عن اليهود ومعتنقى اليهودية بـ (الذين هادوا [٥]) فى سورتى الأنعام والنحل ، وهما مكيتان،فيكون نزول عبارة (الذين هادوا) قبل نزول لفظة اليهود كما هو معلوم .

وقد عبر عن العبرانين عامة بـ (بنى إسرائيل) فى القرآن الكريم،فى سور مكية ومدنية وهو أكثر بكثير من ورود لفظة اليهودية [٦] .

انتشار اليهودية فى الجزيرة العربية :

انتشرت اليهودية فى جزيرة العرب قبل البعثة بقرون ، وتكونت فيها مستعمرات يهودية أشهرها يثرب ، وهى التى سميت بعد بالمدينة .

ولكن من هم هؤلاء اليهود ؟ هل هم من عنصر يهودى أم هم عرب تهودوا ؟

وإذا كان الأول فمن أين أتوا؟: من فلسطين أو من غيرها ؟ اضطربت الأخبار فى ذلك .

(*) فى الأسفار المقدسة : زهاء ٥٠ عاما ص ٥٨٧ — ٥٩٦

(١) أملاه أستاذنا فى الأديان بكلية الدعوة وأصول الدين — الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وهو الأستاذ محمد ابو فرحة رضى الله عنه وجزاه عنا خيرا وانظر الأسفار المقدسة لعلى عبد الواحد (ص ٨) مطبعة دار العالم العربى — القاهرة .

(٢) البقرة : ١١٣ — ١٢٠ .

(٣) المائدة : ١٨ — ٥١ — ٦٤ — ٨٢ .

(٤) التوبة : ٣٠ .

(٥) الأنعام : ١٤٦ ، النحل : ١١٨ .

(٦) انظر التفاصيل فى المفصل لجواد على (٦ : ٥١٢) ط/ بيروت ، دار العلم للملايين .

ويظهر أن الصنفين كانا موجودين فى الجزيرة،يهود نزحوا وهم الأغلب ، وعرب تهودوا وهم قلة .

وقيل : إنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل فى الشام خرج بنو النضير، وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين منهم إلى من بالحجاز .

وقد كان فى القرون الأولى للميلاد مستعمرات يهودية فى تيماء وفدك وخيبر ووادى القرى ويثرب ، وهى أهمها وكان يهودها ثلاث قبائل،بنى النضير ، وبنى قينقاع ، وبنى قريظة .

وقد تهود كثير من قبائل اليمن من أشهرهم ذو نواس ، وقد اشتهر بتحمسه لها واضطهاد النصارى فى نجران [١]. سبب ذلك أن تبان أسعد الحميرى،[٢] حينما غزا بلاد المشرق كانت طريقه من يثرب . وكان قد خلف فيها ابنا له، فقتل غيلة فقدمها حين رجوعه وهو مجمع [٣] لإخرابها واستئصال أهلها مما زاده حنقا عليهم،أنه عدا رجل منهم على رجل من أصحابه ، وجده يجد عذقا له فضربه بمنجله فقتله ، وقال إنّما التمر لمن أبره .

فبينما تبع على ذلك من قتالهم،إذ جاءه حبران من يهود بنى قريظة،حين سمعا بما يريد ، فنهياه عن ذلك،وهدداه بالعقوبة،لأنها مهاجر نبى يخرج من قريش فى آخر الزمان،فتناهى عن ذلك وأعجبه ماسمع منهما،فانصرف عنها واتبعهما على دينهما .

ثم خرج متوجها إلى اليمن بمن معه من جنوده وبالحبرين،حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه،فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التى كانت باليمن ـــ وكانت ـــ فيما يزعم أهل اليمن ـــ ناراً تحكم بينهم فيما

---

(١) انظر فجر الإسلام لأحمد أمين (ص ٢٣ ـــ ٢٤) ط/ الحادية عشر ١٩٧٥ الناشر مكتبة النهضة المصرية .

(٢) هو أحد تبابعة اليمن وكأنه ـــ والله أعلم ـــ كان كافرا فأسلم وتابع دين الكليم على يدى الحبرين اللذين اصطحبهما من يثرب وحج البيت فى زمن الجرهميين وكساه الملا والوصائل من الحرير ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه ثم عاد إلى اليمن ولعله المشار إليه فى قوله تعالى ﴿أهم خيرا ام قوم تبع﴾ أسلم قومه على يديه ثم عادوا إلى عبادة الأصنام والنيران بعد موته . كذا فى تفسير ابن كثير (٧ : ٢٤٣) .
وقد اورد حديثين مرفوعين بلفظ (لاتسبوانبعا فإنه قد كان أسلم) والثانى (لاتسبوا أسعد الحميرى فإنه أول من كسا الكعبة) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٢ : ١٦٦) .

(٣) المعنى على .

يختلفون فيه،تأكل الظالم،ولا تضر المظلوم،فخرج قومه بأوثانهم ومايتقربون به في دينهم،وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما،حتى قعدوا للنار على مخرجها،فخرجت إليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها،فذمرهم[١] من حضرهم من الناس،وأمروهم بالصبر لها فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما معها من قرابين ورجال،وخرج الحبران ولم تضرهما ، فأصفقت [٢] عند ذلك حمير على دينه [٣]،فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن [٤] .

نبذة من صفاتهم وسياستهم :

من سياستهم أن أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل المجاورة لهم، على دفع إتاوة لهم،وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم،والتفريق بين الرؤساء ، وإثارة الشحناء بين القبائل،حتى لاتصفوا الأحوال فيما بينهم وتلتئم،لأن في ذلك خطرا يتهدد اليهود [٥] .

ويظهر أن هؤلاء اليهود مشوا على هذه السياسة للتفرقة بين الناس،وهي عادتهم قديما وحديثا [٦] .

وقد وصفهم ابن قيم الجوزية بما هو آت فقال :

(اليهود هم أهل الكذب والبهت والغدر والمكر والحيل ، قتلة الأنبياء وأكلة السحت ـــ وهو الربا والرشا ـــ.أخبث الأمم طوية،وأردأهم سجية،وأبعدهم من الرحمة وأقربهم من النقمة ، عادتهم البغضاء،وديدنهم العداوة والشحناء،بيت السحر والكذب والحيل ، لايرون لمن خالفهم في كفرهم وتكذيبهم الأنبياء

---

(١) اى لاموهم وحضوهم . قاموس (٢ : ٣٦) للفيروز أبادى الناشر مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع .

(٢) اى أجمعت .

(٣) أى على دين تبان أسعد الحميرى السابق ذكره .

(٤) انظر سيرة ابن هشام (١ : ٢١) وما بعدها ـــ المعارف لابن قتيبة (ص ٦٣٤ ـــ ٦٣٥) الروض الأنف للسهيلى (١ : ١٩١) تحقيق عبد الرحمن الوكيل ـــ دار النصر للطباعة ط / أولى ١٣٨٧ هـ . السيرة النبوية لابن كثير (١ : ١٨) تحقيق مصطفى عبد الواحد ط/ الحلبى ١٣٨٤ هـ .

(٥) انظر المفصل (٦ : ٥١٦) .

(٦) راجع كتاب مكائد يهودية عبر التاريخ للميدانى فقد ذكر فيه مكائدهم ابتداء بأخيهم يوسف عليه السلام وقتلهم الأنبياء ومكائدهم ضد الإسلام والمسلمين فى عصر الرسول ﷺ فقتل الخليفة الثالث ثم قتل الخلافة الإسلامية ثم مكائدهم المعاصرة والسيطرة على شتى المؤسسات وغير ذلك .

حرمة ، ولايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة،ولا لمن وافقهم عندهم حق ولاشفقة ، ولا لمن شاركهم عندهم عدل ولا نصفة ، ولا لمن خالطهم طمأنينة ولا أمنة ، ولا لمن استعملهم عندهم نصيحة ، بل أخبثهم أعقلهم ، وأحذقهم أغشهم ، وسليم الناحية ــ وحاشاه أن يوجد بينهم ــ ليس بيهودى على الحقيقة ، أضيق صدورا ، وأظلمهم بيوتا ، وأنتنهم أفنية ، وأوحشهم سجية ، تحيتهم لعنة ، ولقاؤهم طيرة ،شعارهم الغضب ، ودثارهم المقت [1]) .

لمحة عن تحريف اليهود للدين المنزل على أنبيائهم :

لقد تنكب بنوا إسرائيل الصراط المستقيم ، وخرجوا على تعاليم دينهم ، وعقائده عدة مرات،حتى لقد عبدوا العجل ، وهارون بين ظهرانيهم ، وموسى يتلقى الألواح من ربه .

وقد بعث الله فيهم عدة رسل ــ من بعد موسى وهارون ــ ليحاولوا إنقاذهم مما انحدروا إليه من كفر وضلال ، فما كان منهم إلا الإعراض والتكذيب ، بل كانوا يلاقون منهم أحيانا التعذيب والتقتيل ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون** [2] ﴾ .

﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**[3] ﴾ وغير ذلك من الآيات .

تحريف العقيدة :

فكرة الألوهية لديهم قد اجتازت المراحل الثلاث الآتية :

(أ) ظنوا أنه من الممكن رؤية الله سبحانه وتعالى فى الدنيا،بل علقوا إيمانهم

---

(١) هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى (ص ٨) لابن قيم الجوزية ــ مؤسسة مكة للطباعة .

(٢) البقرة : ٨٧ .

(٣) البقرة : ٩١ .

بموسى ورسالته على رؤيتهم لله تعالى ﴿ **وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** [1] ﴾ .

(ب) طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلّها يحسونه،كما يحسه عبدة الأصنام ﴿ **قالوا ياموسى اجعل لنا إلّها كما لهم آلهة** [2] ﴾ .

(جـ) ارتدوا عن عبادة إلّههم أكثر من مرة ، فعبدوا العجل تارة،والأصنام تارة أخرى .

ونسبوا إلى هارون عليه السلام أنه يسر لهم سبل الشرك،ودفعهم إلى الوثنية كما فى سفر الخروج إصحاح ٣٢ .

(د) يروى سفر التكوين فى قصة آدم وحواء ، وإخراجهما من الجنة أن الله نهاهما عن الأكل من شجرة المعرفة ، وخوفهما مضللا ومخفيا عنهما حقيقة هذه الشجرة ، فذكر لهما أن الأكل منها يفضى إلى الموت ، مع أن الأكل منها يفضى إلى رقى التفكير ، وانحسار أغطية الجهل ، وانبثاق نور المعرفة .

ولكن الإلّه كان يريد إبقاءهما جاهلين ، حتى لا يشاركاه فى صفة من أخص صفاته ..(الإصحاح)الثالث .

وقد عرض القرآن الكريم فى أكثر من سورة لعدة مواقف فى هذه القصة بدون أن يبدو فى أى موقف مايتعارض مع كمال علم الله ، وقدرته وتنزيهه عن مشابهة مخلوقاته .

(هـ) يذكر سفر التكوين فى أن لله أولادا من الذكور ، قد فتنهم جمال بنات الآدميين اللائى كان عددهن قد كثر فى الأرض ، فاتخذوهن خليلات ، وولد لهم منهن نسل امتاز ببسطة كبيرة فى الجسم وهم الجبابرة،الذين سكنوا الأرض قبل الطوفان . الإصحاح السادس فقرات ١ ـــ ٥ وغير ذلك كثير[3] .

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ .

---

(١) البقرة : ٥٥ .

(٢) الأعراف : ١٣٨ . وانظر الأسفار المقدسة لعلى عبد الواحد (ص ٩ ـ ٢٢) .

(٣) انظر التفاصيل فى الأسفار المقدسة (ص ٢٤ ـــ ٢٥) الملل والنحل للشهرستانى (١ : ١٢٨) وما بعدها .

(و) يعتقدون أن لهم إلٰها خاصا بهم ، وهو إلٰه إسرائيل ، وأنهم هم أولاده ، وأحباؤه وأن لغيرهم من الأمم آلهة أخرى ، وأن إلٰههم فى صراع مع هذه الآلهة .

وقد رد القرآن الكريم على هذا الزعم الشنيع بقوله تعالى: ﴿ **وإلٰهكم إلٰه واحد لا إلٰه إلا هو الرحمٰن الرحيم** [1] ﴾ وبقوله : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السمٰوات والأرض وما بينهما وإليه المصير** [2] ﴾ وغير ذلك من الآيات كثير .

أما أسفار التلمود فتظهر إلٰه بنى إسرائيل متصفا بكثير من صفات المخلوقين، وصفات النقص،ويبدو ذلك على الأخص فيما يذكره التلمود عن جسم الإلٰه ، وضخامة أعضائه،وما يرويه عن نشاطه ، وأعماله فى الليل والنهار ، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بنى إسرائيل .

وما يقرره بصدد تخصيص أيام فى كل عام لعبادة إلٰه آخر صغير .

وبصدد حرص الإلٰه على أن تقدم له أضحية من الآدميين [3] .

نماذج من تحريف الشريعة :

من أهم مظاهر الانحراف فيها،أنها تقوم على التفرقة العنصرية،وذلك أنها تجعل اليهود شعب الله المختار ، الذى اصطفاه الله وفضله على العالمين ، وتنظر إلى من عداه من الشعوب نظرتها إلى شعوب وضيعة فى سلم الإنسانية ، وتضع قوانينها ، ونظمها على هذا الأساس :

(أ) فمن ذلك مثلا أن الإسرائيليين محرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضا وأن يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، على حين أنه فى زعمهم مباح للإسرائيليين،

---

(١) البقرة : ١٦٣ .

(٢) المائدة : ١٨ .

(٣) انظر التفاصيل فى الأسفار المقدسة (ص ٢٨ ـــ ٢٩ ـــ ٣٠) .

بل واجب عليهم غزو الشعوب الأخرى ، وخاصة شعب كنعان ، وواجب عليهم بعد انتصارهم على بلد ما،أن يضربوا رقاب جميع رجالها بحد السيف ، ويسترقوا نساءها وأطفالها،ويستولوا على جميع مافيها من مال وعقار .

(ب) وإن الولد إذا زنا بأمه الأرملة لا يقام عليه الحد ، ولا يلام ، بل ينبغى له أن يستمر معها على هذا الوضع حتى بعد زواجه رعاية لما وجب لها عليه من حق .

وأن الوالد الذى زنا بابنته بعد وفاة زوجها ، لايقام عليه الحد ولايلام ، لأن لعمله هذا ما يبرره ، وهو أنه يجنبه تبذير ماله مع العاهرات الأجنبيات [(١)] ، وغير ذلك كثير .

وقد اتفق المسلمون على أن التوراة قد دخلها تحريف وتغيير وتبديل،على اختلاف فى التفاصيل ، والجمهور على دخول التحريف فى ألفاظها ومعانيها [(٢)] **﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون [(٣)] ﴾﴿ وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون [(٤)] ﴾**

(٤) النصرانية .

هى نسبة فى الأصل إلى نصرانه ، وهى قرية المسيح عليه السلام من أرض الجليل ، وتسمى هذه القرية ناصرة ونصورية والنصرانية والنصرانة واحدة النصارى ، وقيل هى قرية بطبرية ، ونصرانة قرية بالشام ينسب إليها النصارى .

أما فى الاصطلاح فالنصرانية دين النصارى ، وهم المنتسبون للإنجيل،ولا يعرف على التحديد متى صارت علما على دين أهل الإنجيل .

---

(١) انظر التفاصيل فى الأسفار المقدسة (ص ٣٦ ـــ ٣٧) وما بعدهما .

(٢) الأديان والفرق (ص ١٤) وفيه ذكر النصوص المحرفة فى أسفارهم المقدسة ـــ الصفحة نفسها ومابعدها .

(٣) البقرة : ٧٥ .

(٤) آل عمران : ٧٨ .

وقد وجدت هذه اللفظة بهذا المعنى فى أوائل القرن الثانى الميلادى ، إذ كتب (بلين) وكان واليا فى آسيا إلى الإمبراطور (تراجان)،الموجود عام (١٠٦)م كتابا يشرح فيه طريقة تعذيب المسيحيين فقال :

(جربت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية :

وهى أنى أسألهم إذا كانوا مسيحيين ، فإذا أقروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة ، مهددا بالقتل ، فإذا أصروا أنفذت عقوبة الإعدام فيهم ..

وهذا مما زاد النصرانية ترقيا فى بلاد العرب،إذ لايجد الرهبان والأساقفة أمانا لحياتهم ، ونشر أفكارهم إلا الجزيرة العربية ، حيث كان يصعب على القياصرة الوثنيين أن يلحقوا بهم أى أذى [1] .

انتشار النصرانية فى جزيرة العرب :

أشرنا فيما مضى إلى كثرة الأديان والمعتقدات فى الجزيرة من ضمنها النصرانية ، وكان من الطبيعى أن تتسلل إلى الجزيرة،من معابر شتى لأنها ديانة متحركة بعكس اليهودية .

فاليهود رأوا أنفسهم شعب الله المختار ، وجعلوا الإله الواحد رب إسرائيل وحسب .

أما النصارى فقد انطلقوا إلى آفاق العالم،يعرضون مبادئهم،ويغرون الناس بالدخول فيها . وقد أصابوا حظوظا من النجاح لم تتح — يقينا — لليهودية .

ولم يعبأ المبشرون بالمصاعب التى كانوا يتعرضون لها ، فدخلوا مواضع نائية فى جزيرة العرب .

ومنهم من رافق الأعراب ، وعاشوا عيشتهم فسكنوا معهم فى الخيام،حتى عرفوا بأساقفة الخيام وبأساقفة أهل الوبر،وكان انتشارها واضحا بين عرب الشمال،كتغلب وغسان وقضاعة،لأنها كانت تحت حكم البيزنطيين،وديانتهم

(١) انظر محاضرات فى النصرانية لمحمد أبو زهرة (ص ٣٥ — ٣٦) الناشر دار الفكر العربى ، الأديان والفرق لعبد القادر شيبة الحمد (ص ٢٤) التاريخ الإسلامى العام لعلى إبراهيم (ص ١٥٦) مطبعة السنة المحمدية ط/ ثالثة .

الرسمية هى النصرانية،وعملوا على نشرها بين شعوب إمبراطوريتهم وغيرها .

وقد ذكر أن مطران (بصرى) كان يشرف على نحو عشرين أسقفا انتشروا بين عرب حوران وغسان .

ظهر منهم من كان يقرأ ويكتب ، ويتحدث عن التوراة والأناجيل،وعن النصرانية كما كانوا يردون أسواق العرب يعظمون ويبشرون .

ويرى بعض المؤرخين أن انتشار النصرانية صحبه انتشار الرقيق من الجنسين فى هذه الأقطار [1] .

وانتشرت النصرانية فى الجزيرة،حتى كادت تشمل اليمن كله ولهذا الانتشار سببه ، فإن الحبشة النصرانية كان لها سلطانها المادى والأدبى،على جنوب الجزيرة .

ومن مؤرخى العرب من يرى أنها انتشرت فى الجنوب بنشاط وافد من الشمال ــ كأبى إسحق وابن كثير وابن قتيبة ــ على يد رجل من عباد النصارى بأطراف الشام ، وكان مجاب الدعوة،وقع أسيرا فى يد بعض الأعراب فبيع بنجران، فنشر النصرانية هناك،فكانت أهم مواطنها فى الجنوب .

وتبعه تلميذه ابن الثامر المعروف بالغلام المتردد بين الراهب والساحر وتعلمه الاسم الأعظم ، وكان يشفى المرضى بدعائه بشرط الدخول فى دينه النصرانية، فرفع أمره إلى ملك نجران،وحاول قتله ولم يستطع،فقال له الغلام:لن تستطيع قتلى حتى تؤمن بالله فآمن برب الغلام فقتله فأجمع أهل نجران على دين الغلام وكان على ماجاء به عيسى عليه السلام .

ولما بلغ ذانواس الحميرى خبرهم،سار إليهم بجنوده،وكان على اليهودية فخيرهم بينها وبين القتل فاختاروا القتل فخدّ لهم الأخدود فحرق وقتل قريبا من عشرين ألفا وفيه أنزل الله سبحانه ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** [2] ﴾ .

فأفلت رجل يقال دوس ثعلبان ــ وكان يعتنق النصرانية ــ متوجها إلى

(١) انظر المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (٦ : ٦١٢) .

(٢) البروج : ٤ .

قيصر الروم فاستنصره على ذى نواس اليهودى وجنوده ، فكتب له إلى ملك الحبشة ، وكان على النصرانية فجهز له جيشا توجه إلى اليمن،فانهزم ذو نواس فخاض البحر هاربا وكان آخر العهد به .

فتغلغلت النصرانية فى اليمن بقيادة أبرهة الأشرم وذلك يحقق غرضين : أحدهما سياسى،وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقا للتجارة إلى الشرق،والآخر دينى وهو جعل السيادة للمسيحية هناك،الأمر الذى بلغ بأبرهة أن بنى كنيسة فى صنعاء سماها (القليس) لارتفاعها . فكتب إلى النجاشى : أنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب، فثار رجل من كنانة فخرج حتى أتاها فأحدث فيها فلحق بأهله ، فغضب أبرهة وحلف ليهدمن الكعبة،ليصرف الحجاج عنها إلى كنيسة صنعاء،فغزاها فأخفق فى غزوته،وفيه أنزل الله سبحانه (سورة الفيل) وكان هدفه من هذا محاولة السيطرة على جزيرة العرب دينيا وسياسيا [1] .

ونحن نرى من التأمل فى هذه الوقائع القديمة أن النصرانية فى الجنوب، حاولت الاتصال بالنصرانية فى الشمال والاستيلاء على الجزيرة العربية كلها ، ولكن رب العالمين أحبط هذا التدبير بخوارق من السماء،قتلت الجيش المهاجم لمكة ومزقت شمله ، واستبقت وسط الجزيرة العربية مهدا مرتقبا للرسالة الخاتمة .

كما بقيت مكة مثابة للناس،تجىء القبائل من كل فج لتزور البيت العتيق، وتتعلق ببقايا من ديانة إبراهيم .

وهكذا بقيت اليمن على نصرانيتها،كما بقى عرب الشمال على نصرانيتهم وبين الفريقين مفازات شاسعة،تمتلىء بالعرب الذين لايعترفون بالنصرانية،ولا يرتضونها دينا .

تحريف النصارى لدينهم :

إن الديانة التى جاء بها المسيح عليه السلام هى التوحيد الكامل بكل أنواعه،

---

(١) من السيرة النبوية ابن هشام (١ : ٣١) ومابعدها . وانظر تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم (١ : ٢٩) وما بعدها وانظر المعارف لابن قتيبة (ص ٦٣٧) ط/ ثانية الناشر دار المعارف بمصر .

قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلّهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب. ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد** [1] ﴾ .

هذا هو جوهر[*] دعوة المسيح عليه السلام .

وكما ورد فى بعض الآثار أنها تقوم على الزهادة ، والأخذ من أسباب الحياة بأقل قسط تقوم عليه الحياة ، كما يحث على الإيمان باليوم الآخر [2] .

وقد أصابت هذه الديانة أعظم النكبات ، إثر عدوان الوثنيات عليها ، فانعكس التوحيد شركا وتعددت الآلهة بخرافة التثليث والفداء .

فهناك نصوص كثيرة تدل على التثليث بالنسبة للإله ، فهم يرون أن هناك أقانيم أو آلهة ثلاثة كلها تستحق العبادة ، والكل قديم لأول له ، ولكل من هؤلاء الآلهة عمل خاص به ، وهم متساوون فى الصفات الإلهية .

وإليك بعض نصوص من كتبهم تبين عقيدة التثليث .

جاء فى كتاب (سوسنة سليمان) مايلى :

(عقيدة النصارى التى لاتختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهى أصل الدستور الذى بينه مجمع نيفيه : هى الإيمان بإله واحد، آب واحد، خالق السماء والأرض، وبرب واحد يسوع الابن الوحيد، المولود من الآب قبل الدهور ، من نور الله ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق مساو للآب فى الجوهر ، الذى كان به كل شىء ، ومن أجله خلقنا ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسد فى الروح القدس ، وفى مريم العذراء تأنس [3] .

---

(١) المائدة : ١١٦ ــ ١١٧ .

(*) اى أصلها وأساسها .

(٢) النصرانية لابى زهرة (ص ١٤ ــ ١٥) .

(٣) اى صار إنسانا .

وبعد قتله وصلبه،قام من قبره وصعد إلى السماء،وجلس على يمين الرب ، ليدين الأحياء والأموات ولافناء لملكه .

والإيمان بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذى هو مع الابن يُسجد له ويمجد [1] .

نقد عقيدة التثليث :

أولا : إن هذه العقيدة لاتتفق مع العقل لما فيها من التناقض .

لكن عقيدة التوحيد هى التى تعقل ، ويمكن البرهنة عليها بأدلة عقلية كما ورد فى القرآن الكريم ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحٰن الله رب العرش عما يصفون** [2] ﴾ .

﴿ **ما اتخذ الله من ولد وماكان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** [3] ﴾ ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ .

فالإله الذى يستحق العبادة،لا يعقل أن يكون معه من يشاركه فى أمر السماء والأرض،ولذلك نرى المسيحيين ، لم يحاولوا الاستدلال على هذه العقيدة بأدلة عقلية ، بل هم يشعرون بصعوبة تصورها ، يقول (بوطر) :

(قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ، ونرجوا أن نفهمه أكثر جلاء فى المستقبل،حين يكشف لنا الحجاب ، وأما فى الوقت الحاضر،ففى القدر الذى فهمناه كفاية [4]) .

ثانيا : إن النصوص التى يستدلون بها من أسفارهم ، بأنها تشير إلى التثليث ، مثل روح القدس ــ كلمة الله ــ وأنهم لم يفهموها حتى جاء يسوع المخلص فبينها كما يزعمون ، وأنت تعرف قيمة أسفارهم ، وأنها غير ثابتة السند [5] .

(١) محاضرات فى النصرانية (ص ١١٧) .

(٢) الأنبياء : ٢٢ .

(٣) المؤمنون : ٩١ . وهذا ما يعبر عنه بدليل التمانع وسيأتى بيانه إن شاء الله .

(٤) انظر محاضرات فى النصرانية (ص ١١٢) .

(٥) محاضرات فى النصرانية (ص ٤٧ ــ ٦٦) والأديان والفرق (ص ٣٢ ــ ٣٩) .

بل إن هذه الأسفار التى يؤمنون بها ، فيها مايناقض هذه العقيدة،فهناك نصوص صريحة تدل على بشرية المسيح،وأنه ليس إلا رسولا ، وأن الله واحد لا شريك له .

نماذج من هذه النصوص :

يقول المسيح : (إن أباكم واحد الذى فى السماء [1]) .

ويقول المسيح : (الرب إلهنا إله واحد ، وليس آخر سواه [2]) .

ويقول أيضا : (أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله [3]) .

ثالثا : لم تظهر عقيدة ألوهية المسيح إلا بعد دخول شاول فى المسيحية ، وظهور إنجيل يوحنا،ومع ذلك فقد وجدت هذه العقيدة معارضة شديدة من جمهور المسيحيين،الذين وقفوا فى وجه بولس بشدة ، كما يتضح ذلك فى رسائله .

وألوهية المسيح،لم تتقرر بشكل رسمى،إلا بعد مجمع نيقية(٣٢٥)م .

ثم بعد ذلك تقرر التثليث تدريجيا فى مجمع القسطنطينية (٣٨١)[4] .

وصدق الله العظيم إذ يقول :﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظلمين من أنصار.لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ماالمسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون** [5] ﴾ .

---

(١) انجيل متى : ٢٣ .

(٢) انجيل مرقص : ١٢ ـــ ٣٠ ـــ ٣١ .

(٣) انجيل يوحنا : ٨ ـــ ٤٠ .

(٤) انظر النصرانية (ص ١٤٦) وما بعدها (ص ١٥٩) وما بعدها .

(٥) المائدة : ٧٢ ـــ ٧٥ .

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إلّه واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا (١) ﴾ .

عقيدة الفداء :

قالوا : إن الله الآب من صفاته المحبة لذلك دبر طريقا لخلاص العالم من خطيئة آدم التى أبعدته وذريته عن الإلّه .

وتحققت هذه الطريقة بإرساله ابنه الوحيد إلى الناس ليتجسد ويقتل ويصلب، وبذلك يخلص البشر من آثار الخطيئة، ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام ومكث أربعين يوما بين تلاميذه ، ثم ارتفع بعدها إلى السماء وجلس إلى يمين الرب انتظارا ليوم القيامة، ليدين الناس على أعمالهم، وأن المسيح هو الذى وفق بين عدل الله ورحمته ومحبته، كما يقرر لوقا فى إنجيله وقد تم الفدا بالقتل والصلب (٢) .

نقد عقيدة الفداء :

لاشك أن عقيدة الفداء لا تستحق المناقشة ، فإذا كان الله محبة كما يقولون فلم ترك بنى آدم هذه الفترة الطويلة من غير أن يقربهم إليه ويكفر عنهم خطيئتهم الموروثة ؟

وإذا كان الله عادلا فكيف يعاقب الذرية من آدم إلى المسيح بالبعد عن رحمته ؟

وماذنب الأبناء فى ذنب اقترفه أبوهم ﴿ ولاتزر وازرة وزر أخرى (٣) ﴾ .

وإذا كان الله قد حرمهم ـــ هذه المدة الطويلة ـــ من رحمته فلم أرسل إليهم

---

(١) النساء : ١٧١ .

(٢) انظر محاضرات فى النصرانية (ص ١٢٦ ـــ ١٢٧) .

(٣) الأنعام : ١٦٤ ، الإسراء : ١٥ ، فاطر : ١٨ ، النجم : ٣٨ .

رسلا قبل المسيح ليبينوا لهم طريق الهدى والضلال ؟

ثم ما الحكمة فى اختيار هذه الطريقة التى تبث العداوة والبغضاء ، ولم تأت بألفة أو سلام ؟

أو ليس الله بقادر على أن يغفر لآدم ولذريته بكلمة منه؟.

إذ من صفاته الرحمة والمحبة ، بل قد تاب الله على آدم بنص القرآن ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** [1] ﴾ .

والقرآن الكريم يكذب زعمهم الصلب والقتل ﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما** [2] ﴾ .

كما حرفوا العبادات والشريعة ، ففى القرون الأخيرة طغت الكنيسة على العلماء،وسائر الناس فى فرض آرائها،فجعلت كل رأى من العلوم الكونية يخالف رأيها ــ كفرا ، وفرضت سلطانها على الملوك ،كما استبدت بفهم الكتب المقدسة،بلغ بها الأمر إلى مهزلة صكوك الغفران،وانحراف أخلاق رجال الدين [3] .

(٥) الحكمة فى اختيار العرب لحمل الدعوة .

قبل الدخول فى ذلك ينبغى أن نعلم خصائص العرب وطباعهم قبل الإسلام ، وأن نتصور البقعة الجغرافية التى كانوا يعيشون فيها،وموقعها مما حولها ، وأن نتصور فى مقابل ذلك ماكانت عليه الأمم الأخرى،إذ ذاك كالفرس والروم ، واليونان ، والهند ، من العادات والطباع والخصائص الحضارية .

ولنبدأ أولا بعرض موجز،لما كانت عليه الأمم التى تعيش حول الجزيرة العربية

---

(١) البقرة : ٣٧ .

(٢) النساء : ١٥٧ ــ ١٥٨ .

(٣) من محاضرات لشيخنا محمد قطب فى جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة وانظر التفاصيل فى النصرانية (ص ٢٠٠ ــ ٢٠٨) .

قبل الإسلام ، كان يتصدر العالم إذ ذاك ، دولتان اثنتان تتقاسمان العالم المتمدن ، هما الفرس والروم،ويأتى من ورائهما اليونان والهند .

أما الفرس فقد كانت حقلا لوساوس دينية فلسفية متصارعة مختلفة شيطانية من ذلك تفضيل زواج الرجل بأمه ، أو ابنته أو أخته ، وإباحة سائر النساء والأموال واشتراك الناس فى ذلك .

وأما الرومان ، فقد كانت تسيطر عليها الروح الاستعمارية تعتمد فى ذلك على قوتها العسكرية ، أما اليونان فقد كانت غارقة فى هوسات من خرافاتها ، وأساطيرها الكلامية .

وأما الهند ، فقد أسهمت مع جاراتها فى التدهور الأخلاقى والاجتماعى، وكان أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا،يبتدىء فى مستهل القرن السادس الميلادى [1] .

كما ينبغى أن نعلم أن القدر المشترك الذى أوقع هذه الأمم فى الانحلال والاضطراب والشقاء،إنما هو الحضارة،التى تقوم على أساس من القيم المادية وحدها،دون أن يكون لها مثل أعلى يقودها فى سبيلها المستقيم ، إذ هى ليست سوى وسيلة وسبب .

فإن عَدِمَ أهلها التفكير الصحيح،والمثل الأعلى الصحيح ، استحالت إلى ذريعة للنزول بها إلى درك الشقاء والاضطراب .

أما إن أوتى أهلها مقياسا من العقل الرشيد ـــ فإن القيم الحضارية كلها تصبح وسيلة إلى السعادة التامة .

أما الجزيرة العربية فقد كانت منعزلة عن مظاهر هذه الاضطرابات كلها . كانت طبائعهم أشبه ماتكون بالمادة الخام التى لم تنصهر بعد فى أى بوتقة محولة ، فكانت تتراءى فيها الفطرة الإنسانية السليمة ، والنزعة القوية إلى الاتجاهات الحميدة ، كالوفاء والنجدة ، والكرم والإباء والعفة .

---

(١) انظر التفاصيل فى الملل والنحل (١ : ٢٤٩ ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص ٣٨ ـــ ٤٦) ، فقه السيرة بوطى (ص ٢٤) .

إلا أنها كانت تعوزهم المعرفة ، إذ كانوا يعيشون فى ظلمة من الجهالة البسيطة ، فكان يغلب عليهم ــ بسبب ذلك ــ أن يضلوا الطريق الصحيح ، فيئدوا البنات بدافع الشرف والعفة ، ويتلفوا الأموال الضرورية بدافع الكرم ، ويثيروا المعارك فيما بينهم بدافع الإباء والنجدة ، ثم إنها تقع ــ بالنسبة لموقعها الجغرافى ــ فى نقطة الوسط بين هذه الأمم التى كانت تموج من حولها حضارة الغرب المادية ، وحضارة الشرق الروحية الخيالية [١] .

هل هناك حكمة فى اختيار العرب لحمل الدعوة ؟

ذهب البوطى ومن معه إلى أن الحكمة فى هذا الاختيار هى من نوع الحكمة التى اقتضت أن يكون الرسول أميا لا يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه [٢] حتى لا يرتاب الناس فى نبوته عليه الصلاة والسلام . وحتى لا تتكاثر لديهم أسباب الشك فى صدق دعوته ، إذ من تتمة هذه الحكمة الإلهية أن تكون البيئة التى بعث فيها عليه الصلاة والسلام ﷺ ــ أيضا بيئة أمية بالنسبة للأمم الأخرى .

فكما يخشى من دخول الريبة فى صدور الناس ، إذا ماراوا النبى ﷺ متعلما مطلعا على الكتب القديمة .... كذلك يخشى إذا ما ظهرت الدعوة الإسلامية بين أمة لها شأن فى الحضارة والفلسفة ، فرب مرتاب مبطل ، يزعم أنها سلسلة التجارب الحضارية والأفكار الفلسفية ، أبدعت أخيرا هذه الحضارة الفذة ، والتشريع المتكامل ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**[٣] ﴾ .

ويقول أيضا : وهناك حكم أخرى لاتخفى على الباحث نجملها فيما يأتى :

(١) من المعلوم أن الله عز وجل،قد جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنا ، وجعله أول بيت وضع للناس للعبادة،وإقامة الشعائر الدينية،وحقق فى ذلك الوادى

---

(١) انظر فقه السيرة للبوطى (ص ٢٥ ــ ٢٨) .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) العنبكوت : ٤٨ .

(٣) الجمعة : ٢ .

دعوة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام،ومن لوازم هذا كله ومتمماته،أن تكون هذه البقعة المباركة نفسها مهدا للدعوة الإسلامية،التى هى ملة أبينا إبراهيم وأن تكون بعثة خاتم الأنبياء ومولده فيها كيف لا،وهو من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(٢) البقعة الجغرافية للجزيرة العربية ترشحها للقيام بعبء مثل هذه الدعوة بسبب أنها تقع ــ كما قلنا ــ فى نقطة الوسط بين الأمم المختلفة التى من حولها .

وهذا مما يجعل إشعاعات الدعوة الإسلامية،تنتشر بين جميع الشعوب والدول المحيطة بها فى سهولة ويسر ، وإذا أعدت النظر إلى سيرة الدعوة الإسلامية فى صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين،وجدت مصداق ذلك جليا واضحا .

(٣) اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون اللغة العربية،هى لغة الدعوة الإسلامية، وأن تكون هى الوسيلة المباشرة الأولى،لترجمة كلام الله عز وجل وإبلاغه إيانا .

ولعلنا لو أمعنَّا فى خصائص اللغات وقارنا بينها لوجدنا أن اللغة العربية تمتاز بكثير من الخصائص التى يعز وجودها فى اللغات الأخرى ، فأجدر بها أن تكون لغة المسلمين الأولى فى مختلف ربوعهم وبلادهم [(١)] .

وذهب الندوى إلى التصريح بالحكمة معللا ذلك بقوله :

(وقد اختار الله العرب ليتلقوا هذه الدعوة أولا ، ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم) .

(١) لأن ألواح قلوبهم كانت صافية لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة يصعب محوها وإزالتها ، شأن الروم والفرس ، وأهل الهند الذين كانوا يتيهون ويزهون بعلومهم ، وآدابهم الراقية ومدنياتهم الزاهية وبفلسفاتهم الواسعة . فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية لم يكن من السهل حلها .

أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة ، خطتها يد الجهل

---

(١) فقه السيرة للبوطى (ص ٢٩ ، ٣٠) .

والبداوة ، ومن السهل الميسور محوها وغسلها ، ورسم نقوش جديدة مكانها ، وبالتعبير العلمي المتأخر كانوا أصحاب (الجهل البسيط) الذى تسهل مداواته . بينما كانت الأمم المتمدنة الراقية فى هذا العصر مصابة بـ (الجهل المركب) الذى يصعب مداواته وإزالته .

(٢) وكانوا على الفطرة ، وأصحاب إرادة قوية ، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه ، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم،أحبوه واحتضنوه واستماتوا فى سبيله .

يعبر عن هذه النفسية العربية خير تعبير ماقاله سهيل بن عمرو حين سمع ماجاء فى كتاب الصلح فى الحديبية (هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله ، والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت ولاقاتلناك [1]) . وماقاله عكرمة بن أبى جهل حين حمى الوطيس فى معركة اليرموك ، واشتد عليه الضغط : (قاتلت رسول الله ــ ﷺ ــ فى كل موطن ، وأفر منكم اليوم ؟ ثم نادى من يبايع على الموت،فبايعه من بايعه ثم لم يزل يقاتل حتى أثبت جراحا وقتل شهيدا) .

(٣) وكانوا واقعيين جادين أصحاب صراحة ، وصرامة لايخدعون أنفسهم ولاغيرهم ، اعتادوا القول السديد والعزم الأكيد ، يدل على ذلك دلالة واضحة ماروى فى قصة بيعة العقبة الثانية،وذكر كلمة العباس بن عبادة الخزرجى (وسيأتى ذكرها فى بيعة العقبة الثانية بلفظها إن شاء الله تعالى .

---

(١) قلت ولكن ظاهر هذا يتعارض مع قول الله تعالى (قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) سورة الأنعام : ٣٢ .

عن على رضى الله عنه قال : (قال أبو جهل للنبى ﷺ إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به فأنزل الله هذه الآية) . رواه الحاكم ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ومعلوم أن قريشا كانت تلقب محمدا بالصادق الأمين وقالوا ماجربنا عليك كذبا (وسيأتى ذكر ذلك فى مرحلة الجهر بالدعوة) ولكنه الجحود ، لأن الدعوة الإسلامية تهدد مناصبهم ومصالحهم بالخطر . وقد التقى الأخنس بن شريق بأبى جهل فقال : أخبرنى عن محمد صادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس هاهنا من قريش أحد غيرى وغيرك يسمع كلامنا فقال أبو جهل : ويحك والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قصى باللواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش . ا هـ تفسير الطبرى (٧ : ١٨١ ــ ١٨٢) تفسير ابن كثير (٣ : ٢٤٥ ــ ٢٤٧) ، روح المعانى (٧ : ١٣٦) ظلال القرآن (٧ : ١٠٧٤) . .

ثم ذكر قول سعد [1] على لسان قومه ـــ يوم بدر ـــ لرسول الله ﷺ ...

(فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه [2] معك) .

كما ذكر الجملة المأثورة عن عقبة بن نافع القائد العربى المسلم،حينما خاض البحر الأطلسى بجيشه قائلا :

(يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدا فى سبيلك [3]) .

(٤) وكان العرب بمعزل عن أدواء المدنية والترف،التى يصعب علاجها والتى تحول دون التحمس للعقيدة والتفانى فى سبيلها .

(٥) وكانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة ، ليس النفاق والمؤامرة من طبيعتهم ، وكانوا مغاوير حرب وأحلاس خيل ، وأصحاب جلادة وتقشف فى الحياة .

وكانت الفروسية هى الخلق البارز الذى لابد أن تتصف به أمة،تضطلع بعمل جليل ، لأن العصر كان عصر الحروب والمغامرات والفتوة والبطولات .

(٦) وكانت قواهم الفكرية والعملية ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم ، لم تستهلك فى فلسفات خيالية ، وجدال عقيم ، ومذاهب كلامية دقيقة،وحروب إقليمية سياسية [4] .

(١) قال الندوى هو سعد بن معاذ وقال ابن قيم الجوزية : سعد وسكت كما فى الزاد . وفى السيرة النبوية لابن هشام أن هذه الكلمة للمقداد ابن عمرو جاءت ضمن كلامه لرسول الله ﷺ يومها وفى صحيح مسلم ان صاحب الكلمة هو سعد بن عبادة لفظها (والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر إلا خضناها (أى الخيل) ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا) .

وعند ابن هشام أيضا أن ما فى صحيح مسلم مقالة سعد بن معاذ . وبرك الغماد هو الصواب كما فى مسلم لا كما قال الندوى نقلا عن الزاد البرك من غمدان . قال صاحب القاموس المحيط : وبرك الغماد بالفتح والكسر موضع باليمن أو وراء مكة بخمس ليال أو أقصى معمور الأرض وقيل بين مكة وزبيد وماء لبنى عقيل بنجد وقال السهيلى مدينة الحبشة . ا هـ

انظر السيرة ابن هشام (١ : ٦١٥) ، زاد المعاد (٢ : ٩٦) صحيح مسلم (٥ : ١٧٠) ، القاموس (٣ : ٢٩٤) . .

(٢) فى ابن هشام (لخضناه معك) وفى الزاد بحذف اللام . انظر المرجعين السابقين بالصفحات نفسها .

(٣) الكامل لابن الأثير (٤ : ٤٦) كما فى السيرة النبوية للندوى (ص ٢٣) .

(٤) التاريخ قد سجل الحروب الطاحنة بينهم ولكن معظمها لأتفه الأسباب تستمر عشرات السنين كداحس والغبراء بين عبس وذبيان والبسوس بين بكر وتغلب ويوم بعاث بين الأوس والخزرج وما كان بين بكر وتغلب وغير ذلك . .

فكانت أمة بكرا دافقة بالحياة والنشاط ، والعزم والحماس .

(٧) وكانوا أمة نشأت على الهيام بالحرية والمساواة ، لم تخضع لحكومة أجنبية،ولم تألف الرق والعبودية . وقد سرت هذه الحرية والاعتداد بالنفس ، والأنفة من التذلل إلى جميع طبقات الشعب وعمت الذكور والإناث ذكر منها عدة أشياء [١] .

ثم ذكر قصة المغيرة بن شعبة رسول المسلمين إلى رستم،حين دخل عليه وهو فى أبهته وسلطانه،فجلس معه على عادة العرب على سريره،فوثبوا عليه وأنزلوه فقال :

كانت تبلغنا عنكم الأحلام،ولا أرى قوما أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواء، لايستعبد بعضنا بعضا،إلا أن يكون محاربا لصاحبه،فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى،وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض، وأن الأمر هذا لايستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ، ولكن دعوتمونى .

(٨) وفى جزيرة العرب وفى مكة ، كانت الكعبة التى بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ليعبد الله فيها وحده ، ولتكون مصدر الدعوة للتوحيد إلى آخر الأبد ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة[٢] مباركا وهدى للعالمين** [٣] ﴾ .

ثم ذكر موقعها الجغرافى،وأنها تقع بين قوتين متنافستين: المسيحية والمجوسية ، وقوة الشرق والغرب ، وأنها ظلت رغم ذلك كله محتفظة بحريتها وشخصيتها ، ولم تخضع لإحدى الدولتين إلا فى بعض أطرافها وفى قليل من قبائلها .

وكانت فى خير موقف لتكون مركزا لدعوة إنسانية عالمية ، تتحدث من مستوى عال،بعيدة عن كل نفوذ سياسى وتأثير أجنبى .

---

(١) انظر السيرة النبوية للندوى (ص ٢١ — ٢٨) .

(٢) بكة علم للبلد الحرام وبكة ومكة لغتان فيه وكثير مايقع التبادل بين الميم والباء كلازم ولازب كذا فى هامش السيرة النبوية (ص ٢٩) .

(٣) آل عمران : ٩٦ .

لذلك كله اختار الله الجزيرة العربية ، ومكة المكرمة لتكون مبعث الرسول ومهبط الوحى ، ونقطة انطلاق للإسلام فى العالم ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته**[1] ﴾ .

أما أبو زهرة فقد ذهب إلى أن الجزيرة العربية مهد الرسالات الأولى ، ذكر منهم نوحا وهودًا وصالحا وإبراهيم ، الذى كان له الفضل الكبير مع ابنه إسماعيل عليهما السلام فى إنشاء الكعبة ، ويتساءل لماذا اختصت بذلك الجزيرة العربية .

ويجيب بأمور ثلاثة :

أولها : أن البلاد العربية ليست متوحشة كما يتوهم الذين يحكمون بغير بينات ، أو الذين يتجنون على الحقائق مغرضين غير منصفين .

إنما هى بلاد فيها ذكاء ونفوس صافية كصفاء سمائها ، وقوة الاستجابة متكافئة مع قوة المقاومة .

الأمر الثانى : أن الجزيرة العربية مع ذكاء أهلها ، واستقامة نفوسهم – وإن انحرفت أحيانا عُقولهم – معتصم حصين ، فبيداؤها وقراها .

فيها حصون لمنع الاعتداء الوحشى من الأمم التى اشتدت إغارتها فى الماضى .

حصن من الأرض المانعة لكل أجنبى من أن يقتطعها ، وحصن من النفوس التى إذا آمنت قاومت واعتزت بإيمانها .

وهى بين دولتين قويتين لم تتجاوزا فى سلطانهما أطرافها .

ـ الأمر الثالث : قوة الشكيمة ، وقوة الخلق العربى . جود وسماحة وحسن تأن،إذا وجد القيادة الحكيمة ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه:مثل العرب كمثل جمل أنف،فليعلم قائده أين يقوده ، وبذلك يلتقى العرب فى عناصر

---

(١) السيرة النبوية للندوى (ص ٣٣) والآية : ٢٤/ من سورة الأنعام .

ثلاثة،تجعلهم فى موطن الدعاة إلى الحق فى المكان الأول ، ولا ينقل دين العزة والإقدام ، والعمل الصالح إلا الأحرار الذين يأبون الدنية ، ويرضون بالبذل ، ويتحملون الشدائد ، وليس ذلك إلا فى العرب .

ولذلك ما إن انطلقوا بالإسلام إلا خرجوا من ديارهم يدعون إلى الحق، ويهدون إليه من غير فرار ولا يأس ، ولايتركون البأس إلى الرخا لأنهم تحملوا آلام الصحراء . (خلاصة قول أبى زهرة) .

العنصر الأول : قوة فى النفس تقاوم ولاتستسلم .

العنصر الثانى : صفاء نفسى وقوة مدارك ـــ احتفظوا بها حتى فى جاهليتهم ـــ وصدق النفس ، والصدق فى القول والعمل الذى يوجهون إليه .

العنصر الثالث : الأنفة ، وألا يطيعوا فى ذلة،بل فى هداية ورشد مختارين .

ولقد جاءت بعثة النبى ﷺ ، فبدت هذه السجايا،وشقت طريق النور فى وسط الظلمات . ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** [*] ﴾ .

نعم : الله وحده هو الذى يختار مكان الرسالة ، والذين يحملونها ، والذين ينزل عليهم الوحى بتبليغها إلى خلقه .

فاختار الله أرض العرب لأنها أرض الرسالة العامة .

وفيها العبر وفيها الآثار التى تدعو إلى الاعتبار وغير ذلك .[1]

وأما الشهيد سيد قطب ـــ رحمة الله عليه ـــ فقد ذهب إلى أن السر فى ذلك أمر يعلمه الله ويريده و(الله أعلم حيث يجعل رسالته) ولكن قال بعد ذلك :

(وحين ننظر اليوم من وراء الحوادث واستقرائها ، ومن وراء الظروف ومقتضياتها ، وبعد ما سارت هذه الدعوة فى الخط الذى سارت فيه،وأنتجت فيه نتاجها ... حين ننظر اليوم هذه النظرة ندرك طرفا من حكمة الله ـــ

(*) سورة الأنعام : ١٢٤ .

(١) خاتم النبيين ، محمد أبو زهرة ج ١ ص ٥٩ ـــ ٦٢ .

سبحانه ــ في اختيار هذه البقعة من الأرض (أم القرى ومن حولها) في ذلك الوقت من الزمان،لتكون مقر الرسالة الأخيرة التى جاءت للبشرية جميعا،والتى تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى . [1]

ثم وصف المعمورة حينذاك سياسيا ، وتقاسمها بين الدولتين الرومانية والفارسية،مع ماكان للهند والصين من استقلال سياسى ، ولكن الأثر الحقيقى للإمبراطوريتين الأوليين فى الحياة البشرية وتطوراتها .

وأن الديانتين اليهودية والنصرانية وقعتا تحت نفوذ هاتين الإمبراطوريتين . فاليهود وقعت فريسة للرومان تارة ، وللفرس تارة،وانتهت إلى أن تكون ديانة مغلقة على بنى إسرائيل .

والمسيحية ولدت فى ظل الدولة الرومانية التى اضطهدتها اضطهادا فظيعا ثم دخلتها الأساطير،والفلسفة الوثنية،وطبعت بطابع غريب،فلم تعد هى المسيحية الأولى . وظلت الدولة هى المهيمنة على العقيدة المنحرفة،مع ما انتهت إليه المذاهب المتعددة من تطاحن شامل فيما بينها،مزق الكنيسة وكاد يمزق الدولة كلها . ووقع الاضطهاد البشع للمخالفين للمذهب الرسمى للدولة .

وفى هذا الوقت جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها من الانحلال والفساد والاضطهاد،وليقودها إلى الله على هدى ونور .

١ ــ ولم يكن هنالك بد من أن يسيطر الإسلام لتحقيق هذه النقلة الضخمة فى حياة البشر . فلم يكن هنالك بد من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لامبراطورية من تلك الإمبراطوريات ، وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لاتسيطر عليه فيها قوة خارجة عن طبيعته ، بل يكون هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله .

٢ ــ وكانت الجزيرة العربية ، وأم القرى وماحولها بالذات هى أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التى جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى .

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٣١٤٢ .

٣ ـــ ولم تكن هناك حكومة منظمة تقف للعقيدة الجديدة بسلطانها المنظم، وتخضع لها الجماهير خضوعا دقيقا كقيصر وكسرى .

٤ ـــ ولم تكن هنالك ديانة ثابتة ذات معالم واضحة ، فقد كانت الوثنية الجاهلية ممزقة ومعتقداتها وعباداتها شتى (وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى ـــ الحالة الدينية للجزيرة العربية ـــ) .

٥ ـــ ومع أنه كان للكعبة وقريش سلطان دينى عام فى الجزيرة ، فإنه لم يكن ذلك السلطان المحكم،الذى يقف وقفة حقيقية فى وجه الدين الجديد .

ولولا المصالح الاقتصادية ، والأوضاع الخاصة لرؤساء قريش،ماوقفوا هذه الوقفة فى وجه الإسلام [1] ، فقد كانوا يدركون مافى عقائدهم من خلخلة واضطراب .

٦ ـــ وكانت خلخلة النظام السياسى للجزيرة إلى جانب خلخلة النظام الدينى، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد متحررا من كل سلطان عليه فى نشأته ، خارج عن طبيعته .

فى وسط هذه الخلخلة كان للأوضاع الاجتماعية فى الجزيرة قيمتها فى حماية نشأة الدعوة .

٧ ـــ كان النظام القبلى هو السائد وللعشيرة وزنها ، فلما قام محمد ﷺ بدعوته وجد من سيوف بنى هاشم حماية له ، ووجد من التوازن القبلى فرصة له،لأن العشائر كانت تشفق من إثارة حرب على بنى هاشم،بسبب حمايتهم لمحمد ﷺ ، وهم على غير دينه بل إنها كانت تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية من القلائل،الذين أسلموا فى أول الدعوة وتدع تأديبه ـــ أو تعذيبه ـــ لأهله والموالى ، لساداتهم .

ومن ثم كان أبو بكر ـــ رضى الله عنه ـــ يشترى الموالى ، ويعتقهم فيمتنع تعذيبهم وفتنتهم عن دينهم بذلك ، ولا يخفى مافى هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد .

---

(١) سيأتى الحديث عن هذا فى موضعه إن شاء الله تعالى .

٨ ـــ ثم كانت هنالك صفات الشعب العربى نفسه من الشجاعة والأريحية والنخوة ، وهى استعدادات ضرورية لحمل العقيدة والنهوض بتكاليفها .

وكانت الجزيرة فى ذلك الزمان، تزخر بحضانة عميقة لبذور نهضة، تجيش بكفاءات واستعدادات وشخصيات، تتهيأ لهذه النهضة المذخورة لها فى علم الغيب .

٩ ـــ وكانت قد حفلت بتجارب من رحلاتها إلى أطراف الإمبراطوريات وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب، ورحلة الصيف إلى الشمال، المذكورتان فى القرآن العظيم .

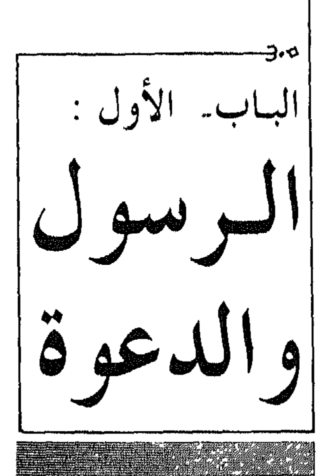
وتضافرت أسباب كثيرة من التفتح ، والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التى اختيرت لها الجزيرة، فلما جاءها الإسلام استغل هذا الرصيد كله، ووجه هذه الطاقة المختزنة، التى كانت تتهيأ كنوزها للتفتح ففتحها الله بمفتاح الإسلام وجعلها رصيداً له وذخرا .

ولعل هذا بعض مايفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام من الصحابة فى الجيل الأول . تلك العصبة التى تلقت الإسلام وحملته، وكبرت به من غير شك وصلحت .

١٠ – وقد كانت بلغت اللغة العربية نضجها، وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها فى أقطار الأرض، ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعى (أى الناطقون بها)، ماصلحت لحمل هذه الدعوة أولا ، ولنقلها إلى خارج الجزيرة ثانيا . وليس هذا مكان التفصيل فى وصف استعداد الجزيرة لحمل الرسالة، وصيانة نشأتها، فذلك أمر يطول ، ومكانه رسالة مستقلة ، وحسبنا الإشارة إلى حكمة الله المكنونة، التى يظهر التدبر والتفكر بعض أطرافها ، كلما اتسعت تجارب البشر ، وإدراكهم لسنن الحياة (١) .

---

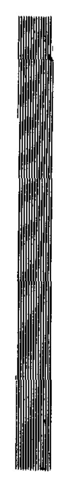
(١) فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٣١٤٢ ـــ ٣١٤٤ .


الباب الأول :
الرسول
والدعوة



الفصل الأول

كلمة سريعة عن حياة الرسول ﷺ حتى البعثة



النسب الشريف :

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. هذا هو الصحيح المجمع عليه ، وما فوقه فمختلف فيه .

وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام بلا خلاف . وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ..

ولد من أبوين كريمين حسبا ونسبا ، ومن أسرة جمعت ماتفرق فى العرب من فضائل ، وترفعت عن الرذائل ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** [(١)] ﴾ .

ولما سأل هرقل أبا سفيان عن صفاته ـــ ﷺ ـــ منها:(كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : كذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها) . [(٢)] يعنى فى أكرمها أحسابا وأكثرها قبيلة .

فهو سيد ولد آدم وفخرهم فى الدنيا والآخرة ، سماه الله فى القرآن رسولا نبيا أميا [(٣)] . شاهدا ومبشرا ونذيرا،وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، رؤوفاً

---

(١) الأنعام : ١٣٤ ، وانظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ١ ـــ٢ ـــ زاد المعاد ج ١ ص ٢٩ .
(٢) من حديث طويل رواه البخارى ج ١ ص ٨ .
(٣) الأمى هو الذى لايعرف القراءة والكتابة .

رحيما ومذكرا وجعله رحمة ونعمة وهاديا .

قال ﷺ عن نفسه : (لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب) . وقال أيضا : ألا تعجبون كيف يصرف الله عنى شتم قريش ولعنهم ، يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وأنا محمد . [1]

وعن أبى هريرة مرفوعا : (بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا،حتى كنت من القرن الذى كنت فيه) [2]

وعن واثلة[3] بن الأسقع مرفوعا :

(إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل،واصطفى قريشا من كنانة،واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم) [4] .

وعن عائشة رضى الله عنها ، مرفوعا : (خرجت من نكاح غير سفاح) .

وفى رواية ابن عباس بزيادة : (خرجت من لدن آدم ..[5])

وثبت عنه ﷺ أنه قال : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة) [6] (ولافخر) وقد أفاض ابن كثير فى هذا الموضوع فى سيرته . [7]

هذا وقد كان لذلك النسب الشريف أثره فى رسول الله ﷺ ، وفيمن يبلغهم فقد شب مرفوع الرأس ــ رغم يتمه ــ لايعرف الذل ولا الخضوع،جريئا فى إعلان رأيه تملأ الثقة نفسه .

---

(١) البخارى مسندى ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) رواه البخارى ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) هو احد الصحابة أسلم قبل تبوك وشهدها كان من أهل الصفة ، نزل الشام ، وشهد فتح دمشق وحمص وغيرها توفى فى خلافة عبد الملك سنة ثلاث وثمانين وقيل خمس وثمانين عن خمس وستين سنة ومائة وقيل غير ذلك وهو آخر من مات من الصحابة بدمشق . كذا فى الإصابة لابن حجر ج ١٠ ص ٢٩٠ ، مطبعة السنوسى الطبعة الأولى مع الاستيعاب لابن عبد البر كلاهما تحقيق طه الزينى .

(٤) مسلم ج ٧ ص ٥٨ ــ الترمذى بتحفة الأحوذى ج ١٠ ص ٧٧ تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان مطبعة الاعتماد .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٦١ .

(٦) مسلم ج ٧ ص ٥٩ ، زيادة (ولا فخر) فى سنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ١٠ ص ٨٢ وقال حديث حسن .

(٧) انظر التفاصيل فى السيرة النبوية ابن كثير ج ١ ص ١٨٤ ــ ١٨٧ .

وكانت العرب تعرف نسبه وأصالته فلا تجد غضاضة من الانضواء تحت رايته،لولا الكبر الذى أعمى بعضهم فنفسوا عليه مكانته،غيرة وحسدا كأبى جهل وأبى لهب وغيرهما . (١)

مولده الشريف :

ولد يوم الاثنين فى مكة المكرمة ولادة طبيعية لاثنتى عشرة ليلة،خلت من ربيع الأول عام الفيل على المشهور .

وقد سئل ﷺ عن صوم يوم الاثنين فقال (ولدت فيه ، وفيه أنزل على) (٢) .

وقد أورد ابن كثير عدة أحاديث فى كونه ـ ﷺ ـ ولد مختونا مسرورا . (٣)

ومن وجه آخر أنه ختنه جبريل ـ عليه السلام،حين شق صدره عند أمه حليمة السعدية .

وقال : (فى بعضها غرابة وفى البعض الآخر نظر) .

وقال ابن قيم،الجوزية (لايصح . ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات) .

وقد صنف فى هذه المسألة كمال الدين بن طلحة ، مصنفا،وأجلب فيه من الأحاديث التى لاخطام لها ولا زمام ، فنقضه عليه كمال الدين بن العديم،بيّن فيه أنه ختن ﷺ على عادة العرب) .

وقيل ختنه جده عبد المطلب وألهمه الله ـ سبحانه ـ أن يسميه محمدا تحقيقا لقدر الله سبحانه،إذ لم يكن هذا الاسم شائعا قبل عند العرب .(٤)

---

(١) انظر التفسير السياسى للسيرة بتصرف ص ١١ ـ ١٢ لمحمد رواس ، الناشر دار السلام . بيروت .

(٢) رواه مسلم ج ٣ ص ١٦٨ .

(٣) اى مقطوع السيرة .

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٢٩ ، السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ١٥٨ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٠٠ ـ السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ، زاد المعاد (ج ١ ص ٣٣) وستجد كلاما كثيرا فى صفته ومولده عليه الصلاة والسلام وما وقع من الآيات . .

وقد استبشر العالم بهذا المولود [1] الكريم، الذى بث فى أرجائه روح الآداب ، وتمم مكارم الأخلاق .

هذا ولقد ولى عبد الله وترك ابنه يتيما أو جنينا فى بطن أمه ، بيد أنه كان يعد من اللحظة الأولى لأمر عظيم ، يصبح به إمام المصطفين الأخيار ، وما الأب والجد وما الأقربون والأبعدون ، ما الأرض والسماء إلا وسائل مسخرة لإتمام قدر الله وإبلاغ نعمة الله من اصطفاه الله . [2]

حادثة شق الصدر :

أرضعته حليمة السعدية كعادة العرب إذ ذاك ، وكان خيرا وبركة عليها وعلى

---

(١) بهذه المناسبة نعرج على ما يفعله بعض الناس من الاحتفال السنوى بدعوى ذكرى المولد الشريف وزعم المحبة وهم فى الواقع مخالفون فى كثير من سنة صاحب المولد الشريف ﷺ (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) ٣١ من سورة آل عمران فذلك غير مشروع بل بدعة ، لأنه لم يثبت فى ذلك عن رسول الله ﷺ شيء ــ حسب علمى ــ لاقول ولا فعل ولاتقرير ولا عن الخلفاء الراشدين ولا عن سائر الصحابة ولا عن التابعين ، ولا عن الأئمة الأربعة ، وأئمة الحديث . وبهذا فإنه يدخل تحت عموم قوله عليه الصلاة والسلام ــ (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهورد) ، أى مردود .

وفى رواية (من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهورد) رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها ج ٢ ص ١١٢ .

وخير القرون قرنه ﷺ ــ ثم الذى يليه ثم الذى يليه كما جاء هذا فى حديث اتفق عليه البخارى ج ٢ ص ٢٨٨ ــ ومسلم ج ٧ ص ١٧٤ ــ ورواه الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٢٨ ــ وأبوداود وابن ماجه . ولو كان خيرا لسبقنا إليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد شبههم شيخ الإسلام ابن تيمة بمن يحلى المصحف ولا يقرأ فيه أو يقرأ فيه ولا يتبعه وبمن يزخرف المسجد ولا يصلى فيه أو يصلى فيه قليلا وبمن يتخذ المسابح والسجادات المزخرفة وغيرها التى لم تشرع ويصحبها من الرياء والكبر والاشتغال عن المشروع مايفسد حال صاحبها ، كذا فى اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٩٦ . وقد علق على بدعة المولد محمد حامد الفقى فى المصدر نفسه بكلام قيم .

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز : (وإحداث مثل هذه الموالد يفهم منه أن الله سبحانه ــ لم يكمل الدين لهذه الأمة ، وأن الرسول ــ ﷺ ــ لم يبلغ ماينبغى للأمة أن تعمل به ، حتى جاء هؤلاء المتأخرون فأحدثوا فى شرع الله مالم يأذن به ، زاعمين أن ذلك يقربهم إلى الله ، وهذا بلا شك خطر عظيم ، واعتراض على الله ــ سبحانه ــ وعلى رسوله ــ ﷺ ــ وأنه سبحانه قد أكمل لعباده الدين ، وأتم عليهم النعمة) .

ذكر هذا فى رسالة فى حكم الاحتفال بالمولد النبوى .

وقد ألف سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رسالة سماها : حكم الاحتفال بالمولد النبوى والرد عليه تقع فى ثلاثين صفحة ، وهى ضمن مجموعة ثلاث رسائل نشر إدارة البحوث العلمية والافتاء بالمملكة العربية السعودية وكذلك سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد ، كتب رسالة موجزة فى هذا الموضوع ضمن كتابه هداية الناسك الى أهم المناسك وهى رسائل قيمة ومقنعة في الموضوع لطالبى الحق ، والهادى هو الله سبحانه . .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام مع الحاشية ج ١ ص ١٥٨ ــ فقه السيرة للغزالى ص ٦٣ .

الجميع ، فبينما هو يترعرع فى البادية ، ويستنشق من جوها الطلق خلال سنوات الطفولة التى لم يسجل التاريخ فى مثلها حدثا يذكر ، إذا هو بجبريل عليه السلام يفاجئه وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه [1] ثم أعاده فى مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعنى ظئره) فقالوا:إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره . [2]

وقد رويت حادثة شق الصدر في حديث الإسراء والمعراج عن أنس قال : كان أبوذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : (فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ــ عليه السلام ــ ففرج صدرى ثم غسله فى ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغها فى صدرى ثم أطبقه ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء ... [3]) .

وفى رواية مالك بن صعصعة مرفوعا : (بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلا يقول : أحد الثلاثة بين الرجلين ، فأتيت فانطلق بى فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم،فشرح صدرى إلى كذا وكذا (يعنى إلى أسفل بطنه) فاستخرج قلبى فغسل بماء زمزم،ثم أعيد مكانه ثم حشى إيمانا وحكمة ..) [4]

قد يقال : إن ظاهر الروايتين التعارض وليس كذلك،بل كان هذا التقديس والتطهير مرتين كما ترى،فإن قيل ما الحكمة فى ذلك فيقال :

---

(١) اى ضم بعضه إلى بعض .

(٢) مسلم ج ١ ص ١٠١ ــ ١٠٢ وانظر السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٤ قال الألبانى وللحديث شواهد كثيرة منها عن عتبة بن عبد السلمى عند الدارمى ٨١١ والحاكم ٣ ــ ٦١٤ وصحيحه ووافقة الذهبى . ومنها عن ابى بن كعب عند عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ومنها عن ابى ذر عند أبى جرير فى تاريخه ــ ٢ ــ ٥١ ــ ٥٢ كذا فى حاشية فقه السيرة للغزالى مع تخريج الأحاديث للألبانى ص ٦٤ .

وقد راجعت مسلما فوجدته كذلك من حديث أنس مرفوعا وموقوفا بلفظ إن رسول الله ﷺ اتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ...) هذا لفظ الموقوف .

(٣) البخارى ج ١ ص ٧٣ ــ ج ٢ ص ٢٣١ ومسلم جـ ١ ص ١٠٢ .

(٤) مسلم ج ١ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ .

أما فى حال الطفولة،فمن أجل أن ينقى قلبه من مغمز الشيطان،ومن كل خلق ذميم حتى لايتلبس بشيء مما يعاب على الرجال ، وحتى لايكون فى قلبه إلا التوحيد .

وأما فى الثانية،فعندما أراد الله أن يرفعه إلى الحضرة المقدسة التى لايصعد إليها إلا مقدس،لتفرض عليه الصلاة،وليصلى بملائكة السموات ، ومن شأن الصلاة الطهور،وفى إناء الذهب والفضة إشارة إلى أن الله أذهب عنه الرجس وطهره تطهيرا . وإن قلبه أنقى شيء وأصفاه . (١)

ثم رجع محمد ﷺ إلى أمه آمنة بنت وهب،وجده عبد المطلب،فى حفظ الله ورعايته ينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامة .

وفى السادسة من عمره توفيت أمه فضمه جده عبد المطلب،ورق عليه رقة لم يرقها على ولده،وكان يقربه ويدنيه ويقول : إن له لشأنا .

وفى الثامنة من عمره توفى جده عبد المطلب،وعهد بكفالته إلى عمه أبى طالب،فقام بحق ابن أخيه خير قيام . واحتضنه بفضل احترام على أبنائه ، وظل يحدب عليه فوق أربعين عاما،يصادق ويخاصم من أجله،حتى بلغ رسالة ربه فى أحرج الظروف وأقساها،وعمه لايتابعه على دينه،هكذا كانت حكمة الله وإرادته . (٢)

عناية الله به :

نشأ محمد ــ ﷺ ــ فى أسرة لها شأنها بين العرب قاطبة ، فشب فى حفظ الله ورعايته مصونا عن أهواء الجاهلية ، لما يريد من كرامته ورسالته،حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة،وأحسنهم خلقا،وأكرمهم حسبا،وأحسنهم جوارا،وأعظمهم حلما،وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش

---

(١) انظر الروض الأنف ج ٢ ص ١٧٣ ــ ١٧٤ ــ فتح البارى ج ١ ص ٤٦٠ ، المطبعة السلفية وذكر الحافظ تعدد الشق أيضا فى غار حراء مرة وأخرى مع عبد المطلب .

(٢) انظر طبقات ابن سعد ج ١ ص ١١٨ ــ السيرة النبوية ابن هشام ج ١ص ٦٨ وما بعدها . البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٩ ــ ٢٨١ .

والأخلاق الرذيلة ، حتى ما اسمه فى قومه إلا (الأمين) لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

قال ـــ ﷺ ـــ محدثا عما كان الله يحفظه فى صغره وأمر جاهليته : (لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض مايلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة،فإنى لأُقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم : ـــ أى من الملائكة ما أراها لكمة وجيعة ـــ وفى لفظ لكمنى لكمة شديدة ثم قال : شد عليك إزارك ، فشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى ، وإزارى على من بين أصحابى) . وقد وقع مثل هذا عند إصلاح أبى طالب لزمزم ، وأخرى فى الصحيح شبيهة بها عند بناء الكعبة مع عمه العباس من حديث جابر [(1)] .

وعن على مرفوعا : (ماهممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك،ثم ماهممت بسوء حتى أكرمنى الله عز وجل برسالته ، فإنى قد قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة،فأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال : أفعل ، فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفا بالدفوف والمزامير، فقلت ماهذا؟ قالوا: فلان بن فلان تزوج فلانة بنت فلان ، فجلست أنظر إليهم فضرب الله على أذنى،فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس.قال : فجئت صاحبى فقال مافعلت ؟ قلت ماصنعت شيئا،ثم أخبرته الخبر ، قال : ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك،فقال أفعل فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ماسمعت،حين دخلتها تلك الليلة،فجلست أنظر فضرب الله على أذنى فوالله ماأيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبى فأخبرته الخبر ثم ماهممت بعدها بسوء حتى أكرمنى الله عز وجل برسالته) قال ابن كثير هذا غريب جدا . [(2)]

---

(1) البخارى ج ٢ ص ٣١٧ ، والمغازى والسير ٧٨ ـــ البداية ج ٢ ، ص ٢٧٨ ـــ السيره الحلبية ج ١ ص ١٩٩ .

(2) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٢ ص ١٩٦ ، وانظر البداية ج ٢ ص ٢٨٧ ـــ ٢٨٨ . وانظر فقه السيرة للغزالى ص ٧٢ وقد حكم الألبانى على هذا الحديث بالضعف . وذكر كلا ما يتعلق بدرجته فى الحاشية فراجعه إن شئت . .

إنها لعناية تامة ، حتى أن الله سلمه مكائد قرينه من الجن ،كما روى ابن مسعود رضى الله عنه:أن النبى ﷺ قال : (مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا : وإياك يارسول الله قال : وإياى ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير . [١]

سفره إلى الشام :

فى الثانية عشرة من عمره ﷺ أراد عمه أبو طالب السفر بتجارة إلى الشام ، فتعلق به ﷺ ، فرق له فأخذه معه .

وفى هذه الرحلة ـــ وهى الأولى ـــ روت لنا كتب التاريخ والسير بعض خوارق وقعت له حين التقى بالراهب (بحيرا) [٢]،ورأى الغمامة وهى تظلله ﷺ وتدلت عليه أغصان الشجرة،التى استظل تحتها،وسجود الحجر والشجر ووجد معالم النبوة فى وجهه وبين كتفيه .

وسأل أبا طالب ماهذا الغلام منك قال ابنى ، قال : ماينبغى أن يكون أبوه حيا ، قال فإنه ابن أخى مات أبوه وأمه به حبلى ، قال:صدقت ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود . فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . [٣]

نقاش حول هذه القصة :

هنا حمى الوطيس بين المتقدمين والمتأخرين،من حيث الصحة وعدمها .

---

(١) مسلم ج ٨ ص ١٣٩ ـــ وأسلم برفع الميم وفتحها روايتان مشهورتان فعلى الرفع أسلم انا من شره وفتنة وعلى الفتح أسلم القرين من الإسلام وصار مؤمنا لا يأمرنى إلا بخير . واختار النووى الفتح بدليل (فلا يأمرنى إلا بخير) انظر النووى ج ١٧ ص ١٥٧ .

وعصمة النبى ﷺ ـــ من الشيطان فى جسمه وخاطره ولسانه بإجماع الأمة وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى حادثة شق الصدر كما ذكرناه فى الوثنية) عن عياض وهنا نقله النووى عنه أيضا .

(٢) بحيرا بضم الباء وفتح الحاء ممدودا على المشهور لكن ضبطه الجزورى بفتح الباء وكسر الحاء المهملة وياء ساكنة وفتح الراء وألف مقصورة واسمه جرجيس بكسر الجيمين ويقال سرجس وكان حبرا من أحبارتيما وقيل كان نصرانيا من عبد القيس وقيل إنه سمع هاتفا قبل الإسلام يهتف : ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة بحيرا ورئاب الشنى والثالث المنتظر . كذا فى حاشية السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٨٠ . .

(٣) السيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٠ ـــ ١٨١ ومابعدهما والبداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٤ ـــ ٢٨٥ وسنن الترمذى مع تحفة الأحوذى ج ١٠ ص ٩٠ ـــ ٩٢ والسير والمغازى لابن اسحق ج ٢ ص ٧٣ ـــ وفقه السيرة للغزالى ص ٦٨ . والخصائص الكبرى للسيوطى ج ١ ص ٢٠٧ ـــ ٢٠٨ .

وقد رويت القصة المذكورة فى كتب السيرة مطولة،كما رواها الترمذى فى سننه مطولة أيضا ، وفى بعض ألفاظها غرابة . فقد قال نفسه (حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه) . قال الغزالى : (والمحققون على أن هذه الرواية موضوعة ..)

وقد حصل بينه وبين (ناصر الدين الألبانى مناقشة فى حاشية فقه السيرة فقد حكم الألبانى على هذه القصة بالصحة حيث قال : (بل هى صحيحة فقد أخرجها الترمذى ٢١٦/٤ من حديث أبى موسى الأشعرى) .

وقال : (هذا حديث حسن) قلت أى الألبانى : (واسناده صحيح) كما قال الجزرى . قال (أى الجزرى) (وذكر أبى بكر وبلال فيه غير محفوظ) قلت أى الألبانى : وقد رواه البزار فقال : (وأرسل معه عمه رجلا) .

وقد تعقبه الغزالى بطرف من كلام المحققين ، منهم الجزرى نفسه الذى قرر صحة إسناد الحديث المذكور .. ثم قال: (وذكر أبى بكر وبلال فيه غير محفوظ وعده أئمتنا وهما .. وهو كذلك .

فإن سن النبى ﷺ إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وأبوبكر أصغر منه بسنتين . وبلال لعله لم يكن ولد فى ذلك الوقت .

وهذا مما يدل على بطلان هذا الحديث كما قال الذهبى فى الميزان .

ثم أيد ذلك بما قاله صاحب ـــ تحفة الأحوذى من تضعيفه نقلا عن الذهبى وبما قاله ابن كثير : (فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فإن أبا موسى إنما قدم فى عام خيبر سنة سبع من الهجرة ، وعلى كل تقدير فهو مرسل) . ثم قال الغزالى : فالحديث معلل [1] طبقا لما قرره العلماء فى علم المصطلح .

تعقيب :

من المعلوم أن المتأخر ينقل عن المتقدم،وقد وجدت كلام الشيخين مستقى من مصدر واحد : هو تحفة الأحوذى ، وانفرد الغزالى بزيادة النقل عن ابن كثير كما ذكرت .

---

(١) الحديث المعلل هو الذى ظاهره السلامة ولكن اطلع فيه بعد التفتيش على قادح كالإرسال والوقف .

ومن الملاحظ أن الألبانى لم يذكر الغرابة التى صرح بها الترمذى نفسه بل سكت عنها ولم يذكر ماقاله الجزرى : (وعده أئمتنا وهما ، وهو كذلك ..) أى ذكر أبى بكر وبلال فى الحديث غير محفوظ .

ولم يذكر أيضا ماقاله الحافظ ابن حجر فى المصدر نفسه نقلا عن الإصابة من أن رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه اللفظة فيحتمل أنها مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته ولم أجد ذلك فيها .[1]

هذا وبعد البحث الشديد عن سند هذا الحديث — وإن لم يكن من اختصاص — فقد وجدت فى سنده عبد الرحمن بن غزوان . قال فيه الذهبى : (كان يحنط وله مناكير ... ومنها حديثه عن أبى موسى الأشعرى فى سفر النبى — ﷺ — وهو مراهق مع أبى طالب إلى الشام ، وقصة بحيرا .

ومما يدل على أنه باطل قوله:(ورده أبوطالب وبعث معه أبوبكر بلالا وبلال لم يكن خلق بعد ، وأبوبكر كان صبيا) .[2]

وقال فى الزاد : (... فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى المدينة،ووقع فى كتاب الترمذى وغيره أنه بعث معه بلالا،وهو من الغلط الواضح،فإن بلالا إذ ذاك لم يكن موجودا،وإن كان فلم يكن مع عمه،ولا مع أبى بكر) .[3]

وقال ابن كثير : (هو من الثقات الذين أخرج لهم البخارى ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ،ولم أر أحدا جرحه ومع هذا فى حديثه غرابة . وقال:قال عباس الدورى : ليس فى الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبى نوح (قلت) أى ابن كثير : فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة ... الخ . ولا يلتفت إلى قول ابن إسحق فى جعله له من المهاجرة إلى الحبشة من مكة .. ولعله تلقاه من النبى ﷺ فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة،أو كان مشهورا أخذه

---

(١) انظر فقه السيرة للغزالى مع الحاشية للألبانى ص ٦٨ — ٦٩ وتحفة الأحوذى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ .

(٢) ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٥٨١ تحت رقم ٤٩٣٤ — وانظر للتوسعة : تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٣) انظر زاد المعاد ج ١ ص ٣١ .

من طريق الاستفاضة .. [1]) .

ومن الملاحظ أيضا أن ماقاله ابن كثير : (ولايلتفت إلى قول أبى إسحق فى جعله لأبى موسى راوى هذا الحديث من المهاجرة إلى الحبشة من مكة) يجرنا إلى البحث فى هذه النقطة من جديد .

فقد ذكر ابن عبد البر الخلاف فى ذلك عن الواقدى (أن أبا موسى قدم مكة،فحالف سعيد بن العاص فى جماعة من الأشعريين،ثم أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة وقال : (ذكره ابن إسحق فيمن هاجر من حلفاء بنى عبد شمس إلى الحبشة) وقال :

وقالت طائفة من أهل السير أنه بعد ذلك انصرف إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى الحبشة ، ثم قدم مع إخوته فصادف قدومه قدوم السفينتين من أرض الحبشة، والصحيح أن أبا موسى رجع بعد قدومه مكة،ومخالفة من خالف من بنى عبد شمس إلى بلاد قومه،فأقام بها،حتى قدم مع الأشعريين فى سفينة،فألقتهم الريح إلى النجاشى بأرض الحبشة ، فوافقوا خروج جعفر وأصحابه منها،فقدمت السفينتان معا على النبى ﷺ فى حين فتح خيبر . لذلك ذكره ابن إسحق فيمن هاجر إلى الحبشة . [2]

وقال ابن حجر : (إنه سكن الرملة وحالف سعيد بن العاص ثم أسلم وهاجر إلى الحبشة ، وقيل بل رجع إلى بلاد قومه ولم يهاجر إليها،وهذا قول الأكثر . فإن موسى بن عقبة،وابن إسحق ،لم يذكراه من مهاجرة الحبشة،وقدم المدينة بعد فتح خيبر) . [3]

هذا وقد راجعت سيرة ابن إسحاق الأصلية ولم أجد أبا موسى الأشعرى من مهاجرة الحبشة مع حلفاء بنى عبد شمس،كما قال ابن عبد البر وابن كثير .

بل وجدته فى السيرة النبوية المشهورة لابن هشام [4].ولعل هذا من

---

(١) انظر البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) الاستيعاب مع الاصابة ج ٧ ص ٣ ـــ ٥ .

(٣) المصدر نفسه الإصابة ج ٦ ص ١٩٤ .

(٤) جـ ١ ص ٣٢٤ .

تصرفاته ، فإنه هذبها وزاد ونقص كما ذكر محققوها [(١)] وعليه يحمل قول ابن عبد البر [(*)] بدليل ماورواه البخارى ومسلم عن أبى موسى رضى الله عنه قال : (بلغنا مخرج النبى ﷺ ــ ونحن باليمن ، فركبنا سفينة فألقينا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب،فأقمنا معه حتى قدمنا فوافقنا النبى ــ ﷺ ــ حين افتتح خيبر فقال : (لكم أنتم ياأهل السفينة هجرتان) . [(٢)]

قال الحافظ : (وقد استشكل ذكر أبى موسى فى المهاجرين إلى الحبشة فيما رواه أحمد بإسناد حسن عن ابن مسعود مع هذا الحديث .

ثم قال : ويمكن الجمع بأن يكون أبو موسى هاجر أولا إلى مكة،فأسلم فبعثه النبى ﷺ مع من بعث إلى الحبشة،فتوجه إلى بلاد قومه،وهم مقابل الحبشة من الجانب الشرقى ، فلما تحقق استقرار النبى ﷺ وأصحابه بالمدينة هاجر هو ومن أسلم من قومه إلى المدينة،فألقتهم السفينة لأجل هيجان الريح إلى الحبشة،فهذا محتمل،وفيه جمع بين الأحاديث فليعتمد والله أعلم . وعلى هذا فقول أبى موسى:(بلغنا مخرج النبى ﷺ) إلى المدينة،وليس المراد بلغنا مبعثه .... ويحتمل أن إقامة أبى موسى بأرض الحبشة طالت لأجل تأخر جعفر عن الحضور إلى المدينة،حتى يأتيه الإذن من النبى ﷺ بالقدوم .) [(٣)]

ولقائل أن يقول : كيف يأمره النبى ﷺ بالهجرة ــ بعد أن أسلم ــ إلى الحبشة مع من بعث ثم يخالف ذلك فيتوجه إلى بلاد قومه بلا سبب يذكر . وذلك لا يليق فى صف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين،أما الاحتمال الثانى فهو صريح رواية مسلم عن أبى موسى وفيها (فقال جعفر:إن رسول الله ﷺ بعثنا ههنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا،فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا ... الحديث) [(٤)]

---

(١) راجع مقدمة سيرة ابن هشام ج ١ ص ١١ ومابعدها .

(*) اي قوله : والصحيح أن أبا موسى رجع بعد قدومه .. إلخ .

(٢) البخارى ج ٢ ص ٣٢٥ واللفظ له ومسلم ج ٧ ص ١٧١ ــ ١٧٣ مطولا وسكت عنه النووى أى عن شرح الحديث وذكر الخلاف . .

(٣) انظر فتح البارى ج ٧ ص ١٨٩ .

(٤) مسلم ج ٧ ص ١٧٢ .

وهذا يحتاج إلى بحث مستقل لأن الخلاف فيه أعمق مما ذكرت، بين أصحاب السير والمغازى، وبين المحدثين، فهو وإن كان أصحاب الحديث لهم باعهم الطويل فى التمحيص، فإنهم يروون أمثال هذه القصة عن أصحاب السير والمغازى، كما هو واضح فى مؤلفاتهم منها فتح البارى وغيره .

والذى توصلت إليه، أن أصل القصة يكاد أن يكون من المتفق عليها بين الرواة لشهرتها وإنما محل النزاع فى التفاصيل، كإرسال أبى بكر بلالا مع النبى ﷺ وكهجرة أبى موسى إلى الحبشة، والحديث رجاله ثقات ، إلا عبد الرحمن بن غزوان، ففيه جرح وتعديل كما سبق بيانه وغرابة فى تلك اللفظة التى قال عنها الحافظ. (فيحتمل أنها مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته) كذا فى تحفة الأحوذى [1]، نقلا عن المواهب اللدنية، نقلا عن الإصابة لكنى لم أجد ذلك فيها .

لكن إذا رجعنا إلى قواعد علوم الحديث، نجدها تقضى بأنه إذا تعارض الجرح والتعديل فى الراوى، فالجرح مقدم على التعديل، ولو زاد عدد المعدل . وهذا هو الأصح عند الفقهاء والأصوليين، ونقله الخطيب عن جمهور العلماء [2]، لأن مع الجارح زيادة علم لم يطلع عليها المعدل، ومن يعلم حجة على من لا يعلم . وقد عقب كثير من المستشرقين على قصة بحيرا، بأنها خرافية ولا أصل لها، بينما البعض الآخر ، اتخذها فرصة بأن محمدا تعلم القرآن كله على يد بحيرا، فى هذا اللقاء القصير . [3]

أقول على فرض صحة القول الأخير : إنه غير معقول البتة ، أن يتلقى غلام — سنه تسع سنين أو اثنتا عشرة سنة — القرآن من شيخ لا يعرف لغته — فى خلال الجلوس على مائدة الطعام — ماتلقاه فى ثلاث وعشرين سنة ، مع مافيه من الدقة والعمق والنقد والإعجاز وغير ذلك ﴿ **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾[4] .

---

(١) ج ١٠ ص ٩٣ — وانظر اسد الغابة ج ٣ ص ٣٦٧ .

(٢) تدريب الراوى لجلال الدين السيوطى ج ١ ص ٣٠٩ مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦ م .

(٣) انظر ظهور الإسلام ص ٥٦ .

(٤) النحل : آية ١٠٣ .

حياة الكدح :

عاد محمد ـــ ﷺ ـــ من تلك الرحلة ليستأنف حياة الكدح مع عمه أبى طالب إذ ليس من شأن الرجال القعود عن الأعمال أسوة بأسلافه المرسلين فكانوا يحترفون ليأكلوا من كد أيديهم ومن عرق جبينهم ، فكما رعى الغنم ـــ ﷺ ـــ فى بنى سعد رعاها على قراريط لأهل مكة . عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ـــ ﷺ ـــ قال (مابعث الله نبيا إلا رعى الغنم فقال أصحابه : وأنت يارسول الله . فقال نعم : كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة) .[1]

فهل هذا تعويد لهم على السياسة العامة ، والرفق بالضعفاء والسهر على حمايتهم ؟

وهل تتقدم المعارف المتصلة بالكون وما وراءه ، والناس وما يفيضون فيه ـــ فى نفوس المرسلين ـــ فجأة دون إعداد سابق أو تهيئة حكيمة ـــ كلا ـــ فالأنبياء وإن لم يتعلموا بالطرق والمناهج التى يتعلم بها أمثالنا ـــ لهم من سلامة فكرهم واستقامة نظرهم مايجعلهم فى طليعة العلماء ، إنها التعاليم الربانية **﴿ وماينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى ﴾**[2] .

مايستفاد من رعيه ـــ ﷺ ـــ الغنم :

اعلم بأن الله ـــ سبحانه ـــ قادر أن يهيىء لرسوله عليه الصلاة والسلام من أسباب الرفاهية وهو فى صدر حياته مايغنيه عن الكدح وراء العيش .

ولكن أبت حكمة الله إلا أن تعلمنا أن خير ما اكتسبه الإنسان من المال بكد يمينه ، وشره ما أصابه وهو مستلق على ظهره .

وأهم من ذلك أن أى صاحب دعوة لن يكون لدعوته أى قيمة إذا كان رزقه عالة عليها ، لذلك ينبغى أن يكون صاحب الدعوة الإسلامية أولى الناس بأن يعتمد فى معيشته على جهده الشخصى أو مورد شريف حتى لايكون لأحد من الناس عليه منة ، إذ يعيقه ذلك أن يصدع بالحق لايخاف فى الله لومة لائم .

---

(١) البخارى ج ٢ ص ٣٢ . وانظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ١٦٧ بدون ذكر القراريط .

(٢) النجم : ٢ ـــ٣ ـــ٤ وانظر فقه السيرة للغزالى ص ٧٠ .

وهذا المعنى وإن لم يكن قد خطر ببال الرسول ـ ﷺ ـ لأنه لم يكن يعلم بما سيحمل من أعباء الدعوة [1]،غير أن هذا النهج الذى هيأه الله له هو الأفضل ولاشك .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا فى عدة مواضع منها قوله تعالى،على لسان نوح عليه السلام : ﴿ **وياقوم لا أسئلكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله** ﴾[2] وعلى لسان هود عليه السلام:(ياقوم لا أسئلكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون .) [3]،وفى أربعة بل خمسة مواضع من سورة الشعراء [4]،مثل هذه الآيات وعلى لسان نبينا محمد ـ ﷺ ـ فى عدة مواضع منها قوله تعالى : (قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) [5] وقوله تعالى : ﴿ **قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى** ﴾ . [6]

قال ابن كثير : (أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطونيه) . وقال الشوكانى : (قل يامحمد لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا ولا نفعا) . وقال ابن جرير : (قل يامحمد لا أسألكم أيها القوم على دعايتكم إلى ما أدعوكم إليه من الحق الذى جئتكم به،والنصيحة التي أنصحكم بها ثوابا،وجزاء وعوضا من أموالكم تعطونيه) [7]

فعلى دعاة الإسلام أن يعتبروا بذلك ويقتدوا برسول الله ـ ﷺ ـ لينجحوا . والله الموفق .

---

(١) يشير الى هذا المعنى قوله تعالى : (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) القصص ٨٦ .
(٢) هود : ٢٩ .
(٣) هود : ٥١ .
(٤) الشعراء : ١٠٩ ـ ١٤٥ ـ ١٦٤ ـ ١٨٠ .
(٥) ص ٨٦ .
(٦) الشورى : ٢٣ .
(٧) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٥ ص ٢٣ ط . الحلبى الثالثة سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م . تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٧٣ ـ ١٨٧ ، فتح القدير ج ٤ ، ص ٤٤٦ ـ ٥٣٤ وغير ذلك من كتب التفسير .

شهوده ﷺ حرب الفجار [١] :

شهد النبى ﷺ الأعمال العامة التى أولاها قومه اهتمامهم،فخاض حرب الفجار مع أعمامه،وكانت بين قريش ومن معهم من كنانة،وبين قيس عيلان من هوازن،وقد كانت بالنسبة لقريش دفاعا عن قداسة الأشهر الحرم،ومكانة أرض الحرم ، وهذا من بقايا دين إبراهيم عليه السلام . وكان احترامها مصدر نفع كبير لهم،لانتظام مصالحهم وهدوء عداوتهم .

كان الرجل يلقى قاتل أبيه خلالها فيحجزه عن إدراك ثأره شعوره بحرمتها وهذا مما أقره الإسلام ﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموٰات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ... ﴾[٢] وقد شدد الله الوعيد على مرتكب المعصية ، بل على من هم بها ولم يعملها أى فى حرم الله وأمنه ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم** ﴾[٣] .

قال ابن كثير : (وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادىء فيه بالشر إذا كان جازما عليه وإن لم يوقعه) [٤] وقال الشوكانى بعد ذكر الخلاف فى هذا الظلم : (والحاصل أن هذه الآية دلت على أن من كان فى البيت الحرام مأخوذا بمجرد الإرادة للظلم فهى مخصصة لحديث النفس [*]،ومنه حديث (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ـــ وفيه أنه كان حريصا على قتل صاحبه) . [٥]

فما لبث الجاهليون على تلك القداسة،حتى ابتلوا بمن استباحها بظلم أنفسهم فيها .

---

(١) الفجار بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة وهو فجار البراض بفتح الموحدة وتشديد الراء المهملة وضاد معجمة وهو الفجار الرابع سمى الفجار لما استحل فيه من المحارم ا هـ . حاشية السيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) التوبة : ٣٦ .

(٣) الحج : ٢٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٠٧ .

(*) (إن الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها مالم تكلم أو تعمل) رواه الجماعة فى كتبهم السته كما قال ابن كثير فى تفسيره جـ ١ ص ٥٠٣ .

(٥) فتح القدير ج ٣ ص ٤٤٧ ـــ والحديث متفق عليه عن أبى بكرة رضى الله عنه البخارى ج ١ ص ١٥ ـــ ج ٤ ص ١٨٧ ومسلم ج ٨ ص ١٧٠ وقد ألف الشوكانى فى هذا رسالة مستقلة كما قال فى المرجع نفسه .

وكان النبى ـــ ﷺ ـــ أثناءها مع أعمامه ينبل عليهم . وفى رواية لابن سعد : أنه ﷺ قال .... وذكر الفجار (قد حضرته مع عمومتى،ورميت فيه بأسهم وما أحب أنى لم أكن فعلت) .

وأخرج أيضا عن حكيم بن حزام قال : (رأيت رسول الله ﷺ ـــ بالفجار وقد حضره) وعند ابن هشام (كنت أنبل[1] على أعمامى)،وكان عمره ﷺ إذ ذاك عشرين سنة،لأنه بعد الفيل بعشرين [2] سنة .

شهوده ﷺ حلف الفضول :

لما انصرفت قريش من حرب الفجار فى شوال،عقدت فى ذى القعدة حلف الفضول،الذى جاء فيه (ألا يجدوا فى مكة مظلوما إلا نصروه) . وقيل:إنه كان فى شعبان والفضول فى ذى القعدة .

سببه :

وسببه أن رجلا من زبيد أتى بتجارة فاشتراها العاص بن وائل السهمى، فماطله فعلا الصفا مستغيثا،فتداعت قبائل قريش،وتواثقوا فيما بينهم على نصر المظلوم،حتى ترد عليه مظلمته،أيا كان ومهما كان ذلك من خسائر وأرواح، وسمته قريش حلف الفضول . [3] وكان أكرم حلف وأشرفه .

وقد حضره النبى ـــ ﷺ ـــ وقال حين بعثه الله تعالى (لقد شهدت مع عمومتى فى دار عبد الله بن جدعان [4] حلفا،ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت)،وفى رواية ابن سعد بزيادة : (تحالفوا أن

---

(١) أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها . هامش السيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) انظر طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٢٨ ـــ السيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٤ ـــ ١٨٧ . فقه السيرة غزالى ص ٧٤ نور اليقين ص ٧ ـــ ٩ ـــ ١١ .

(٣) سمى بذلك لأنهم تحالفوا على رد الفضول لأهلها وقيل لأنه حضره جماعة كل منهم اسمه الفضل بن فلان وقيل غير ذلك كذا فى هامش السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ١٣٣ .

(٤) يكنى أبا زهير وهو ابن عم عائشة أم المؤمنين وكان فى بدء أمره صعلوكا فاتكايجن الجنايات فنفاه ابوه وقومه ثم اثرى بعثوره على ثعبان من ذهب وكان من أمره ما كان سئل عنه النبى هل ينفعه كرمه قال : لا لأنه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين اهـ . هامش السيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٤ مسلم جـ١ص١٣٦ وسياتى فى ص ٣٩١ فى هذه الرسالة .

يكونوا مع المظلوم مابل بحر صوفه)[١] .

وفى هذا دلالة على أن الحياة مهما اسودت صحائفها،وكلحت شرورها،فإنها لن تخلو من نفوس تهزها معانى النبل،وتستجيشها إلى النجدة والبر . ومن ثنايا الكلمات النبوية،يظهر الفرح،لأن ذلك من مكارم الأخلاق،والرسول ﷺ إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق،كما يقول عليه الصلاة والسلام (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[٢] .

زواجه ﷺ بخديجة رضى الله عنها :

كانت خديجة ـــ رضى الله عنها ـــ امرأة ذات شرف ومال،تستأجر الرجال فى تجارتها . فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ـــ صدق الحديث وعظم الأمانة ... وأرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام،وتعطيه أفضل ماتعطى غيره . وقبل محمد ـــ ﷺ ـــ فخرج مع غلامها ميسرة إلى الشام،فباعا وابتاعا ورجعا بربح عظيم .

ثم حدثها ميسرة بما رأى من خصائص النبى ـــ ﷺ ـــ وكانت عاقلة ذكية شريفة مشهورة بذلك بين قومها قريش ، مع ما أراد الله من كرامتها ـــ فأعجبت بذلك،فأرسلت تخطبه لنفسها،وكان سنه خمسا وعشرين سنة،وسنها نحو الأربعين فخطبها بواسطة عمه أبى طالب وعمه حمزة،من عمها عمرو بن أسد وقيل من أبيها والصحيح أن أباها توفى قبل الفجار .

وقد خطب أبو طالب فى هذه المناسبة الشريفة خطبته المشهورة:(الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل .. ثم إن ابن أخى محمدا لا يوزن به فتى من قريش شرفا ونبلا وفضلا ، وإن كان فى المال قُلٌّ فإن المال ظل زائل،وعارية مستردة،وله فى خديجة بنت خويلد رغبة،ولها فيه مثل ذلك، وقد بذل لها من الصداق كذا) .. فكان جواب وليها عمها : هو الفحل الذى لايقدع أنفه :[٣] وعلى ذلك تم الأمر،وكانت تزوجت من قبل بأبى هالة،

---

(١) المرجع نفسه مع الصفحة وأخرجه أحمد فى منده مرفوعا بسند صحيح انظر البداية لامر كثر ص ٢٩١ فقه السيرة تخريج الالبانى ص ٧٥ وانظر البداية ج ٢ ص ٢٩٣ ، طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) مسند احمد ج ٢ ص ٣٨١ عن أبى هريرة مرفوعا صحيحا .

(٣) قدعه كمنعه كفه كاقدعه وفرسه كبحه . قاموس ج ٣ ص ٦٥ .

وتوفى عنها وله منها ولد اسمه هالة ، قال النبى ﷺ فى حقها رضى الله عنها: (آمنت بى حين كذبنى الناس،وواستنى بمالها،حين حرمنى الناس،ورزقت الولد منها،وحرمته من غيرها) .

وكان يحبها حبا شديدا،ويكثر من ذكرها بعد موتها عند عائشة رضى الله عنها،فأغضبته يوما،فقالت خديجة كأنها غارت من كثرة ذكرها فقال ﷺ:(إنى قد رزقت حبها)،وفى رواية عنها (ماغرت على امرأة ماغرت على خديجة) وقد بشرها النبى ﷺ ــ ببيت فى الجنة من قصب لانصب،فيه ولا صخب، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (أتى جبريل النبى ﷺ فقال : يارسول الله هذه خديجة،قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب،فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ــ عز وجل ــ وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب) .. والمراد بالقصب هنا اللؤلؤ المجوف .

وكانت أول امرأة تزوجها،ولم يتزوج عليها غيرها،حتى ماتت فى العام الذى توفى فيه أبو طالب،وسمى عام الحزن،فتتابعت على الرسول ﷺ المصائب، وكانت وزيرة صدق للإسلام،وكان ﷺ يسكن إليها .[1]

ــ مايستفاد من زواجه ﷺ بخديجة رضى الله عنها :

إن أول مايدركه الإنسان فى هذا الزواج،هو عدم اهتمام الرسول ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها .. ولو كان كذلك كما هو طبيعة الشباب — لطمع فيمن هى أقل منه سنا،وإنما رغب فيها وفى نبلها بين قومها،إذ كانت تلقب بالعفيفة الطاهرة .

وفى هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام،من مبشرين ومستشرقين،وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم،ينعقون[2] بما

---

(١) مسلم ج ٧ ص ١٣٢ ــ ١٣٤ ــ الروض الأنف جـ ٢ ص ٢٣١ ــ ٢٣٨ ، السيرة النبوية ابن هشام جـ ١ ص ١٨٧ ــ ١٩٠ ، السير والمغازى ٢٤٣ ــ ٢٤٤ ــ نور اليقين ص ١٢ ــ ١٣ .

(٢) نعق الراعى بغنمه نعيقا : صاح بغنمه وزجرها أى فهم كالبهائم تسمع صوت راعيها ولا تفهمه . انظر المصباح المنير ج ٢ ص ٢٨٣ ــ تفسير الجلالين ص ٢٣ عند تفسير قوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لايعقلون) ١٧١ من سورة البقرة .

لايسمعون إلا دعاء ونداء .. فقد ظنوا أنهم يجدون فى موضوع زواج النبى ﷺ مطعنا يصاب منه الإسلام،وتخيلوا أن فى مقدورهم،أن يجعلوه عند الناس فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذة الجسد .. ومعلوم أن هؤلاء هم خصوم الإسلام المحترفون .

أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم،فأكثرهم يخاصمون الإسلام سماعا وتقليدا،لا لبحث ولا لفهم،يريدون أن يلصقوا به صورة الرجل الشهوانى .

ولو كان كذلك لما عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره فى بيئة مثل بيئة العرب فى جاهليتها،بل عاش عفيف النفس .. دون أن ينساق فى شىء من التيارات الفاسدة التى تموج من حوله .

قدرته عليه الصلاة والسلام على حل المشكلات الطارئة :

إنه لاتوجد أمة فى العالم أكثر مشكلات من العرب ، إذ العوامل التى تثير المشاكل كثيرة جدا ، فكلمة قد تثير حربا ، وجرح كرامة قد يؤدى إلى ويلات ، وعصبية عارمة ، وجرأة نادرة وقسوة وصلابة وعدم انضباط .

وكل واحدة من هذه تحتاج إلى قيادة تتمتع بكفاءة غير عادية .

وقد استطاع محمد ﷺ أن يقود هذا الشعب القوى المراس،ويحل مشكلاته فى يسر . باشر ذلك قبل البعثة وبعدها ، فمنها قبل البعثة،حله لمشكلة وضع الحجر الأسود ، لما جددت قريش بناء الكعبة شارك ﷺ فى ذلك مشاركة فعالة مع عمه العباس،ينقلان الحجارة فقال عباس : للنبى ﷺ — (اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة،فخر إلى الأرض وطمحت [1] عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال : إزارى إزارى ، فشد عليه إزاره فما رؤى بعد عريانا) [2] .

ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود،تنافست قريش فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه ، فتوقف العمل واحتدم [3] النزاع،وانحازت كل قبيلة إلى

---

(١) اى ارتفعتا طمح ببصره نحو الشىء بفتحتين طموحا استشرف له . مصباح ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) البخارى ج ٢ ص ٣١٧ .

(٣) احتدم الشىء أى اشتد ومنه احتدمت النار أى اشتد حرها واحتدم النهار أى اشتد حره . مصباح نفسه .

زعيمها،وتعاهدوا على الموت،واستمر ذلك أياما،وكادت الحرب أن تنفجر حول الكعبة لولا أن الله سبحانه أنطق أبا أمية بن المغيرة،وكان من أسن أشراف قريش فأشار عليهم بتحكيم أول من يدخل من باب المسجد ، فامتثلوا ، وشاء الله أن يكون أول داخل عليهم محمد ﷺ فلما رأوه قالوا : هاتفين هذا الأمين رضينا ، هذا محمد ..

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر،قال : هلم إلى ثوبا،فأتى به،فأخذ الحجر بيده فوضعه فى الثوب ثم قال : لتأخذ كل قبيلة أو كل رئيس بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا فرفعوه،حتى إذا بلغوا به موضعه،وضعه بيده الشريفة فى مكانه، ثم بنا عليه،فأرضاهم حكمه . وكان ذلك فى الخامسة والثلاثين من عمره [1]

ــ ما يستنتج من ذلك :

١ ــ مدى حكمته ﷺ ــ فى تدبير الأمور، وسياسة القضايا، وقطع الخصومات،لاسيما بين أقوام قلما قامت بينهم خصومة،ثم نامت قبل أن تراق فيها الدماء .

٢ ــ مدى سمو منزلته ﷺ بين رجال قريش على اختلاف طبقاتهم،فقد كان يلقب بالصادق الأمين،وإنما عاندوا ــ حقداــ بعد أن جاءته الرسالة من عند الله فقابلوه بالتكذيب والإيذاء .

٣ ــ إثارة الإعجاب فى نفوس المحيطين به لفرط ذكائه ﷺ،وقدرته على حل هذه المعضلة،التى عجز عن حلها أشرافهم وشيوخهم . وكيف انقادوا لأصغرهم سنا،حتى قال قائل ، كما روى المسعودى:(واعجبا لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول،عمدوا إلى أصغرهم سنا،وأقلهم مالا فجعلوه رئيسا عليهم،وحاكما .. أما واللات والعزى ليفوقنهم سبقا .. وليكونن له بعد هذا اليوم شأن عظيم) .

فمن هو هذا القائل ؟

---

(١)انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٢٥ قال الألبانى حديث حسن كذا فى حاشية فقه السيرة للغزالى ص ٨٤ – السير والمغاوى ج ١ ص ١٠٧ – ابن هشام ج ١ ص ١٩٦ – ١٩٧ . فقه السيرة للغزالى ص ٨٣ – ٨٤ – الرسول ج ١ ص ٢١٨ لسعيد حوى .

قيل إنه إبليس ظهر فى صورة رجل من قريش كان قد مات ، وقيل إنه بعض رجال قريش وحكمائهم ممن له فطنة) [1]

وقد تمثل إبليس عدة مرات فى صورة شخص معروف منها:عندما اجتمعت قريش فى دار الندوة لتبادل الآراء فى التخلص من النبى ﷺ،ودعوته بأى وسيلة، فحضر إبليس الندوة،فى صورة شيخ نجدى،واستصوب رأى أبى جهل القاضى بقتل النبى ﷺ .

ومنها يوم بدر فى صورة سراقة ابن مالك .

وقد أشار القران الكريم إلى ذلك بقوله تعالى ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالاترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب** [2] ﴾ .

وإلى دار الندوة أشار بعض المفسرين عند قوله تعالى:﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**) [3] منهم ابن كثير وغيره . [4]

التحنث [5] فى غار حراء :

لما أخذت سن محمد ﷺ ـــ تصعد نحو الأربعين ، تاقت نفسه إلى العزلة وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه،فأمست نظرته إليهم سخرية،سواء كانت من الناحية الفكرية أو النفسية،لما يرى عليه قومه من الضلال المبين .

وفى بعض الفترات من تلك الخلوات،كان يرى ويسمع كثيرا من الخوارق،

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) الأنفال : ٤٨ .

(٣) الأنفال : ٣٠ .

(٤) انظر تفسير الطبرى ج ٩ ص ٢٢٧ ــ تفسير القرآن المظيم لابن كثير ج ٣ ص ٥٨٤ ــ ٥٨٥ ــ فتح القدير ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٥) التعبد الليالى ذوات العدد كذا فى البخارى ج ١ ص ٦ ــ مصباح ج ١ ، ص ١٤٤ . وحراء جبل معروف بأعلى مكة على يسار الذاهب إلى منى له قلة مشرفة على مكة .

كتسليم الحجر والشجر عليه ، من ذلك حديث جابر [1] بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ـــ:(إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن) .

كان يتعبد فى غار حراء الليالى ذوات العدد،يتزود لذلك،فإذا نفد يرجع إلى خديجة رضى الله عنها،ثم يتزود من جديد لخلوة أخرى،ليصقل قلبه، وينقى روحه، ويقترب من الحق،حتى أمسى لايرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح . [2]

قال الندوى : (وكان يجد فى نفسه قلقا غامضا،لايعرف مصدره ولا مصيره، ولا يخطر بباله لحظة ما الله مكرمه به من الوحى والرسالة،ولا يحلم بذلك فى يوم من الأيام) [3] ﴿ **وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين** ﴾ . [4]

فإن قيل:على أى دين كان محمد ﷺ يتعبد فى غار حراء قبيل البعثة ؟ فالجواب ـــ والله أعلم ـــ أنه كان على دين أبيه إبراهيم ، وقد سبقت الإشارة إلى أن الحنفاء فى الجزيرة العربية،كانوا يتعبدون على دين إبراهيم عليه السلام، وذلك فيما يتعلق بالأمور الدينية ، وقيل كان على دين نوح،وقيل كان على دين موسى ، وقيل على دين عيسى ـــ عليهم السلام ـــ والأول هو الأشبه [5] والله أعلم .

ـــ خلاصة حياته ﷺ قبل البعثة :

إن أربعين سنة من حياة محمد ﷺ،لهى القاعدة التى أقيم عليها صرح النبوة

---

(١) هو من بنى صعصعة العامرى له ولأبيه صحبة أمه خالدة بنت أبى وقاص أخرج له أصحاب الصحيح جلس مع النبى أكثر من مائة جلسة وصلى معه أكثر من ألفى صلاة أومرة نزل الكوفة وابتنى بها دارا وتوفى فى ولاية بشر بن مروان عليها سنة أربع وسبعين وقيل توفى فى أيام المختار سنة ست وستين كذا فى الإصابة والاستيعاب معا ج ٢ ص ٤٣ ـــ ١١٩ . . .

(٢) انظر البخارى ج ١ ص ٦ ـــ ٧ من حديث عائشة الطويل ـــ مسلم ج ٧ ص ٥٨ ـــ ٥٩ الترمذى بتحفة الأحوذى ج ١٠ ص ٩٨ ـــ السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٢٣٤ ـــ ٢٣٥ . فقه السيرة ـــ للغزالى ـــ ص ٨٨ ـــ ٨٩ .

(٣) السيرة النبوية ، ندوى ص ٨٠ دار الشروق ـــ جدة .

(٤) القصص : ٨٦ .

(٥) انظر سيرة ابن كثير ج ١ ص ٣٩١ . وسيأتى أنه كان على دين إبراهيم عليه السلام عندما عثر أبو طالب على النبى ـــ ﷺ ـــ يصلى هو وعلي في شعاب مكة ص ١٣٨ فى هذا البحث .

الشامخ .

١ ــ فمن أصالة أبويه:أخذ أصالة الشخصية فى دمه وأعصابه ، فكسب على المستوى الاجتماعى احتراما وتقديرا،فى بيئة كانت تستهجن مجهول الإنسان، وتحتقر الخلطاء .

٢ ــ ومن مرارة اليتم ووحشة العزلة ، وانقطاع معين العطف والحنان ، إلا الرعاية الربانية التى أحاطته منذ ولادته ــ قبس الصلابة والاستقلال،والقدرة على التحمل،والإرادة النافذة التابعة لإرادة الله تعالى،والتحدى الذى لاتنكسر له قناة .

٣ ــ وبالفقر والحرمان،تربى ونما بعيدا عن ترف الغنى وميوعة الدلال،وفتح عينيه ووعيه تجاه العالم الذى يتجاوز حدود الصحراء، من رحلته الأولى إلى الشام .

٤ ــ وفى الثانية توسعت وتعمقت معطيات الأولى وزاد عليها ، إدراكا أكثر، لما يحدث فى أطراف عالمه العربى،من علاقات بين الغالب والمغلوب، والسيد والمسود .. وو ...

٥ ــ ويصمد أمام إغراء الذهب والفضة فى تجارته مع خديجة،لاتلحق أمانته ذرة من غبار .

٦ ــ فى حرب الفجار مارس شئون القتال،وكأنه أريد له أن يجرب كل شىء،وأن يبنى عبر نشاطاته المتنوعة جميعا شخصية قادرة على التصدى لكل مشكلة،والإسهام الإيجابى الفعال،فى كل ما من شأنه أن يقيم عدلا،أو يعين حقا .

٧ ــ شارك فى حلف الفضول تجربة السياسة والحكمة .

٨ ــ وفى بناء الكعبة أعرب عن ذكائه الوقاد،المثير للإعجاب فى حل المشكلات العويصة والمعقدة .

٩ ــ يتزوج فيمارس كبرى التجارب الاجتماعية،فى حياة الإنسان بنجاح .

١٠ – أما الجانب الأخلاقى ، فيتمثل واضحا فى انسلاخه الحاسم عن كل

ممارسة الجاهليين المنافية للأخلاق ، حين كانت تعج بها الحياة العربية فى المدينة والصحراء .

١١ ــ أما الجانب الروحى ــ الفكرى ــ وهو أشدها ثقلا وخطرا فى حياة الإنسان،فالروايات التى تحدثنا عن عزلته ﷺ بعيدا عن ضجة مكة،حينا بعد حين،وعن انقطاعه إلى الصحراء،وحيدا متأملا مقلبا وجهه فى الكون ، فذلك يكفى لالتقاط الإشارة الأخيرة الحاسمة،المتممة للصورة،التى يجب أن نعرفها عن حياته ﷺ قبل بعثته . [١]

أما حياته بعدها،فذلك ماسنتحدث عن بعض جوانبها فيما يلى إن شاء الله تعالى،وسنبدأ بظاهرة الوحى نسأل الله التوفيق .

ــ إثبات الوحى [٢] :

إن الوحى هو الفيصل الوحيد،بين من يبلغ عن ربه دون زيادة أو نقصان، وبين من يشرع بواسطة رأيه،لذلك اهتم محترفو التشكيك بالإسلام بموضوع (الوحى)،وبذلوا جهدا شاقا ليلبسوا ويخلطوا بينه وبين الإلهام وحديث النفس بل وحتى الصرع ، لعلمهم بأن حقيقة الوحى،هى منبع يقين المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد ــ ﷺ ــ من عند الله .

فلئن أتيح لهم تشكيكهم،أمكنهم التمهيد لفكرة أن ماجاء به من المبادىء والأحكام ليس إلا من تفكيره الذاتى [٣] ، وكذبوا وصدق الله عز وجل القائل ﴿ وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى ﴾ [٤] .

وقال : ﷺ ــ (ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر،وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى الله إلى فأرجو أن أكون

---

(١) مستفاد مما سبق ومن دراسة فى السيرة لعماد الدين خليل ص ٤٧ ، فقه السيرة للغزالى .

(٢) الوحى لغة الإعلام فى خفاء ، والوحى الكتابة ، والمكتوب ، والبعث ، الإلهام ، والأمر ، والإيماء والإشارة والتصويت شيئا بعد شىء ..
وشرعا الإعلام بالشرع . وقد يطلق الوحى ويراد به اسم المفعول منه أى الموحى وهو كلام الله المنزل على محمد ﷺ ، فتح البارى ج ١ ص ٩ ــ وهذا هو المراد هنا . وانظر الوحى المحمدى ص ٤٣ ــ ٤٥ .

(٣) انظر فقه السيرة للبوطى ص ٨٠ وما بعدها والمصباح ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٤) النجم : آية ٣ ــ ٤ ــ ٥ .

أكثرهم تابعا يوم القيامة) .[1]

إن النبيين عليهم الصلاة والسلام، كانت معجزاتهم شاهدة على صدق الوحى، الذى أنزل إليهم وبلغوه . أما الرسول ﷺ، فمعجزته كانت فى نفس الوحى ، فالوحى نفسه فيه دليل على أنه من عند الله ـــ عز وجل، إذ هو ذاته المعجزة ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية، كانوا يلفتون إلى أن الآية بين أيديهم ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ .[2]

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : (أول مابدىء به رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـــ وهو التعبد الليالى ذوات العدد ـــ قبل أن ينزع [3] إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك، فقال له: اقرأ . قال: ما أنا بقارىء [4] قال : فأخذنى فغطنى،[5]. حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ . قلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد [6]، ثم أرسلنى فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ﴾ .

فرجع بها رسول الله ﷺ، يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة : كلا [7]

(١) متفق عليه : البخارى ج ٤ ص ٢٥٦ ـــ مسلم ح ١ ص ٩٢ ـــ ٩٣ . واللفظ له مسند احمد ج ٢ ص ٣٤١ ـــ ٤٥١ عن ابى هريرة .

(٢) العنكبوت آية ٥٠ ـــ ٥١ .

(٣) ينزع ـــ يرجع وزنا ومعنى اهـ . فتح ج ١ ص ٢٣ .

(٤) اى مستفسرا وضعفوه بإدخال الباء على الخبر وقيل معناه لا أحسن القراءة نووى ج ٢ ص ١٩٩ .

(٥) عصرنى وضمنى وحنقنى بمعنى .

(٦) الغاية والمشقة .

(٧) نفى وإبعاد .

والله لايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل [١] وتكسب المعدوم [٢] ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق [٣] . فانطلقت به خديجة،حتى أتت به ورقة بن نوفل،ابن عم خديجة،وكان امرأ تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى،فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب . وكان شيخا كبيرا قد عمى . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة:يا بن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر مارأى فقال له ورقة : هذا الناموس [٤] الذى أنزل الله على موسى . ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ أومخرجى هم ؟ قال:نعم لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا،ثم لم يلبث ورقة أن توفى ، وفتر الوحى) [٥]

وفى هذا دليل على أن أول مانزل من القرآن مطلع سورة العلق،والقول بأنه ﴿ **يأيها المدثر** ﴾ ضعيف بل ليس بشيء.قاله النووى [٦]

قلت : ويمكن الجمع بين القولين ،أنه ﷺ نبىء باقرأ،وأرسل بالمدثر،كما قال محمد بن عبد الوهاب،وهذا الذى أميل إليه ، لأن مطلع سورة العلق ليس فيه تكليف بالدعوة وإنما الأمر بالقراءة بخلاف ﴿ **يأيها المدثر** ﴾ ففيها الأمر بالتبليغ ﴿ **قم فأنذر** ..... ﴾ والله أعلم . ثم فتر الوحى بعد ذلك .

ـــ فترة الوحى :

ثم فتر الوحى عنه ﷺ ـــ مدة اختلف العلماء فى تحديدها [٧]،فشق ذلك عليه وأحزنه،حتى كاد أن يلقى بنفسه من رؤوس الجبال كما قال البخارى:(وفتر الوحى حتى حزن ﷺ ـــ فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رؤوس

---

(١) من الكلال وهو الإعياء .

(٢) أى تعطيه المال تبرعا .

(٣) النوائب الحوادث .

(٤) الناموس صاحب سر الرجل ، وقيل جبريل وهو المراد هنا كذا فى المرجع نفسه النووى حا ص ٢٠٣ فتح البارى جـ ا ص ٢٦ .

(٥) البخارى ج ١ ص ٦ ـــ ٧ مسلم ج ١ ص ـــ ٩٧ واللفظ للبخارى .

(٦) انظر شرح مسلم ج ٢ ص ١٩٩ .

(٧) قيل ثلاث سنين وقيل ستة أشهر وقيل غير ذلك انظر التفاصيل فى الفتح ج ١ ص ٢٧ .

شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى منه نفسه، تبدى له جبريل فقال يامحمد : إنك رسول الله حقا . فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحى، غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك) . [1]

قال الحافظ :.. ثم إن القائل فيما بلغنا هو الزهرى، ومعنى الكلام أن في جملة ماوصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ فى هذه القصة .... وهو من بلاغات الزهرى وليس موصولا) وقد أطال الكلام حول هذا فى الفتح [2]

وقال أبوشهبة : (وهذه الرواية ليست على شرط الصحيح، لأنها من البلاغات وهى من قبيل المنقطع، وهو من أنواع الضعيف، والبخارى لايخرج إلا الأحاديث المتصلة برواية العدول .

ولعله ذكرها لينبهنا إلى مخالفتها، لما صح عنده فى حديث بدء الوحى الذى لم تذكر فيه هذه الزيادة ، وليس أدل على ضعفها وتهافتها، من أن جبريل كان يقول للنبى كلما أوفى بذروة جبل:(يامحمد أنت رسول الله حقا) وأنه كرر ذلك مرارا ....) [3]

ــ أنواع الوحى :

كان الوحى الذى يأتيه ﷺ أنواعا :

١ ــ الرؤيا كما سبق فى حديث عائشة رضى الله عنها، ومنه قوله تعالى ﴿ **إنى أرى فى المنام أنى أذبحك** ﴾ [4] .

٢ ــ ماكان يلقيه الملك فى روعه [5] من غير أن يراه . ومنه قوله ﷺ (إن روح القدس نفث فى روعى، أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها

---

(١) البخارى ج ٤ ص ٢٠٨ .

(٢) فتح البارى ج ١٢ ص ٣٥٩ وقال ايضا : (وأخرجه احمد ومسلم والإسماعيلى وأبو نعيم بدونها .

(٣) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٦٧ ــ ٢٦٩ .

(٤) الصافات : ١٠٢ .

(٥) روعه بالضم قلبه وخاطره . مصباح ج ١ ص ٢٦٤ .

وآجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب) . [1]

٣ ــ كان يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه،وكان أحيانا يراه الصحابه كدحية الكلبى . [2]

٤ ــ كان يأتيه مثل صلصلة الجرس،وهو أشده عليه حتى أن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد [3]،وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض . [4]

وجاءه مرة وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فكادت أن ترض [5]

٥ ــ كان يأتيه الملك فى الصورة التى خلق عليها،فيوحى إليه ماشاء الله وهذا وقع مرتين . [6]

٦ ــ ما أوحاه الله إليه فوق السموات عند سدرة المنتهى،ليلة المعراج من فرض الصلوات وغيرها . [7]

قد يقال لم كانت بعض أوائل الوحى بهذه المثابة من الشدة،ولماذا لم يبدأ نزول القرآن إلهاما ؟ لأنه أبعد عن دواعى الفزع والإعياء .

فالجواب أن نزول القرآن اتخذ هذه الطريقة أول الأمر،ونزل الملك به فى هذا المظهر قطعا لكل شبهة فى أنه كلام الله،وأن محمدا حمله تحميلا بعد أن اصطفى له واختص .

فليس هو افتعال عابد منقطع تخيل فخال ، ولا صناعة فيلسوف ماهر يجيد

---

(١) أخرجه الحاكم والطبرانى وأبو نعيم والبزار والهيثمى فى مجمع الزوائد وجزم ابن القيم فى الزاد بنسبته إلى النبى ﷺ كذا فى تخريج أحاديث فقه السيرة ص ٩٦ ــ وقال الألبانى حديث صحيح .

(٢) البخارى ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٣) البخارى ج ١ ص ٦ .

(٤) احمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبى وهو من حديث عائشة وله شاهدان وانظر تخريج فقه السيرة ص ٩٥ .

(٥) البخارى ج ١ ص ٧٧ ــ مسند احمد ج ١ ص ٢٧٥ سنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٨ ص ٣٩١ ــ النسائى مع زهر الربى للسيوطى ج ٦ ص ٩ ط الحلبى .

(٦) البخارى ج ٣ ص ١٩٣ ــ ١٩٤ ــ مسلم جـ ١ ص ١٠٩ مسند أحمد ج ٦ ص ٢٤١ .

(٧) انظر البخارى ج ٤ ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ ــ مسلم ج ١ ص ٩٩ ــ ١٠١ ــ مختصر السيرة محمد بن عبد الوهاب ص ٥٣ ، السيرة النبوية أبو شهبة ج ١ ص ٢٧٣ ــ ٢٧٧ ــ الوحى المحمدى ص ٤٣ ــ ٤٥ محمد رشيد رضا ــ المكتب الإسلامى ط . الثامنة .

سوق الأدلة وتنميق المقال،إنما هو كلام الأحد الحق الكبير المتعال ، ﴿ **إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى** ﴾ [1] (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) ولقد رد عليهم الرد الواضح الذى لايحتاج إلى جدل ﴿ **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ [2] .

فعلمهم بأعجمية هذا البشر ، وعربية هذا القرآن كان ينبغى أن يمنعهم عن مثل تلك المقالة .

١ ـــ ومعلوم أن قريشا أفصح العرب على الإطلاق وأبلغهم وأقدرهم على الكلام نظما ونثرا ، وقد عجزوا عن الإتيان بمثله،أو بسورة منه،بل عجز الجن والإنس عن ذلك .

٢ ـــ إن الكافرين مؤمنون بأن هذا القرآن،لايمكن أن يكون على هذه الحالة إلا إذا كان محمد ـــ ﷺ ـــ قد تعلم أعظم مايكون العلم،وتصورهم هذا هو الذى يجعلهم يستبعدون معنى الوحى .

٣ ـــ وكونه لم يثبت التاريخ أنه تلقى علما من أحد ، فليس أمامهم إلا نسبة القرآن إلى الوحى ، فإن مكة لم يكن بها أهل كتاب إلا ورقة بن نوفل وجبر الحداد ، ولم يتعلم على أحد منهما .

٤ ـــ كيف يتعلم ذلك العربى الفصيح من غلام سوقى ألكن ، يتعلم القرآن المعجزة الخالدة ، فذلك يستلزم أن يكون المعلم فائقا على المتعلم،فكيف يكون الأعجمى متفوقا على العربى ، لأن القرآن نزل بلغة العرب وليس هناك أى نص تاريخى يشير إلى ذلك .

٥ ـــ وهم معترفون أن القرآن عربى،وأن محمداً عربى،وإنما ينكرون عموم رسالته ﷺ .

٦ ـــ إن النبوة قائمة على الصدق،ولو رأى الأتباع وهم يخالطونه ـــ ليل نهار ـــ ذرة شبهة،لأنكروا وبينوا،والصحابة كانوا أعرف الناس بمحمد ﷺ

(١) النجم : ٤ ـــ ٥ .
(٢) النحل : ١٠٣ .

صبيا وشابا وكهلا ، ولو كانوا يعرفون غير هذا لرأوا فى ذلك مدخلا يشكون فيه ، فإذا ما تأكدت شهادة التاريخ والواقع،وانتفى إمكانية التعلم البشرى،لم يبق إلا أنه الوحى، مصدرا سماويا،لأعظم أثر فى تاريخ البشرية .

وقد شهد بإعجازه بعض المستشرقين المنصفين،الذين درسوا القرآن الكريم، بقصد الطعن فيه لحساب دولهم المستعمرة ، لكن المنصفين لم يلبثوا أن فارقوا دينهم ودخلوا فى دين الله،بعد أن عرفوا أنه الدين الحق،وهذا بعض ما قالوه فى القرآن :

قال المستشرق (سيل) إن أسلوب القرآن جميل ، وفياض ، ومن العجب أنه يأسر بأسلوبه أذهان المسيحيين فيجذبهم إلى تلاوته،سواء فى ذلك الذين آمنوا به أم الذين لم يؤمنوا به وعارضوه) .

وقال (هرشفلد) : (ليس للقرآن مثيل فى قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه،وإليه يرجع الفضل فى ازدهار العلوم،بكافة نواحيها فى العالم الإسلامى) .

وقال الدكتور (موريس) الفرنسى : (إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبنى البشر وأنه كتاب لا ريب فيه) .

وقال المستشرق (ليون) : (حسب القرآن جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه،لم تستطع أن تخفف ولو بعض شىء من أسلوبه الذى لايزال غضا،كأن عهده بالوجود أمس [1]) .

ــ ظاهرة الوحى :

هذا الحادث يعد ضخما إلى غير حد ، ضخم بحقيقته ، بدلالته بآثاره فى حياة البشرية جميعا ، وهذه اللحظة التى تم فيها هذا الحادث تعد ــ بغير مبالغة ــ أعظم لحظة مرت بهذه الأرض فى تاريخها الطويل،فما حقيقة هذا الحادث . ؟

---

(١) انظر التفاصيل فى روح المعانى ج ١٤ ص ٢٣٤ للألوسى ط . بيروت .
ــ الرسول ــ ج ٢ ص ١٢ ــ ١٣ ــ الفتوحات الإلهية ج ٢ ص ٥٩٩ ــ توحيد الخالق ج ١ ص ٧٠/٦٩ من القسم الأول الوحى المحمدى ص ٣٤ ومابعدها فقه السيرة ، الغزالى ص ٩٦ .

١ ــ حقيقته أن الله جل جلاله فى أسمائه وصفاته،قد تكرم فى عليائه على هذه الخليقة المسماة بالإنسان،وكرمها باختيار واحد منها،ليكون ملتقى نوره الإلّهى ومستودع حكمته ومهبط كلماته،وتنفيذ قدره الذى يريده ــ سبحانه ــ بهذه الخليقة .

هذه حقيقة كبيرة إلى غير حد،تتكشف جوانب من عظمتها،حين يتصور الإنسان عظمة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية،ويتصور فى ظلها حقيقة العبودية الحادثة الفانية،ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنسانى، ويتذوق حلاوة هذا الشعور،ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال،وهو يتصور كلمات الله تتجاوب بها جنبات الوجود كله منزلة لهذا الإنسان فى ذلك الركن المنزوى فى أركان الوجود الضئيلة .

وما دلالة هذا الحادث ؟

٢ ــ دلالته فى جانب الله ــ سبحانه ــ أنه ذو الفضل الواسع والرحمة السابغة الكريم الودود المنان،يفيض من عطائه على خلقه بغير حساب .

٣ ــ ودلالته فى جانب الإنسان أن الله ــ سبحانه ــ قد أكرمه كرامة لايكاد يتصورها،ولا يملك أن يشكرها وإن هذه وحدها لاينهض لها شكره ولو قضى عمره راكعا ساجدا ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها** [١] ﴾ .

وأما آثاره فى حياة البشر ية كلها ، فقد بدأت منذ اللحظة الأولى فى تحويل مجرى التاريخ،منذ أن بدأت فى تحويل خط الضمير الإنسانى،منذ أن تحددت الجهة التى يتطلع إليها الإنسان،ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه .

إنها ليست الأرض .. وليس الهواء .. إنما هو الوحى الإلّهى .

إنها فترة عجيبة لا يتصور حقيقتها إلا الذين عاشوها،وشهدوا بدءها ونهايتها وذاقوا حلاوة اتصالها،ورأوا من أين بدأوا وإلى أين انتهوا .

إنها مسافة هائلة لا تعد لها مسافة فى الكون الظاهر،مسافة بين التلقى من الأرض والتلقى من السماء ، بين الاستمداد من الهوى والاستمداد من الوحى

---

(١) ابراهيم : ٣٤ .

بين الجاهلية والإسلام .. بين البشرية والربانية،وهى أبعد مما بين السماء والأرض فى عالم الأجرام . [1]

ـــ صورة مصغرة للعالم حيال البعثة :

بعث محمد ﷺ ـــ والعالم بناء أصيب بزلزال شديد ، هزه هزا عنيفا،فإذا كل شىء فى غير محله،فمن أساسه ومتاعه منه ماتكسر،ومنه ما التوى،ومنه ما فارق محله اللائق به،وشغل مكانا آخر،ومنه ما تكدس وتكوم .

نظر إلى العالم بعين الأنبياء،فرأى إنسانا قد هانت عليه إنسانيته،يسجد للحجر والشجر،وكل مالا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

رأى إنسانا معكوسا،قد فسدت عقليته،فلم تعد تستسيغ البديهيات،وتعقل الجليات،وقد فسد نظام فكره،فإذا النظرى عنده بديهى،وبالعكس يستريب فى موضع الجزم ، ويؤمن فى موضع الشك ، وفسد ذوقه،فصار يستحلى الشر، ويستطيب الخبيث،ويستمرىء الوخيم،وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم ولا يحب الصديق الناصح .

رأى مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم ، كل شىء فيه فى غير شكله أو فى غير محله ، قد أصبح فيه الذئب راعيا ، والخصم الجائر قاضيا ، والمجرم سعيدا حظيا،والصالح محروما شقيا ، لا أنكر فى هذا المجتمع من المعروف ، ولا أعرف من المنكر .

رأى عادات فاسدة،تستعجل فناء البشرية،وتسوقها إلى هوة الهلاك .

رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا وعباد الله خولا ، وأحبارا ورهبانا أصبحوا أربابا من دون الله،يأكلون أموال الناس بالباطل،ويصدون عن سبيل الله .

رأى الأمم قطعانا من الغنم ليس لها راع ، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، والسلطان كسيف فى يد سكران يجرح به نفسه وأولاده وإخوانه . [2]

وهذه الأدواء فى المجتمع الإنسانى،بل كل ناحية منها يسترعى اهتمام أى

(١) انظر الظلال ج ٣٠ ص ٣٩٣٦ ـــ ٣٩٣٧ .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ص ٧٨ ـــ ٧٩ .

رجل من المصلحين ، ويشغل باله ، وإصلاح ذلك يتطلب حياة كاملة،ويستغرق عمر إنسان بطوله ، لأن نفسية الإنسان كثيرة المنافذ،إذا زاغت لا يؤثر فيها الإصلاح،حتى تقتلع مادة الشر من جذورها،وتغرس مكانها حب الخير والفضيلة ومخافة الله ــ عز وجل ــ،عن طريق الإقناع بالبراهين العقلية والكونية والتاريخية والوجدانية ، لأن النفس إذا أرغمت على تغيير ناحية من اتجاهاتها بدون هذا المنهج،تسللت إلىغيرها أو عن طريق تغيير الأسماء والصفات ، وذلك مانهجه محمد ﷺ ، بتوجيه من الله عز وجل .

وذلك هو موضوع دراستنا لمنهج الدعوة فى عهدها المكى .

الفصل الثانى

منهج الدعوة من الناحية العقليـــة والروحيـــة



وفيه ثلاث مباحث :

ا ــ الاستدلالات الكونية .

ب ــ الاستدلالات التاريخية .

جـ ــ منهج الدعوة من الناحية الروحية .



المبحث الأول

الاستدلالات الكونية

اعلم أن منهج القرآن الكريم يخاطب — فى قضية الألوهية — مجموع الإنسان كله،لا عقله وحده،ولا وجدانه وحده ، ويخاطبه فى جميع حالاته،حى الوجدان ، ومتبلد الحس ، منفتح البصير ة ومغلقها ، مستثارا وهادئا، متطلعا وخائفا ، ضاحكا وباكيا ، مستقيما على أمر الله،وجانحا عن السبيل .

كما أنه — وهو يخاطبه — يحيط به من كل جانب ، ويدخل من كل أقطار نفسه من صفحة الكون المعروضة أمامه من الأحداث الجارية حوله ، من نفسه وما يجرى فيها من مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، مما تدركه الحواس،ومما لا تدركه .

كما يواجهه بحقيقة نفسه عاجزا ضعيفا،مقرا بعجزه فى ساعة الكرب ملتجئا إلى الله ساعة الشدة ، مستكبرا طاغيا حين تنتهى وتمر ، ويظن أنه استغنى عن الله .

وبهذه المواجهة الدائمة الشاملة المحيطة،يظل بالقلب البشرى حتى يتفتح لحقيقة الألوهية ثم يؤمن بها ، ثم يستقر الإيمان فى القلب،ثم يستقيم على الإيمان .

هنالك أوتار [١] فى القلب البشرى ، أعدها الله — سبحانه — لتتلقى

---

(١) اى عروق كما فى القاموس ، والوتر شرعة القوس ومعلقها جمعه أوتار ووترها علق عليها وترها . قاموس ج ٢ ص ١٥٢ .

إيقاعات [١] معينة فتهتز فإذا اهتزت انطلقت الفطرة تبحث عن الله ، وقد تهتدى فى بحثها ، وقد تضل،ولكنها فى كل حال تنطلق إذا اهتزت الأوتار ، والإيقاعات التى تهزها،لاتنقطع فى ليل أو نهار،فالكون أعظم إيقاع يوقع على أوتار القلب البشرى .

الكون بضخامته الهائلة التى لاتصل إلى مداها العيون،بل لاتصل إلى مداها الأفكار ، ضخامة لايمكن أن ينجو من وقعها الحس،ولو أراد أن ينفلت ، ولو كابر أمام الناس ، ويهتز وتر فى القلب على هذه الضخامة الهائلة،فتنطلق الفطرة تبحث من وراء هذه المعجزة من الخالق .. ؟

ثم تهتدى ، فتعرف الخالق ، أو تضل فتسميه الطبيعة،أو تسميه كائنا من كان .. ومع الضخامة الهائلة دقة معجزة كذلك .

هذا الكون الضخم لا يتحرك خبط عشواء ، إنه يسير فى حركة دقيقة تبلغ حد الإعجاز . هذه الملايين بل ملايين الملايين من النجوم فى الكون لا يلتقى اثنان منها فى هذا الكون العريض،ولا يقع بينهما صدام إلا أن يشاء الله .

تلك أوتار فطرية ، أودعها الله فى القلب البشرى لتهتز . بما تتلقى من إيقاعات [٢] ، فتنطلق تبحث عن الله — إنها — كما نستطيع أن نقول — موحيات العقيدة فى القلب البشرى ، والقرآن وهو يعرف الناس بالله، يوقع على ذات الأوتار المودعة فى الفطرة ليهزها فتستيقظ ويحركها فتنفعل ، وفى لحظة انفعالها يقول لها: إنه الله .. ثم يقول لها : ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه** ﴾ . [٣]

فلو وقف الإنسان لحظة واحدة يرقب ما خلق الله فى السموات والأرض ، ويستعرض هذا الحشد الذى لا يحصى،من الأجناس،والأنواع،والهيئات،والأحوال،

---

(١) وقع الشيء على الأرض وقوعا وأوقعته إيقاعا وحافر موقع وقعته الحجارة . أساس البلاغة للزمخشرى ص ١٠٣٦ .

(٢) سبق بعض معانى الايقاع ومنه سكين وقيع وموقع : حديد ووقعه القين بالميقعة واستوقع السيف آن له ان يشحذ . كذا فى أسرار البلاغة ص ١٠٣٦ .

(٣) الأنعام : ١٠٢ .

والأوضاع والأشكال .. لو وقف لحظة واحدة لملأ وطابه [1] بما يغنيه حياته كلها . ويشغله بالتدبر والتفكر والتأثر ماعاش . [2]

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السمٰوات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار* ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار* ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار* ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد* فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾ .[3]

إن هذا الدرس لمن أعمق الدروس ، إنه يحمل خطا أصيلا من خطوط الإسلام ، ويبرزه إبرازا ، إن الإسلام لايكتفى من المؤمنين بالتفكير والتدبر والتذكر ، ولا يكتفى منهم بالمشاعر الإيمانية المستكنة داخل القلب ، إنما ينبغى أن يتحول هذا كله إلى سلوك عملى واقعى ، إنه يبدأ بهذا التقرير **﴿ إن فى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾** وهذا متصل بالآية السابقة **﴿ ولله ملك السمٰوات والأرض والله على كل شىء قدير ﴾** [4] ، التى تختم الحديث عن أهل الكتاب وما ينتظرهم من عذاب أليم . وتكون فى ذات الوقت وصلة فى السياق تصل إلى أولى الألباب ، وموقفهم من هذا الملك الهائل الذى هو ملك الله . وهكذا يكون عن ملك الله الواسع وقدرته التى لاتحد نذيرا للكفار، بأنهم لن يستطيعوا الخروج من ملكه

---

(١) الوطاب جمع وطب : سقاء اللبن من جلد الجذع فما فوقه . قاموس ج ١ ص ١٣٧ . ويجمع أيضا على أوطب ، وأوطاب،، وجمع الجمع أواطب المصدر نفسه .

(٢) انظر دراسات قرآنية ص ٣٣ ـــ ٣٤ وانظر الظلال ج ١١ ص ١٧٦٦ ـــ ١٧٦٧ .

(٣) آل عمران : ١٩٠ ـــ ١٩٥ .

(٤) آل عمران : ١٨٩ .

ومن محيط قدرته،ولا النجاة من عذابه .

وبشيرا للمؤمنين بأنهم فى رحمة الله التى وسعت السمٰوات والأرض ، وفى رحمته التى تدخلهم الجنة بإذنه . وخلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار،وتلك الآيات الكونية كلها ذات وقع عميق على الحس البشرى،لا يمكن أن ينجو منه .

ولكن فريقا من البشر يرين على قلوبهم ما يكسبون،فتنطمس بصائرهم فلا يعودون يلتفتون لتوقيعات [1] الكون على قلوبهم،ولا يتيقظون لدلالاتها الهائلة دلالتها على وحدانية الله وقدرته .

أما أولو الألباب فإنهم لا يوصدون قلوبهم دون توقيعات الكون ، فهم عباد ربانيون،لا يفترون عن ذكر الله فى جميع أحوالهم وأعمالهم ، قلوبهم متصلة بالله ترجو رحمته وتخاف عذابه .

ومن خلال تفكيرهم يهتدون إلى الحقيقة الكبرى،إن الله خلق السمٰوات والأرض بالحق ، يهتدون إلى ذلك بنور الإيمان،وإلا فالعقل وحده عرضة لأن يضل،وكم ضلت عقول،وهى تتفكر فى خلق السمٰوات والأرض،واختلاف الليل والنهار،فقالت إنه عبث لا حكمة فيه ، ولا غاية وراءه .. انظر الوجوديين مثلا .. لأنهم يتفكرون وهم محرومون من نور الإيمان الذى ينير الطريق للعقل،فيهتدى إلى الحكمة والغاية .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ [2]

إن أولى الألباب يهتدون إلى أن الله لم يخلق هذا باطلا فيسبحون الله ، وإذ يعلمون أن الكون خلق بالحق،فهم يدركون أنه لايمكن أن تكون الحياة الدنيا

---

(١) التوقيع مايوقع فى الكتاب يقال السرور توقيع جايز . ورمى قريب لاتباعده كأنك تريد أن توقعه على شىء وإقبال الصقيل على السيف بيته يحدده .

ووقعت الحجارة الحافر قطعت سنابكه تقطيعا وإذا أصاب الأرض مطر متفرق أو أخطأ فذلك توقيع فى نبتها ، والسيف آن له الشحذ . اهـ . قاموس ج ٣ ص ٩٦ ــ ٩٧ .

(٢) سورة ص : اية ٢٧ .

نهاية المطاف،وإلا فهو العبث الذى يتنزه عنه الخالق ـــ سبحانه ـــ .

إذن فلابد أن تكون هناك رجعى إلى الله ، وأن يكون حساب على ماتم فى الحياة الدنيا من أعمال ، ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون** ﴾ [1] وإذ عرفوا أن هناك رجعى وثوابا وعقابا ، فهم يسارعون إلى الاستغاثة من العذاب ﴿ **فقنا عذاب النار** ﴾ ثم يسترسلون فى التوسل إلى الله أن يجيرهم من هذه النار . وكأنما يقدمون بين يدى مولاهم المؤهلات التى تؤهلهم لدخول الجنة والبعد عن النار ، ﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ..** ﴾ الآيات .. إلى أن ينتهى ذلك الدعاء الحار ، الذى لاشك فى صدوره عن قلوب مؤمنة صادقة الإيمان،تفكرت وتذكرت وتدبرت، فهداها التدبر إلى ما اهتدت إليه من الحق،فتوجهت إلى الله بمشاعر إيمانية صادقة، وتوسل حار إلى الله سبحانه ﴿ **فاستجاب لهم ربهم** ﴾ نعم .. ولكن متى استجاب سبحانه .. ؟

هل استجاب للتفكر ، وهو تفكر ، وللتدبر وهو تدبر ، وللتذكر وهو تذكر ، وللدعاء الحار وهو دعاء ؟؟

إنه استجاب لهم سبحانه ، بأنه لايضيع عمل عامل منهم ، ومعنى ذلك أن ذلك التفكر والتذكر والتدبر وتلك المشاعر الإيمانية ـــ رغم صدقها الذى لاشك فيه،ينبغى أن تتحول كلها إلى عمل ، وعندئذ يستجيب الله ـــ سبحانه ـــ لذلك الدعاء .

يضرب مثلا من العمل المطلوب ﴿ **فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب** ﴾ إن الإسلام لا يعرف التفكر من أجل التفكر،ولا التدبر من أجل التدبر ، ولا المشاعر فى صورتها الوجدانية الخالصة ، ولو كانت هى مشاعر الإيمان .

إنما ينبغى أن يتحول ذلك كله إلى عمل وجهاد فى سبيل الله . [2]

---

(١) سورة المؤمنون : آية ١١٥ .

(٢) مقتطفات من دراسات قرآنية ص ٣٩٨ ـــ ٤٠٣ وانظر الظلال ص ٥٤٣ ـــ ٥٤٩ .

ومن رجع إلى القرآن الكريم يجد ذكر العقل فى عدد كبير ، تارة بالتصريح وذلك ما يقارب خمسين موضعا وتارة يذكر ﴿ **أولى الألباب** ﴾ كذلك (أولى النهى) لكنها مرة واحدة فى سورة طه .

وأكثر ماورد ذكر العقل فى القرآن الكريم فى الكلام على آيات الله الكونية، الدالة على علم الله وقدرته وحكمته وإرادته وتصرفه وعظيم تدبيره .

وكون المخاطبين بها ، والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس** .. إلى قوله تعالى **لقوم يعقلون** ﴾ [1] وفى تفصيل الوصايا الجامعة فى سورة الأنعام﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾ [2] وكرر قوله تعالى : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ فى عدة مواضع من القرآن كأمره لرسول الله ﷺ أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله بقوله تعالى : ﴿ **فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون** ﴾[3]

وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله تعالى فى أهل النار : ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾[4] .

وقد حطهم إلى درجة الحيوانات التى لا يهمها فى حياتها إلا الأكل والشراب والضراب ، بل أحط منها : بقوله تعالى :﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** [5] ﴾

وقال تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾ [6] .

والغافلون عن التفكر فى هدف وجودهم ، وفى مصيرهم ، لاتزكوا نفوسهم

---

(١) البقرة : ١٦٤ .
(٢) الأنعام : ١٥١ .
(٣) يونس : ١٦ .
(٤) الملك : ١٠ .
(٥) سورة الأعراف : ١٧٩ .
(٦) سورة الحج : ٤٦ .

ولا تصعد إلى الكمال ﴿ **أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى** ﴾ [١] لأنهم لو تفكروا لرجعوا عن الغفلة واستطاعوا الإجابة عن الأسئلة المملوء بها الكون . لذلك يرفع القرآن من شأن العقلاء المفكرين بقوله : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السمٰوات والأرض ..** ﴾ [٢] وبقوله:﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** .. إلى قوله تعالى:﴿ **أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ [٣] . والآيات فى ذلك كثيرة . [٤]

قلت : المراد بالثناء على مستخدمى العقل فى الآيات الكونية وفى فهم النصوص الشرعية ، وليس المراد تحكيم العقل مطلقا ، ونبذ النصوص جانبا ، لأن العقل له حدود لا ينبغى أن يتجاوزها،وهو وحده لايكفى،فالتفكير فى المخلوقات وارد شرعا،كما سبق بخلاف التفكير فى الخالق،فإنه منهى عنه شرعا، لحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك .. فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته) [٥] .

إن الصورة التى يعرضها القرآن لاسيما السور المكية عن الكون شاملة لآفاقه كلها،جامعة لأجزائه،تضع أمام الإنسان آفاق الوجود فى إطارها [*] الأكبر . تعرض أحيانا بإيجاز شامل،وتعبير جامع كقوله تعالى:﴿ **أولم ينظروا فى ملكوت السمٰوات والأرض** ﴾ [٦] ﴿ **ما فى السمٰوات وما فى الأرض** ﴾ [٧] و﴿ **فى**

---

(١) سورة الروم : ٨ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩٠ — ١٩١ .

(٣) الرعد : ١٩ — ٢٤ .

(٤) من الوحى المحمدى بتصرف ص ٢٤٢ — ٢٤٤ .

(٥) مسلم ج ١ ص ٨٤ .

(*) الإطار : مثل كتاب ، لكل شيء ما أحاط به وإطار الشفة اللحم المحيط بها اهـ . مصباح ج ١ ص ٢٠ .

(٦) سورة الأعراف آية ١٨٥ .

(٧) سورة سبأ ١٠

الآفاق وفى أنفسهم ﴾ [١] . كما لخص هذا العالم فى كلمة واحدة هى المضاف إليه فى مثل قوله تعالى ﴿ **رب العالمين** ﴾ عالم الغيب والشهادة،كما تعرض أحيانا مفصلة الأجزاء عن السماء بشمسها وقمرها وسائر نجومها،والأرض ببرها وبحرها وجبالها وسهولها وأنهارها ، وحيوانها ، ونباتها ، وإنسانها ، كما فى أول سورة النحل . ويعرض أحيانا أخرى مشاهد معينة ، ويشار إلى جانب العظمة،فى خلقها،وإبداعها،وفى حركتها،وجريانها،ونظام سيرها،ويوجه النظر إليها بشىء من الإمعان والتفصيل كقوله تعالى :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ . [٢] وفى ذلك دلالة على وحدانية الله وقدرته .

ـــ القرآن يخاطب الفطرة البشرية :

إذا تدبرت القرآن الكريم تجده قد أخذ قسطا من السور المكية،حينما يعرض آيات القدرة القادرة التى لا يعجزها شىء فى السمٰوات ولا فى الأرض ، فى الخلق ، ثم فى الموت والحياة ، وإحداث الأحداث ، وتدبير الأمر وعلم و .... وتلك هى منافذ الفطرة التى تلجئها إلى البحث عن الخالق والتوجه إليه .

فالكون بضخامته الهائلة وبدقته المعجزة التى لا يختل فيها شىء قيد شعرة، وظاهرة الموت والحياة،ورغبة الإنسان فى معرفة الغيب،وعجزه عن ذلك، ورغبته فى السيطرة على كل شىء وعجزه عن ذلك .. كل ذلك يوقظ الفطرة إلى وجود الخالق .

وقد سلك القرآن العظيم فى دعوة الإنسان إلى الإيمان بالله،خالق الكون مسالك متعددة [٣] ، فتارة يخاطب عقله ، ويقنعه بالمنطق ، ويقدم له الدليل

---

(١) سورة فصلت اية ٥٢ .

(٢) سورة الزمر آية : ٢١ .

(٣) انظر : الظلال ج ٢٧ ص ٣٤٦٦ ومابعدها . والعقيدة فى القرآن : ص ١٢ ـــ ١٣ : منهج التربية الاسلامية ج ٢ ص ٢٩ .

في أسلوب حي جذاب كقوله تعالى : ﴿ نحن خلقنٰكم فلولا تصدقون أفرءيتم ماتمنون ، ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في مالا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . أفرءيتم ماتحرثون . ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون . أفرءيتم الماء الذى تشربون . أءنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرءيتم النار التى تورون . ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلنٰها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ (1) .

وهذا الأسلوب المنطقى يتصف أيضا بالحيوية،لما فيه من الأسئلة الموجهة إلى المخاطب والإجابة عليها،إلى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة التى بدأ بها لإيراد الدليل عليها،مع تعدد الأمثلة المأخوذة من حياة الإنسان،التى هى سر الأسرار ، وما يحيط به من نشأة الحياة النباتية .. وهى كالحياة الحيوانية معجزة المعجزات .. والماء هو أصل الحياة . والنار هى المعجزة التى صنعت الحضارة الإنسانية .

فى هذه المشاهدات التى رآها كل إنسان ينشىء القرآن العقيدة،لأنه يخاطب كل إنسان فى بيئته . وهذه المشاهدات البسيطة هى بذاتها من أضخم الحقائق الكونية،ومن أعظم الأسرار الربانية،وهى تصل بالإنسان إلى حقيقة وجود الله وعظمته،وربوبيته وقدرته الكاملة،وأنه خالق كل شىء (2) . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ (3) وقوله تعالى : ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾ (4) . وأمثال ذلك كثير

(1) سورة الواقعة ٥٧ ــ ٧٤ .

(2) انظر الظلال ج ٢٧ ص ٣٤٦٧ ــ ٣٤٧٠ ، وانظر العقيدة فى القرآن لمحمد المبارك ص ٣١ ــ ٣٢ .

(3) الشعراء ٧٨ ــ ٨٢ .

(4) الرعد : ١٦ .

ولكن الأسلوب المنطقى الذى نراه جافا عند المتكلمين والفلاسفة،يمتزج فى القرآن الكريم بالأسلوب العاطفى الحى ، دون أن يدخل الضيم [1] على قوة أدلته ، وصحة براهينه ، فهو يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق منافعه ومصالحه ، وحاجاته ، وملذاته ، وعن طريق قضاياه ومشكلاته ، ليحرك تطلعه ، وقلقه إلى معرفة الحقيقة،ذات الصلة بحياته الحاضرة،ومصيره البعيد . ويجعله بذلك متهيئا للتفكير،ومستعدا لقبول نتائج المنطق المنسجم مع مصلحته . ويبدو هذا واضحا من الآيات التالية قال الله تعالى : ﴿ **وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ، وهو الذى أرسل الرياح بُشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا** ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون** ﴾ [3] .

وقوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ [4] .

لقد أخذ القرآن الكريم الإنسان من مواطن اهتمامه فى هذا الكون ونعم الله عليه ونقله منها إلى الخالق المنعم،فأكسبه بذلك الاقتناع بمنطق العقل والشعور ليخامر إيمانه النفس فكرا وعاطفة . [5]

وأمثال هذه الآيات هى ما عبر عنه شيخ الإسلام (ابن تيميه) بدليل العناية .

---

(١) مثل ضاره ضرا وزنا ومعنى أى دون أن يدخل الضر . مصباح ج ٢ ص ١٢ - ١٤
(٢) الفرقان ٤٧ - ٤٩ .
(٣) يس ٣٣ - ٣٥ .
(٤) النحل ٨٠ - ٨١ ومعنى (تسلمون) توحدون يا أهل مكة . ا هـ جلالين .
(٥) العقيدة فى القرآن لمحمد المبارك ص ٣٦ طبعة دار الفكر .

وفيها أيضا دليل الاختراع . وقد مثل للعناية بقوله تعالى: ﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وجنات ألفافا** ﴾ [١] . وقوله تعالى : ﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا** ﴾ [٢] . وقوله تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه** ﴾ [٣] ، الآيات .. ومثل للاختراع بقوله تعالى: ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق** ﴾ [٤] . وقوله تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت** ﴾ [٥] الآيات .. إلى غير ذلك من الآيات .

ومثل للجمع بين الدلالتين بقوله تعالى : ﴿ **يٰأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ....** ﴾ الآية [٦] . فالأولى على دلالة الاختراع والثانية على العناية . وأكثر الآيات الواردة فى هذا المعنى يوجد فيها النوعان . [٧]

ــ نماذج من النظر العقلى :

١ ــ من تأمل فى نظام الكون المستقر،وأحداثه المنسقة،وسيره المنتظم وجد أن مافى الكون،يشهد أنه تحت نفوذ إرادة واحدة،وتحت تصرف حاكم واحد .

فلو تعددت الآلهة لتعددت الإرادات والنواميس . قال تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ [٨] . أى السمٰوات والأرض بما فيهما من المخلوقات . والمعنى : لو كان فى السمٰوات والأرض آلهة غير الله لفسد

---

(١) النبأ : ٦ ــ ١٦ .

(٢) الفرقان : ٦١ ــ ٦٢ .

(٣) عبس : ٢٤ .

(٤) الطارق : ٥ ــ ٦ .

(٥) الغاشية : ١٧ ــ ٢٠ .

(٦) البقرة : ٢١ : ٢٢ .

(٧) انظر للتفصيل تلبيس الجهمية ج ١ ص ١٧٤ لابن تيمية مطبعة الحكومة السعودية .

(٨) الأنبياء : ٢٢ والنواميس جمع ناموس وله معان منها جبريل وصاحب السر ونامسه ساره والمراد هنا الأسرار والسنن الكونية . انظر القاموس ج ٢ ص ٢٥٦ ــ المصباح ج ٢ ص ٢٩٧ ــ اسرار البلاغة ص ٩٩١ .

أهلها . وفى هذا حجة دامغة على بطلان تعدد الآلهة ، لأن المشاهد أن السموات والأرض لم تفسدا ﴿ **ما ترى فى خلق الرحمٰن من تفاوت** ﴾ [(١)] . وذلك يوجب أن يكون الإله واحدا . وهو الله خالق السمٰوات والأرض ﴿ **فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾[(٢)] .

٢ ــ إن هذا الارتباط المحكم الدائم بين أجزاء الكون، يشهد بأنه تحت سيطرة مالك واحد . ولو كان مع الله آلهة أخرى لفصل كل إله ما خلق، ولشاهدنا عمليات الانفصال والتجزئة ظاهرة فى الكون .

وكم تكون الحياة سيئة لو أن للشمس إلّها،منع عنا ضوءها ، وأن للشجر إلّها منع عنا ثمارها .. وأن للسحب إلّها منع عنا قطرها ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾ [(٣)] . وهذا ما يعبر عنه المتكلمون بدليل التمانع . [(٤)]

ما اتخذ الله ولدا كما زعم هؤلاء المشركون،ولا كان معه إلّه فيما خلق .

٣ ــ ولو كان مع الله آلهة أخرى،لحاول بعضهم أن يستعلى على غيره ،، وعندئذ يشهد الكون حروبا مروعة مدمرة،ويكون الملكوت ميدانا لصراع جبار بين الآلهة المتنازعة ، أو لحاول الضعاف من هذه الآلهة المتنازعة،أن يتعاونوا على من له القدرة والنفوذ فى هذا الملكوت أو التقرب إليه ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذًا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا** ﴾ [(٥)]

والضعيف لا يستحق أن يكون إلّها . وإذا تقرر عدم إمكان الشركة،وأنه لا

---

(١) الملك : ٣ اى تباين وعدم تناسب .

(٢) الأنبياء : ٢٢ .

(٣) المؤمنون : ٩١ .

(٤) التمانع هو أنه لو فرض صانعان فصاعدا فاراد أحدهما تحريك جسم وأراد الآخر سكونه فإنه يمتنع اجتماع مراديهما للتضاد فإن لم يحصل لمراد كل منهما كانا عاجزين والواجب لايكون عاجزا وإن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والمغلوب ممكنا لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا ولهذا قال (ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) ا هـ . تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٥ ص ٤٨٤ .

(٥) الإسراء : ٤٢ ــ ٤٣ .

يقوم بالأمر إلا واحد،تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه ، وكما دل هذا على نفى الشريك،فإنه يدل على نفى الولد،لأنه ينازع أباه فى ملكه . [١] وفى ذلك يقول — ﷺ — (ما أحد أصبر [*] على أذى سمعه من الله .. يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم) [٢] .

— خلق الإنسان :

ما أكثر الآيات التى تصور نمو الإنسان من نطفة إلى شيخ،يرد إلى أرذل العمر خلقا من بعد خلق،وما بينهما من مراحل .. كما تصور نمو النبات فى مراحل أخرى عديدة .

فالقرآن الكريم يخاطب الإنسان ذا العقل السليم،ليفكر فى تكوينه الجسمى **﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾** [٣] .

من الذى خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يخرجه طفلا ذا بصر ، وسمع وعقل وحواس أخرى ؟

من الذى خلق من الماء المهين،أو من حيوان لا يرى إلا بالمجهر،هذا الإنسان الذى يملأ الدنيا ضجيجا،ويتعالى بنفسه وعلمه . وكيف يحمل ملامح ولون أبويه ؟

من الذى جعل منه الذكر والأنثى ؟. يقول الله تعالى:**﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾** [٤] وقال تعالى : **﴿ ولقد خلقنا الإنسان**

---

(١) توحيد الخالق ج ٢ من القسم الثانى ص ٦١ . وانظر تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٨٨١ — ٣٨٨٢ — فتح القدير — ج ٣ ص ٢٣٠ — ٤٩٦ .

(*) هكذافى البخارى كما فى الصفحة نفسها قال الحافظ فى الفتح : وقد سبق شرحه فى كتاب الأدب وفيه قال : سيأتى شرحه فى كتاب التوحيد ، ولم يتكلم بشىء ، ولكنى وجدته بلفظ آخر كما فى كتاب بالأدب بلفظ أليس أحد أو ليس شىء أصبر على أذى سمعه من الله إنهم ليدعون له ولداً وإنه ليعافيهن ويرزقهن) البخارى جـ ٤ ص ٦٥ . وانظر فتح البارى جا ص ٥١٢ — جـ ١٣ ص ٣٦٠ وفى طبعة استانبول تركيا بلفظ (ما أحد أصبر) وفي الهامش مالفظه قوله أصبر أفعل التفضيل خبر (ما) وضبط بالرفع .

(٢) البخارى : ج ٤ ص ٢٧٤ عن أبى موسى الاشعرى .

(٣) الذاريات : ٢١ .

(٤) القيامة : ٣٦ — ٣٩ .

من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [١] .

فمن أنشأ العظام الصلبة وكونها فى ظلمات الأرحام من طعام يجرى سائلا فى دم الأم ؟ من الحكيم الذى كون مفاصل العظام وجعلها ملساء وأمدها بالسائل اللزج لمنع الاحتكاك والتآكل فى العظام عند حركتها ؟

من الخبير العليم الذى كسا العظام لحما يحرك الجسد فى غاية من الدقة والإبداع .. أهو وثن أصم لا يملك لنفسه أن ينتقل من مكانه ؟ أم أنها الطبيعة التى لاتملك تدبيرا ولا تفكيرا ؟ .. أم أن ذلك الخلق البديع والتركيب المحكم والتقدير الدقيق،يشهد أنه من خلق خالق حكيم عليم،خبير قادر مصور بديع ، هو الله سبحانه وتعالى . [٢]

فالإنسان نوع من أنواع أخرى فى هذا الكون ، لكنه يشترك معها فى بعض الأمور ثم يتميز عنها .. فهو مخلوق من تراب فى الأصل **﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ﴾** [٣] **﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴾** [٤] **﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾** [٥] **﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع . يخلق الله مايشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾** [٦] **﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾** [٧] .

---

(١) المؤمنون : ١٢ ــ ١٤ .
(٢) توحيد الخالق ج ٢ ص ٢٦ ــ ٢٧ من القسم الثانى بتصرف .
(٣) الروم : ٢٠ .
(٤) نوح : ١٧ .
(٥) سورة طه : ٥٥ .
(٦) سورة النور : ٤٥ .
(٧) سورة السجدة : ٨ .

ـ مميزاته :

والإنسان نوع متميز كما يبدو فى قوله تعالى: ﴿ .. **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ [1]، وذلك من جهة خلقه وتكوينه الجسمى، كما تشير الآيات إلى تسويته أكثر من مرة ﴿ **ثم سواه** ﴾ [2] ﴿ **فإذا سويته** ﴾ [3] ﴿ **فسواك فعدلك** ﴾ [4] .. ولا حاجة إلى أكثر من الإشارة فى أثر انتصاب قامة الإنسان وانطلاق يديه فى نشوء الحضارة ونموها .

كذلك من جهة العقل والعلم الناميين بسبب الحواس، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ [5] . وقال ﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [6] . وقال : ﴿ **خلق الإنسان علمه البيان** ﴾ [7] علم قابل للنمو والزيادة ﴿ **وقل رب زدنى علما** ﴾ [8] ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم** ﴾ [9]

ـ أفضل مميزات الإنسان :

وأفضل مميزاته هو الجانب الروحى المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ فى موضعين من القرآن الكريم . [10] وقوله : ﴿ **ثم سواه ونفخ فيه من روحه** ﴾ [11]، وهذا هو الجانب الذى رفع مكانة الإنسان، وجعله فى مقام التكريم ، فاستحق أن أمر الله

---

(١) سورة التين : ٣ .
(٢) سورة السجدة : ٩ .
(٣) سورة ص : ٧٢ .
(٤) سورة الانفطار : ٧ .
(٥) سورة النحل : ٧٨ .
(٦) سورة العلق : ٥ .
(٧) سورة الرحمن : ٤ .
(٨) سورة طه : ١١٤ .
(٩) سورة فصلت : ٥٣ .
(١٠) سورة الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ .
(١١) سورة السجدة : ٩ .

الملائكة بالسجود له فسجدوا ، ذكر ذلك فى عدة مواضع من القرآن،منها الموضعان السابقان وقوله : ﴿ **ولقد كرما بنى آدم** ... ﴾ الآية [١] ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ [٢] .

ويستفاد من هذا أن الكيان الإنسانى مركب من جزئين ترابى [٣] ، وروحى سماوى.ولكل منهما طبيعته من السمو والهبوط،إذن فهما فى صراع دائم . وهذان الجزءان لا ينفصلان عن بعضهما ، فهل يستطيع أحدهما أن يتصرف دون الآخر ؟ قد يقال إذا غلب الجانب الروحى صار التصرف روحانيا ، وإذا غلبت طبيعة التراب صار التصرف حيوانيا . وعلى هذا فهل يصلح لعمارة الأرض ؟ قد يكون الجواب (لا) لأن الحيوانية لاتصلح للخلافة فى الأرض ، والرهبنة يأباها الإسلام ، بل ولاتصلح أيضا لعمارة الأرض ، وذلك يتنافى مع الحكمة التى خلق من أجلها . إذن فلا بد من التوازن بين الجزءين وذلك هو الكمال المنشود للإنسان . ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ [٤] ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ [٥] . وكان النبى ﷺ يدعو بهذا الدعاء ﴿ **اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى،وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى،وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ..** ﴾ [٦] .

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .
(٢) سورة التين : ٤ .
(٣) فإن قيل إنه من نطفة فهل هى إلا من تراب .
(٤) البقرة : ٢٠١ . وكان أكثر دعائه ﷺ بهذا الدعاء كما فى مسلم عن أنس ج ٨ ص ٦٩ .
(٥) سورة القصص : ٧٧ .
(٦) رواه مسلم عن أبى هريرة ج ٨ ص ٨١ ، النسائى ج ٣ ص ٦٢ ، الإمام أحمد فى مسنده ج ٤ ص ٣٩٩ .

المبحث الثانى

الاستدلالات التاريخية

إن تاريخ الأنبياء والأمم،قد احتل جانبا غير قليل من السور المكية ، فقد كان القصص القرآنى ينزل على رسول الله ﷺ فى مكة،والمسلمون قلة مستضعفة،والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان . ولكن كان ينزل ليضع الموازين الحقيقية والقيم ، ويقرر أن هناك قوة واحدة فى هذا الوجود ، هى قوة الله ــ سبحانه ــ ، وأن هناك قيمة واحدة فى هذا الكون هى قوة الإيمان .. فمن كانت قوة الله معه،فلا خوف عليه،ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة . ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمانينة ولو ساندته جميع القوى . ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله . ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلا . [1]

وكان ينزل القصص القرآنى لأهداف منها :

١ ــ إثبات صدق الوحى المنزل على رسول الله ــ ﷺ ــ ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [2]

﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ [3] .

---

(١) انظر فى ظلال القران ج ٢٠ ص ٢٦٧٣ ــ ٢٦٧٤ .

(٢) سورة يوسف : ٣ .

(٣) سورة هود : ٤٩ .

﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق ﴾ (١) .

٢ ـــ التسرية أو التسلية عن الرسول أو للرسول ﷺ ـــ فيما يلقاه من قومه من تكذيب وأذى واتهام بالسحر والجنون ، فقد كذب الرسل من قبله ووجه إليهم نفس القول ثم صبروا حتى جاءهم نصر الله،وأهلك المكذبون **﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا ، وأوذوا حتى أتهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله . ولقد جاءك من نبإى المرسلين ﴾** (٢)

﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . ﴾ (٣)

ومع التسرية عن الرسول ـــ ﷺ ـــ التسرية عن المؤمنين كذلك ، وهم يلقون العنت والتشريد والعذاب ، بسبب إيمانهم فيعرض عليهم قصص الأمم السابقة،ليعلموا أن هناك مؤمنين قبلهم،أذيقوا ألوان العذاب والتشريد،ثم صبروا على عقيدتهم،ثم يخبرهم أن العاقبة للمتقين،إما بنصر فى الحياة الدنيا ـــ حسب قدر الله ـــ وإما بالجزاء الأوفى فى الآخرة .

٣ ـــ إبراز حقيقة عقيديّة هامة ، تبرز من خلال السرد التاريخى ، هى أن الرسل جميعا ـــ عليهم السلام ـــ جاءوا بكلمة واحدة على تتابع الأجيال ، هى (لا إله إلا الله) ، وقضية واحدة هى **﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾** .

هذا الهدف من أهم أو أهم أهداف القصص القرآنى فى الحقيقة .

ويبدو بارزا شديد البروز من خلال السرد القرانى وتتخذ له وسائل شتى ، فأحيانا يوحد أسلوب القصص ـــ مع التنويع الواضح فى القرآن ـــ بحيث تجىء العبارة موحدة على لسان كل رسول فى الشريط المتتابع للرسل ، كل يقول الكلمة ويمضى،ويأتى من بعده بنفس الكلمة بلا تغيير مثل ماجاء فى سورة

---

(١) سورة طه : ٩٩ .

(٢) سورة الأنعام : ٣٤ .

(٣) سورة هود : ١٢٠ ـــ واسم الإشارة عائد على السورة أو الآيات أو البراهين أو الدنيا . والحق قيل المبتدأ والمعاد ، وقيل النبوة ، راجع للتفاصيل تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٢ ـــ ٢٩٣ . وقد رجع عود الإشارة الى السورة . فتح القدير ج ٢ ص ٥٣٥ .

الأعراف وغيرها ، عن نوح مع قومه،وهود مع قومه،وصالح مع قومه،وشعيب مع قومه ،كلهم يقولون : ﴿ **ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ [(١)] .
وتارة يقال عن قوم معينين:إنهم كذبوا الرسل،مع أنهم لم يرسل إليهم إلا رسول واحد ، ليوحى التعبير بأن تكذيب الرسول الواحد،هو بمثابة تكذيبهم كلهم، لأنهم كلهم يقولون ذات الشيء بلا تغيير . مثل ماجاء فى سورة الشعراء ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ ﴿ **كذبت عاد المرسلين** ﴾ ﴿ **كذبت ثمود المرسلين** ﴾ ﴿ **كذبت قوم لوط المرسلين** ﴾ ﴿ **كذب أصحاب لئيكة المرسلين** ﴾ [(٢)] .

وتارة يقال عن أقوام متعددين إنهم عصوا رسول ربهم . فيوضح ذلك أن كل أمة كذبت رسولها،ويوحى فى ذات الوقت أنه كأنما هو رسول واحد،الذى بعث إلى هذه الأقوام جميعا،لأنهم ــ على اختلاف أقوامهم،وأزمانهم،وأماكنهم، ولغاتهم ــ قد قالوا ذات الكلمة،وعرضوا ذات القضية ، كما جاء فى سورة الحاقة ﴿ **كذبت ثمود وعاد بالقارعة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فعصوا رسول** [(٣)] **ربهم فأخذهم أخذة رابية** ﴾ . [(٤)]

وهذه القضية ــ كما ذكرنا ــ ذات أهمية خاصة فى القرآن فى تقرير وحدة الألوهية والرسالة .

كما أنه يعطى شعورا بالانتماء إلى أمة كبيرة موحَّدة على تتابع الأجيال ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ [(٥)] .

٤ ــ إبراز الموقف الموحَّد الذى تقفه الجاهليات جميعا من رسلها،الذين أرسلوا إليها، فكما أنها رسالة واحدة مكررة ــ وإن اختلف الأشخاص واللغات والزمان والمكان ــ فهى كذلك جاهلية واحدة مكررة ، وإن اختلف

---

(١) سورة الأعراف : من ٥٩ ــ

(٢) سورة الشعراء : من ١٠٥ – ١٧٦ .

(٣) هذا جنس أى كل كذب رسول الله إليهم كذا قال ابن كثير جـ ٨ ص ٢٣٦ وقيل إن رسول هذا بمعنى رسالة كما فى فتح القدير ج ٥ ص ٢٨١ .

(٤) الحاقة : من ٤ ــ ١٠ .

(٥) سورة الأنبياء : ٩٢ .

الأشخاص ، واللغات ، والزمان ، والمكان ، **﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾** [1] .

إن موقف الجاهلية واحد من كل رسول ، التكذيب ، والإعراض ، ثم التشهير بالرسول،حين يتضح أنه مصر على دعوته ، لم يثنه عنها إعراض ولا تكذيب . ثم التهديد بالأذى له ، وللذين آمنوا معه،ثم تنفيذ التهديد أحيانا،أو الحيلولة دونه بقدر الله، كما سيأتى ذلك فى جهاد الدعوة إن شاء الله . قصة مكررة لم تتخلف إلا مرة واحدة فى التاريخ كله سجلها القرآن للعبرة . **﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾** [2] .

والآية مع ذلك لم تنف موقف الإعراض الأول الذى كان من قوم يونس ، إنما تسجل فقط أنهم فى النهاية ـــ آمنوا ـــ فلما آمنوا كشف الله عنهم ما هددوا به من عذاب الخزى فى الحياة الدنيا . [3]

فما السر فى هذا الموقف الواحد المكرر ، الذى تقفه الجاهلية من رسلها ؟

الجواب باختصار : هو مدلول **﴿ لا إله إلا الله ﴾** .

وهو أن العبادة والولاء والطاعة لله وحده ، والملأ [4] يريد ذلك له وحده [5] .

وفيما مضى تحدثنا عن الآيات القرآنية الدالة على الآيات الكونية ، وهى بدورها موصلة ـــ **﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾** [6] ـــ إلى الخالق الحكيم القادر المتصرف فى الكون وحده،وهو الله سبحانه وتعالى

---

(١) سورة الذاريات : ٥٢ ـــ ٥٣ .

(٢) سورة يونس ض ٩٨ .

(٣) انظر التفصيل فى تفسير الآية الكريمة . ابن كثير ج ٤ ص ٢٣١ ـــ ٢٣٢ فتح القدير ج ٢ ص ٤٧٤ وغيرهما .

(٤) الملأ السادة والأشراف .

(٥) مقتطف من دراسات قرانية ص ٩٩ ـــ ١٠٧ .

(٦) سورة ق : ٣٧ .

وذلك فى مبحث (الاستدلالات الكونية) .

وفى هذا المبحث سنأتى بما تيسر من الآيات المتعلقة بأحداث التاريخ إن شاء الله تعالى .

ومعلوم أن مصادر التاريخ قد غصت بها المكتبات والأخذ منها يحتاج إلى عناء وتمحيص،وذلك يتطلب جهدا وزمنا غير قصيرين .. لذلك رجعت إلى الأخذ عن أصح المصادر التاريخية على مر الزمان ، ﴿ **والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [1] ألا وهو القرآن الكريم ، لأنه قد حوى كثيرا من تاريخ الرسل مع أقوامهم والشعوب وحكامهم . كما شرح أخبار قوم هدوا فمكن الله لهم فى الأرض ، وأقوام ضلوا فساءت أحوالهم،وخربت ديارهم،ووقع عليهم العذاب والنكال،يضرب بهم المثل ويدعو الناس إلى العظة والاعتبار . كل هذا قصه الله فى قول بين،وأسلوب رائع حكيم . ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ . [2]

ـــ نبذة من الآيات الإجمالية :

قال الله تعالى : ﴿ **وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾ [3] .

فالله سبحانه وتعالى حكم عدل لا يأخذ بدون ذنب ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين** ﴾ [4] ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [5] ومن أجل نعم الله على أهل تلك القرية،أن بعث الله إليهم

---

(١) سورة فصلت : ٤٢ .
(٢) سورة يوسف : ٣ .
(٣) سورة الأعراف : ٤ ـــ ٥ .
(٤) سورة القصص : ٥٨ .
(٥) سورة النحل : ١١٢ .

رسولا من أنفسهم فكذبوه،فقحطوا سبع سنين وبالخوف بسرايا النبى ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ **وكأين من قرية أهلكناها فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ [1] .

﴿ **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾ [2] تسلية للنبى ﷺ — وتهديد لمشركى مكة،إذ هم المراد من القرية أى أهلها . وقد أهلك الله عادًا وثمود وغيرهم،وهم أشد من أهل مكة قوة وبأسا .

وقال تعالى : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يأولى الألباب الذين أمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا . رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينٰت ليخرج الذين آمنوا وعملو الصٰلحٰت من الظلمٰت إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خلدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا** ﴾ . [3] وعيد شديد لمن عصى الله ورسله،مؤكد بصيغة الماضى،لتحقق وقوعه،فاعتبروا يا أولى العقول،واغتنموا الفرصة الغالية بتصديق القرآن والرسول،تدخلوا الجنة ترزقون فيها بغير حساب،لأنكم قد دفعتم الثمن فى الأيام الخالية . وقال : ﴿ **وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير** ﴾ [4] فالله سبحانه يمهل ولا يهمل . وقال تعالى مؤكدا صحة ذلك القصص : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ومازادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم**

---

(١) سورة الحج : ٤٥ .
(٢) سورة محمد : ١٣ .
(٣) سورة الطلاق : ٨ — ١١ . .
(٤) سورة الحج : ٤٨ .

يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾ [1] الآيات وأمثال ذلك كثير .

ـ نماذج من الأحداث التاريخية :

بعون الله تعالى سأحاول قدر الإمكان مراعاة التتابع التاريخي ، ثم التقاط الشاهد من القصة لأجل العبرة إذ ليس هذا موضوع بحثنا ونبدأ بقوم نوح عليه السلام :

ـ قوم نوح :

لما دعا نوح عليه السلام ـ قومه إلى عبادة الله وحده ـ إذ هم أول من عبد الأصنام ـ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وكلما تجددت الدعوة زادتهم نفورا **﴿ وأنّى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾** [2]

فلما يئس أو أيس [3] منهم أوحى الله إليه : **﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾** [4] ثم دعا عليهم قائلا: **﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾** [5] فاستجاب الله دعاءه،وأوحى إليه **﴿ أنْ اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾** [6]،وذلك لما استعجل قومه نقمة الله وعذابه لهم ، فأنذرهم ذلك ، فطلبوا إنزاله : **﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾** [7] .

---

(١) سورة هود : ١٠٠ ـ ١٠٥ . وقوله تعالى (ومازاد وهم غير تتبيب) اى تخسير وهلاك .

(٢) سورة نوح : ٧ .

(٣) اليأس القنوط ضد الرجاء وقطع الأمل ، يئس ييئس كيمنع ويضرب وتأتى بمعنى علم ومنه قوله تعالى (أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) ٣١ من سورة الرعد . ومن الأول أيضا (أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ٨٧ من يوسف . على لغة من يكسر أول المستقبل ، وبعضهم يقول : أيس مقلوب من يئس ، بمعنى واحد . وانظر القاموس ج ٢ ص ٩٩ ـ ٢٦٠ ، المصباح ج ١ ص ٣٨ .

(٤) سورة هود : ٣٦ .

(٥) سورة نوح : ٢٦ ومعنى ديارا ، أحدا .

(٦) سورة هود : ٣٧ .

(٧) سورة هود : ٣٢ ـ ٣٣ .

﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ [1] أى دائم مستمر ، وعيد شديد وتهديد أكيد . **﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور** [2] **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾** [3] وتفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفجرت عيون الأرض ، فهرع نوح إلى السفينة وحمل ما أمره الله من الإنسان والحيوان والنبات ، وسارت باسم الله مجريها ومرساها ، والأمواج تفتح بين طياتها للكافرين قبورا ، والزبد يخيط لهم أكفانا حتى صرعهم الموج ، وطوتهم المياه .

وكانت شقوة الله قد غلبت على (كنعان) بن نوح فاعتزل أباه فناداه بحنان الأبوة : ﴿ **يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين** ﴾ : ﴿ **قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾ [4] .

ولما بلغ الشوط غايته ، وطويت صحيفة القوم الكافرين ، كفت السماء وابتلعت الأرض الماء،ورست السفينة على جبل الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين ، وقيل لنوح : اهبط بسلام إلى الأرض ، أنت ومن آمن معك من قومك تحفكم البركة وتكلؤكم عناية الله،ثم يجيء التعقيب السماوى . **﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾** [5] . وقد ذكر الله حادثة الطوفان فى عدة سور من القرآن إيجازا وتفصيلا من ذلك ، سورة الأعراف،وهود،والشعراء،والقمر،وسورة كاملة سميت باسم نوح عليه السلام . [6]

---

(١) هود : ٣٨ — ٣٩ .

(٢) اى صارت الارض عيونا تفور حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار . ذكره ابن كثير فى تفسيره عن جمهور السلف وعلماء الخلف ج ٤ ص ٢٥٤ .

(٣) سورة هود : ٤٠ .

(٤) سورة هود : ٤٢ — ٤٣ .

(٥) سورة هود : ٤٩ .

(٦) انظر قصص القرآن ص ١٥ ومابعدها . لجاد المولى أبو الفضل البجاوى ، شحاته . الناشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر الطبعة العاشرة ١٣٨٩ هـ تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٢ — ٢٥٦ .

٢ ـــ عاد قوم هود :

أنعم الله عليهم بالنعم الوافرة ، فجروا العيون، وزرعوا الأرض، وشادوا القصور ، ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** ﴾ [١] ، وفوق ذلك منحهم بسطة فى أجسامهم ﴿ **وزادكم فى الخلق بسطة** ﴾ [٢] أمدهم الله بالأنعام والبنين والجنات الحافلة بأنواع الزروع والأشجار ﴿ **أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون** ﴾ [٣] . أرسل الله إليهم أخاهم هودًا بأن يعبدوا الله وحده ، فكذبوه فأهلكهم الله بالريح العقيم . ﴿ **وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ [٤] .

﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون** ﴾ [٥] .

بيان تلك الأيام قوله تعالى : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية** ﴾ [٦] .

وهكذا كانت عاقبة المكذبين المتكبرين فاعتبروا ياأولى الأبصار . [٧]

وقد ذكر الله ذلك فى عدة سور من القرآن منها الأعراف،وهود،والشعراء، والأحقاف .

---

(١) الشعراء ١٢٨ ـــ ١٢٩ .
(٢) الأعراف : ٦٩ .
(٣) الشعراء : ١٣٣ - ١٣٤ .
(٤) الذاريات : ٤١ ـــ ٤٢ .
(٥) فصلت : ١٥ ـــ ١٦ .
(٦) الحاقة : ٥ ـــ ٩ .
(٧) انظر قصص القرآن ص ٢٣ وما بعدها .

٣ ــ ثمود قوم صالح عليه السلام :

بعد أن أهلك الله عادا بذنوبهم ورثت ثمود أرضهم وديارهم،فعمروها أكثر مما عمروها،ونحتوا فى الجبال بيوتا،وكانوا فى رغد من العيش ، فذكرهم نبيهم صالح عليه السلام بهذه النعم بعد أن دعاهم إلى عبادة الله وحده . قال الله تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره** ﴾ إلى قوله تعالى:﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** [١] ﴾ فكذبوا نبيهم قائلين:﴿ **إنما أنت من المُسَحَّرِين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾[٢] .

فأهلكهم الله بزلزال[*] عنيف بعد أن عقروا الناقة وكذبوا نبيهم كما قال تعالى : ﴿ **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾[٣] أى باركين على الركب[٤] ميتين . وفيهم قال النبى ﷺ وهو فى طريقه بتبوك (لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم[٥]) وفى رواية لمسلم (إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم الرسول ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها الناقة)[٦] وهكذا سنة الله فى المفسدين المكذبين ، فهلا اعتبرتم يا أهل مكة وياسادة قريش ؟! .

---

(١) سورة الأعراف آية ٧٣ ــ ٧٤ .

(٢) سورة الشعراء : ١٥٣ ــ ١٥٤ .

(*) بكسر الزاى الحركة والاضطراب ، وبالفتح : الاسم اهـ مصباح جا ص ٢٧٣ .

(٣) سورة الأعراف : ٧٧ ــ ٧٨ .

(٤) انظر الجلالين . ص ١٣١ .

(٥) متفق عليه ــ البخارى ج ٣ ص ٢٤٧ ، مسلم ج ٨ ص ٢٢١ ، عن ابن عمر .

(٦) المرجع نفسه والصفحة نفسها وانظر البداية والنهاية ج ١ ص ١٣٨ .

٤ ــ قوم لوط عليه السلام :

هم أهل سدوم كذبوا نبيهم،وكانوا ذوى أخلاق فاسدة بل شاذة عن طبيعة البشر . كانوا من أفجر الناس يقطعون السبيل ، ويأتون فى ناديهم المنكر ، يأتون الرجال شهوة دون النساء،بلغ بهم الإجرام الشنيع أن أرادوا ضيوف نبيهم لوط عليه السلام ــ من الملائكة ــ فعرض عليهم أن يزوجهم بناته فأبوا قائلين : ﴿ **مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد** ﴾ [١] . فأوحى الله إلى نبيه لوط عليه السلام ﴿ **أن أسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود** [٢] **مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ [٣] .

ولقد مر كفار أهل مكة على أنقاض تلك القرية المدمرة،وهم فى سفرهم إلى الشام،ولم يعتبروا بما حصل بأهلها من العذاب والنكال،بسبب تكذيبهم الرسول،ومخالفتهم أوامر الله [٤] . قال الله تعالى : ﴿ **ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا** ﴾ [٥] ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ [٦] .

٥ ــ قوم شعيب عليه السلام :

وهم أهل مدين كذبوا شعيبا ، وطففوا المكيال والميزان،وكانوا يقطعون السبيل،ويصدون الناس عن سبيل الله (أى عن الإيمان به)،وكانوا يفسدون فى الأرض بالكفر والمعاصى بعد إصلاحها،ببعث الرسل،فدعاهم شعيب عليه السلام إلى عبادة الله وحده،ونهاهم عن تلك المعاصى،وحذرهم عاقبة من أفسد فى الأرض من الأمم السابقة فكذبوه ، فكانت نتيجة تكذيبهم شعيبا أن أخذتهم

---

(١) سورة هود : ٧٩ .
(٢) السجيل طين طبخ بالنار ومنضود متتابع ومسومة معلمة عليها اسم من يرمى بها . اهـ ــ جلالين .
(٣) سورة هود : ٧٩ ــ ٨٢ .
(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٢١ .
(٥) سورة الفرقان : ٤٠ .
(٦) سورة الأعراف : ٨٤ .

الزَّلْزَلَةَ الشديدة (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) (كأن لم يغنوا فيها) [1] سنة الله فى المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وإذا تأمل القارىء لسورة الشعراء يجد التعقيب على كل قصة بالعقاب الصارم لمكذبى الرسل،ثم العبرة بقوله تعالى : **﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾** . إنه العزيز الذى لا يغالب ، القادر على الانتقام من الجبابرة والعصاة والمتكبرين ، وإنه رحيم بالمؤمنين الطائعين المصدقين لرسله ، تجد هذا التعقيب المتكرر نحوا من ثمانى مرات فى سورة واحدة .

٦ ــ فرعون مع موسى وهٰرون عليهما السلام :

فرعون طغى وبغى وتجاوز حدود البشرية،وادعى الربوبية،فأرسل الله إليه موسى وهارون قائلا لهما : **﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾** إلى قوله تعالى : **﴿ فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾** [2] .

وقد جاءت هذه القصة مفصلة فى سورة الأعراف،وطه،والشعراء،وفى بعض السور،جاءت موجزة كما فى قوله تعالى : **﴿ هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى .. ﴾** إلى قوله تعالى: **﴿ فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى** [3] **. إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾** [4] .

وفى سورة الشعراء استخدما الأسلوب العقلى لما قالا له (إنا رسول رب العالمين) قال بعد حوار طويل (وما رب العالمين . قال رب السمٰوات والأرض

---

(١) كأن لم يقيموا فيها . اهـ جلالين . واقرأ القصة بتفصيل فى سورة الأعراف من آية ٨٥ ــ ٩٣ وهود من آية ٨٤ ــ ٩٥ . والشعراء من آية ١٧٦ ــ ١٨٩ . ومعنى (جاثمين) أى باركين على الركب موتى . اهـ جلالين .

(٢) الآيات من سورة طه ٤٣ ــ ٤٨ .

(٣) هذه الكلمة هى الآخرة والأولى هى قوله : (ماعلمت لكم من إله غيرى) من سورة القصص ٣٨ ــ اهـ جلالين وسورة القصص قبل سورة النازعات نزولا كما فى الاتقاق جـ١ص ١١ .

(٤) النازعات : ١٥ ــ ٢٦ .

وما بينهما إن كنتم موقنين)، وكلما استهزأ فرعون بموسى عليه السلام يؤكد له الحجة الواضحة ﴿ **قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾[1] . فكان مصيره وقومه أن أغرقهم الله في البحر كما بينه الله فى سورة يونس[2] وغيرها .

وأورث الله موسى وقومه أرضهم وديارهم،كما قال تعالى : ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون** ﴾ [3] فاعتبروا أيها الطغاة الجبابرة بمن قبلكم وانظروا كيف كانت عاقبتهم .

واعتبروا يادعاة الإسلام بقوله تعالى : ﴿ **فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ [4] فهل تجدون فى التاريخ أعتى وأطغى ممن ادعى الربوبية التى هى حق خالص لله سبحانه وتعالى خالق الكون ؟. ومع هذا وجه الرسولين الداعيين أن يستخدما أسلوب اللين فى مخاطبة فرعون اللعين،والله سبحانه قادر أن يأخذه فى اللحظة الأولى . ولكن حكمته اقتضت ألا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ [5] ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ [6] .

— وذاك قارون قد طغى وبغى على موسى بالكبر وكثرة المال ، وادعى أن ذلك ليس من نعم الله سبحانه .. وقال إنما أوتيته على علم عندى .. ، فكان مصيره ماقصه الله فى سورة القصص:﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ..** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من**

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٦ — ٢٨ .
(٢) سورة يونس : ٩٠ ومابعدها .
(٣) سورة الأعراف : ١٣٦ — ١٣٧ .
(٤) سورة طه : ٤٤ .
(٥) سورة الاسراء : ١٥ .
(٦) سورة النساء : ١٥٦ .

فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ إلى قوله : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ [1] .

وقد ذكر الله معظم تلك الأحداث السابقة بأوجز العبارات بعد عرض سريع لها فقال : ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا** ﴾ (كقوم لوط) ﴿ **ومنهم من أخذته الصيحة** ﴾ كثمود ﴿ **ومنهم من خسفنا به الأرض** ﴾ كقارون ﴿ **ومنهم من أغرقنا** ﴾ كقوم نوح،وفرعون وقومه ﴿ **وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ [2] .

ولما قويت شوكة بنى إسرائيل،أفسدوا فى الأرض،وقتلوا الأنبياء،وسفكوا الدماء،واستحلوا المحارم،وتكبروا عن طاعة الله ، فسلط الله عليهم أقواما أولى قوة وبطش فى الحروب،فأغاروا عليهم وقتلوا عددا كبيرا منهم،واتخذوا من جلودهم نعالا،ومن شعورهم حبالا وذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضا مما قضت به السنة الإلهية . [3]

ـ قصة أصحاب الفيل :

هو محمود وأصحابه أبرهة الأشرم ، ملك اليمن من قبل النجاشى ، بنى كنيسة بصنعاء ليصرف إليها حج العرب عن مكة ، فأحدث رجل من كنانة فيها ولطخ قبلتها بالعذرة احتقارا لها ، فحلف أبرهة ليهدمن الكعبة حجرا حجرا ، فجاء مكة بجيشه على أفيال يقدمها (محمود) فحين توجهوا لهدم الكعبة أرسل الله عليهم ما قصه فى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا**

---

(١) القصص : الآيات ٧٦ ــ ٨٢ .

(٢) العنكبوت : ٤٠ ، وانظر الجلالين ص ٣٣٥ .

(٣) انظر هداية المرشدين ص ٢٠٢ لعلى محفوظ . الناشر المكتبة المحمودية التجارية بميدان الأزهر الشريف الطبعة السابعة .

أبابيل [١] ترميهم بحجارة من سجيل [٢] ، فجعلهم كعصف مأكول ﴾ . [٣]

قال ابن كثير : (هذه من النعم التى امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة،ومحو آثارها من الوجود ، فأبادهم الله وأرغم آنافهم،وخيب سعيهم،وأضل عملهم،وردهم بشر خيبة) [٤] ثم أورد أثرا فى كيفية إهلاكهم بالحجارة التى ألقتها الطير الأبابيل . [٥]

وهذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ــ ﷺ ــ فإنه ولد فى ذلك العام على المشهور،وكان لسان حال القدر يقول:(لم ننصركم يامعشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم . ولكن صيانة للبيت العتيق الذى سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبى الأمين ــ محمد صلوات الله وسلامه عليه ــ خاتم الأنبياء) [٦] .

ــ الدخان :

تحدثنا فيما مضى من أحداث التاريخ التى قصها الله ــ سبحانه وتعالى ــ على النبى ــ ﷺ ــ والتى نزلت بالمكذبين والمعاندين ــ من الأمم السابقة ــ للأنبياء عليهم السلام . فهل الغرض من ذلك سردها والتسلية بها ؟ كلا ..

إن الغرض منها العبرة للأجيال المتأخرة جيلا بعد جيل ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ليكونوا على حذر من الوقوع فى المهالك التى وقع فيها آباؤهم الأولون **﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . ما كان حديثا**

---

(١) الأبابيل : الجماعات الكثيرة المتتابعة .

(٢) الصلب الشديد من الحجر والطين المطبوخ .

(٣) ورق الزرع أكلته الدواب وداسته وأفنته أى أهلكهم الله تعالى كل واحد بحجره المكتوب عليه اسمه وهو أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة يخرق البيضة والرجل والفيل ويصل إلى الأرض . جلالين ، السيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٥ .

(٥) الأثر رواه ابن أبى حاتم كما فى المصدر نفسه ص ٥٠٨ ، ألا ترى كيف حفظ الله للكعبة حرمتها ولم تحل إلا يوم فتحها لرسول الله ﷺ فعادت حرمتها إلى يوم القيامة . وفى هذا يقول ﷺ يوم الفتح (إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين وأنها لم تحل لأحد قبلى ولن تحل لأحد بعدى) الحديث متفق عليه . البخارى ج ١ ص ٣٢ــ مسلم ج ٤ ص ١١٠ .

(٦) قاله ابن كثير فى تفسيره ج ٨ ص ٥٠٣ .

يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [1] . كما ذكر الله سبحانه فى القرآن الكريم أنواعا من نعمه التى تحتاج إليها الأجسام وترتاح لها النفوس ـــ لعل الناس يعترفون بها ويتجهون إلى المنعم بها وهو الله ـــ سبحانه ـــ خالق السموات والأرض ـــ وذلك بأسلوب جذاب للبصائر السليمة من الأمراض **﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾** [2] .. علمت قريش بهذا وأنذروا مقت الله وغضبه أن يحل بهم كما حل بمن قبلهم ، فلم يعبأوا بذلك بل أعرضوا وكذبوا وعاندوا وجابهوا الدعوة الإسلامية **﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾** [3]

قال ابن مسعود ـــ فى معرض الرد على القائلين بأن الدخان يكون يوم القيامة ـــ (وإن قريشا لما أبطأوا عن الإسلام ، فدعا عليهم النبى ـــ ﷺ ـــ .. فقال : اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف) [4]

وفى لفظ : أن النبى ﷺ (دعا قريشا إلى الإسلام فأبطأوا عليه ...

وفى لفظ آخر : لما رأى رسول الله ـــ ﷺ ـــ قريشا استعصوا عليه ، فقال : (اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف [5]) .

وفى لفظ (بسنين كسنى يوسف . فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام . ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان فأتاه أبو سفيان فقال : أى يامحمد إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يكشف عنهم فدعا) .

وفى لفظ (ثم قرأ) **﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** . إلى قوله تعالى : **﴿ إنا**

---

(١) سورة يوسف : ١١١ .
(٢) سورة الحج : ٤٦ .
(٣) سورة فصلت : ١٣ ـــ ١٤ .
(٤) البخارى جـ ٣ تفسير سورة الروم ص ١٧٣ .
(٥) البخارى جـ ٣ تفسير سورة الدخان ص ١٨٧ .

كاشفواْ آلعذاب قليلا إنكم عائدون . يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ [1] .

وفى لفظ : فدعوا ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون . إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون** ﴾ [2] .

فكشف عنهم العذاب . ثم عادوا فى كفرهم . فأخذهم الله يوم بدر أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ؟ ولمسلم : (أتى النبى رجل فقال يارسول الله استغفر الله لمضر [3] .. فإنهم قد هلكوا .. فدعا الله لهم فأنزل الله — عز وجل — ﴿ **إنا كاشفواْ آلعذاب قليلا إنكم عائدون** ﴾ فمطروا فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى ما كانوا عليه فأنزل الله — عز وجل — ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾ .

وقال : (خمس قد مضين : اللزام والروم ، والبطشة ، والقمر ، والدخان) [4] هذا لفظ البخارى كما رواه بألفاظ أخرى .

وقد اختلف المفسرون فى الدخان المذكور فى هذه الآية،هل قد مضى ونزل بقريش أم من الآيات المنتظرة ؟

فذهب ابن جرير والشوكانى وغيرهما،إلى ترجيح أثر ابن مسعود على غيره، من أن الدخان قد نزل بقريش . وذهب ابن كثير إلى أن الدخان من الآيات المنتظرة . وهو قول ابن عباس،ومن وافقه من الصحابة لحديث حذيفة بن أسيد

---

(١) الدخان : ١٠ — ١٦ .

(٢) الدخان : ١٢ — ١٤ .

(٣) اى ادع لهم بالهداية التى يترتب عليها الاستغفار .

(٤) البخارى ج ٣ ص ١٧٣ — ١٨٧ . مسلم ج ٨ ص ١٣٠ — ١٣١ — ١٣٢ ، والمراد باللزام قوله تعالى (فسوف يكون لزاما) اى يكون عذابهم لازما ، وهو البطشة الكبرى يوم بدر . اهـ نووى شرح مسلم ج ١٨ ص : ١٤٢ — ١٤٣ .

وقد أورد هذا الاثر رءوف شلبى فى رسالته ولم يسنده إلى الصحيحين بل أسنده إلى تفسير ابن كثير وذكر فيه : أن قريشا دعوا الله جل شأنه وتعرفوا عليه وابتهلوا إليه) ولم أجد هذه الزيادة فيه بل وجدت فى البخارى (فدعوا ربنا اكشف عنا العذاب) الآية . ولم يذكر الخلاف . وانظر الدعوة الإسلامية له ص ١٥٩ — من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٩٤ هـ .

الغفارى مرفوعا : وفيه (لن تقوم [١] حتى ترون قبلها عشرآيات : فذكر الدخان،والدابة،وطلوع الشمس من مغربها،ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج،وثلاث خسوف:خسف بالمشرق،وخشف بالمغرب،وخسف بجزيرة العرب،وآخر ذلك نار تخرج من اليمن،تطرد الناس إلى محشرهم) [٢] وغير ذلك من الأحاديث التى أوردها ابن كثير فى تفسيره،ووافقه سيد قطب.وحمل تفسير ابن مسعود بالدخان النازل بقريش بقوله : (إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد) . أما القرطبى فقد سرد الأقوال وأدلتها وسكت عن الترجيح . [٣]

قلت : وهل هناك مانع من كون الدخان قد نزل بالفعل على قريش ،كما هو ظاهر القرآن ﴿ **إنا كاشفواْ ٱلعذاب قليلا إنكم عائدون** ﴾ بعد أن دعوا ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ ودعا لهم النبى ﷺ،فكشف عنهم فلما أصابتهم الرفاهية،عادوا إلى ماكانوا عليه فأنزل الله (فارتقب) كما فى مسلم ، وفى البخارى : (فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ...) .

وهل يتنافى هذا القول مع الأدلة على أن الدخان من أمارات الساعة ولما يأت . الظاهر أنه لاتعارض لإمكان الجمع بالتعدد،إذ لم يكن عندى مرجح،لكن الجمع مقدم على الترجيح مهما أمكن . والله أعلم بالمراد .

---

(١) اى الساعة .

(٢) مسلم ج ٨ ص ١٧٩ .

(٣) انظر التفاصيل فى جامع البيان ج ٢٥ ــ ١١٤ ــ تفسير القرطبى ج ٧ ، ص ٥٩٥٠ ــ ٥٩٥١ . تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ ــ فتح القدير ج ٤ ص ٥٧٣ . فى ظلال القرآن ، ج ٢٥ ص ٣٢١٠ ــ ٣٢١٢ .

المبحث الثالث

منهج الدعوة من الناحية الروحية [1]
وإثارة الوجدان بالترغيب والترهيب

إن الإنسان بطبيعته يحب ما ينفعه ، ويبغض ما يضره ، لما فيه من غريزة حب الذات ، وقد سبق أن ذكرت أن المنهج القرآنى يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق مصالحه وملذاته،وعن طريق قضاياه المباشرة لحياته الحاضرة ومصيره البعيد، وذلك بالأسلوب العاطفى ،كما ذكرت بعض الآيات المناسبة فى الاستدلالات الكونية ، والتاريخية ، المخاطبة للعقل والعقلاء ، ولأخذ العبرة بأحوال من مضى من الطائعين والعاصين .

ومعلوم أن مخاطبة العقول لاتثير وجدانا ، ولا تغذى النفس التغذيةالروحية كالترغيب فى ثواب الأعمال الصالحة ، للطائعين لله ولرسوله ، وبالترهيب فى عقاب العصاة والكافرين بالله ، وبرسالة محمد ﷺ .

وكما أن الجسد محتاج إلى الغذاء المادى ، فالنفس محتاجة إلى الغذاء الروحى ، ولابد من التوازن بينهما،ولذلك مزج القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب . قلما تجد آية ترغيب إلا وأعقبتها آية ترهيب،والعكس بالعكس ، لأنه إذا غلب الترهيب حصل الخوف فالقنوط ، وإذا غلب الترغيب حصل التواكل،والدرجة التى بينهما هى المثلى . والله أعلم . ربنا إننا نرجو رحمتك

---

(١) نسبة إلى الروح . وقد ورد فى القرآن على معان كثيرة ، من ذلك جبريل وعيسى ، والوحى وملك عظيم . ومن أمر الله ، ونور القلب ، والتأييد والنصر ، واستعداد الإنسان لمعالى الصفات ، والنفس الناطقة ، وغير ذلك . انظر آدم للبهى الخولى ص ٢٢ — ٢٣ — ط الاستعلال — الروح لابن قيم الجوزية ص ٢١٧ — ٢١٩ ، تفسير القرطبى ج ٨ ، ص ٦٩٧٧ — فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ١٩٣ ، قاموس القرآن للدامغانى ، تحقيق وتكميل عبد العزيز سيد الأهل ، ص ٢١٢ ، ط . بيروت ، مصباح ج ١ ص ٢٦٣ .

ونخشى عذابك .

قال ابن قيم الجوزية : (اعلم أن الله جعل للقلوب نوعين من الغذاء ، نوعا من الطعام والشراب الحسى ، وللقلب منه خلاصته وصفوه،ولكل عضو فيه بحسب استعداده وقبوله . والثانى غذاء روحانى معنوى خارج عن الطعام والشراب،من السرور والابتهاج واللذة والعلوم والمعارف . وبهذا الغذاء كان سماويا علويا ، وقوامه بهذين الغذاءين .)[1]

واعلم أن هذا المبحث وإن تفرعت شعبه ، فهو يرجع إلى طريقين هما الترغيب والترهيب . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما** ﴾ [2] .

فى هذه الآية ترغيب وترهيب .. ترغيب للطائعين لله ورسوله،الحافظين لحدود الله تعالى،بعظيم الخير وتبشيرهم بحسن المثوبة ، وترهيب بوعيد المخالفين،الذين تعدوا حدود الله،وعصوا الله ورسوله،بالعذاب الشديد،وسوء العاقبة .

ثم إن الوعد بالخير يعم الدنيا والآخرة وسعادتها،والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما،فقد وعد جل شأنه المؤمنين الصادقين الاستخلاف فى الأرض، والأمن من المخاوف،والعزة والسيادة والحياة الطيبة ، وأوعد العاصين بالخزى والذل وضنك المعيشة فى الحياة الدنيا . كما وعد بالنعيم المقيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة . وبالوعد ساق الطائعين إلى الجد فى الطاعة وبالوعيد لوقف العاصين عند حد الأدب . [3] ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم**

(١) مدارج السالكين ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٢) سورة الإسراء : ٩ ـــ ١٠ .

(٣) انظر هداية المرشدين ص ١٨٢ .

الفاسقون ﴾ [١] .﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها مايشاءون كذلك يجزى الله المتقين ﴾ [٢] .

﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [٣] . ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ [٤] .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ [٥] ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ [٦] .

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ [٧] .

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ [٨]

﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا . يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ [٩] .

---

(١) سورة النور : ٥٥ .
(٢) سورة النحل : ٣٠ — ٣١ .
(٣) سورة النحل : ٩٧ .
(٤) سورة طه : ١٢٣ — ١٢٤ .
(٥) سورة التغابن : ٩ — ١٠ .
(٦) سورة الجن : ٢٣ .
(٧) سورة النساء : اية ٦٩ .
(٨) سورة الأحزاب : ٧٠ — ٧١ .
(٩) سورة الأحزاب : ٦٤ — ٦٦ .

والرغبة فيما عند الله من النعيم المقيم،هي التي دفعت بلالا،وآل ياسر،وخباب بن الأرت،وغيرهم على تحمل التعذيب الشديد ، بحر الرمضاء وبالنار،حتى أنه إذا اشتد العذاب على بعضهم قال : أحد أحد .. وكان إذا مر النبي عليه الصلاة والسلام بآل ياسر،وهم يعانون من شدة التعذيب،يقول : صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة . [1]

والرغبة في الجنة هي التي دفعت برجال العقبة الكبرى إلى البيعة لرسول الله ــ ﷺ ــ على السمع والطاعة في النشاط والكسل،وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى القول في الله تعالى بلا خوف،وعلى النصر والمنعة ليبلغ رسالة ربه .. وإن أدى إلى قتل خيارهم [2]،والرغبة في رضوان الله ــ عز وجل ــ هي التي حدت بأهل بدر إلى الاستماتة في سبيل الله،حتى أن بعضهم استبطأ أكل تمرات في يده ليتقوى بها على القتال ، فرماها قائلا : إنها لحياة طويلة ، إن عشت إلى أن آكلها ، فانقض بسيفه على المشركين حتى استشهد . [3]

وبعضهم قطعت يده من كتفه .. فقاتل طوال النهار وهي معلقة في جلده ، فلما آذته في آخره،وضعها تحت رجله وتمطى،حتى قطعها ليواصل القتال . [4]

والرغبة في الجنة هي التي دفعت الأكثرية الساحقة من شباب أحد،على الإلحاح في الخروج لقتال المشركين،حتى قال بعضهم:إني لأجد ريح الجنة خلف أحد . [5]

والبعض الآخر قال : إني أحب أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة [6] . كما

---

(١) سيأتي بيانه في جهاد الدعوة من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

(٢) سيأتي بيانه في بيعة العقبة الكبرى إن شاء الله .

(٣) هو عمير بن الحمام أخو بني سلمة ولفظه في السيرة ابن هشام .. بخ بخ .
وهي كلمة تقال في موضع الإعجاب ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء . اهـ . المرجع نفسه ج ١ ص ٦٢٧ .

(٤) هو معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة كذا في المصدر نفسه ص ٦٣٤ .

(٥) انظر التفاصيل في المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٣ .

(٦) هو عمرو بن الجموح وكان أعرج قتل يوم أحد كما في المصدر نفسه ص ٩٠ .

دفعتهم أيضا إلى الخروج — وهو مثخنون بالجروح — وراء المشركين إلى حمراء الأسد،حاملين الجرحى على ظهورهم .[١]

والرغبة فى الجنة حببت إليهم الإيثار على أنفسهم في أحرج الظروف،حتى أنها لتعرض شربة ماء على أحدهم فى المعركة،وهو فى آخر رمقه فيردها قائلا : أخى أحق بها منى .. وهكذا حتى تعود إلى الأول،وقد استشهد والثانى والثالث وهكذا ،إلى أن ماتوا جميعا ،ولم يشربها أحد منهم . رضى الله عنهم أجمعين .[٢]

(١) انظر التفاصيل فى المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠١ — ١٠٢ وحمراء الأسد موضع يبعد عن المدينة بثمانية أميال على طريق مكة .

(٢) إشارة إلى قصة عكرمة ابن أبى جهل وأصحابه يوم اليرموك وانظر التفاصيل فى البداية والنهاية ج ٧ ص ١١ — ١٢ تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٩٧ .



الفصل الثالث

مراحل الدعوة



الخطوة الأولى .

لما نزلت سورة المدثر تيقن النبى عليه الصلاة والسلام – أن الله سبحانه – كلفه بأعباء الرسالة التى لايحتملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل ، بعون الله وتوفيقه ، مما يزيد هذا العبء ثقلاً وشدة أنه بدأ تحمله فى مكة ، وهى مركز دين العرب ، وبها سدنة الكعبة والقوامة على الأوثان والأصنام المقدسة عند العرب . فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يتطلب جهوداً غير قليلة ، بل يزداد عسرا وشدة عما لو كان بعيدا عنها ، إذن فالأمر يحتاج إلى عزيمة لاتزلزلها المصائب .

وكان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة إلى هذا الدين فى بدء أمرها سرية لئلا يفاجىء أهل مكة .

الاتصال الفردى :

(أ) إسلام خديجة بنت خويلد :

من حكمة الله – سبحانه – أن شرح صدر خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها لما جاء به عليه الصلاة والسلام . وكان ذلك الاتصال الأول ، بأقرب الناس إلى صاحب الدعوة – ﷺ – فكانت أول من آمن به وصدقت بما جاء من الله ووازرته على أمره ، فخفف الله بها عن نبيه ﷺ شيئا كثيراً مما يجده من أمر الدعوة ، إذ كان لايسمع شيئا مما يكرهه من رد وتكذيب . فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتهون عليه أمر الناس .

وقد بشرها عليه الصلاة والسلام ببيت فى الجنة من قصب[1] لاصخب فيه ولانصب[2] .

وكانت أول من علمه النبى ﷺ الوضوء عقب ماعلمه جبريل عليه السلام مباشرة إذهمزله بعقبه من ناحية الوادى فانفجرت له عين من زمزم فتوضأ جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام ثم صلى ركعتين وأربع سجدات . وفى الحلبية فقال له يامحمد : (إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك أنت رسول الله إلى الجن والإنس ، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ثم ضرب برجله فى الأرض فنبعت عين ماء وفى بعض الروايات حين افترضت عليه الصلاة ، وهذه غير الصلاة التى صلاها به عند البيت مرتين صبيحة الإسراء والمعراج .

إسلام على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه .

ثم إن على بن أبى طالب جاء بعد ذلك بيوم وهما يصليان فقال يامحمد ماهذا ؟ قال : دين الله الذى اصطفاه لنفسه ، وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده لاشريك له وإلى عبادته وأن تكفر باللات والعزى . فقال على هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم . فلست بقاض شيئا حتى أحدث به أبا طالب، فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له ياعلى إذا لم تسلم فاكتم . فمكث على تلك الليلة ثم أوقع الله فى قلبه الإسلام ، فأصبح غاديا على رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال ماذا عرضت على يامحمد ؟ فقال له تشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وتكفر باللات والعزى . وتبرأ من الأنداد . ففعل على وأسلم ، ومكث يأتيه على خوف من أبى طالب وكتم على إسلامه وكان مما أنعم الله به عليه أنه كان فى حجر رسول الله ﷺ وعمره إذ ذاك عشر سنين .

وقال أنس : (بعث النبى ﷺ يوم الاثنين ، وصلى على يوم الثلاثاء)[3] .

---

(١) القصب هنا اللؤلؤ المجوف كالقصر المنيف وقيل من ذهب منظوم بالجوهر والنصب التعب والصخب الصوت المختلط أ هـ نووى جـ ٥ ص ٢٠٠ .

(٢) من حديث رواه البخارى ج ٢ ص ٣١٥ - مسلم ج ٧ ص ١٣٣ ، عن عائشة وغيرها - السير والمغازى لابن إسحق ص ٣٤٣ - ٢٤٤ .

(٣) رواه الترمذى وقال غريب ج ١٠ ص ٢٣٤ .

وكان النبى ﷺ إذا أراد الصلاة انطلق هو وعلى بن أبى طالب إلى بعض الشعاب بمكة يصليان ويعودان، فعثر عليهما أبو طالب فقال : يا ابن أخى ماهذا الدين ؟ قال : دين الله وملائكته ورسله ، ودين أبينا إبراهيم بعثنى الله به إلى العباد ، وأنت أحق من دعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى قال : لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى ، ولكن والله لاتخلص قريش إليك بشىء تكرهه ماحييت . وقال لعلى ماهذا الدين الذى أنت عليه ، قال : يا أبت : آمنت بالله وبرسوله وصليت معه فقال : إنه لايدعوك إلا إلى الخير فالزمه[1] .

ثم توالت الاتصالات الفردية من فرد إلى فرد مأخوذ فيها بعين الاعتبار الأقرب فالأقرب ثم الأصلح فالأصلح ، فكان أن أسلم الصديق الحميم الذى امتاز بأن كان إسلامه بغير كبوة .

إسلام أبى بكر الصديق رضى الله عنه :

لما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على أبى بكر قال له : يا أبا بكر : إنى رسول الله ونبيه بعثنى لأبلغ رسالته وأدعوك إلى الله بالحق ، فوالله إنه للحق ، أدعوك إلى الله وحده لاشريك له ولايعبد غيره ، والموالاة على طاعته أهل طاعته وقرأ عليه القرآن . فلم يفر ولم ينكر فأسلم وكفر بالأصنام وخلع الأنداد وأقر بحق الإسلام . ورجع وهو مؤمن مصدق ، وأظهر إسلامه . وفى ذلك قال : ﷺ : (مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر ماتردد فيه) وقال أيضاً : ﷺ (إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق)[2] .

وقد اختلف فى أول من أسلم من الصحابة فقيل خديجة وقيل أبو بكر وقيل على وقيل غير ذلك .

والجمع بين الأقوال : إن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر ومن

---

(١) انظر السير والمغازى ص ١٣٦ – ١٣٧ السيرة النبوية ابن كثير ج ١ ص ٤٢٤ - ٤٢٨ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٠٧ – ٣١٣ ، السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٢٤ .

(٢) السير والمغازى ج ٢ ص ١٣٩ . البخارى ج ٢ ص ٢٨٩ – ٢٩٠ .

الصبيان على ، ومن النساء خديجة ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال[1] .

قلت : وهو جمع حسن لأن سابقة خديجة ثابتة فى الصحيحين وغيرهما فى حديث بدء الوحى . وقد سبق . وعلى كان فى حجر رسول الله ﷺ . وقد سبق الحديث عن إسلامه وصلاته اليوم الثانى من البعثة وأبو بكر يشير إلى سابقته الحديث السابق ، وغيره .

وقد دعا إلى الله عز وجل – من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم على يديه جماعة – لما له من المكانة لدى قومه – منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله .. وهؤلاء هم الدفعة الأولى .

قال ابن إسحق : .. (فانطلقوا – أى هؤلاء النفر – حتى أتوا رسول الله ﷺ ومعهم أبو بكر رضى الله عنهم أجمعين فعرض النبى عليه الصلاة والسلام عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن وأنبأهم بحق الإسلام وبما وعدهم الله من كرامة فآمنوا وأصبحوا مقرين بحق الإسلام)[2] .

وقد كلف رسول الله ﷺ من أسلم تبليغ من لم يسلم باعتبار الأقرب فالأقرب . وبهذه الطريقة تكاثرت الجماعة المسلمة وتغلغل الإيمان فى نفوسهم حتى تكونت منهم القاعدة الصلبة اللازمة للبناء .

تحديد الهدف .

سبق أن ذكرت ماعرضه النبى ﷺ على أبى بكر وعلى من الغاية التى أرسل من أجلها . وتأكيداً لذلك نسجل ماعرضه ﷺ على عمرو بن عبسه وخالد ابن سعيد بن العاص وغيرهمافإن عمرو بن عبسة لما دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام قال : بم أرسلك ربك ؟ قال : (بأن نعبد الله وحده لاشريك له وتكسر الأصنام وتوصل الأرحام ، فأسلم . فقال للنبى ﷺ فأتبعك يارسول الله قال ،

(١) هذا ماذهب إليه أبو حنيفة وابن الصلاح والنووى كما فى السيرة النبوية أبو شهبة ص ٢٩١ .

(٢) السير والمغازى ص ١٤٠ . الإصابة لابن حجر جـ٦ ص ٣٩١ .

لا ولكن الحق بأهلك فإذا سمعت بى قد ظهرت فأتنى)[1] .

وقال ﷺ لخالد بن سعيد بن العاص حينما سأله إلى ما تدعو ؟ قال : (أدعوك إلى الله وحده لاشريك له . وأن محمدا عبده ورسوله وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولايبصر ولايضر ولاينفع ولايدرى من عبده ممن لايعبده . قال خالد : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وكان قد رأى فى النوم أنه وقف – على شفير النار . وكأن آتيا أتاه يدفعه فيها ويرى رسول الله ﷺ آخذاً بحقويه حتى لايقع ففزع من نومه فقال : أحلف بالله أن هذه الرؤيا حق ، فكانت النتيجة ماذكر فى إسلامه[2] .

وقال ﷺ لقريش أثناء المفاوضة : (كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ماتعبدون من دونه)[3] ، وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله فى موضعه.

فأما الفطر السليمة إذا اتضح لها السبيل المستقيم تسلكه عن إيمان واقتناع لاتعبأ لأى مخالف .

فلما أسلم سعد بن أبى وقاص – وكان باراً بأمه – قالت له : (والله لا أكلت طعاما ولاشربت شراباً حتى تكفر بما جاء به محمد .

وبعد يوم وليلة – وكادت أن تموت جوعا وعطشا – قال لها سعد : « تعلمين يا أمة لو كان لك مائة نفس تخرج نفسا نفسا ماتركت دين هذا النبى فكلى إن شئت أولا تأكلين ، فلما رأت ذلك أكلت .

وفى رواية مسلم : (مكثت ثلاثاً حتى غشى عليها من الجهد ، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل ﴿ **ووصينا**

---

(١) قطعة من حديث طويل لفظها .. أرسلنى الله بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لايشرك به شىء . « رواه مسلم ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٢) رواه البيهقى كما فى البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٢ .

(٣) انظر السير والمغازى ص ٢٣٦ – ٢٣٧ البداية ج ٣ ص ١٢٣ . السيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٧ ، ٤١٨ ، الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٩ ، ص ٩٩ – ١٠٠ تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٦ ، مسند أحمد ج ١ ص ٣٦٢ .

الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي﴾ وفي سورة لقمان ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفا ﴾[1] .

وكذلك فعلت لما أسلم ابنها عامر أو عمارة فقال لها سعد بما سبق وزاد : (حتى تتبوئى مقعدك من النار)[2] .

وأما الفطر المنتكسة فإنها تهرب من الحق وتلتوى عنه .

أول مدرسة فى الإسلام بيت رسول الله ﷺ .

سبق أن ذكرت إسلام خديجة رضى الله عنها وعلىوأبى بكر وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين وكلهم تلقوا الإسلام فى بيت رسول الله ﷺ .

وها نحن أولاء الآن مع صهيب[3] الرومى وعمار[4] بن ياسر اليمنى وقد مر صهيب ببيت رسول الله ﷺ فرأى عمار بن ياسر فقال له عمار أين تريد يا صهيب ؟ قال : أريد أن أدخل إلى بيت محمد عليه الصلاة والسلام فأسمع كلامه ومايدعو إليه قال عمار ، وأنا أريد ذلك . فدخلا على رسول الله ﷺ ، فأمرهما بالجلوس فجلسا وعرض عليهما الإسلام وتلا عليهما ما حفظه من القرآن فتشهدا . ثم مكثا عنده يومهما ذلك حتى إذا أمسيا خرجا مستخفيين فدخل عمار على أبيه وأمه فسألاه أين كان فأخبرهما بإسلامه وعرض عليهما الإسلام

---

(١) العنكبوت وتمامها **﴿ وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾** وفى سورة لقمان **﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ... ﴾** الآية ١٥ .

(٢) مسلم ج ٧ ص ١٢٥ - ١٢٦ وانظر السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٤٧ أسباب النزول للواحدى ص ١٩٥ وفيه قال المفسرون نزلت فى سعد بن أبى وقاص لما أسلم . قالت له أمه جميلة ياسعد بلغنى أنك صبوت فوالله لايظلنى سقف من الفح والريح ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد .. وانظر لباب النقول للسيوطى ص ١٧٠ وفيه (وقالت أم سعد أليس قد أمر الله بالبر والله لأطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر بمحمد) .

(٣) هو صهيب بن سنان النمرى وهو الرومى كان أبوه عاملا لكسرى على الأبُلّة وكانت منازلهم بأرض الموصل فأغارت الروم على تلك الناحية فسبت صهيبا وهو غلام فنشأ بالروم فصار ألكن فابتاعته منهم كلب ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان فأعتقه فأقام معه بمكة حتى هلك عبد الله وبعث النبى ﷺ دفع أمواله لقريش مقابل أن يتركوه للهجرة فهاجر وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ مات بالمدينة سنة ثمان وثمانين عن ثلاث وسبعين سنة وقيل غير ذلك . ودفن بالبقيع (الاستيعاب مع الإصابة ج ٥ ص ١٤٧ ومابعدها) .

(٤) هو مولى لبنى مخزوم ومن السابقين إلى الإسلام ومن المعذبين فى مكة قتل فى صفين مع على بن أبى طالب وفيه قال ﷺ (تقتل عمار الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار) رواه البخارى ج ١ ص ٨٩ - مسلم ج ٨ ص ١٨٥ - ١٨٦ وغيرهما .

وقرأ عليهما ماحفظ من القرآن فى يومه ذلك فأعجبهما فأسلما على يديه فكان رسول الله ﷺ يسميه الطيب المطيب[١] .

أسلوب الحكمة .

وهذا حصين والد عمران لما طلبت منه قريش – وكانت تعظمه وتجله – أن يكلم محمداً ﷺ – فإنه يذكر آلهتنا ويسبها فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبى ﷺ ، ودخل حصين فلما رآه النبى قال أوسعوا للشيخ ، فقال حصين : ماهذا الذى بلغنا عنك ؟ إنك تشتم آلهتنا . فقال ياحصين كم تعبد من إله ؟ قال : سبعة فى الأرض وواحد فى السماء . فقال : فإذا أصابك الضر فمن تدعو ؟ قال الذى فى السماء . قال فإذا هلك المال من تدعو ؟ قال الذى فى السماء . قال فيستجيب لك وحده وتشرك معه .. ياحصين أسلم تسلم . فأسلم . فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه . فبكى رسول الله ﷺ وقال : بكيت من صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم وفّى حقه ، فدخلنى من ذلك الرقة . فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله ﷺ شيعوه إلى منزله . فلما خرج من سدة الباب – أى عتبته – رأته قريش . قالوا : قد صبأ وتفرقوا عنه[٢] .

هكذا منهج الدعوة ، عرض وأخذ وعطاء وإقناع بالبراهين الواضحة المطابقة للواقع ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾[٣] والحكمة وضع الشىء فى موضعه وذلك هو أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ﴿ **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾[٤] .

كم تعبد آلهة ياحصين ؟ من تدعو إذا أصابك الضر ؟ إذا هلك المال ؟ الخ . ولما دعا النبى ﷺ قريشاً لما أنزل الله عزل وجل (وأنذر عشيرتك

---

(١) انظر الإصابة مع الاستيعاب ج ٥ ص ١٤٧ ومابعدها ، السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٥٥ .

(٢) انظر السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٥٥ والإصابة ج ١ ص ٢٥٧ – ٢٥٨ ، مع خلاف بسيط .

(٣) النحل آية ١٢٤ .

(٤) يوسف آية ١٠٨ .

الأقربين)[١] صعد الصفا فجعل يهتف ببطون قريش بطنا بطنا . فلما اجتمعوا قال :

(أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم . أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم ماجربنا عليك إلا صدقا) .

وفى رواية : (ماجربنا عليك كذبا) .

فلما تحققت شهادة الخصوم المستمعين . قال ﷺ (فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد)[٢] وكان ذلك تعريفا بمقام النبوة وماينفرد به من علم بالحقائق الغيبية وموعظة وإنذار ، فى حكمة وبلاغة لانظير لهما فى تاريخ الديانات والنبوات . فلم يكن أسلوب أوضح من هذا الأسلوب . فسكت القوم ولكن أبا لهب قال : (تبا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا)[٣] .

الخطوة الثانية : التكوين السرى فى دار الأرقم .

لما أسلم النفر السابق ذكرهم على يده ﷺ وأبى بكر م يكن لهم مقر يؤويهم يتلقون فيه تعاليم الإسلام وهم آمنون على أنفسهم إذ كانوا يستخفون بصلاتهم من المشركين فى شعاب مكة، فبينما هم فى شعب من شعابها إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم مايصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبى وقاص رجلا منهم بلحى بعير فشجه فهو أول دم أهريق فى الإسلام . فلما كان الأمر كذلك أدرك النبى ﷺ من خلال تفكيره فيمن وفيما حوله أنه لايمكن لأى عمل أن يصل إلى غايته إلا بتكوين جماعة تتعاون فى إيصاله . لذلك دخل ﷺ دار الأرقم[٤] هو وأصحابه مستخفين بها

---

(١) الشعراء : ١١٤ وانظر دعوة الرسل لمحمد العدوى ص ٤٠١ .

(٢) البخارى ج ٣ ص ١٧١ – مسلم ج ١ ص ١٣٤ وسيأتى مزيد من البيان إن شاء الله عند ذكر هدا الحديث فى مرحلة الجهر بالدعوة وغيرها .

(٣) انظر السيرة البنوية للندوى ص ٨٨ دار الشروق – جدة / والقطعة الأخيرة من الحديث فى الصحيحين كما سبق .

(٤) الأرقم كان اسمه عبد مناف بن أسد من بنى مخزوم يكنى أبا عبد الله وأمه تماضر بنت جذيم السهمية ويقال أمية بنت عبد الحارث الخزاعية كان من السابقين الأولين قيل أسلم بعد عشرة أشخاص وقيل بعد سبعة شهد بدرا وأحدا وسائر المشاهد توفى فى خلافة معاوية سنة خمس وخمسين وقيل ثلاث وخمسين وصلى عليه سعد ابن أبى وقاص تنفيذا لوصيته . اهـ من الإصابة ج ١ ص ٤٠ – ٤١ ، وكانت داره بمكة على الصفا أسلم فيها جماعة كثيرة اهـ / الاستيعاب مع الإصابة ج ١ ص ٢٤٤ .

من قريش وكانت عند الصفا يؤمها الحجيج والغرباء ، يدعو الناس فيها إلى الإسلام . فكان ﷺ وأصحابه يقيمون الصلاة بدار الأرقم ويعبدون الله تعالى فيها إلى أن أمره الله بإظهار الدعوة بعد أن تكاملوا أربعين رجلا فخرجوا[1] .

وزاد ابن كثير نقلا عن الأموى فى مغازيه أن المشجوج عبد الله بن خطل لعنه الله[2] والله أعلم .

وهكذا بدأ الإسلام غريبا فى مكة كما قال ﷺ :
(بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)[3] .

بدأ محمد ﷺ بالدعوة إلى الله وحده بدين الإسلام غريبا بين أهله وذويه ، غريباً بين عشيرته ، غريبا بين عامة قومه . بلغ بهم اللؤم أن ائتمروا على قتله **﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾**[4] وذلك فى دار الندوة كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

بدأ هذا الإسلام غريبا وبدأ أتباعه غرباء ضعفاء **﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾**[5] **﴿ وسيعود غريباً كما بدأ ﴾** فهل هذه العودة قد ذهبت ؟ أم هى آتية فيما بعد ؟ أم نعايشها فى زماننا هذا ؟ .

وقد بحثت عن جواب لهذه التساؤلات حول شرح هذا الحديث فوجدت فى معنى (غريبا) فى المدينة وأن الإسلام بدأ بها غريبا وسيعود إليها هكذا نقله النووى وأسنده لمالك وتعقبه القاضى (بأن ظاهر الحديث العموم ، وأن

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٦٣ - والحلبية ج ١ ص ٤٥٦ والبداية ج ٣ ص ٣٧ والإصابة ج ١ ص ٤٠ والاستيعاب ج ١ ص ٢٤٣ / ٢٤٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٧٣ .

(٣) مسلم ج ١ ص ٩٠ عن أبى هريرة وابن عمر الدارمى ج ٢ ص ٢٢٠ وطوبى فيها لغتان تقول العرب طوباك أو طوبى لك ومن معانيها فرح وقرة عين وحسنى وكرامة لهم ودوام الخير والجنة وشجرة فى الجنة وكل هذه الأقوال محتملة كذا قال النووى فى شرح مسلم ج ٢ ص ١٧٦ .

(٤) الأنفال الآية ٣٠ .

(٥) الفتح الآية ٢٩ ، وشطأ الزرع إفراخه . وانظر لمزيد من الإيضاح تفسير القرطبى ج ٧ ص ٦١١٤ .

الإسلام بدأ فى آحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر ، ثم سيلحقه النقص والإخلال حتى لايبقى إلا فى آحاد وقلة أيضا كما بدأ . والغرباء هم النزاع من القبائل والمراد بذلك المهاجرون الذين هجروا أوطانهم إلى الله تعالى[1] .

قلت : وما قرره القاضى هو الذى يدل عليه ظاهر الحديث ، لأن واقع التاريخ لبداية العهد المكى هو نفس الغربة التى بدأ بها كما سبق بيان ذلك وكما سيأتى . وليس العهد المدنى هو بداية الغربة فإنه بداية عزة الإسلام ورفعته يشهد لذلك وقعة بدر ومابعدها .

أما العودة فقد أشار إليها القاضى بقوله : (ثم سيلحقه النقص والإخلال حتى لايبقى إلا فى آحاد وقلة أيضا كما بدأ) وهذه العودة لاترتبط بزمان ولامكان معين وإنما تعود كلما انتقل زمام الحكم من أيدى المسلمين إلى غيرهم إذ يحصل الفساد فى الأرض نتيجة لذلك . وسيكون هناك رجال يحاولون أن يصلحوا ما أفسد الناس وسيكونون فى وسط الناس غرباء كما كان محمد ﷺ – غريبا بين أهله وعشيرته (تبا لك . ألهذا جمعتنا)[2] .

وكما كان ذلك حال الضعفاء المعذبين كأسرة ياسر وبلال وغيرهم غرباء بين مشركى قريش . وقد شاء الله أن يكو ن فى جيلنا مصلحون لما أفسد الناس فأظلتهم تلك السحابة السوداء فكانت تلك الغربة للرجال الذين قالوا ربنا الله لاقيصر ، وكانت السجون والمشانق للذين قالوا : الحاكمية لله لا للبشر ، وكان التقتيل والتشريد لكل من قال لقيصر : لا .. نعم قتل وشرد صفوة شباب أرض الكنانة ، وخير رجالها ، وقتل وسجن وعذب صفوة شباب الشام والعراق والسودان ، والأفغان وعدن والفلبين والصومال ، وسائر بلاد المسلمين ، لا لشيء ولكن لأنهم حاولوا أن يصلحوا ما أفسد الناس[3] . ومازالت تلك السحابة السوداء تمطر غضبها على المصلحين حتى أيامنا هذه .

---

(١) انظر شرح مسلم ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢) هذه الكلمة القبيحة التى قالها أبو لهب – عم رسول الله – ﷺ كما فى البخارى ج ٣ ص ١٧١ وسيأتى الحديث بتمامه إن شاء الله .

(٣) انظر من مراحل الدعوة الإسلامية لحسين جابر ص ٣ مخطوط .

(بدأ الإسلام غريبا) حيث قال ﷺ لعمرو بن عبسة حينما أراد أن يسلم : (إنك لاتستطيع ذلك يومك هذا) . وكان قد قال : فمن معك على هذا ؟ قال : حرو عبد . وفيه (ألا ترى حالي وحال الناس ، ولكن ارجع إلى أهلك ، فإذا سمعت بى قد ظهرت فأتنى)[1] .

ولما أسلم أبو ذر الغفارى قال له النبى ﷺ (اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل)[2] . وكذلك قصة عمر بن الخطاب لما جهل إسلام أخته وزوجها بدعوة خباب بن الأرت[3] ، وقال عمار : (رأيت رسول الله ﷺ ومامعه إلا خمسة عبد وأمرأتان وأبو بكر)[4] . وقال سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنه : (لقد رأيتنى وأنا ثلث الإسلام) وفى رواية أخرى : (ولقد مكثت سبعة أيام وإنى لثلث الإسلام)[5] .

وفى هذا دليل واضح على أن المرحلة الأولى للدعوة فى مكة كانت فى غاية من السرية .

ولنرجع إلى دار الأرقم لنعيش شيئا من الوقت مع أولئك الغرباء المستضعفين ومازالت تلك الدار منتدى يجتمع فيه المسلمون لعبادة الله وتلقى أصول تعاليم الإسلام عن النبى ﷺ حتى تكون منهم رجال تستذل الصعاب وتستعذب الموت فى سبيل دينهم وعقيدتهم ، وقد شاع بينهم أنه من أراد الإسلام فليذهب إلى تلك الدار مستخفيا خشية أن يناله أذى قريش . وفى خلال تلك الفترة

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ وفيه : (فإذا رسول الله مستخفيا حرأوا عليه قومه)

(٢) من حديث طويل رواه البخارى ج ٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ وفيه أنه لقيه على فقال له : ماأقدمك هذه البلدة . فقال له إن كتمت علىَّ أخبرتك قال أفعل . قال بلغنا أنه خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبى .. فقال له إنك قد رشدت فاتبعنى فإن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأنى أصلح نعلى وامض أنت فمضى حتى دخلوا على النبى ﷺ .. الحديث كما رواه فى موضع آخر ج ٢ ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

كما رواه مسلم أيضا فى موضع آخر مطولا ج ٧ ص ١٥٢ - ١٥٦ . وأورده ابن كثير فى البداية ج ٣ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) انظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٣٤٧ - البداية والنهاية ج ٣ ص ٣١ .

(٤) البخارى ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٠٣ وراجع الجمع بين حديث عمار وسعد فى فتح البادى ج ٧ ص ٨٤ .

المباركة وبذر النواة الأولى كان كفار قريش غير منكرين لما يقول ﷺ بل كانوا يسخرون منه إذا مر عليهم في مجالسهم مشيرين إليه . هذا غلام بنى عبد المطلب يكلم من السماء ، حتى عاب آلهتهم التى يعبدونها من دون الله ، وذكر آباءهم الذين ماتوا على الكفر فغضبوا وعادوه .

ومكث رسول الله ﷺ حتى أسلم الفاروق عمر ، فكانت حصيلة الدعوة فى هذه الفترة مايقارب أربعين رجلا وامرأة معظمهم من الفقراء والأرقاء . وممن لا شأن لهم بين قريش . ولكن بعد إسلام حمزة وعمر رضى الله عنهما شعر المسلمون بعزة فى نفوسهم فاستعلنوا بعبادتهم ، وقد أعطى النبى ﷺ ، الأرقم داراً بالمدينة . قال أبو شهبة : (ولعل هذا مكافأة له على ما أدته داره بمكة من خدمة جليلة للإسلام فى أول عهده ، فلله هذه الدار التى فاقت أعظم مدارس العالم وجامعات الدنيا ، وخرجت أعظم رجال عرفهم التاريخ .. ولاتزال هذه الدار مفخرة خالدة للأرقم إلى يوم القيامة[1] .

قال الغزالي : (وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما ولعلها حسبت محمداً عليه الصلاة والسلام كأحد المتدينين ، أمية بن أبى الصلت وقس ابن ساعدة ، وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم .. إلا أنها خافت ذيوع خبره وامتداد أثره وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته)[2] .

واختلف فى مدة الاستخفاء فقيل ثلاث سنين وقيل أربع وقيل : شهراً ، والمشهور الأول ، كما اختلف فى قدر إقامته ﷺ بعد النبوة وقبل الهجرة[3] .

وقال ابن إسحق : (فلما أسلم هؤلاء النفر وفشا أمرهم بمكة ، أعظمت ذلك قريش وغضبت له وظهر فيهم لرسول الله البغى والحسد ، ثم إن الله تعالى

---

(١) انظر السيرة النبوية / ابن هشام ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٦٣ الإصابة ج ١ ، ص ٤١ مع الاستيعاب ج ١ ص ٢٤٤ . فقه السيرة للبوطى ص ٢٩ ، السيرة النبوية أبو شهبة ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) فقه السيرة ص ١٠٠ .

(٣) أنظر مسلم مع شرحه ج ١٥ ص ٩٩ - مختصر السيرة النبوية لشيخ الإسلام محمد عبد الوهاب ص ٥٥ السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٥٧ .

أمر رسوله أن يصدع بما جاء به وأن يبادىء الناس بأمره ، وأن يدعو إلى الله تعالى)[1] .

ويبدو أن عدم اهتمام قريش بالنبى ﷺ والسخرية منه كانت قبل أن يعيب آلهتهم وآباءهم الذين ماتوا على الكفر وبعد ذلك غضبوا وعادوه .

ما الحكمة فى السر بالدعوة ؟ .

هل كان خوفا من النبى ﷺ أم هو التنظيم الدقيق ؟

لم يكن خوفا على شخصه ﷺ إنما كان حرصا على الدعوة وعلى القلة المؤمنة التى آمنت به .

وقد ألهمه الله – سبحانه – وهو نوع من الوحى – أن يبدأ بتنظيم الدعوة سراً ليقتدى به الدعاة من بعده فى أخذ الحيطة والحذر إذا كان الجهر أو القتال يئد الدعوة فى مهدها .

أما إذا كان جانب الجهر هو الراجح فلا مهادنة فى نشر الحق وإعلانه مهما وقع للدعاة من أذى فى سبيل ذلك .

وقد جاء الأمر حاسما من الله – سبحانه وتعالى – ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾[2] .

الحكمة فى سبق الضعفاء إلى الإسلام .

ثم ما الحكمة فى أن السابقين إلى الإسلام كان معظمهم ممن لايستطيع الدفاع عن نفسه ؟ الجواب : هكذا طبيعة دعوات الأنبياء السابقة . فقوم نوح قالوا : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾[3] و ﴿ **قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾[4] .

وقال المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين المؤمنين ماحكى الله عنهم

---

(١) السيرة والمغازى ص ١٤٤ – ١٤٥ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩٤ .

(٣) سورة هود الآية ٢٧ ومعنى (أراذلنا) أسافلنا كالحاكة .. (بادى الرأى) أى ابتداء من غير تفكير فيك . انتهى جلالين ص ١٨٤ .

(٤) سورة الشعراء الآية ١١١ .

بقوله : ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾[1] .

ولما سأل هرقل عظيم الروم أبا سفيان بن حرب (... فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقال أبو سفيان بل ضعفاؤهم[2] ..) .

قال البوطى : (وهى حقيقة تخدش أول ماتخدش ألوهية المتألهين وحاكمية المتحكمين وسطوة المتزعمين . وتناسب أول ماتناسب حالة المستضعفين والمستذلين والمستعبدين فيكون رد الفعل أمام الدعوة إلى الإسلام لله وحده هو المكابرة والفساد من أولئك المتألهين والمتحكمين ، والإذعان والاستجابة من هؤلاء المستضعفين)[3] .

قلت وهذا هو ماتقرره الأيام والأحداث سنة الله فى خلقه حتى فى عصرنا الحاضر ، على مستوى الشعوب والقبائل ، فأنت ترى إذا خرجت إلى أى ريف أو قرية ، ووجدت داعية يدعو الناس إلى التمسك بمبادىء الإسلام ، تجد حوله الضعفاء والفقراء وفى نفس الوقت تجد شيوخ القبائل يتألمون من ذلك خوفاً من تأثير الداعية على أتباعه فتختل مناصبهم ومصالحهم ، فيكون رد الفعل أمام الداعية بأن توجه إليه التهم القذرة والدعاوى الكاذبة بل مجابهته وهتك عرضه وإهانة كرامته ، ولكن لاضير على الداعية المسلم ، وليتذكر ماقيل لرسول الله ﷺ ، مجنون ، ساحر كذاب .. ومافعل به وهو يصلى حول الكعبة ، وفى خروجه للدعوة إلى الطائف ، وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله . ﴿ **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ومايمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرون** ﴾[4] .

قال ابن كثير : (والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف فى

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات ٧٥/٧٦ .

(٢) من حدث طويل – رواه البخارى ج ١ ص ٨ .

(٣) فقه السيرة للبوطى ص ٩٦ .

(٤) سورة الأنعام ١٢٣ .

المقال والفعال ، كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح ﴿ **ومكروا مكراً كبارا** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا** ﴾[2] الآية .

مرحلة الجهر بالدعوة .

استمرت الدعوة فى مهد الطفولة والاستخفاء ثلاث سنين على المشهور كما سبق ثم نزل قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[3] .

وقد أكثر المفسرون الكلام حول هذه الآية الكريمة بما لايتسع له المقام هنا . كذلك المحدثون رووا وأوردُوا عدة أحاديث عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين نذكر نبذة من ذلك :

(١) ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما أنزلت هذه الآية ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾(دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا فعم وخص فقال : يابنى كعب بن لؤى ، أنقذوا أنفسكم من النار . يابنى مرة ابن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار، يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار . يافاطمة أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها)[4] . وفى

---

(١) سورة نوح الآية ٢٣ .

(٢) سورة سبأ الآية ٣١ - ٣٣ .

(٣) سورة الشعراء الآية ١١٤ .

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم ج ١ ص ١٣٣ - ١٣٤ وقوله (ببلالها) ضبطه النووى بفتح الباء الثانية وكسرها . وقال : هما وجهان مشهوران والمعنى سأصلها ، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة . ومنه بلوا أرحامكم أى صلوها . اهـ . نووى ، شرح مسلم ج ٣ ص ٨٠ .

لفظ عنه أيضاً (ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، ياصفية .. ويافاطمة بنت محمد سلينى من مالى ماشئت لا أغنى عنك من الله شيئا)[1] .

وفى حديث عائشة لما نزلت هذه الآية قالت (قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب يابنى عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً سلونى من مالى ماشئتم)[2] .

(٢) وفى لفظ للبخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ صعد النبى ﷺ على الصفا فجعل ينادى يابنى فهر يابنى عدى لبطون من قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ماهو فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى . قالوا نعم .. ماجربنا عليك إلا صدقاً .. وفى مسلم (ماجربنا عليك كذباً قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وماكسب** ﴾[3] .

(٣) وفى لفظ لمسلم (فجعل يهتف ياصباحاه)[4] .

وفيه عن ابن عباس ، وأنذر عشيرتك الأقربين ، ورهطك منهم المخلصين[5] قال النووى : (ظاهر هذه العبارة كان قرآنا أنزل ثم نسخت تلاوته ولم تقع هذه الزيادة فى روايات البخارى)[6] .

---

(١) بخارى ج ٢ ص ١٢٨ – وفى لفظ آخر ذكر بنى عبد مناف وبنى عبد المطلب وعمة رسول الله وفاطمة بنت محمد ﷺ . ا هـ من حديث أبى هريرة ا هـ بخارى ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) تفرد به مسلم ج ١ ص ١٣٣ .

(٣) البخارى ج ٣ ص ١٧١ .

(٤) مسلم ج ١ ص ١٣٤ .

(٥) انظر هذه الزيادة فى البخارى ج ٣ ص ٢٢٣ ، تفسير تبت يداً أبى لهب ومسلم ج ١ ص ١٣٤ من حديث ابن عباس المتفق عليه .

(٦) شرح مسلم ج ٣ ص ٨٢ – ٨٣ .

قلت : وقد وجدتها فى البخارى كما ترى .

وقال القرطبى : (وظاهر هذا أنه كان قرآنا يتلى وأنه نسخ إذ لم يثبت نقله فى المصحف ، ولا تواتر ويلزم على ثبوته إشكال : وهو أنه كان لايلزم عليه الإنذار إلا من آمن من عشيرته ، فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص فى دين الإسلام ، وفى حب النبى لا المشركين لأنهم ليسوا على شىء من ذلك ، والنبى ﷺ دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتى من بعدهم فلم يثبت ذلك نقلا ولا معنى)[1] .

قلت : أما النقل فثابت كما ترى ، اللهم إلا أن تكون هذه الزيادة من المتكلم فيها على الصحيحين ، لكنى لم أجدها فى الأحاديث المتنازع فى صحتها . وهى التى سردها الحافظ عشرة أحاديث ومائة حديث منها ٧٨ حديثاً انفرد بها البخارى واتفقا على ٣٢ حديثا[2] .

(٤) ورواه ابن إسحق عن على رضى الله عنه أن النبى ﷺ عند نزول هذه الآية قال : ياعلى إن الله قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين . فعرفت أنى إن بادأت بها قومى رأيت منهم ما أكره فصمت عليها فجاءنى جبريل فقال يامحمد ، إن لم تفعل ما أمرك ربك تعالى عذبك . فأخبر النبى ﷺ ، عليا بذلك . ثم أمره أن يصنع لهم رجل شاة على صاع من طعام ، وقعب لبن ، وأمره أن يجمع بنى عبد المطلب فاجتمعوا وهم يومئذ أربعون رجلاً أم ينقصون فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب الكافر الخبيث . فأكل الجميع منها وشربوا ، وفضلت فضلة ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام ، فأعيدت العملية ذاتها فى الغد ، ثم قال رسول الله ﷺ يابنى عبد المطلب والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم

---

(١) تفسير القرطبى ج ٦ ص ٤٨٥٩ ، وانظر تفسير الطبرى ج ١٩ ص ١١٨ – ١٢٢ . وأجاب الحافظ انه لايمتنع عطف الخاص على العام فى قوله ورهطك منهم المخلصين ، ا هـ . فتح البارى ج ٨ ص ٥٠٢ ، ومنهج الدعوة لايتناسب وقصرها على المخلصين ، وما الفائدة من ذلك ، ولعل الأقرب إلى الصواب ماقرره القرطبى من عدم التخصيص والله أعلم .

(٢) وهذه الزيادة هى فى طريق الأعمش عن ابن عباس ، ووصلها الطبرى فى وجه آخر عن عمرو بن مرّة المرجع نفسه والصفحة نفسها أيضا .

به ، قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة .

وفى رواية أبى هريرة رضى الله عنه (... لا يأتون الناس بالأعمال — أى يوم القيامة — وتأتون بالدنيا تحملونها على أعناقكم — فأصد وجهى عنكم ، فتقولون يا محمد ، فأقول هكذا ، فصرف وجهه فتقولون يا محمد فأقول هكذا فصرف وجهه إلى الشق الآخر)[1] .

(٥) وقد رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى وقال الترمذى حديث حسن صحيح[2] .

وعند الواقدى أنه قصر الدعوة على بنى هاشم والمطلب ، وهم يومئذ خمسة وأربعون رجلاً .

(٦) وفى رواية ابن الأثير لما أنزل الله تعالى هذه الآية اشتد عليه الأمر وجلس فى بيته كالمريض فأشارت عليه عماته بدعوة أعمامه ماعدا أبا لهب وبنيهم وكانوا خمسة أوربعين رجلاً ، فدعاهم فبادره أبو لهب ، وفى الثانية قال رسول الله ﷺ — بعد حمد الله والثناء عليه : (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها للجنة أبدا أو النار أبداً) فقال أبو طالب : ما أحبَّ إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقنا لحديثك وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أنى أسرعهم إلى ماتحب ، فامض لما أمرت به ، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوءة .. خذوا على يديه قبل أن يأخذكم غيركم فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا .

---

(١) السير والمغازى باختصار ج ٣ ص ١٤٥ ١٤٦ . وانظر تفسير ابن جرير ج ١٩ ص ١٢١ ، ١٢٢ وفى سنده عبد الغفار بن القاسم ابن أبى مريم متروك كذاب شيعى اتهمه على بن المدينى وغيره بوضع الحديث وضعفه الأئمة كما قال الحافظ بن كثير فى تفسيره ج ٦ ص ١٨٠ وقال الذهبى رافضى ليس بثقة وقال ابن المدينى كان يضع الحديث ومن رؤوس الشيعة وقال البخارى ليس بالقوى وقال أبو داود أشهد بأنه كذاب . وقال أحمد كان يحدث ببلايا عن عثمان اهـ . ميزان ج ٢ ص ٦٤٠ .

(٢) مسند أحمد ج ١ ص ٣٠٧ ج ٦ ص ١٨٧ وسنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٩ ص ٢٩٦

وإذا كان هذا موقف أبى لهب عم رسول الله فكيف بالأ باعد من قريش وغيرهم ؟ .

ولكن ما أبو لهب ، وما قريش ، وما العرب ، وما الدنيا كلها بإزاء رجل يحمل رسالة الله الذى له ملك السمٰوات والأرض يريد أن يعيد بها الرشد لعالم فقد رشده[1] .

(٧) وقد روى هذا الحديث الطبرانى عن أبى أمامة قال : (لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ جمع رسول الله ﷺ بنى هاشم ، ونساءه وأهله فقال : يابنى هاشم اشتروا أنفسكم من النار واسعوا فى فكاك رقابكم ياعائشة بنت أبى بكر ياحفصة بنت عمر ياأم سلمة ...)[2] .

وقد عقب الحافظ على هذه القصة المروية فى الصحيحين وغيرهما : بأنه من مراسيل الصحابة لأن أبا هريرة إنما أسلم فى المدينة ، وهذه القصة وقعت فى مكة لتصريحه بأن صعد الصفا ، ولم تكن عائشة وحفصة وأم سلمة عنده إلا بالمدينة وابن عباس كان حينئذ إما لم يولد وإما طفلا فيحتمل أن تكون هذه القصة وقعت مرتين وعليه فتكون رواية الطبرانى متأخرة عن الأولى فيمكن أن يحضرها أبو هريرة وابن عباس أيضاً ، ويحمل قوله (لما نزلت جمع ، أى بعد ذلك لا أن الجمع وقع على الفور لأن الأصل عدم تكرار النزول[3] هذا ، إذا ثبتت رواية الطبرانى .

وقال الألوسى : (وإذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار)[4] .

---

(١) انظر فقه السيرة ص ١٠٢ - ١٠٣ وانظر الحلبية ج ١ ص ٤٥٧ - ٤٦١ ، وزاد قوله ﷺ لعلى أنت أخى ووزيرى وخليفتى من بعدى وتعقب هذه الزيادة ابن تيمية أنها كذب وحديث موضوع كذا فى المرجع نفسه وزاد الألوسى فى تفسيره نقلا عن بعض الروايات لما نزلت هذه الآية جمع بنى هاشم فأجلسهم على الباب وجمع نساءه وأهله فأجلسهم فى البيت ثم اطلع عليهم فأنذرهم . انظر روح المعانى ج ١٩ ص ١٢٤ - ١٣٥ .

(٢) انظر فتح البارى ج ٨ ص ٥٠٢ .

(٣) لمزيد من الإيضاح انظر المصدر نفسه والجزء والصفحة نفسها .

(٤) انظر روح المعانى ج ١٩ ص ١٣٥ وقد أطال الحافظ ابن كثير فى إيراد الأحاديث المتعلقة بهذه القصة منها خمسة أحاديث عزاها إلى أحمد وسائرها فى الصحيحين وغيرهما وقد وجدتها كما ذكرها عن ابن عباس وأبى هريرة وعائشة وعلى وغيرهم أما الأحاديث الثلاثة الأول فهى فى الصحيحين كما سبق وأما حديث على فهو فى المسند ودلائل النبوة وغيرهما وقد سبق الكلام عليه .

قلت : ويؤيد ماقاله الحافظ مافى الإصابة والاستيعاب من أن ابن عباس رضى الله عنهما ولد فى الشعب وبنو هاشم محاصرون فيه قبل الهجرة بثلاث وقيل بخمس سنين والأول أثبت .

وتوفى الرسول ﷺ وعمره عشر سنين وقيل ثلاث عشرة سنة . كذلك أبو هريرة لم يسلم إلا عام خيبر[١] سنة سبع من الهجرة[٢] .

أما ما ذكر فى الحديث من أزواجه ﷺ فمعلوم أنه لم يكن إلا فى المدينة بلا خلاف . وبهذا يتضح كلام الحافظ من أن الحديث مرسل ولكن مرسل الصحابى حجة ومعمول به عند المحدثين ، فهذه الأحاديث وغيرها تبين كيف تلقى النبى ﷺ الأمر ، وكيف بلغه لعشيرته الأقربين ونفض يده من أمرهم ووكلهم إلى ربهم فى أمر الآخرة ، وبين لهم أن قرابتهم لاتنفعهم شيئا إذا لم ينفعهم عملهم وأنه لا يملك لهم من الله شيئا ، وهو رسول الله .

وهذا هو الإسلام فى نصاعته ووضوحه ، ونفى الوساطة بين الله وعباده ، حتى عن رسوله الكريم[٣] .

قلت : ولقائل أن يقول : إن هذا قبل ثبوت الشفاعة وعلمه بها وذلك مستفيض ولكن الشفاعة لاتكون إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

الحكمة فى البدء بالأقربين .

فإن قيل فما الحكمة فى الأمر بإنذار الأقربين أولا ، فالجواب أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم وإلا فكانوا علة للأبعدين فى الامتناع وألا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم فى الدعوة والتخويف فلذلك نص له على إنذارهم . قال الشوكانى : (خص الأقربين لأن الاهتمام بهم أولى ، وهدايتهم إلى الحق أقدم ، وإن البداءة تكون بمن يلى فمن

---

(١) انظر الاستيعاب مع الاصابة ج ١٢ ص ١٧٣ ، ج ٦ ص ١٣٠ - ٢٨٥ .

(٢) السيرة النبوية ابن هشام القسم الثانى ص ٣٢٨ .

(٣) انظر الظلال . ج ١٩ ص ٢٦٢٠ .

بعده كقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾[2] .

قال صاحب الظلال : (إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة والجهر بكل مقوماتها وكل مقتضياتها ضرورة فى الحركة بهذه الدعوة ، فالصدع القوى النافذ هو الذى يهز الفطرة الغافية ، ويوقظ المشاعر المتبلدة ، ويقيم الحجة على الناس ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحى من حى عن بينة ﴾[*] .

أما التدسيس الناعم بهذه العقيدة ، وجعلها عضين ، يعرض الداعية منها جانبا ويكتم جانبا لأن هذا الجانب يثير الطواغيت ، أو يصد الجماهير فهذا ليس من طبيعة الحركة الصحيحة لهذه العقيدة القوية . والصدع بحقيقة الدعوة لا يعنى الغلظة المنفرة والخشونة ، وقلة الذوق والجلافة ، كما أن الدعوة بالحسنى لاتعنى التدسيس الناعم وكتمان جانب من حقائق هذه العقيدة وجعل القرآن عضين ، لا هذه ولا تلك .

إنما هو البيان الكامل لكل حقائق هذه العقيدة فى وضوح جلى وفى حكمة كذلك فى الخطاب ولطف ومودة ولين وتيسير)[3] .

فجهر النبى ﷺ بالدعوة ، واستعلن بها هو وأصحابه ، فلم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه حتى عاب آلهتهم وسفه أحلامهم وبين لهم ماهم فيه من الضلالات والجهل والخرافات ، فجاهروه وصحبه بالعداوة ، وعزموا على مخالفته عصبية وجهلاً .

ولما لم يمكنهم أن يقرعوا الحجة بالحجة ، وأفحموا ، لجأوا إلى السباب والشتم والإيذاء والتعذيب ومن ثم بدأ دور المحنة والبلاء وكان شاقا[4] كما

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٣ ، وانظر فتح البارى ج ٨ ص ٥٠٣ ، فتح القدير ج ٤ ص ١١٩ ، روح المعانى ج ١٩ ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩٤ .

(*) سورة الأنفال الآية ٤٢ .

(٣) فى ظلال القرآن ج ١٤ ص ٢١٥٥ .

(٤) انظر السيرة النبوية أبو شهبه ج ١ ص ٢٩٨ .

سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى فى موضعه(*) .

والمقصود أن رسول الله ﷺ استمر يدعو إلى الله ليلاً ونهاراً لا يصرفه عن ذلك صارف يدعو من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوى ، وغنى وفقير ، يتبع الناس فى أنديتهم ، ومجامعهم ومحافلهم ، وفى المواسم ، ومواقف الحج ، جميع الخلق عنده فى ذلك سواء .

إن الدعوة التى بدأ بها محمد ﷺ فى بطن مكة لم تكن لبناء وطن صغير ، بل كانت إنشاء جديداً لأجيال وأمم تظل تتوارث الحق وتتدفع به فى رحاب الأرض إلى أن تنتهى من فوق ظهرها قصة الحياة والأحياء . فماذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها فى حاضرها ومستقبلها[1] .

تقسيم مراحل الدعوة .

اختلفت آراء العلماء فى تقسيم مراحل الدعوة قديماً وحديثاً ، أذكر منها ما أمكن الاطلاع عليه :

أولاً : ترتيب ابن قيم الجوزية وقد رتبها كالآتى :

المرتبة الأولى : النبـــوة

المرتبة الثانية : إنذار عشيرته الأقربين .

المرتبة الثالثة : إنذار قومـــه .

المرتبة الرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله ، وهم العرب قاطبة .

المرتبة الخامسة : إنذار من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر[2] .

والظاهر من هذا التقسيم أن النبوة مرحلة من مراحل الدعوة ، وعندى أنه

(*) فى الباب الثالث (جهاد الدعوة) فى هذه الرسالة .

(١) نظر فقه السيرة غزالى ص ١٠٤ .

(٢) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤ .

ليس كذلك لأنه ﷺ نزل عليه مطلع سورة العلق – وكانت أول مانزل من القرآن على الراجح في غار حراء وكل مافى تلك الآيات لا يدل على الأمر بالتبليغ ، وإنما فيها الأمر بالقراءة وامتنان الله على الإنسان إذ خلقه من علق ، وعلمه مالم يعلم وعليه فيكون التعبير الصحيح هو القائل بأنه ﷺ (نبىء باقرأ وأرسل بالمدثر) ، وعلى هذا يمكن القول بالفرق بين النبى والرسول ، ولكن الله سماه نبيا رسولاً بلا فرق فى آية واحدة ﴿ **يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا** ﴾[1] .

وحينئذ يكون اعتراض رءوف شلبى على هذا التقسيم سليما على المرتبة الأولى ، أى أنها ليست من مراحل الدعوة .

أما اعتراضه على المرتبة الثانية والثالثة بحجة تداخلهما وهما واحد لافرق بينهما وبأن الرسول ﷺ حدد الأقربين فى ندائه لقريش[2] فذلك غير مسلم من وجوه :

(١) أن عشيرة الرجل فى اللغة العربية مختلف فيها قال صاحب القاموس : (وعشيرة الرجل بنو أبيه الأدنون أو قبيلته) وقال القرطبى : (وعشيرته الأقربون قريش وقيل بنو عبد مناف) وقال الشوكانى : قيل هم قريش وقيل بنو عبد مناف وقيل بنو هاشم[*] .

(٢) أنه ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال : يافاطمة بنت محمد ، ياصفية بنت عبد المطلب يابنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا سلونى من مالى ماشئتم)[3] أ هـ بلفظه حرفياً .

وفى ذلك دلالة على أن العشيرة الأقربين هم بنو عبد المطلب فمن تحتهم .

---

(١) الأحزاب الآية ٤٥ .

(٢) انظر الدعوة الإسلامية ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

(*) القاموس المحيط ج ٢ ص ٩٠ الجامع لأحكام القرآن ج ٦ ص ٩ ، ٤٨ . فتح القدير ج ٤ ص ١٢٠ .

(٣) مسلم ج ١ ص ١٣٣ – وانظر تفسير القرطبى ج ٦ ص ٤٨٥٩ – فتح القدير ج ٤ ص ١٢٠ ، قاموس ج ٢ ص ٩٠ . وانظر سنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٩ ص ٤٠ عن عائشة وانظر نور اليقين ص ٣٦ .

وهذا يؤيد رواية ابن إسحق وابن الأثير والطبرى السابق ذكرها من حديث على رضى الله عنه فهى وإن كان فى سندها مقال فذلك فيما زاد على مافى الصحيحين ، وأنت ترى أن قريشا لم تذكر فى هذا الحديث الصحيح وفى رواية البخارى ذكر فيها بنى عبد مناف وبنى عبد المطلب وصفية وفاطمة ولم يذكر قريشاً[1] .

(٣) أما قوله : لا فرق بينهما أى بين العشيرة والقوم فالفرق واضح من القرآن الكريم ، قال الله تعالى ﴿ **إنا أرسلنا نوحا إلى قومه** ﴾[2] .

وقال ﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه** ﴾[3] ولم يقل إلى عشيرته وقال : ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف** ﴾[4] وقال : (.. قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد)[5] ومعلوم أن هؤلاء الأنبياء وغيرهم أرسلوا إلى شعوب وقبائل ولم يرسلوا إلى عشائرهم فقط إنما يكون البدء بهم أولى .

وبهذا يتبين أن القوم غير العشيرة ، ولايحتاج الأمر إلى أكثر من هذا والله أعلم .

وقسمها أحمد شلبى إلى ثلاث مراحل وهى كالآتى :

(١) المرحلة الفردية ، وهى السرية بـ ﴿ **يأيها المدثر قم فأنذر** ﴾[6] .

(٢) دعوة بنى عبد المطلب ب ﴿ **أنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[7] .

---

(١) بخارى ج ٢ ص ٢٦٩ ، من حديث أبى هريرة .

(٢) نوح الآية ١ .

(٣) الأعراف الآية ٥٩ ، هود الآية ٢٥ ولقد .. .

(٤) الأحقاف الآية ٢١ .

(٥) سورة هود الآية ٨٩ .

(٦) سورة المدثر الآية ١ / ٢ .

(٧) سورة الشعراء الآية ٢١٤ .

(٣) الدعوة العامة بـ ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾[١] .

كما قسمها أبو زهرة إلى ثلاث مراحل أيضاً :

(١) بيت النبوة ثم سرت إلى من يتصل بهم كخديجة وأصدقاء وخلان كأبى بكر وعلى وزيد ثم سرت إلى العشيرة .

(٢) العشيرة صفية وأهله وأعمامه .

(٣) الدعوة العامة فى قريش ومجابهتهم .

ثم قال : (وهى فى كل مرتبة لاتقف عند الحدود التى ابتدأت بها بل تسرى إلى غيرها سريان النور فى الظلام)[٢] .

فأنت ترى أن تقسيم الشيخين متقاربان فى المرحلة الأولى ، متفقان فى المرحلتين الثانية والثالثة ، كما أنهما متفقان على مخالفة رءوف شلبى فى قوله (إن العشيرة الأقربين هم قريش) فظاهر تقسيمها أنهم بنو عبد المطلب .

وقال الخضرى : (ومكث عليه السلام يدعو سرا حتى نزل عليه قوله تعالى ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾[٣] فبدل الدعوة سراً بالدعوة جهراً فصعد على الصفا ، فجعل ينادى يابنى فهر ، يابنى عدى لبطون قريش .. إلى أن قال : ثم نزل عليه ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك** ﴾ أى العشيرة والأقربون ﴿ **فقل إنى برىء مما تعملون** ﴾[٤] . فجمعهم عليه السلام وقال لهم : (إن الرائد لايكذب أهله ولو كذبت الناس ما كذبتكم .. والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم

---

(١) الحجر الآية ٩٤ وانظر التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ١ ص ١١٤ ١١٦ ، والصدع الفرق بين الحق والباطل .

(٢) انظر خاتم النبيين ص ٤٤١ ، محمد أبو زهرة .

(٣) سورة الحجر الآية ٩٤ .

(٤) الشعراء الآية ٢١٤ / ٢١٦ .

خاصة ، وإلى الناس كافة ....)[1] .

ويظهر من كلامه هذا تقسيم الدعوة إلى مرحلتين هما السرية والجهرية ولكنها شعبتان :

(أ) الصدع .

(ب) إنذار العشيرة .

وأن الصدع سابق الإنذار وأن العشيرة بنو عبد مناف كما يبدو أن خفض الجناح للأتباع مرحلة أخرى ، أو صفة من صفات الداعية والله أعلم .

يؤيد هذا رواية ابن إسحق عن علي رضى الله عنه– السابقة الذكر – من أن بنى المطلب مرحلة مستقلة وهى الأولى وبعد نزول آية ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ .

وكذلك رواية صاحب الحلبية السابقة **أيضاً** ورواية ابن الأثير وذهب إليه ابن كثير حيث قال : ثم كان بعد هذا (**أى بعد دعوة بنى عبدالمطلب** دعاؤه الناس جهرة على الصفا وإنذاره **لبطون قريش** ..)[2] .

وقال ابن إسحق : (ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به .

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله – ﷺ – أن يصدع بما جاءه منه وأن يبادىء الناس بأمره وأن يدعو إليه . وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ – أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين – فيما بلغنى – من مبعثه ثم قال الله تعالى له : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من**

---

(١) انظر نور اليقين ص ٣٥ / ٣٦ .

(٢) انظر السير والمغازى ج ٣ ص ١٤٥ – ١٤٦ – وتفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨١ – الحلبية ج ١ ص ٤٥٧ – ٤٦١ .

(٣) الحجر الآية ٩٤ .

المؤمنين . وقل إنى أنا النذير المبين ﴾[1] ثم ذكر الخروج إلى شعاب مكة[2] .

وظاهر كلامه أن الصدع قبل الإنذار بدليل ذكره أداة الترتيب (ثم) وفيه احتمال أنهما مرحلتان لقوله : وقال تعالى : ﴿ **وأنذر ......** ﴾ أو مرحلة واحدة لأن الواو لا تقتضى ترتيبا ولاتعقيبا بل مطلق الجمع[3] ، وذكر أبو شهبة للدعوة طورين السرى والجهرى .

الأول بقوله تعالى : ﴿ **يأيها المدثر قم فأنذر** ﴾ .

والثانى بقوله تعالى : ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾[4] وبقوله : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[5] .

وهذا التقسيم من حيث الزمن لاغبار عليه . وإنما الخلاف في مراحل الجهر بالدعوة وهل الصدع والإنذار مرحلة أو مرحلتان وأيهما الأولى إذا كانت مرحلتان ؟ .

تقسيم رءوف شلبى لمراحل الدعوة :

(١) ﴿قم فأنذر وربك فكبر ﴾[6] وهو دور العمل السرى .

(٢) ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[7] وهو بدء بالعمل الجهرى بعد أن أمر النبى ﷺ بالجهر بالدعوة أى بالصدع .

(٣) ﴿ **لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾[8] وهو على ماقاله الطبرى : مكة

---

(١) الشعراء الآية ١١٤ / ١١٦ .

(٢) السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٣) شرح ابن عقيل ج ٣ ص ٢٢٦ .

(٤) الحجر الآية ٩٤ .

(٥) الشعراء الآية ٢١٤ - وانظر السيرة النبوية أبو شهبة ص ٢٨٩ - ٢٩٨ .

(٦) المدثر الآية ٢ / ٣ .

(٧) الشعراء الآية ٢١٤ .

(٨) الشورى الآية ٧ .

ومن حولها شرقا وغربا وهو دور دعوة العرب .

(٤) ﴿ **لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾[1] وهو دور العمل على المستوى الإنسانى كله .

ثم عقب ذلك بقوله : وقد اخترت هذه الآيات كضابط لمراحل تبليغ الدعوة .. إلى أن قال : ولعله مما يقوى هذا الضابط الحديث الذى أورده صاحب الشفاء عن السراج المنير على الجامع الصغير (بعثت إلى الناس كافة .

فإن لم يستجيبوا لى فإلى العرب . .

فإن لم يستجيبوا لى فإلى قريش . .

فإن لم يستجيبوا لى فالى بنى هاشم . .

فإن لم يستجيبوا لى فإلىَّ وحدى . .

وقال : ذكره السيوطى فى جامعه الصغير ثم قال : وعلى هذا فأطوار الدعوة فى مكة زمنياً اثنتان :

(١) الدعوة وهى فى ظل العمل السرى ومدتها ثلاثة أعوام .

(٢) الدعوة وهى فى ظل العمل الجهرى ومدتها عشرة أعوام . ومراحل تبليغها ثلاث وهى السابقة الذكر)[2] .

مناقشة :

أولاً : إذا ما قارنت بين مراحل الدعوة الجهرية الثلاث التى رتبها صاحب الدعوة الإسلامية وهى : إنذار العشيرة الأقربين – ثم إنذار أم القرى الذى هو دور دعوة العرب ، ثم إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وهو دور العمل على المستوى الإنسانى .. إذا قارنت ذلك بالحديث الذى أورده صاحب الشفاء مرسلا : (بعثت إلى الناس كافة . فإن لم يستجيبوا لى فإلى العرب). رواه

---

(١) إبراهيم الآية ١ .

(٢) الدعوة الإسلامية ص ٢٩٣ – ٢٩٨ هذا ولم أجد الحديث المذكور فى المرجع الذى ذكره الشمايل وجدته فى الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٣ – أورده السيوطى نقلا عن الطبقات الكبرى لابن سعد مرسلا ج ١ ص ١٧٦ .

ابن سعد فى الطبقات الكبرى ، قال أخبرنا محمد بن عمر الأسلمى قال : حدثنى إسماعيل بن عياش ، عن بجير بن سعيد عن خالد بن معدان الكلاعى الحمصى ، قال : قال رسول الله ﷺ ، وهو تابعى من الثالثة أدرك سبعين من الصحابة ثقة عابد يرسل كثيراً ، توفى سنة ثلاث أو أربع أو ثمان ومائة هـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال للحافظ الخزرجى جـ ١ ص ٢٨٤ – تقريب التهذيب للحافظ بن حجر جـ ١ ص ٢١٨ ...) تجد المعارضة واضحة تعكس واقع الآيات المذكورة كما يعكس أيضاً واقع الدعوة التنظيمى العملى للمراحل . وظاهر الآيات الكريمة يدل على التدرج والبدء بالأقرب ثم بمن يليه ..

ثانياً :

(أ) أن الحديث يتنافى – حسب فهمى – مع الآيات والأحاديث الدالة على عموم الرسالة كما سيأتى بيانه إن شاء الله .

(ب) أنه ضعيف[1] – وعلى فرض صحته – فهو مرسل وعدم الاحتجاج به هو قول الجمهور من المحدثين والفقهاء والأصوليين[2] .

ثالثاً : لم يتضح لى أن الآية التى استنبط منها المرحلة الأخيرة من مراحل الدعوة وهى قوله تعالى : ﴿ **لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ استنبط منها دور العمل على المستوى الإنسانى كله .. إذ الآية لاتتفق واستنباطه لأنها واضحة فى التعليل لا فى العالمية ، كأن سائلاً يقول : ما الحكمة فى رسالة

---

(١) لأن فى سنده محمد بن عمر بن واقد الأسلمى ، هو أحد الأعلام وقاضى العراق كان عالما بالمغازى والسير والفتوح واختلاف الناس ، قال البخارى : متروك وقال أحمد : هو كذاب . وقال ابن معين : ضعيف وقال مرة لايكتب حديثه . وقال أبو حاتم – : متروك ويضع الحديث ، وقال النسائى : متروك يضع الحديث . وقال الدار قطنى فيه ضعف وقال ابن عدى : أحاديثه غير محفوظة والبلايا منه . وقال إبراهيم الحربى : الواقدى أمين الناس على أهل الإسلام وقال الخطيب وثقه مصعب الزبيرى والمسيبى وغيرهما وقال الذهبى : كان إلى حفظه المنتهى فى الأخبار والمغازى والحوادث وأيام الناس والفقه وغير ذلك انظر الميزان ج ٣ ص ٦٦٢ والضعفاء الصغير مع الضعفاء والمتروكين ص ٩٣ . كما أن فى سنده إسماعيل بن عياش قال النسائى ضعيف وقال أبو حاتم : لين ما أعلم أحدا كف عنه إلا أبا إسحق الفزاوى وقال ابن حبان كثير الخطأ فى حديثه فخرج عن حد الاحتجاج به . وقال البخارى إذا حدث عن أهل بلده فصحيح . وإذا حدث عن غيرهم ففيه نظر . انظر الميزان ج ١ ص ٢٤١ – والضعفاء والمتروكين ص ١٦ .

(٢) انظر تدريب الراوى ج ١ ص ١٩٨ . علوم الحديث ص ٤٩ . لابن الصلاح الباعث الحثيث لابن كثير ص ٤٨ .

محمد عليه الصلاة والسلام ؟ فالآية هى الجواب .

وهى حكمة عامة فى إرسال جميع الرسل ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآيتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور** ﴾[1] مع حكم أخرى فى إرسال الرسل كقوله تعالى : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾[2] ومنه قوله تعالى : ﴿ **هو الذى ينزل على بعده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾[3] وكالحكمة فى خلق الجن والإنس وهذا واضح لايحتاج إلى أكثر من هذا .

هذا مع أنى لم أجد فيما قرأت للمفسرين من يشير إلى أن الآية تدل على عالمية الدعوة . بل صرح بعضهم بأن اللام فى قوله تعالى : ﴿ **لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ للغرض والغاية كالشوكانى[4] . فهو وإن كان فى لفظ (الناس) ما يشعر بالعموم لكن لعموم الحكمة أما الرسالة المحمدية فقد عمت الإنس حتى الجن .

لذلك كان المناسب وضع الآيات الدالة على عموم الرسالة موضع تلك الآية الدالة أو الصالحة للتعليل كقوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً** ﴾[5] وقوله : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾[6] وقوله : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾[7] وقوله : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[8] .

رابعاً : أن المرحلة الثانية من مراحل الجهر بالدعوة وهو دور دعوة العرب

---

(١) إبراهيم الآية ٥ .

(٢) النساء الآية ١٦٥ .

(٣) الحديد الآية ٩ .

(٤) فتح القدير ج ٣ ص ٩٣ .

(٥) الأعراف الآية ١٥٨ .

(٦) سبأ الآية ٢٨ .

(٧) الفرقان الآية ١ .

(٨) الأنبياء الآية ٧ .

المستنبطة من قوله تعالى : ﴿ **لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾[1] كذلك لم أجد فيما قرأت من يوافق هذا الاستنباط من المفسرين . قال الألوسى عند تفسير هذه الآية : (من أهل المدر والوبر فى المشارق والمغارب لعموم بعثته ﷺ الصادع بها القرآن فى غير آية . واللفظ لا يأبى هذا الحمل ، فلا متمسك بالآية لطائفة من اليهود زعموا أنه ﷺ ، مرسل للعرب خاصة على أنه يمكن أن يقال : خص أولئك بالذكر لأنهم أحق بإنذاره عليه الصلاة والسلام - كقوله تعالى ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين**[2] ﴾[3] .

وقد سبق بيان وجه تخصيص عشيرته ﷺ الأقربين مع عموم رسالته فى الكلام على هذه الآية . وقال صاحب الفتوحات الإلهية (وإنما ذكرت (أى مكة) بهذا الاسم عن كونها أعظم القرى وقبلة لأهلها إيذاناً بأن إنذار أهلها أصل مستتبع لإنذار أهل الأرض كافة)[4] .

وقال الشوكانى : (.. فالإنذار لأهلها (أى مكة) مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض . والمراد بمن حولها جميع أهل الأرض ، والمراد بإنذار أم القرى إنذار أهلها وأهل سائر الأرض ، فهو على تقدير مضاف محذوف كسؤال القرية)[5] .

وقال إمام المفسرين : عند تفسير قوله تعالى ﴿ **لتنذر أم القرى ، ومن حولها** ﴾[6] (مكة ومن حولها شرقاً وغرباً من العادلين بربهم غيره من الآلهة ، والأنداد ، والجاحدين برسله وغيرهم من أصناف الكفار)[7] .

وقد أخذ صاحب الدعوة الإسلامية من هذا النص قوله (مكة ومن حولها

---

(١) الشورى الآية ٧ .

(٢) الشعراء الآية ٢١٤ .

(٣) انظر روح المعانى ج ٧ ص ٢٢٢ .

(٤) الجمل ج ٢ ص ٦٣ .

(٥) فتح القدير ج ٢ ص ١٣٩ .

(٦) الشورى الآية ٧ وآية فى الأنعام ﴿ **ولتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾ ٩٢ .

(٧) تفسير الطبرى ج ٧ ص ٢٧١ .

شرقا وغرباً) وترك الباقي – كما ترى – ليستدل به على دور دعوة العرب . فأنت إذا تأملت النص كاملاً تجد هذا الاستنباط غير سليم . يوضح ذلك أن الآثار التي أوردها الطبرى في تأييد تفسيره تصرح بأن معنى (ومن حولها) : الأرض كلها . وهل مافى الأرض .. إلا العرب ؟ .

وقال ابن كثير : يعنى مكة ومن حولها من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم[١] ثم ذكر الآيات الدالة على عموم الرسالة كما ذكر الأحاديث الدالة على ذلك .

وقال القرطبى : (ومن حولها) يعنى جميع الآفاق[٢] .

وقال سيد قطب : (وليس المقصود كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها ، فهم يقتطعون هذه الآية من القرآن كله ليزعموا أن محمداً ﷺ ما كان يقصد فى أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة ، وبعض المدن حولها .

وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذى ماكان خياله يطمح فى أول الأمر إلى أوسع منه فتوسع فى الجزيرة كلها ، ثم هم أن يتخطاها لمصادفات لم يكن فى أول الأمر على علم بها ، وذلك بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها .. وكذبوا ..) .

ففى القرآن المكى ، وفى أوائل الدعوة قال الله تعالى لرسوله ﷺ **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾**[٣] .. **﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾**[٤] ولعل الدعوة ، يومذاك كانت محصورة فى شعاب مكة

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٣ ص ٢٤٧٤ .

ملحوظة : آية ٩٢ من سورة الأنعام فيها ولتنذر . وآية ٧ من سورة الشورى بدون واو وسورة الأنعام قبل سورة الشورى نزولا كما فى الإتقان ج ١ ص ١١ – ٢٦ .

(٣) الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٤) سبأ الآية ٢٨ .

يحيط بها الكرب والابتلاء[1] .

هذا ولا يخفى أن الخلاف قائم فى تقسيم مراحل الجهر بالدعوة ، أما من حيث الزمن فالمشهور عند أهل المغازى والسير والتاريخ ، أن السرية ثلاث سنين تقريباً ، والجهرية عشر سنين تقريباً[2] . وقد سبق ذكر الأدلة على المرحلة السرية أما الجهرية فالكتاب والسنة مملوءان بالأدلة على ذلك .

وهناك اعتراض : وهو كيف يمكن القول بأن المرحلة السرية انتهت بعد مضى ثلاث سنين من البعثة وبيعة العقبة الأولى والثانية وقعتا فى غاية من السرية ؟ كذلك هجرة الرسول ﷺ كانت فى غاية من السرية وذلك خاتمة العهد المكى . ؟ .

فالجواب : أن لتنظيم ونشر الأفكار هو من طبيعة الدعوة النبوية فى المرحلة السرية لكن نشر المبادىء والأفكار جهراً كان فى المرحلة الجهرية .

أما التنظيم العملى داخل الخلايا والتكوين المستمر المتزايد فكان من طبيعته الكتمان حتى فى العهد المدنى لا سيما فى الحرب فإنه خدعة .

وقد اتخذ النبى عليه الصلاة والسلام وزيراً لأسراره وهو الصحابى المشهور حذيفة[3] بن اليمان رضى الله عنه . وبهذا يتم التوفيق بين النصوص إن شاء الله .

وقد قسمت مراحل الدعوة — حسب فهمى — من خلال دراسة السيرة النبوية وكما استفدت من تقسيم العلماء السابق ذكره وذلك كالآتى :

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٧ ص ١١٤٨ .

(٢) هذا باعتبار مدة الرؤيا والفترة . أما من لم يعتبرهما فمدة الدعوة فى مكة عشر سنين . راجع ص ٩١ فى هذا البحث .

(٣) حذيفة بن اليمان يكنى أبا عبد الله العبسى شهد أحدا وكان من كبار الصحابة وهو الذى بعثه رسول الله ﷺ ليلة الخندق ينظر إلى قريش فجاء بخبر رحيلهم . وكان عمر بن الخطاب يسأله عن المنافقين وهو معروف فى الصحابة بصاحب سر رسول الله وكان عمر ينظر إليه عند موت من مات منهم فإن لم يشهد جنازته حذيفة لم يشهدها عمر وكان حليفا لبنى عبد الأشهل من الأنصار وشهد نهاوند وأخذ الراية لما قتل النعمان بن مقرن وكان فتح همدان والرى والدينور على يده مات سنة ست وثلاثين وقيل خمس وثلاثين فى خلافة عثمان . ولم يدرك الجمل . ا هـ . الاستيعاب مع الإصابة ج ٢ ص ٢٢٣ · ٣١٨ ٣٢٠ .

(١) ﴿ **يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر** ﴾[١] الآيات .. وهذا هو دور العمل السرى الفردى فالجماعى ، وهو خطوتان : الاتصال الفردى ، والتكوين فى دار الأرقم .

(٢) المرحلة الجهرية :

(أ) دعوة بنى عبد المطلب وبنى عبد مناف وهو بدء العمل الجهرى الجماعى كما فى الصحيحين وغيرهما أن النبى ﷺ لما نزلت عليه ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[٢] قام على الصفا وهتف بفاطمة وصفية وبنى عبد المطلب وبنى عبد مناف ولم يذكر قريشاً[٣] .

وقد سبق ذكر الخلاف فى العشيرة ولكن حديث عائشة وأبى هريرة وغيرهما فى الصحيحين وغيرهما يقوى القول بأنهم بنو عبد المطلب وبنو عبد مناف .

(ب) دعوة سائر قريش : لحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال :

لما نزلت هذه الآية ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص فقال : يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار .. يابنى يابنى ..)[٤] .

فإن قيل إن ظاهر القصتين التعارض ، فيقال : لا معارضة لجواز التعدد ولأن تعاليم الإسلام تقضى بأن يبدأ بالأقرب فالأقرب ولذلك مدح الله سبحانه إسماعيل عليه السلام بقوله تعالى ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا** ﴾[٥] وقال الله تعالى مخاطبا نبيه محمداً ﷺ ﴿ **وأمر أهلك**

---

(١) المدثر الآية ١ / ٣ .

(٢) الشعراء الآية ٢١٤ .

(٣) انظر البخارى ج ٢ ص ٢٦٩ عن أبى هريرة . ومسلم ج ١ ص ١٣٣ عن عائشة وسنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٩ ص ٤٠ عن عائشة وتفسير القرطبى ج ٦ ص ٤٥٩ .

فتح القدير ج ٤ ص ١٢٠ .

نور اليقين ، ص ٣٦ .

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم ج ١ ص ١٣٣ . وقد سبق بتمامه .

(٥) سورة مريم الآية ٥٥ .

بالصلاة واصطبر عليها ﴾[1] الآية ومنهجه ﷺ الواقعي يدل على ذلك فإنه بدأ بأقرب الخلق إليه خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ثم على بن أبى طالب وهكذا .

(٣) **﴿ اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾**[2] لأن سورة الشعراء المذكور فيها **﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾** قبل سورة الحجر نزولا ، المذكور فيها **﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾**[3] **﴿ وأعرض عن المشركين ﴾** .

فإن قيل : إن هذه ليست مرحلة من مراحل الدعوة بل تنفيذا لما قد أمر به من قبل ، فالجواب أن تنفيذه ﷺ لذلك واستمراره فيه وإعراضه عن المشركين وعدم المبالاة بهم لامانع من أن يكون مرحلة من مراحل التبليغ .

وقد أعرض عن مشركى مكة وخرج إلى الطائف وعرض نفسه على القبائل فى المواسم وغيرها كما سيأتى بيانه إن شاء الله .

(٤) عموم الرسالة إلى الناس بما فيهم الأحمر والأسود من العرب والعجم لقول الله تعالى **﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾**[4] ، وغير ذلك من الآيات السابق ذكرها .

ولأن النبى ﷺ بعث رسله إلى ملوك الآفاق غير العرب منهم هرقل عظيم الروم أرسل إليه النبى عليه الصلاة والسلام دحية الكلبى يدعوه إلى الإسلام وكان هناك أبو سفيان ومن ضمن ماسأله هرقل هل يغدر ؟ فقال : لا ، ونحن معه فى مدة لا ندرى ماهو فاعل فيها[5] .

والمراد بذلك صلح الحديبية . وهذا قبل فتح مكة بلا خلاف بين المؤرخين .

---

(١) (٢) سورة طه الآية ١٣٢ والحجر ٩٤ - والصدع الفرق أى افرق بين الحق والباطل الذى أمرت به من قرآن وغيره اهـ . باختصار روح المعانى ج ١٤ ص ٨٥ .

(٣) كذا فى الإتقان ج ١ ص ١١ - ٢٦ .

(٤) الأعراف الآية ١٥٨ .

(٥) انظر البخارى ج ١ ص ٨ - ٩ ، ج ٢ ص ١٥٩ - مسلم ج ٥ ص ١٦٣ - البداية ج ٣ ص ٢٤٥ . مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٦ ، تاريخ الإسلام السياسى ، ج ١ ص ١٨٣ .

ولو كانت دعوة العرب مرحلة مستقلة من مراحل الدعوة لما تجاوز النبى ﷺ العرب المشركين المعاندين فى مكة وغيرها ولقصر الدعوة عليهم حتى ينقادوا طائعين أو مكرهين .

وقد ثبت فى الصحيح[1] أنه ﷺ أرسل إلى مؤتة أرض البلقاء من أرض الشام جيشاً (قوامه ثلاثة آلاف مجاهد[*]) بقيادة زيد بن حارثة فجعفر بن أبى طالب فعبد الله بن رواحة وكانت مؤتة آنذاك تحت السلطة الرومانية .

وقد أورد ابن كثير[2] عدة أحاديث ضمن أحداث السنة الثامنة من الهجرة قبل فتح مكة وبعضها صرح بأنها قبل مؤتة ، تضمنت بعث الرسل والكتب من النبى ﷺ إلى ملوك العجم منهم كسرى ملك الفرس والمقوقس صاحب الإسكندرية والنجاشى .

من ذلك مارواه مسلم[3] عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ - كتب قبل مؤتة إلى كسرى وقيصر والنجاشى - وليس بالنجاشى الذى صلى عليه - وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل وقد راجعت صحيح مسلم فوجدته كما ذكر الحافظ ابن كثير إلا قوله (قبل مؤتة) فلم أجدها فيحتمل أن تكون مدرجة أو ساقطة فى بعض النسخ أو من باب التفسير لأنه مؤرخ ومحدث بل إمام فى العلم وقد ذكر ابن قيم الجوزية أن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية كتب إلى ملوك الأرض وأرسل إليهم رسله ، وبعث ستة نفر فى يوم واحد من المحرم سنة سبع من الهجرة إلى النجاشى وإلى ملك الروم وإلى كسرى ملك الفرس وإلى المقوقس ، وإلى الحارث الغسانى ملك البلقاء .

فأنت ترى أنه أرسل إلى هؤلاء العجم قبل أن يرسل إلى أهل عمان وقبل أن يرسل إلى الحميريين وإنما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى إلى اليمن عند انصرافه من تبوك ، وقيل بل لسنة عشر أرسلهما داعين إلى الإسلام

---

(١) انظر صحيح البخارى ج ٣ ص ٥٨٥ .

(٢) البداية ج ٤ ص ٢٦٢ .

(٣) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٦٦ .. وانظر البخارى ج ١ ص ٢٣ ج ٣ ص ٩٠ .

(*) ذكر العدد ليس فى الصحيح ، بل فى البداية ج ٤ ص ٢٤١ اهـ الباحث .

فأسلم عامة أهلها طوعا من غير قتال . ثم عززهما بعلى بن أبى طالب ووفاه بمكة فى حجة الوداع بل وقبل أن يرسل إلى مسيلمة الكذاب وقبل فتح مكة وهوازن .

ويرى بعض المؤرخين أن النبى ﷺ كان يبعث بالرسول الواحد إلى مجموعة من ملوك العرب والعجم[1] .

كل هذه الأحداث كانت مابين الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة إلى فتح مكة فى السنة الثامنة بالنسبة إلى دعوة العجم ، أما معظم العرب – كما رأيت – فإنما أرسل إليهم رسله بعد دعوة العجم حتى فتح مكة بعد دعوة العجم وبعض العرب لم يدعهم إلى الإسلام إلا فى السنة التاسعة والعاشرة من الهجرة كما رأيت ، فهل يصح القول – بعد هذا كله – بأن دعوة العرب مرحلة مستقلة من مراحل الدعوة استناداً إلى قوله تعالى ﴿ **لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾؟

مع بعض المستشرقين .

أما الآيات التى لم يحسن الطاعنون فهمها ، وظنوها تتناقض مع الأصل أو تخالفه فهى قوله تعالى ﴿ **لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾[2] وقوله ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[3] وقوله : ﴿ **لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** ﴾[4] .

وقف الطاعنون عند هذه الآيات وظنوا أن فيها سنداً لما يدعون وتحقيقا لما يطمعون ، زعموا أن هذه الآيات تدل على أن الدعوة التى جاء بها محمد ﷺ خاصة ببيئة معينة . وأن غيرها من الآيات الدالة على العموم تحمل عليها . وهذه هى دعواهم .

---

(١) من زاد المعاد باختصار ج ١ ص ٤٥ - ٤٦ . وانظر البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٢ – ٢٧٣ . مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ، والبخارى ج ١ ص ٨ - ٩ ؛ ج ٢ ص ١٥٩ ، ومسلم ج ٥ ص ١٦٣ – تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩٠ . طبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٥ .

(٢) الشورى الآية ٧ .

(٣) الشعراء الآية ١١٤ .

(٤) القصص من آية ٤٦ .

(١) الرسول عربى ، ودعوته إلى الجزيرة العربية فحسب ، وكتابه (قرآنا عربيا) وحكمه حكما عربيا وميدان نشاطه ماورد فى كتابه ﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾[1] فهو إذن رسول لقومه العرب دون سواهم .

(٢) أن الآيات القاطعة - التى أوردنا بعضها سابقاً - بعموم الرسالة تحمل عند هؤلاء على تحديد ميدان نشاطه ، بالعرب دون سواهم . ولذا لم يحاول الرسول ﷺ أن يصرف اليهود والنصارى عن دينهم . لأنه لم يعد نفسه سوى رسول كبقية الرسل بعث للأميين فحسب .

وعند هؤلاء إن لم تحمل الآيات الدالة على عالمية الدعوة المحمدية على الآيات الدالة - فى زعمهم - على الدعوة الخاصة بالعرب ، وقع التناقض فى القرآن الكريم .

أما قصة الكتب التى أرسلها الرسول - عليه الصلاة والسلام - فهى عند هؤلاء القوم أسطورة ابتكرها الخلفاء والقادة ليبرروا فتوحهم تبريرا دينيا[2] .

* **الرد على الزعم[3] الأول بحصر الرسالة فى الجزيرة العربية :**

هذا القول ظاهر البطلان ، فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه فى كل مايخبر به ، وقد قال : إنه رسول الله إلى الناس عامة ، والرسول لا يكذب باتفاق المسلمين واليهود والنصارى ، لا عمداً ولا خطأً إذ هو مستحيل فى حق الله - سبحانه - أن يرسل رسولاً غير صادق لهداية عباده فلزم تصديقه حتماً[4] .

* **الرد على الزعم الثانى :**

وهو أن النبى - عليه الصلاة والسلام - (لم يحاول أن يصرف اليهود

---

(١) الشورى الآية ٧ .

(٢) انظر الدعوة الإسلامية دعوة عالمية لمحمد الراوى ص ٣٠ - ٣١ الإسلام دعوة عالمية للعقاد ص ١٢٧ .

(٣) الزعم القول بالظن ويطلق على الكذب . وقال شريح لكل شىء كنية وكنية الكذب زعموا . ا هـ . فتح القدير ج ٥ ص ٢٣٦ .

(٤) انظر الجواب الصحيح ج ١ ص ٣٨ - ٣٩ . شرح الطحاوية ص ٧٨ .

والنصارى عن دينهم) فهذا القول يرفضه الواقع والتاريخ .

فقد وفد نصارى نجران إلى النبى ﷺ فى المدينة بعد إرساله إليهم يدعوهم إلى الإسلام الذى جاء به . فقدم منهم ستون راكبا أربعة عشر من أشرافهم يرأسهم ثلاثة العاقب واسمه عبد المسيح والسيد واسمه الأيهم ، وأبو حارثة[1] ابن علقمة .

فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا .. فإنكم عندنا رضا . فأرسل معهم النبى ﷺ أبا عبيدة بن الجراح وفى ذلك أنزل الله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها[2] .

وقد أرسل ﷺ رسله وكتبه فى أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشى والمقوقس وسائر ملوك الأطراف ، يدعوهم إلى الإسلام[3] . وقد أسلم النجاشى وكان على الديانة المسيحية .

ووفد وفد آخر من النصارى وأسلموا وفيهم أنزل الله تعالى ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾[4] ، وقد كاد أن يسلم قيصر عظيم الروم لما قرأ كتاب الرسول ﷺ إذ دعاه إلى الإسلام

---

(١) وكان إمامهم وصاحب مدارسهم وكان قد شرف فيهم لعلمه بدينهم فكانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه واحترموه وبنوا له الكنائس لما يعلمونه من صلابته فى دينهم .

انظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٥٧٣ ومابعدها .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٧٣ - ٥٨٤ ، البخارى ج ٢ ص ٣٠٥ - مسلم ج ٧ ص ١٢٩ .

(٣) انظر التفاصيل فى البخارى ج ١ ص ٨ - ٩ ج ٢ ص ١٥٩ ومسلم ج ٥ ص ١٦٣ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٤٥ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٦ ، تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٣٨ .

(٤) المائدة ٨٢ - ٨٣ ، وانظر أسباب النزول للنيسابورى ص ١١٤ - لباب النقول ص ٩٢ .

ولكن حب السلطان حال بينه وبني الإسلام[1]

وأما قولهم المزعوم : إن لم تحمل الآيات العامة على الخاصة حصل التناقض ، فذلك قول من لاعلم له بعلوم القرآن ولا بالأصول ، إذ لا مناقضة بين الآيات البتة ، والبدء بالأقرب فالأقرب هو المنهج الصحيح للدعوة سواء قبل الأقارب ذلك أم لم يقبلوا .

وليس من طبيعة الداعية المسلم أن يقف عند أول خطوة يخطوها سواء تعثر أو استمر فى الطريق ، فذاك أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام بدأ بدعوة أبيه ﴿ **واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا** ﴾[2] الآية .

وقد مدح الله إسماعيل إذ ترسم نهج أبيه فبدأ بدعوة أهله ﴿ **واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا** ﴾[3] .. مع العلم بأن إبراهيم عليه السلام أرسل إلى شعب كامل إذ قال فى المرحلة الثانية ما حكاه الله عنه ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ، ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** ﴾[4] .

وستأتى الإشارة إلى المجادلة بينه وبين النمروذ فى (تقرير الوحدانية) إن شاء الله .

أما قولهم بقصة الكتب التى ابتكرها الخلفاء والقادة ليبرروا موقفهم من الفتوحات تبريراً دينياً فالجواب ، أما من حيث الصحة فقد سبق بيان صحتها فى الصحيحين[5] وغيرهما ، وأما موقف الخلفاء والقادة كما يقولون ، فندع الإجابة للتاريخ . تجد ذلك واضحا فيما دار بين ربعى بن عامر أحد جنود سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه قائد الجيش الإسلامى فى معركة القادسية ، وبين

---

(١) انظر البخارى وسائر المصادر بعده فى الصفحة نفسها .

(٢) سورة مريم الآية ٤١ – ٤٨ .

(٣) سورة مريم الآية ٥٤ – ٥٥ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٥٢ .

(٥) البخارى ج ١ ص ٨ – ٩ ، ج ٢ ص ١٥٩ – مسلم ج ٥ ص ١٦٣ .

رستم قائد الجيش الفارسى حين قال له رستم (ما الذى دعاكم إلى حربنا ، والولوع بديارنا ؟ قال :

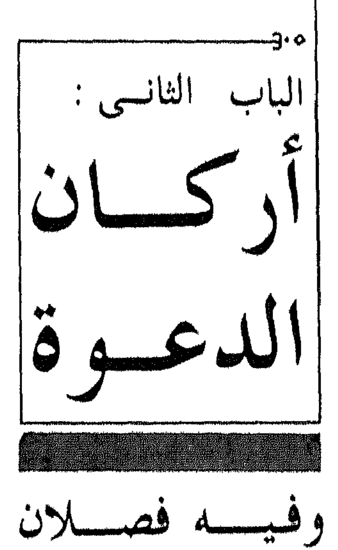
(جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ..) فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر)[1] . ومعلوم من دين الإسلام ضرورة أنه رسول الله ﷺ إلى الناس كافة ، كما أن مفهوم كلمة (الناس) ينطوى تحته الأحمر والأسود والعربى والعجمى ، وقد عمت رسالته الجن والإنس . قال تعالى : حكاية عن قول الجن ﴿ **ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنو به** ﴾[2] الآية . وسورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم . وقد ألف ابن تيمية رسالة فى هذا الموضوع ، سماها إيضاح الدلالة فى عموم الرسالة .

---

(١) انظر تفاصيل القصة فى إتمام الوفاء ص ٦٥ – وفيه إما الدخول فى الإسلام أو الجزية أو السيف .

(٢) الأحقاف : ٣١ فى سياق قوله تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن** ﴾ الآيات . .




الباب الثاني :
أركان
الدعوة
وفيه فصلان



الفصل الأول :

التركيز على العقيدة :

وفيه المباحث الآتية :

المبحث الأول : تقرير الوحدانية .
المبحث الثاني : إثبات الرسالة .
المبحث الثالث : الإيمان بالملائكة .
المبحث الرابع : الإيمان بالكتب .
المبحث الخامس : الإيمان بالرسل .
المبحث السادس : الإيمان باليوم الآخر .
المبحث السابع : الإيمان بالقدر .



العقيدة هى أساس الدين الإسلامى[1].

فمن أجلها أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، ومن أجلها جردت السيوف – لإزاحة العقبات – فى سبيل الدعوة إليها .

ومن أجلها نصبت الموازين ونشرت الدواوين ، ومن أجلها خلقت الجنة والنار والجن والإنس ، ومن أجلها افترق الناس إلى فريقين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

ومن أجلها نتجت الموالاة والمعاداة بين الناس حتى بين الآباء والأبناء ، فذاك أبوعبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر ، لأنه كان من المعاندين المحادين لله ولرسوله فأنزل الله عز وجل ﴿ **لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ..** ﴾[2] الآية .

---

(١) العقيدة تشمل الإلهيات أى علم التوحيد بأنواعه الثلاثة ، والنبوات والمغيبات . وتسمى الأحكام الاعتقادية والعقائد كما تسمى أحكاما أصلية وأصول الدين لأن المطلوب فيها الاعتقاد (والعلم بها) (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فالعلم به والاعتقاد قبل القول والعمل وهى أساس للأحكام العملية إذ هى تتوقف عليها ولا تصح إلا بها . وقد دون علم العقائد لتقرير الأحكام الاعتقادية وحفظها بشتى الأساليب العلمية الفلسفية منها والكلامية . ولكن المرجع الوحيد هو الكتاب والسنة الذى ذهب إليه أهل السنة والجماعة . فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .

(٢) المجادلة : ٢٢ .

ومن أجلها ومن أجلها . .

ونعنى بالعقيدة ، العقيدة الصحيحة وإلا فإن الاعتقاد بوجود إله مسألة فطرية لاتحتاج إلى رسول واتجاه الفطرة البشرية إلى خالقها بلون من ألوان العبادة كذلك مسألة فطرية وقد سبق بيان هذا فى الحالة الدينية وإنما الذى يحتاج إلى ذلك هو تصحيح العقيدة .

فإن الفطرة – إذا تركت وشأنها – كثيرا ماتضل ، فتتصور الله على غير حقيقته ، وتشرك معه آلهة أخرى وتتقدم له – نتيجة لذلك – بعبادة مشوهة ليست هى مايفرضه الله عز وجل .

فتجيء الرسل ليردوا الفطرة إلى سلامتها ويعطوها الدين القيم ، على حقيقته الربانية[1] . **﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾**[2] .

منهج القرآن فى تقرير العقيدة :

من أجل ذلك ظل القرآن المكى ينزل على رسول الله ﷺ – ثلاثة عشر عاما – يحدثه فيها عن قضية واحدة ولكن بأسلوب يدعها فى كل عرض جديدة .

لقد كان يعالج القضية الأساسية الكبرى فى هذه الدعوة الخالدة – ألا وهى قضية العقيدة ، ممثلة فى قاعدتها الأساسية ، الألوهية ، والعبودية ، ومابينهما من علاقة . لقد كان يخاطب بذلك الإنسان بما أنه إنسان يستوى فيه عربى ذلك الزمان وعربى كل زمان كما يستوى العربى وكل إنسان فى ذلك الزمان وفى كل زمان .

قضية لاتتغير .. لأنها قضية وجوده ومصيره ، وعلاقته بهذا الكون وعلاقته

---

(١) انظر منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٢٤ – ٢٥ لشيخنا محمد قطب ، دار الشروق الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ .

(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .

بخالقه ، لقد كان القرآن المكى يفسر للإنسان سر وجوده[١] ووجود هذا الكون من حوله . كان يقول له من هو ؟ ومن أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب فى نهاية المطاف ؟ من الذى جاء به من العدم والمجهول؟ومن الذى يذهب به ؟ وما مصيره هناك ؟ .

وكان يقول له : ما هذا الوجود الذى يحسه ويراه - ويحس أن وراءه غيبا يستشرفه[٢] ولايراه . من أنشأ هذا الوجود الملىء بالأسرار ؟ من ذا يدبره ويجدد فيه ويغير ؟ .

وكان يقول له كيف يتعامل مع خالق هذا الكون ؟ ومع الكون أيضاً . كما يبين له كيف يتعامل مع العباد[٣] ولكن الجاهليات تفسد حياتها حين لا تجد الإجابة الصحيحة عن هذه التساؤلات ، فتضرب فى التيه كما يقول شاعر جاهلى معاصر .

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت .. ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت وحينئذ تدركها الحيرة والضياع[٤] .

هذه هى القضية الكبرى التى يقوم عليها وجود الإنسان على توالى الأزمان .

ولم يتجاوزها القرآن المكى إلى شىء من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة إلا بعد أن علم الله أنها استوفت ما تستحقه من البيان واستقرت استقراراً مكينا ثابتا فى قلوب العصبة المختارة من بنى الإنسان التى قدر الله أن يقوم هذا الدين عليها .

قلت : ومما ينبغى للدعاة اليوم أن يقفوا طويلا أمام هذا المنهج المكى، لينهجوا نهجه حتى إذا مارسخت العقيدة وامتدت جذورها وتشابكت أغصانها

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ آية ٢٦ من سورة الذاريات يوضحها قوله تعالى : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت ﴾ الآية ١٦٢ - ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٢) استشرفت الشىء رفعت البصر . انظر إليه ا هـ . مصباح ج ١ ص ٣٣٢ .

(٣) مستفاد من كتاب معالم فى الطريق ص ٢٠ ومابعدها .

(٤) انظر منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٥٥ تجد التفاصيل .

وآتت ثمارها حلوة طرية تحولت وبرزت إلى عالم الواقع .

فلقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي الأولى التي تتصدى لها الدعوة منذ اليوم الأول للرسالة وأن يبدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته بدعوة الناس إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن يمضى فى دعوته يعرف الناس بربهم ومعبودهم الحق دون سواه .

ولم تكن هذه – فى ظاهر الأمر وفى نظرة العقل البشرى المحجوب – هى أيسر السبل إلى قلوب العرب فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى (إله) ومعنى (لا إله إلا الله) .

كانوا يعرفون أن توحيد الألوهية ، وإفراد الله سبحانه بها معناه نزع السلطان الذى يزاوله الكهان وشيوخ القبائل والأمراء والحكام ورده كله إلى الله[1] .

والعرب يعرفون لغتهم جيدا ، ويعرفون المدلول الحقيقى لدعوة (لا إله إلا الله) وماذا تعنى هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ومن ثم استقبلوها ذلك الاستقبال العنيف وحاربوها تلك الحروب التى سنذكر بعضا منها إن شاء الله تعالى فى (جهاد الدعوة) .

فلم كانت هذه نقطة البدء فى هذه الدعوة ؟ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء ؟ .

فربما قيل إنه كان فى استطاعة محمد ﷺ أن يثيرها حربا على طبقة الأشراف وأن يطلقها دعوة تهدف إلى تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء . وربما قيل لو دعا – يومها – هذه الدعوة لانقسم المجتمع العربى صفين الكثرة الغالبة مع الدعوة الجديدة فى وجه طغيان المال والشرف والجاه ، والقلة القليلة مع هذه الموروثات بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا فى وجه (لا إله إلا الله) التى لم يرتفع إلى آفاقها إلا الأفذاذ من الناس ، وربما قيل وربما قيل .

---

(1) أى أن توحيد الألوهية يستلزم ذلك حتى يكون السلطان لله وحده على القلوب والأبدان والشعائر وواقعيات الحياة .

ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم لم يوجهه هذا التوجيه لأنه يعلم أن هذا ليس هو الطريق . يعلم أن العدالة الاجتماعية لابد أن تنبثق فى المجتمع من تصور اعتقادى شامل برد الأمر كله لله ويقبل عن رضا وطواعية مايقضى به الله من عدالة التوزيع ومن تكافل الجميع ويستقر معه فى قلب الآخذ والمأخوذ الاطمئنان فلا طمع ولاحقد . فلا تفسد القلوب ولاتختنق الأرواح كما يقع فى الأوضاع التى تقوم على غير (لا إله إلا الله) فلما تقررت العقيدة – بعد الجهد الشاق – وتقررت السلطة التى تركن إليها هذه العقيدة ، وذلك فى العهد المدنى .

لما عرف الناس ربهم وحده ، لما تحرر الناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات لما تقررت فى القلوب (لاإله إلا الله) صنع الله بها وبأهلها كل شىء مما يقترحه المقترحون .

ذلك شأن القرآن المكى كله فى تقرير (لاإله إلا الله) فى القلوب والعقول . واختيار هذا الطريق – على مشقته فى الظاهر – وعدم اختيار السبل الجانبية الأخرى والإصرار على هذا النهج[1] .

قلت : وكذلك القرآن المدنى لم يكتف بالتشريعات فحسب ، بل إنه يتخللها بتذكير المؤمنين بالعقيدة من حين لآخر من ذلك قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾[2] .

إذن فكل تنظيمات هذا الدين وتشريعاته إجمالا وتفصيلا منبثقة من قاعدة الألوهية الواحدة لافى الحياة الدنيا وحدها ولكن كذلك فى عالم الغيب وفى أعماق القلوب .. دين يحدد منهجه فى بناء نفسه وامتداده ويجعل بناء العقيدة وتمكينها وشمولها لشعاب النفس كلها ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة .

---

(١) انظر معالم فى الطريق ص ٣٠ ومابعدها . فى ظلال القرآن ج ٧ ، ص ١٠٠٤ – ١٠٠٨ كلاهما لسيد قطب .

(٢) سورة النساء الآية ١٣٦ وهى مدنية .

ومتى استقرت هذه العقيدة استقر معها فى نفس الوقت النظام الذى تتمثل فيه (لا إله إلا الله) وتعين أنه النظام الوحيد الذى ترتضيه النفوس التى استقرت فيها العقيدة واستسلمت ابتداء لهذا النظام حتى قبل أن تفرض عليها تفصيلاته وتشريعاته – لأن الاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان – ولما كان الأمر كذلك تلقت النفوس التنظيمات بالقبول لاتعترض على شيء منه فور صدوره إليها ، ولا تتلكأ فى تنفيذه بمجرد تلقيها له[1] ، ولكن مع الأسف لقد عملت ظروف كثيرة خاصة فى القرنين الأخيرين – ومن أهمها المخطط الصليبى الصهيونى لمحاربة الإسلام – على تجهيل المسلمين بحقيقة (لا إله إلا الله) وفصلها فصلا كاملا بين العقيدة والشريعة بين الدين والدولة لأن المخططين كانوا يعتزمون قتل الإسلام بتنحيته تدريجيا عن حكم الحياة الواقعية للناس ، فبدأوا بتنحية الشريعة ثم ثنوا بانتزاع المفاهيم الإسلامية – واحدا إثر واحد – من أفكار الناس ومشاعرهم وتقاليدهم وسلوكهم ، مع المحافظة على المظاهر الزائفة للإسلام – كالتصوف – منعا من إثارة الشكوك كما قال اللورد كرومر – فى كتابه (مصر الحديثة) (وذلك حتى لاينتبه المسلمون إلى الكيد المدبر لهم ويظلوا فى اطمئنان خادع إلى أن إسلامهم مازال بخير فلا يهبوا لنجدة العقيدة التى تقتلع من الجذور) .

من أجل ذلك ركزوا – وساعدهم فى ذلك رجال دين محترفون – على الأحاديث النبوية التى تقول : (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) وهى أحاديث صحيحة ولاشك ، ولكنهم أهملوا – متعمدين – بيان حقيقة (لا إله إلا الله) التى تدخل الناس الجنة . وصلتها الوثيقة التى لاتنفك عن الحكم بما أنزل الله . وأن الرسول ﷺ اشترط[2] فيها إخلاص القلب بأنه عدم الشرك وبين أنواع الشرك فعدد من بينها التحاكم إلى غير شريعة الله عن رضا ومتابعة ﴿ **فلا وربك**

---

(١) مقتبس من كتاب معالم فى الطريق ص ٣٢ ومابعدها . وانظر فى ظلال القرآن ج ٧ ص ١٠٠٩ .

(٢) شروط (لا إله إلا الله) سبعة وقد نظمها شيخنا حافظ الحكمى فى سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد فقال :

العلم واليقين والقبول … والانقياد فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة … وفقك الله لما أحبه

وقد شرحها شرحا وافيا فى كتابه معارج القبول . فارجع إليه ج ١ ص ٣٧٨ – ٣٨٦ .

لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[1] .

لقد كان الجهد الذى بذله الرسول ﷺ مع المشركين فى مكة – يؤيده الوحى – منصبا كله على إقناعهم بأنه (لا إله إلا الله) .

ولكنه لم يبذل جهدا على الإطلاق فى إقناعهم – بعد أن آمنوا بأن تحكيم شريعة الله هو مقتضى الإيمان بلا إله إلا الله) لأن ذلك كان بديهية فى حسهم لاتحتاج إلى بيان . أما هذه الأجيال القائمة التى تربت فى ظل المخطط الصليبى الصهيونى لمحاربة الإسلام فهى فى حاجة إلى جهد ضخم لاستيعاب هذه الحقيقة التى لم يكن المسلمون يحتاجون فيها إلى كلمة واحدة خلال القرون[2] .

(١) تقرير الوحدانية .

اعلم بأن الإيمان بوحدانية الله تعالى فى ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته هو الأصل الأصيل للعقيدة كالقاعدة للبناء فأى بناء لايقوم على أساس عميق وثابت سرعان ما تزعزعه العواصف فينهار .كذلك كل من ليست عنده عقيدة راسخة فى أعماق قلبه بخالقه ومعبوده خالق الكون من العدم إلى الوجود جلت عظمته وأسماؤه وتعالت صفاته عن مشابهة مخلوقاته **﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾**[3] . **﴿ يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون به علما ﴾**[4] .

كل من كان كذلك فإنه معرض للشبه والشكوك والاضطراب فى دينه .

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥ . ومنه قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت . وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ .

آية ٦٠ من سورة النساء .

(٢) انظر منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٨٢ – ٨٣ .

(٣) الشورى الآية ١١ .

(٤) طه الآية ١١٠ .

فما معنى الوحدانية ؟

إنها تعنى أن الله واحد فى ذاته وصفاته لانظير له ، واحد فى ملكه واحد فى أفعاله لاشريك له واحد فى حاكميته ﴿ **والله يحكم لامعقب لحكمه** ﴾[1] واحد فى ألوهيته وعبادته لاند له[2] .

إنها القاعدة الكبرى التى يقوم عليها التصور الإيمانى الصحيح وهى التى أرسل الله من أجلها الرسل .

أما وحدانية الربوبية :

فقد كانت الأمم تقر بها من زمن أمة نوح عليه السلام إلى زمن مشركى العرب حال البعثة ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾[3] حيث يقرون بأن الله الخالق الرزاق وهم مشركون به بعبادة الأصنام ولذا كانوا يقولون فى تلبيتهم كما فى صحيح مسلم (لبيك لاشريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك)[4] .

وقد بحثت فى القرآن الكريم لعلى أجد آية تدل على أن الأمم السابقة أو مشركى العرب كانوا ينكرون وجود الله تعالى فلم أجد - حسب علمى - شيئا سوى قول الدهرية القائلين بعدم الحياة الأخروية وقد سبق الكلام على ذلك فى (الحالة الدينية) .

فقد أخذ الله الميثاق على بنى آدم وهم فى عالم الذر ، لما خلق آدم فمسح على ظهره واستخرج منه ذريته قائلا لهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى : شهدنا ﴿**وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا**

---

(١) الرعد الآية ٤١ .

(٢) وفى القاموس : الله الأوحد والمتوحد ذو الوحدانية هـ . ج ١ ص ٣٤٤ .

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٦ .

(٤) مسلم ج ٤ ص ٨ عن ابن عباس .

إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾[1] .

وللمفسرين عدة أقوال فى هاتين الآيتين ، أصحها هو ماذكرناه لحديث آنس مرفوعا : (يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذابا لو كانت لك الدنيا ومافيها كنت مفتديا بها ؟ فيقول نعم ، فيقول قد أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب آدم ألا تشرك ، أحسبه قال : ولا أدخلك النار ، فأبيت إلا الشرك) هذا لفظ مسلم ، ولفظ البخارى : (إن الله يقول لأهون أهل النار عذابا لو أن لك مافى الأرض من شىء كنت تفتدى به ؟ قال نعم قال فقد سألتك ماهو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم ألا تشرك فأبيت إلا الشرك)[2] قال صاحب الظلال : (ولم يقع أن نسيت الفطرة حقيقة وجود إله إلا فى هذه الأيام الأخيرة)[3] .

قلت : اللهم إلا ما ذكره القرآن عن فرعون بادعائه الربوبية إذ قال (أنا ربكم الأعلى)[4] وقال : **﴿ يأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾**[5] .

(حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل)[6] الآيات .

وبهذه المناسبة نرد على الماديين الملحدين الذين ينكرون وجود الله سبحانه ، بحجة أنهم لم يدركوه بحواسهم متصورين أن هذا هو الطريق إليه ،

---

(١) الأعراف الآية ١٧٢ – ١٧٣ وقد بحث صاحب شرح الطحاوية فى هاتين الآيتين الكريمتين بحثا جيداً ص ٢٦٥ ومابعدها .

(٢) مسلم ج ٨ ص ١٣٤ وانظر سنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٨ ص ٤٥٧ – ٤٥٨ وأحمد فى مسنده ج ٣ ص ١٢٧ بألفاظ متقاربة وهذا لفظ مسلم ، والبخارى ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٣) فى ظلال القرآن ج ٢ ص ١٥١ .

(٤) النازعات الآية ٢٤ .

(٥) سورة القصص الآية ٣٨ .

(٦) سورة يونس الآيات ٩٠ – ٩٢ .

ورموا المؤمنين به بأنهم واهمون وخرافيون ومشوشون وغير علميين إلى آخر السلسلة من السب والسخرية .

يقولون إنهم لا يؤمنون إلا بما أدركته حواسهم ، والجواب أن واقعهم المادى الذى يعيشونه يكذبهم ، فهم مثلا يؤمنون بالجاذبية وقوانينها ولم يشاهدوها بل رأوا آثارها ، ويؤمنون بالعقل ولم يروه بل رأوا آثاره ، ويؤمنون بالمغناطيسية وقد شاهدوا فقط - انجذاب الحديد إلى الحديد دون رؤية الجاذب . ومن طرائف أجوبة الفطرة على مثل هذا مايأتى :

(يقال إنها وقعت فى مدرسة ابتدائية ، حيث وقف معلم ابتدائى يقول لطلاب السنة السادسة مامعناه : أترونى ؟ قالوا نعم . قال : فإذن أنا موجود . أترون اللوح ؟ قالوا نعم : قال فاللوح موجود . أترون الطاولة ؟ قالوا نعم ، قال إذن فالطاولة موجودة . قال أترون الله ؟؟ قالوا لا . قال فالله إذن غير موجود . فوقف أحد الطلاب الأذكياء وقال : أترون عقل الأستاذ . قالوا لا . قال فعقل الأستاذ إذن غير موجود)[1] .

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجده يعلن إيمان إبليس بربه رب العالمين حين أمر الله - سبحانه - الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس .. ﴿ **قال ربِّ فأنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾و ﴿ **قال رب بما أغويتنى لأزين لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين** ﴾[2] وفى آية أخرى ﴿ **قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾[3] .

فإن قيل إن الذى حاج إبراهيم فى ربه ينكر وجود الله وهو النمروذ ابن كنعان المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين** ﴾[4] .

---

(١) الله جل جلاله ص ٩ - ١١ لسعيد حوى ط . بيروت الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩ هـ .
(٢) سورة الحجر الآيات ٣٦ - ٣٩ .
(٣) سورة ص الآية ٧٩ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

فيقال إنه لم ينكر وجود الله أصلاً ، وإنما كان ينكر الوحدانية فى الألوهية والربوبية وتصريف الكون وتدبيره لما يجرى فيه وحده ، كما كان بعض المنحرفين فى الجاهلية يعترفون بوجود الله ولكنهم يجعلون له أنداداً ينسبون إليها فاعلية وعملا فى حياتهم ، بدليل أن الضمير فى (ربه) عائد على (الذى) فى قوله تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه** ﴾ وعليه فيكون إقرارا منه بالربوبية وأن إبراهيم أراد أن الله الذى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون إحياء وأن يقتل فيكون إماتة وإنما ذلك من قبيل المكابرة والمعاندة .

ورداً على هذا بأن الضمير فى (ربه) عائد على إبراهيم لأنه الأقرب مرتبة وعليه فيكون منكراً لوجود إله غيره[1] .

قلت : وليس فى الآية تصريح بإنكار وجود الله سبحانه أو ادعاء الربوبية كما هو صريح فى كلام فرعون – اللعين – حين قال : (ما علمت لكم من إله غيرى) وحين قال (أنا ربكم الأعلى) .

وعليه فيكون فرعون هو الوحيد فى هذا المجال وهو شذوذ عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وكل مولود يولد على الفطرة[2] .

ولاشك أن الإقرار بالربوبية أمر فطرى وضده حادث طارىء (خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين)[3] .

قال الله تعالى حكاية عن إقرار أول الأمم – بالله سبحانه – أمة نوح عليه السلام : ﴿ **ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل**

---

(١) انظر تفسير الطبرى ج ٣ ص ٢٣ – ٢٥ – القرطبى ج ٢ ص ١٠٩٣ ومابعدها تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٦٣ ، فتح القدير ج ١ ص ٢٧٧ ، روح المعانى ج ٣ ص ١٥ – ١٧ فى ظلال القرآن ج ٣ ص ٢٩٧ .

(٢) معنى حديث سبق لفظه رواه مسلم ج ٨ ص ٥٣ .

(٣) طرف من حديث طويل رواه مسلم أيضا ج ٨ ص ١٥٩ .

ملائكة ﴾[1] وجه الاستدلال إقرارهم بمشيئة الله سبحانه وإسنادها فى إنزال الملائكة إليه وعدم جحودهم لوجود الله تعالى .

وقالت عاد ردا على هود عليه السلام : **﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾**[2] . وقال قوم صالح وقوم هود : **﴿ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾**[3] حتى اليهود والنصارى – بغض النظر عن التحريف والتبديل – لم ينكروا وجود الله فقالوا عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله .

دعوة الأنبياء تركز على توحيد الألوهية .

إنا إذا تدبرنا القرآن الكريم نجد دعوة الرسل تركز على دعوة الأمم إلى توحيد الألوهية الذى هو توحيد العبادة لأنه هو الذى حصل فيه الخصومة بين الأنبياء والأمم ، فأول رسول أنذر قومه عن الشرك ودعاهم إلى عبادة الله وحده ذلك هو نوح عليه السلام الذى أنزل الله فى شأنه مع قومه سورة كاملة سميت باسمه مع ماذكر فى سائر القرآن .

كذلك كلما جاء رسول بعد رسول يؤكد دعوة من قبله من الرسل **﴿ يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾** بغض النظر عما يواجه كل رسول من الأمور المتفشية فى مجتمعه فيتجه نحو مكافحتها بعد الاتجاه إلى الأصل الأصيل الذى هو توحيد العبادة والذى هو معنى **﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾** . لذلك نجد القرآن المكى مستفيضا جدا بهذا النوع من أنواع التوحيد ، ومقبحا ومشنعا على المشركين ومهددا لهم بالخلود فى النار من ذلك قوله تعالى : **﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله ، واحد ﴾**[4] . وقد شهد الله لنفسه وشهد له ملائكته وأولوا العلم بحصر الألوهية فى الله تعالى خالق الكون ومنشئه من العدم إلى الوجود ، فقال : **﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾**[5] .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٧٠ .

(٣) سورة فصلت الآية ١٤ .

(٤) سورة النحل الآية ٥١ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٨ .

وقال : ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل** ﴾[1] . وقال : ﴿ **واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا** ﴾[2] وقال : ﴿ **لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا** ﴾ ، وقال : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ..** ﴾[3] وقال : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار** ﴾[4] . وقال مهدداً لهم بعدم المغفرة مع إصرارهم بأن مصيرهم النار فقال : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما** ﴾ . وفى آية أخرى ﴿ **فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾[5] . وقال تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا** ﴾[6] .. الآيات الثلاث .

وقد نبه الشهيد سيد قطب رحمة الله عليه عند هذه الآيات بقوله :

(وينبغى أن نلتفت إلى ماقبل هذه الوصايا لنعلم ماذا يراد بالشرك الذى ينهى عنه فى مقدمة الوصايا ، لقد كان السياق كله بصدد قضية معينة قضية التشريع ومزاولة حق الحاكمية .. وقبل آية واحدة كان موقف الأشهاد ﴿ **قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون** ﴾[7] .

يجب أن نذكر هذه الآية .. لندرك مايعنى السياق القرآنى هنا بالشرك الذى

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٢ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٦ .

(٣) سورة الإسراء آيات ٢٢ – ٢٣ .

(٤) سورة المائدة الآية ٧٢ .

(٥) سورة النساء آيات ٤٨ – ١١٦ .

(٦) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

(٧) سورة الأنعام الآية ١٥٠ .

ينهى عنه ابتداء .. إنه الشرك فى الاعتقاد كما أنه الشرك فى الحاكمية ، فالسياق حاضر والمناسبة حاضرة ، ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر ، لأن جهود الشياطين فى زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية قد آتت ثمارها – مع الأسف – فجعلت مسألة الحاكمية تزحزح وتنفصل عن أصلها الاعتقادى .

ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية أو لاستنكار انحلال أخلاقى أو لمخالفة من المخالفات القانونية ولكنهم لايتحدثون عن أصل الحاكمية وموقعها من العقيدة الإسلامية يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية ولايستنكرون المنكر الأكبر وهو قيام الحياة على غير إفراد الله بالحاكيمة[1] .

وقال القرطبى : (فى هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ماحرم الله وهكذا يجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس ويبينوا لهم ماحرم عليهم مما حل قال الله تعالى : ﴿ **لتبيننه للناس ولاتكتمونه** ﴾[2] .

وقال مهدداً أيضا المشركين مهما ارتفعت مناصبهم وأنسابهم ، وذلك بعد أن ذكر إبراهيم عليه السلام وما وهب له من الذرية بأن جعل منهم الأنبياء وفضلهم على العالمين ﴿ **ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون** ﴾[3] .

وهذا تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته .

ومن ذلك التهديد أيضا قوله تعالى مخاطبا محمداً ﷺ ﴿ **ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ،**

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٨ ص ١٢٣٠ ، راجع نقطة (الوثنية) آيات من سورة الأنعام فى جهل العرب فى هذا البحث .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٧ ، وانظر تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٥٦٧ .

(٣) سورة الأنعام ٨٧ - ٨٨ .

بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾[1] فهل الشرط يقتضى جواز الوقوع ؟ قيل : لا كقوله تعالى : ﴿ **قل إن كان للرحمٰن ولد فأنا أول العابدين** ﴾[2] وأمثال ذلك كثير[3] .

قلت : ولعل هذا من باب (إياك أعنى واسمعى ياجارة)[4] فهو وإن كان الخطاب ظاهره للنبى وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام – فالمراد منه – والله أعلم – تهديد أقوامهم المنحرفين عن هدى الأنبياء .

أما القول بظاهر الخطاب فيتنافى وعصمتهم المجمع عليها .

وثانياً : غير معقول أن يرسلهم الله عز وجل لينذروا أقوامهم عن الشرك ثم يخالفوهم ، فذاك شعيب عليه السلام يصرح بأنه لم يخالف ما دعا إليه قومه عموما لاسلبا ولا إيجاباً وهل يتفق الإصلاح مع المخالفة ؟ ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ماستطعت** ﴾[5] .

وقال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : (وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية ، وهو الاعتراف بأن الله وحده خلق العالم ، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد[6] ، وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه ، فقد فنوا فى غاية التوحيد[7] ، فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تبارك وتعالى من الصفات

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٥ – ٦٦ .

(٢) سورة الزخرف الاية ٨١ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٩٣ – تفسير ابن جرير ج ٧ ص ٢٦٣ – تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٤٧١ . فتح القدير ج ٢ ص ١٣٧ – الظلال ج ٧ ص ١١٤٤ .

(٤) مثل يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئا آخر غيره ا هـ . مجمع الأمثال ج ١ ص ٤٩ للميدانى .

(٥) سورة هود الآية ٨٨ .

(٦) لعله يشير إلى طريقة جمهور المتكلمين من المعتزلة وغيرهم فى إثبات وجود الله بالمقدمات والنتائج كقولهم : العالم حادث وكل حادث لابد له من محدث فتكون النتيجة محدث العالم هو الله سبحانه . ا هـ تلبيس الجهمية ج ١ ص ١٤١ .

(٧) لعله يشير أيضا إلى طريقة الصوفية فى إثبات وجود الله تعالى وأنها ليست بالنظر وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره شىء يلقى فى النفس عند تجردها من العوارض الشهوانية وإقبالها بالفكرة على المطلوب واحتجوا بظواهر من الشرع منها (واتقوا الله ويعلمكم الله) ٢٨٢ من سورة البقرة ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ ، آخر آية من سورة العنكبوت ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا** ﴾ آية ٢٩ من سورة الأنفال . وقد نقلها ابن تيمية فى تلبيس الجهمية ج ١ ص ٢٥٦ وعلق عليها فى المصدر نفسه ص ٢٦٣ واستحسن بعضها ورد البعض الآخر .

ونزهه عن كل ماينزه عنه ، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحدا حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله وحده لاشريك له(*) .

قلت : ومما يؤكد هذا حكمة الله فى خلق الجن والإنس ﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[1] والعبادة هى اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

ومما يفسر هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت ...** ﴾[2] الآية . وحول هذه الآية قال سيد قطب : (إنه التجرد الكامل لله بكل خالجة فى القلب وبكل حركة فى الحياة بالصلاة والاعتكاف وبالمحيا والممات وبالشعائر التعبدية وبالحياة الواقعية ، وبالممات وماوراءه .... لله وحده رب العالمين)[3] .

نماذج من الخصومة بين الأنبياء والأمم فى توحيد الألوهية .

لما دعا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام إذ هم أول من عبدها ، قالوا ﴿ **ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾[4] . وقد بلغ بهم الحمق والسفه إلى أن قالوا ﴿ **ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ...** ﴾[5] . وقالوا أيضا ﴿ **إنا لنراك فى ضلال مبين** ﴾[6] .

كذلك كانت إجابة قوم هود عليه السلام ، بل هى أشد قسوة من سابقتها

(*) فتح المجيد ص ١٢ تحقيق محمد حامد الفقى ط السنة المحمدية القاهرة ط السابعة .

(١) الذاريات الآية ٥٦ .

(٢) الأنعام الآية ١٦٢ - ١٦٣ .

(٣) فى ظلال القرآن ج ٨ ص ١٢٤٠ .

(٤) المؤمنون الآية ٢٤ - ٢٥ .

(٥) سورة هود الآية ٢٧ .

(٦) سورة الأعراف الآية ٦٠ .

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾[1] .

وفى موضع آخر ﴿ قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون، من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون ﴾[2] .

كذلك كانت الإجابة من قوم صالح عليه السلام إلا أنها أهون من سابقاتها ﴿ قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ، وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾[3] إلا أنها فى موضع آخر أشد قسوة حيث قالوا : ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾[4] .

وتأتى ردود قوم شعيب – عليه السلام – بعد حوار طويل يشعر بالسخرية أولاً ، وبالفتك ثانيا ، ﴿ قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط ﴾[5] .

وقد مدح الله أبا الأنبياء عليه السلام ومن نهج نهجه كما دعا سائر الأنبياء إلى الاقتداء به فقال : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾[6] .

إنها البراءة من الشرك وأهله ومقاطعة صريحة ماداموا فى استمرارهم على

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٦ – ٥٧ .

(٢) سورة هود آية ٥٣ – ٥٤ – ٥٥ .

(٣) سورة هود الآية ٦٢ .

(٤) سورة القمر الآية ٢٥ .

(٥) سور هود آية ٩١ – ٩٢ .

(٦) سورة الممتحنة الآية ٤ .

الشرك حتى يقلعوا عنه ويؤمنوا بالله وحده .

وهكذا حتى جاء دور نبينا محمد ﷺ ، فلما دعا مشركى قريش مجدداً دعوة الأنبياء قبله قالوا : ﴿ **هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلٰها واحداً إن هذا لشيء عجاب** ﴾[1] ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إلٰه إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾[2] .

فجاءت التسلية من الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾[3] .

فأنت ترى أن الدعوة المكية قد حرصت حرصا شديدا على تجريد عقيدة التوحيد وتخليصها من كل ماعلق بها من الأساطير والخرافات والأوثان والانحرافات التى طرأت على العقائد السابقة لأن التوحيد حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها هذا الوجود كله . ويشهد بها هذا الوجود شهادة واضحة ولأن هذا التوحيد فى الوقت ذاته قاعدة لاتصلح الحياة البشرية كلها فى أصولها وفروعها إلا إذا قامت عليها[4] .

ومما ينبغى أن يكون مفهوما عند أصحاب الدعوة الإسلامية المعاصرة أنهم حينما يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين ، ينبغى أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة — حتى ولو كانوا يدعون أنهم مسلمون ، وتشهد لهم شهادات الميلاد — يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولاً : إقرار عقيدة (لا إلٰه إلا الله) بمدلولها الحقيقى . .

(٢) إثبات الرسالة .

إن معرفة الرسل يترتب عليها هداية البشر واستحقاقهم ثواب الله ، بينما

---

(١) سورة ص آية ٤ ، ٥ .

(٢) سورة الصافات آية ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) سورة الزخرف آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) انظر فى ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٣٠٠٧ ، ٣٠١٠ .

الجهل والكفر بهم حال وجودهم وتكذيب دعوتهم يترتب عليه بقاء البشرية على ضلالها واستحقاقها عذاب الله سبحانه فى الدنيا والآخرة .

لذلك كان مهما جدًّا أن نعرف كيف نهتدى إلى الرسول ﷺ وبدون معرفة هذا قد يلتبس علينا الأمر ، فنعتبر غير الرسول رسولا فنضل ونجهل الرسول ، لذلك جعل الله للرسل علامات يعرفون بها منها :

(أ) الصفات الشخصية لصاحب الرسالة .

فليس من المعقول أن يكون الرسول كذابا ، إذ إن الكذاب لايصدق فى الأمور العادية ، فضلا عن مثل هذه القضية الكبرى .

وقد اشتهر محمد ﷺ قبل البعثة بالصادق الأمين مع عدو لدود إذ كانوا يودعون عنده ودائعهم فيؤديها عندطلبها كما هى فلما علا على الصفا ودعاهم إلى الله تعالى قائلاً : (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ، قالوا نعم ماجربنا عليك إلا صدقا ..)[1] .

(ب) شهادة الخصوم :

هذه شهادة الخصوم ولها وزنها الكبير ، إذ تدل على الثقة التى كان يتمتع بها رسول الله ﷺ عند الجميع ، ولكنه الجحود والاستكبار **﴿ فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾**[2] .

وقد لقى أبو جهل النبى ﷺ يوما فصافحه ، فقال له رجل ألا أراك تصافح هذا الصابىء ؟ فقال : والله إنى لأعلم أنه لنبى ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعا .

ومرة أخرى : – قال بعد أن استمع قراءة النبى ﷺ هووأبو سفيان ، والأخنس بن شريف ليلا كل لايشعر بالآخر ، فقال الأخنس بعد أن التقوا وتلاوموا ، وتعاهدوا على عدم العودة : ما رأيك يا أبا الحكم فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت . تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا

---

(١) البخارى ج ٣ ص ١٧١ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٣ .

فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لانؤمن به ولانصدقه . وفى رواية أخرى إن الأخنس خلا بأبى جهل فقال له أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيرى وغيرك يسمع كلامنا . فقال أبو جهل : ويحك إن محمداً لصادق وماكذب محمد قط . ولكن إذا ذهبت بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟[1] .

وفى قصة أبى سفيان عند هرقل ، ومنها سؤاله لأبى سفيان نفسه قائلاً : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟) فأجابه أبو سفيان لا . وفى آخر القصة قال هرقل : (فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله تعالى)[2] .

(جـ) شهادة الأتباع :

كان ﷺ دائم الخلطة لأصحابه ، وبعضهم خالطه قبل النبوة وبعدها ولم يكونوا أغراراً ولامغفلين ولامنعزلين عن العالم وقد أثبت التاريخ أنهم أرجح الناس عقولاً وأكثرهم دهاء وحنكة ومعرفة بالرجال والشعوب ، وسياسة الأمم بدليل نجاحهم – رغم محدودية وسائلهم – وقتئذ بفتح أعظم الدول المتحضرة ، وكانوا كلما ازدادوا خلطة برسول الله ﷺ ازدادوا به إيمانا وتضحية ، وكان أحب إليهم من الأموال والأولاد ، وهذا دليل على صدقه بلا شك .

(د) معجزة القرآن الكريم .

إن شهادة الواقع أعلى الشهادات . فالإنسان يصل بامتحانه إلى اليقين الذى لايخالطه شك . فإذا قام الإنسان بإجراء اختبار كامل لكل ماورد عن الرسول

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٤٦ ٢٤٧ الرسول لسعيد حوى ج ١ ص ٢٢ . أما الخصوم المتأخرون فقد شهد كثير منهم بصدق رسالة محمد ﷺ وقد سرد كثيرا من ذلك محمود عبد الوهاب فايد فى كتابه (الرسالة المحمدية) تحت عنوان شهادة العباقرة للنبى ﷺ مع ذكر المراجع التى نقل منها ذلك . انظر ص ١٢٥ من رسالته المذكورة .

(٢) البخارى من حديث طويل عن ابن عباس ج ١ ص ٨ ٩ .

من قول أو فعل ، مما يمكن أن يدخل تحت الاختبار – يجده لايخرج عن الحق والصدق .

بعد ذلك لم يبق أمام الإنسان إلا الإيمان .

أعظم برهان على ذلك وأوضحه هو القرآن الكريم . فمن تدبره يجده كله حقا وصدقا وأنه كلام الله ، وأنه المعجزة الخالدة لإثبات الرسالة ولو لم يكن للنبى ﷺ معجزة – بغض النظر عن سائر المعجزات الثابت نقلها من نبوات ومبشرات – لو لم يكن إلا القرآن لكفى به برهانا على صدق رسالته – ﷺ لما تضمنه من أخبار الغيب . وقد جاءت صادقة دقيقة ، من ذلك قصة الروم مع فارس حين غلبت الروم فنزل القرآن معلنا أن الروم ستغلب فارس خلال بضع سنين وبالفعل غلبتها . ونزول القرآن بهذه الغلبة كان فى مكة وقبل يوم بدر ، والأول أظهر لأن السورة مكية . وكان انتصار الروم على فارس يوم الحديبية . ﴿ **آلم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين** ﴾[1] .

وقوله تعالى: ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين** ﴾[2] نزلت هذه الآية عام الحديبية فى السادسة من الهجرة . ودخله الرسول ﷺ وأصحابه سنة سبع تصديقا لرؤيا رسول الله المؤكدة بالآية الكريمة فإنه قد أرى فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، وكقصص الأنبياء السابق ذكرها فى (الاستدلالات التاريخية) ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا** ﴾[3] الآية .

---

(١) البضع مابين الثلاث إلى التسع . وانظر التفاصيل فى تفسير القرطبى ج ٦ ص ٥٠٨٣ ومابعدها ابن كثير ج ٦ ص ٣٠٤ ومابعدها ، فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ١١٤ ومابعدها .

(٢) الفتح الآية ٢٧ وهل قوله تعالى : ﴿ **إن شاء الله** ﴾ فى هذه الآية من باب الاستثناء أو التبرك . فى الجلالين للتبرك . وفى ابن كثير لتحقيق الخبر وتوكيده . وليس هذا من الاستثناء فى شىء وفى فتح القدير تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه كما فى قوله تعالى ﴿ **ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله** ﴾ الكهف الآية ٢٤ وقيل علم الله أنه يموت بعض أهل الحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى وقيل معنى إن شاء الله كما شاء الله . وقيل (إنْ) بمعنى (إذا) يعنى إذا شاء الله حيث أرى رسوله ذلك . ا هـ . وانظر ابن كثير ج ٧ ص ٣٣٧ فتح القدير ج ٥ ص ٥٥ – الجلالين ٤٣٤ .

(٣) سورة هود الآية ٤٩ .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾[1] .

وقد تحقق هذا الوعد بخلافة الخلفاء الراشدين الذين فتحوا الممالك فارس والروم وغيرهما ونشروا الإسلام حتى تمكن فى الأرض وصارت له القوة التى تخشاها أكابر الملوك ، وقوله تعالى ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين** ﴾[2] وتم ذلك يوم بدر وانتصر الرسول ﷺ وأصحابه وأذل الله المشركين فقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون تقريباً .

وقوله تعالى : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله مايركبون** ﴾[3] ، أى خلق لهم مايماثل الفلك المشحون مايركبونه فى البر من أنواع المواصلات الحديثة . والله أعلم .

وفي الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا (مامن الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحى الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[4].

قال الحافظ : (ومعنى الحصر فى قوله : ﴿ **إنما كان الذى أوتيته** ﴾[5] أن القرآن أعظم المعجزات وأفيدها وأدومها لاشتماله على الدعوة والحجة ودوام الانتفاع به إلى آخر الدهر .

فلما كان لاشيء يقاربه فضلا عن أن يساويه . كان ماعداه بالنسبة إليه كأن

---

(١) سورة النور الآية ٥٥ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٧ .

(٣) سورة يس آية ٤١ - ٤٢ .

(٤) متفق عليه : البخارى ج ٤ ص ٢٥٦ مسلم ج ١ ص ٩٢ - ٩٣ واللفظ له . وفى لفظ البخارى (أومن أو آمن عليه البشر فالأولى من الأمن والثانية من الإيمان .

(٥) كذا بإثبات المقالد وحذفه كما فى النسخ التى بين أيدينا .

لم يقع)[1] ، هذا مع خرق العادة فى أسلوبه وبلاغته وأخباره بالمغيبات وعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين فى جميع الأعصار مع اعتنائهم بمعارضته . فلم يقدروا[2] ، وهم أفصح العرب ، بل ملوك البيان وأمراء الفصاحة و فطاحل البلاغة ، فإذا عجزوا فغيرهم أعجز عن الإتيان بمثله أو بعشر سور أو بسورة ، وصدق الله العظيم القائل ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[3] مع اشتماله على كل مايحتاج إليه البشر وكل مايسعدهم فى دينهم ودنياهم من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مقرونا بالبراهين العقلية والفطرية التى لاتترك للعقل السليم مجالا للإنكار ، بل تخضعه للتسليم والإقرار - ومن العبادات والأخلاق والمعاملات وإصلاح الأسرة وصلاحها والسياسة ، والاجتماع مالا يدركه البشر ، ولو اجتمع كل المشرعين منهم من أول الخليقة إلى نهاية الدنيا لما استطاعوا أن يأتوا بتشريع مثله فضلا عن أن يأتوا بأحسن منه[4] . ومعلوم أن معجزات الأنبياء قد انقرضت بانقراض أعصارهم ، ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم ومعجزة نبينا محمد ﷺ القرآن المستمر إلى يوم القيامة ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[5] أما كان هذا من أوضح الأدلة على صدق رسالته ﷺ .

١ - ومن الشواهد على إثبات رسالته ﷺ الرجوع إلى درس نشأته وحياته من جديد منذ مولده الشريف إلى أن اختاره الله - عز وجل - رحمة للعالمين .

٢ - كذلك حقيقة دعوته التى جاء بها من توحيد وبعث وجزاء و و ... مع الإيمان برسل الله قبله ومابين دعوتهم من الروابط القوية وامتيازها بعالميتها وشمولها للمصالح الدنيوية والأخروية .

---

(١) فتح البارى ج ١٣ ص ٢٤٨ .

(٢) شرح مسلم للنووى ج ٢ ص ١٨٨ .

(٣) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٤) الإسلام والرسول فى نظر منصفى الشرق والغرب لأحمد بن حجر آل بوطامى ص ٢٨ ط . ثالثة سنة ١٣٩٨ هـ . الناشر مكتبة الثقافة . قطر .

(٥) سورة الحجر آية ٩ .

٣ – مناوأة الكفار لدعوته لاسيما الأشراف كما هى طبيعة الدعوات السابقة مع المرسلين وأقوامهم[١] . فذاك نوح عليه السلام حين دعا قومه إلى عبادة الله وحده ﴿ **قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين** ﴾ وهذه مقالة قوم هود : ﴿ **قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ . وهذه مقالة قوم صالح : ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾ . وهذه مقالة قوم شعيب عليه السلام : ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا** ﴾[٢] الآية . وأمثال ذلك كثير .

وهكذا تردد نفس الكلمة من الأشراف حتى وصل الدور إلى النبى ﷺ . فقالت أشراف قريش : ﴿ **هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب** ﴾[٣] . وغير ذلك من الآيات الدالة على افترائهم وتعنتهم .

(هـ) بعض شهادة الكتب السابقة .

جاء فى سفر التثنية مانصه : (جاء الرب من سينا[٤] وأشرق لهم من ساعير[٥] ، وتلألأ من جبال فاران[٦] وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم[٧]) .

كذلك جاءت البشارة بنبوة محمد ﷺ فى إنجيل يوحنا مانصه : (ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب ، روح الحق الذى من عند الآب

---

(١) انظر التفاصيل فى الرسالة المحمدية لمحمود فايد فقد عدد فيها شواهد كثيرة .

(٢) سورة الأعراف آية ٦٠ – ٦٦ – ٧٥ – ٧٦ – ٨٨ .

(٣) سورة ص آية ٤ – ٥ .

(٤) سينا هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام . ا هـ تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٤٥ .

(٥) ساعير قرية معروفة فى القدس . كذا فى هداية الحيارى ص ٥٣ وقيل اسم لجبل فى فلسطين .

(٦) هى مكة كما فى المرجع نفسه .

(٧) سفر التثنية ضمن الكتاب المقدس ص ٢٧٥ – إصحاح ٣٣ وانظر هداية الحيارى ص ٥٣ .

ينبثق فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء)[1] . وفيه أيضا :

(إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق الذى لايستطيع العالم أن يقبله لأنه لايراه ولايعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم . ويكون فيكم)[2] .

وفى إنجيل متى ، مانصه : ..... لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تأكل أثماره)[3] . كما جاء فى سفر التثنية مانصه (أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون الإنسان الذى لايسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى)[4] .

فاليهود تحمل هذه البشارة على يوشع وتحملها النصارى على المسيح والصحيح أنها تبشر بمحمد ﷺ[5] .

أما فى القرآن الكريم فواضح بلا شك أن محمداً رسول الله ﷺ إلى العالمين ، وخاتم النبيين . ﴿ **يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا** ﴾[6] . وفى التوراة (ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل

---

(١) إنجيل يوحنا ص ١٤٦ - إصحاح ١٥ - فقرة ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٤ إصحاح ١٤ فقره ١٥ - ١٧ - ١٨ هذا وقد أورد هذا النص ابن قيم الجوزية فى هداية الحيارى بعدة ألفاظ متقاربة وفى بعضها الفارقليط بدل المعزى والفارقليط بلغتهم من ألفاظ الحمد أما أحمد أو محمد أو محمود أو حامد ص ٥٥ .

(٣) إنجيل متى ص ٣١ - إصحاح ٢١ فقرة ٤٤ - ولمزيد من التفاصيل انظر هداية الحيارى ص ٥١ - ٦٤ .

(٤) سفر التثنية ضمن الكتاب المقدس ص ٢٧٣ - إصحاح ١٨ - ٢٠ .

(٥) انظر التفاصيل فى هداية الحيارى لابن القيم ص ٥١ - ٥٢ الرسالة المحمدية لمحمود فايد ص ١١٦ - ١١٧ .

(٦) سورة الأحزاب آية ٤٥ - ٤٦ .

ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق[1] ...) .

﴿ ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾[2] .

﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[3] . ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ﴾[4] .. الآية .

وقد شهد الله – سبحانه – وملائكته بإنزال الوحى إلى النبى ﷺ .

﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾[5] .

(و) إنكار رسالة محمد طعن فى الرب تبارك وتعالى :

إن من أنكر رسالة محمد ﷺ التى هى الرسالة الخاتمة ، فقد طعن فى الرب تبارك وتعالى ونسبه إلى الظلم والسفه– تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – بل ذلك جحد للرب بالكلية وإنكار .

وبيان ذلك : أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبى صادق بل ملك ظالم ، فقد تهيأ له أن يفترى على الله ويتقول عليه ، ويستمر حتى يحلل ويحرم ، ويفرض الفرائض ، ويشرع الشرائع وينسخ الملل ، ويضرب الرقاب ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق ، ويسبى نساءهم ويغنم أموالهم وذراريهم وديارهم ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض وينسب ذلك كله إلى أمر الله له به ومحبته له ، والرب تبارك وتعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق ، وهو مستمر فى الافتراء عليه ثلاثا وعشرين سنة ، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ويعلى أمره ويمكن

---

(1) رواه البخارى عن عمرو بن العاص فى عدة مواضع منها فى ج ٣ ص ١٨٩ – ١٩٠ .

(2) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

(3) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(4) سورة الفتح الآية ٢٩ .

(5) سورة النساء الآية ١٦٦ .

له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر .

وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعواته ويهلك أعداءه ويرفع له ذكره . هذا وهو عندهم فى غاية الكذب والافتراء والظلم فإنه لا أظلم ممن كذب على الله وأبطل شرائع أنبيائه وبدلها وقتل أولياءه واستمرت نصرته عليهم دائما ، والله تعالى يقره على ذلك ، ولا يأخذ منه باليمين ولايقطع منه الوتين فيلزمهم أن يقولوا : لا صانع للعالم ولا مدبر ، ولو كان له مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه ولقابله أعظم مقابلة وجعله نكالا للصالحين إذ لايليق بالملوك غير ذلك فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين ؟ .

ولاريب أن الله تعالى قد رفع له ذكره وأظهر دعوته والشهادة له بالنبوة على رؤوس الأشهاد فى سائر البلاد .

ونحن لاننكر أن كثيرا من الكذابين قام فى الوجود ، وظهرت له شوكة ولكن لم يتم له أمره ولم تطل مدته بل سلط الله عليه رسله وأتباعهم وقطعوا دابره واستأصلوه .

هذه سنة الله التى قد خلت من قبل ، حتى أن الكفار يعلمون ذلك ، قال تعالى :

﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾[1] .

أفلا تراه يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل ، لابد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته فى المتقولين عليه . وقال تعالى : **﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾**[2] . **﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾** وهنا انتهى جواب الشرط . ثم أخبر خبراً جازما غير معلق : أنه يمحو

---

(١) سورة الطور الآية ٣٠ - ٣١ .

(٢) سورة الحاقة آية ٤٤ - ٤٦ .

الباطل ويحق الحق ﴿ **ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته** ﴾[1] .

(٣) الإيمان بالملائكة[2] :

الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان . والمراد به الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور . وأنهم قائمون بوظائفهم التى أمرهم الله بها ﴿ **لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون** ﴾[3] . وأنهم كما وصفهم الله عباد مكرمون ﴿ **يسبحون الليل والنهار لايفترون** ﴾[4] .

وهم نوع من مخلوقات الله عز وجل ، لايصلح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم ، وبما ورد فى حقهم من صفات وأعمال فى كتاب الله – سبحانه – وسنة رسوله ﷺ ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾[5] ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾[6] .

﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾[7] .

---

(١) الشورى الآية ٢٤ ، والجملة الأخيرة مستانفة لا معطوفة وحذفت الواو فى رسم المصحف الإمام كما فى (سندع الزبانية) (ويدع الإنسان بالشر) انظر تفسير ابن جرير ج ٢٥ ص ٢٧ . وابن كثير ج ٧ ص ١٩٢ وفتح القدير ج ٤ ص ٥٣٥ – شرح الطحاوية ص ١٦٥ – ١٦٧ .

(٢) الملائكة جمع ملك بفتح اللام فقيل مخفف من مالك وقيل مشتق من الألوكه وهى الرسالة . وهذا قول سيبويه والجمهور وأصله لاك . وقيل : أصله الملك بفتح الميم وسكون اللام وهو الأخذ بقوة وأصل وزنه مفعل فتركت الهمزة لكثرة الاستعمال وظهرت فى الجمع .

وقال جمهور أهل الكلام من المسلمين : الملائكة أجسام لطيفة أعطيت القدرة للتشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات اهـ .

فتح البارى ج ٦ ص ٣٠٦ – وقال أيضا : (ليسوا ذكورا ولا إناثا ولا يتناكحون ولا يتوالدون) حكاه عن سعيد ابن المسيب .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٥) سورة النساء الآية ١٣٦ .

(٦) سورة التحريم الآية ٦ .

(٧) سورة الأنبياء الآية ٢٠ .

وفى حديث جبريل المشهور حينما جاء إلى النبى ﷺ في صورة أعرابى يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان . قال ﷺ عن الإيمان ﴿ **آن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره** ﴾[1] .

وقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم – فى عدة سور من القرآن[2] – فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر .

وقد عقد الإمام البخارى فى صحيحه بابا مستقلا لذكر الملائكة[*] ، روى فيه نحوا من ثلاثين حديثا . كما أورد الحافظ فى الفتح عدة أحاديث زيادة على مافى الصحيح .

والذى يستقصى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التى تكلمت عن الملائكة وأوصافهم وأعمالهم وأحوالهم يلاحظ أنها تناولت فى الغالب مابين علاقتهم بالخالق – سبحانه – وبالكون والإنسان . فعرفنا سبحانه فى ذلك بما ينفعنا فى تطهير عقيدتنا وتزكية قلوبنا وتصحيح أعمالنا . ووجود الملائكة ثابت بالدليل القطعى الذى لايمكن أن يلحقه شك . ومن هنا كان إنكار وجودهم كفرا بإجماع المسلمين[3] بل بنص القرآن الكريم ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾[4] .

قال الحافظ[*] : (وفى هذا وماورد من القرآن رد على من أنكر وجود الملائكة من الملاحدة) .

وقد كان العرب فى الجاهلية يؤمنون بوجود الملائكة ولكن على أنها بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ، ثم يعبدونها على هذا الأساس فنزل القرآن بتصحيح هذا الاعتقاد الفاسد ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا**

---

(١) متفق عليه البخارى ج ١ ص ١٨ – مسلم ج ١ ص ٢٩ .

(٢) من ذلك سورة البقرة آية ٣٤ وسورة الأعراف آية ١١ وسورة الحجر آية ٢٩ – ٣٠ وسورة ص آية ٧٠ – ٧٤ .

(*) ج ٢ ص ٢١٠ .

(٣) حكى ذلك الاجماع محمد نعيم ياسين فى كتابه (الإيمان) ص ٢٥ .

(٤) سورة النساء آية ١٣٦ .

(*) ج ٦ ص ٣٠٦ .

الملائكة إناثا وهم شاهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾[1] الآيات . وغير ذلك كثير[2] .

فهل يكفى الإيمان بالملائكة إجمالا ؟ .

الجواب : أما من ورد تعيينه باسمه المخصوص كجبريل وميكائيل وإسرافيل ورضوان ومالك ومن ورد تعيين نوعه المخصوص كحملة العرش والحفظة والكتبة ، فيجب الإيمان بهم على التفصيل .

وأما سائرهم فيجب الإيمان بهم إجمالا . والله أعلم بعددهم لايحصيهم إلا الذى خلقهم وهو الله سبحانه وتعالى . خالق السموات والأرض **﴿ ومايعلم جنود ربك إلا هو ﴾**[3] .

وأما حقيقتهم وكيف خلقهم وتفصيلات أحوالهم فذلك مما استأثر الله - سبحانه - به والمؤمن الصادق يقر بكل ما أخبر به الخالق مجملا أو مفصلا ، ولايزيد على ذلك ولاينقص منه ولايتكلف البحث عما لم يطلعنا عليه منه ولايخوض فيه[4] .

وأما المادة التى خلقوا منها فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الله خلقهم من نور كما فى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم)[5] .

---

(١) سورة الصافات آية ١٤٩ - ١٥٥ .

(٢) من ذلك قوله تعالى : **﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾** الزخرف آية ١٩ - ٢٠ وقوله **﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحنه وتعالى عما يصفون . بديع السموت والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ﴾** الآية ١٠٠ - ١٠١ من سورة الأنعام .

(٣) سورة المدثر الآية ٣١ .

(٤) انظر فتح البارى : ج ٦ ص ٣٠٦ ومابعدها - الأسئلة والأجوبة الأصولية لعبد العزيز المحمد السلمان ص ٢١ . انظر الإيمان ص ٢٥ - ٢٦ لمحمد نعيم ياسين - الإسلام ج ١ ص ٢٩ - ٣٣ لسعد حوى .

(٥) مسلم ج ٨ ص ٢٢٦ - مسند أحمد ج ٦ ص ١٥٣ - ١٨٦ .

أثر الإيمان بالملائكة فى حياة الإنسان :

من حكمة الله سبحانه عدم اطلاعنا على شىء من علم الغيب - إلا عن طريق النبى ﷺ وكان من فضله - جل وعلا - علينا أن عرفنا بهذه المخلوقات الكريمة ، والإيمان بها هو من الإيمان بالغيب الذى وصف به المتقون ﴿ **آلم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[1] .

وللإيمان بالملائكة آثار عظيمة فى حياة المؤمنين منها :

الاستقامة على أمر الله عز وجل ، فإن من يستشعر بقلبه وجود الملائكة جنود الرحمن ويؤمن برقابتهم لأعماله وأقواله ، وشهادتهم على كل مايصدر عنه ليستحى من الله ومن جنوده فلا يخالفه ولايعصيه لافى السر ولافى العلانية . إذ كيف له ذلك وهو يعلم أن كل شىء محسوب ومكتوب ومشهود ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[2] ﴿ **وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون** ﴾[3] .

وفى ذلك حافز دائم - يشعر به المؤمن - لفعل الخيرات فتكتبها الملائكة . وفى يقظة دائمة من الوقوع فى الشر حتى لايسجل عليه ذلك ﴿ **أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾[4] .

ومنها الصبر ، ومواصلة الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وعدم اليأس والشعور بالأنس والطمأنينة فهذه المعانى من لوازم الإيمان بالملائكة ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾[5] هذا ما أخبر الله به فى أفعالها وأحوالها فعندما مايضل الركب عن الطريق وتسود الجاهلية

---

(١) سورة البقرة آية ١ - ٣ .

(٢) سورة ق آية ١٨ .

(٣) سورة الانفطار آية ١٠ - ١٢ .

(٤) سورة الزخرف آية ٨٠ .

(٥) سورة الأنفال آية ١٢ .

الجهلاء ، ويصبح المؤمن غريباً فى وطنه وبين أهله وقومه ويجد منهم الصدود والاستهزاء والتخذيل والتثبيط عن طاعة الله عز وجل - والاستقامة على أمره ، فى هذه الغربة يجد المؤمن أنيسا ورفيقا يصحبه ويرافقه ويواسيه ويصبره ويطمئنه ويشجعه على مواصلة السير على درب الهدى فهذه جنود الله معه تعبد الله كما يعبد ، وتتجه إلى خالق السموات والأرض كما يتجه . وتبارك خطواته وتشد من أزره ، وتذكره بالخير عند ربه ، فهو إذن ليس وحده فى الطريق إلى الله ، ولكنه يسير مع الركب العظيم ومع الأكثرية من مخلوقات الله عز وجل ، مع الملائكة الكرام ومع الأنبياء عليهم السلام ومع السموات والأرض ، فهو الأكثر رفيقا ، وهو الأقوى سندا ، فتجعله هذه المشاعر الصادقة صابراً مطمئنا لايزيده صدود الناس إلا ثباتا وجهادا .

فانظر ياأخى كم أنعم الله علينا بخلق الملائكة ، وكم أنعم علينا بالإيمان بهم مما له أشد الأثر فى قلوبنا وأعمالنا واستقامة حياتنا .

والإيمان بهم تصديق للقرآن الكريم وللرسول الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام[1] .

(٤) الإيمان بكتب الله عز وجل :

الإيمان بكتب الله عز وجل ركن من أركان الإيمان - كما سبق فى حديث جبريل المشهور - وهو التصديق الجازم بأن لله كتبا أنزلها على رسله وأنها كلامه حقيقة وأنها نور وهدى للناس . وأن ماتضمنته حق وصدق - وهذا هو المقتضى الطبيعى الذى ينبثق من الإيمان بالله عز وجل - كما أنه يجب الإيمان بها جملة إلا ماسمى منها وهى :

١ - التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام **﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾**[2] .

---

(١) انظر الإيمان لمحمد نعيم ياسين ص ٣٦ - ٣٧ ، توحيد الخالق ج ٢ من القسم الأول ص ١١ - ١٢ الظلال ج ٣ ص ٣٤١١ ، دراسات قرآنية ص ٨٣ - ٨٤ للشيخ محمد قطب .

(٢) سورة المائدة اية ٤٤ .

٢ — والإنجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين** ﴾[١] .

٣ — والزبور الذى نزل على داود عليه السلام . قال تعالى : ﴿ **وآتينا داود زبورا** ﴾[٢] .

٤ — والصحف التى أنزلها الله على إبراهيم وموسى وأخبر عنها بقوله تعالى ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى . وإبراهيم الذى وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[٣] الآيات . وبقوله تعالى ﴿ **قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى** ﴾[٤] .

٥ — والقرآن الكريم الذى أنزله الله على محمد خاتم النبيين . وأن الله تكلم به حقيقة كما تكلم بالكتب السابقة وأنه المخصوص بمزية الحفظ من التبديل والتغيير والتحريف كما قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظو ن** ﴾[٥] .

﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[٦] .

وأما الكتب الأخرى التى نزلت على سائر الرسل فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائها وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبى أرسله الله رسالة بلغها قومه فقال : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾[٧] .

---

(١) سورة المائدة آية ٤٦ .
(٢) سورة الإسراء آية ٥٥ .
(٣) سورة النجم آية ٣٦ — ٤٢ .
(٤) سورة الأعلى آية ١٤ — ١٩ .
(٥) سورة الحجر آية ٩ .
(٦) سور فصلت آية ٤٢ .
(٧) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التى لم تسم إجمالا ولايجوز لنا أن ننسب كتابا إلى الله – عز وجل – سوى مانسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه فى القرآن الكريم .

كما يجب علينا أن نؤمن بأن القرآن الكريم هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى ، وأن الله سبحانه وتعالى قد خصه بمزايا تميز بها عن جميع ماتقدمه من الكتب المنزلة منها ماسبق ذكره من تعهد الله بحفظه .

ومنها : أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلٓهية . وجاء مؤيداً ومصدقا لما جاء فى الكتب السابقة من توحيد الله وعبادته ووجوب طاعته وجمع كل ماكان متفرقا فى تلك الكتب من الحسنات والفضائل وجاء مهيمنا ورقيبا يقر مافيها من حق ويبين مادخل عليها من تحريف وتغيير . قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** ﴾[1] . وأنه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل مايلزمهم لسعادتهم فى الدارين ، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة ، وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان . وأما الكتب الأخرى فقد وجه الكلام فى كل واحد منها إلى أمة خاصة دون سائر الأمم ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[2] ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾[3] الآية .

وهى وإن اتفقت فى أصل الدين إلا أن مانزل فيها من شرائع وأحكام كان خاصا بأزمنة معينة وأقوام معينين . قال تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾[4] .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨ . والمهيمن الرقيب ، وقيل الغالب المرتفع ، وقيل الشاهد . وقيل الحافظ وقيل المؤتمن ، ا هـ. فتح القدير ج ٢ ، ص ٤٧ .

(٢) سورة النحل آية ٣٦ .

(٣) سورة إبراهيم آية ٤ .

(٤) سورة المائدة الآية ٤٨ .

لذلك لم يتعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ أى منها على مدى الأزمان كما هو الحال بالنسبة للقرآن الكريم[1] . وقد أشرت إلى ذلك التحريف فى نقطة اليهودية والنصرانية بما فيه الكفاية من إعادته هنا .

أهمية الإيمان بالكتب .

١ — الإيمان بها ركن من أركان الإيمان — كما سبق — لايتم الإيمان إلا به .

٢ — الإيمان بالكتب السابقة هو الصفة اللائقة بالأمة المسلمة وارثة العقائد السماوية ، وارثة النبوات منذ فجر البشرية والحفيظة والمحافظة — على تراث العقيدة وتراث النبوة ورائدة موكب الإيمان على الأرض .

وثمرة هذا الإيمان هو الشعور بوحدة البشرية ووحدة دينها ورسلها ومعبودها .

٣ — الإيمان بالكتب السابقة يؤكد للناس أن دين الله واحد ، وأن الإسلام جامع لكل الديانات السماوية ، والمسلمون أولى الناس جميعا بقيادة البشر على نهج الإسلام ﴿ **شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه** ﴾[2] .

(٥) الإيمان بالرسل :

الإيمان بالرسل هو التصديق الجازم بأن لله رسلا أرسلهم لإرشاد الخلق فى معاشهم ومعادهم ، اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن لايهمل خلقه بل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين فيجب علينا الإيمان بمن سمى الله منهم فى كتابه على التفصيل .

والإيمان جملة بأن لله رسلا غيرهم وأنبياء لايحصى عددهم إلا الله ولايعلم أسماءهم إلا هو جل وعلا ﴿ **ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم**

---

(١) انظر الإيمان لمحمد نعيم ياسين ص ٥٢ — ٥٤ ، الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ٢١ ، الظلال ج ٣ ص ٣٤٢ ، العقيدة الواسطية لأبن تيمية مع شرحها لخليل هراس ص ١٤ — ١٥ .

(٢) سورة الشورى : ١٣ ، وانظر توحيد الخالق ج ٢ ص ١٢ — ١٣ من القسم الأول منه .

نقصصهم عليك ﴾[1] **﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾**[2] كما يجب علينا أن نؤمن بأن جميع الرسل الذين بعثهم الله لتحقيق غرض أساسى واحد من لدن آدم أو نوح عليهما السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ يدعون دعوة واحدة فما دعوة خاتم المرسلين إلا امتداد لتلك السلسلة العريقة فى التوحيد .

إن هناك هدفا أساسيا واحدا هو عبادة الله وحده فى ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته **﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾**[3] **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾**[4] **﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾**[5] .

الواجب نحو الرسل :

ويجب علينا تصديق رسل الله جميعا ، وبرسالاتهم وأن لانفرق بينهم فمن فرق بينهم فآمن ببعضهم وكفر بالبعض الآخر كان من الكافرين **﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا ﴾**[6] .

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[7] .

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٤ .
(٢) سورة الأنعام الآية ٤٨ .
(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .
(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .
(٥) سورة الشورى الآية ١٣ .
(٦) سورة النساء الآية ١٥٠ - ١٥١ .
(٧) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[1] .

وأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على النحو الذى أمروا به وبينوه بيانا واضحا شافيا كافيا لايسع أحد ممن أرسلوا إليه جهله ولايحل خلافه .

ويجب الإيمان بأنهم معصومون عن الكذب والخيانة والكتمان والكبائر والصغائر وقد تقع منهم زلات وخطيئات – أى عثرات بسيطة – بالنسبة إلى ماهم عليه من علو المقام ، كما وقع لآدم عليه السلام من أكله من الشجرة على وجه النسيان ، ولكنهم لايقرون عليها بل ينبهون ويوفقون للتوبة .

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾[2] وقد يكون من قبيل الخطأ فى الاجتهاد **﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾**[3] **﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾**[4] الآيات .

ويجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله جميعاً كانوا رجالا من البشر لم يكونوا من الملائكة ولم يبعث الله أنثى **﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾**[5] .

ويجوز فى حقهم شرعا وعقلا النوم والنكاح والأكل والشرب والجلوس والمشى فى الأسواق وسائر الأعراض البشرية التى لاتؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية فهم بشر يعتريهم مايعترى سائر الأفراد فيما لاعلاقة له بتبليغ الأحكام ،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

(٢) سورة طه الآية ١١٥ .

(٣) سورة التوبة الآية ٤٣ .

(٤) سورة الأنفال الآية ٦٧ – ٦٩ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٧ .

وتمتد إليهم أيدى الظلمة وينالهم الاضطهاد ، وأنهم يموتون ، وقد يقتلون بغير حق ، والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق** ﴾[1] ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذورية** ﴾[2] ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام** ﴾[3] وقال ﷺ (ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء)[4] قال هذا فى معرض الرد فى المتشددين فى العبادة وترك الطيبات التى أحلها الله – سبحانه – لعلمه وحكمته بطبائع البشر .

وكان ﷺ يمرض ويتألم ويصيبه الحر والبرد والجوع والعطش والغضب ونحو ذلك مما لانقص عليه فيه[5] .

كما يجب الإيمان بأنهم واسطة بين الله وبين عباده فى تبليغ دينه وشرعه وأنهم صادقون ومؤيدون بالمعجزات .

الحاجة إلى الرسل :

إن الإنسان مهما أوتى من ذكاء فإنه لاسبيل له إلى معرفة خالقه ومالكه والمتفضل بالنعم عليه ومعرفة دينه والحكمة من وجوده فى هذه الأرض حتى جوارحه وحواسه إلا بتعليم من الخالق المنعم المالك المحاسب المتصرف ، لذلك فالبشرية فى أمس الحاجة إلى هؤلاء المرسلين الذين يطلعهم الله على العلوم والحكم لتعليمها وإبلاغها للناس ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول** ﴾[6] .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢٠ .

(٢) سورة الرعد الآية ٣٨ .

(٣) سورة المائدة الآية ٧٥ .

(٤) البخارى ج ٣ ص ٢٣٧ .

(٥) انظر التفاصيل فى الإيمان لمحمد نعيم ياسين ص ٣٨ – ٤٢ الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ٢٣ – ٢٤ ، شرح الطحاوية ص ٤١٦ .

(٦) سورة الجن الآية ٢٦ – ٢٧ .

فهل عرفت لماذا جئت إلى الدنيا وهل عرفت المصير ؟ .

مقتضى الكمال الإلهى :

قال الزندانى تحت هذا العنوان : (وإذا كنا نقرر عجز وتقصير أى شركة صناعية لاترسل البيانات الموضحة لفائدة وعمل مصنوعاتها عند إرسال هذه المصنوعات للناس ، فإن خالق الإنسان المفكر هو الكامل الذى لايعجزه ولاينقصه شىء .

ومن كمال قدرته وحكمته أنه لايخلق إنسانا مفكرا متسائلا عن خالقه وصفاته والحكمة من خلقه ومصيره وغيرها ، ثم يتركه لحيرته دون هدى أو بيان تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، قال تعالى : ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾[1] .

(٦) الإيمان باليوم الآخر :

هذه من القضايا التى نتحدث عنها على سبيل الإجمال ، أما التفاصيل فكل جزئية منها تحتاج إلى رسالة مستقلة ، فمعناه إجمالا :

الإيمان بكل ما أخبر به الله عز وجل فى كتابه وأخبر به رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه أو نعيمه ، والبعث والحشر ، والصحف والحساب . والميزان والحوض والصراط والشفاعة ، والجنة والنار وما أعد الله تعالى لأهلهما .

وهو ثابت باتفاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعا .

وهو أحد أركان الإيمان كما جاء فى حديث جبريل المشهور عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وفيه ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) وفى بعض ألفاظه : (وتؤمن

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ وانظر توحيد الخالق ج ١ ص ٧١ من القسم الثانى .

بالبعث) بدل اليوم الآخر ولمسلم (وتؤمن بالبعث الآخر)[1] وقد سبقت الإشارة إلى أن الإقرار بربوبية الله خالق السموات والأرض أمر فطرى فى بنى آدم إلا من عاند كفرعون ، بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فإن منكريه كثيرون .

ولما كان ﷺ خاتم الأنبياء فقد بين تفصيل الآخرة بيانا لايوجد فى شيء من كتب الأنبياء ، لذلك ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ وقد بين القرآن الكريم معاد النفس عند القيامة فى غير ماموضع .

ولا غرابة فى إنكار مشركى قريش للبعث الآخر ، فقد ورثوه عن آبائهم الأولين ﴿ **بل قالوا مثل ماقال الأولون ، قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾[2] .

(أى إنما يخبر بهذا من تلقاه عن كتب الأولين واختلاقهم . ومنه قوله تعالى : ﴿ **أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاما نخرة . قالوا تلك إذاً كرة خاسرة** ﴾[3] .

وكان القرآن يحدث المؤمنين عن اليوم الآخر ويجسمه لهم كأنما يرونه اللحظة أمامهم ويعيشون مشاهدة الجنة بوجدانهم بل بلغ من إعجازه فى تصوير مشاهد القيامة أن يحس الإنسان كأنما يوم القيامة هو الحاضر الماثل وكأنما

---

(١) البخارى ج ١ ص ١٨ ومسلم ج ١ ص ٢٩ وسمى البعث الآخر لأن البعث وقع مرتين :

الأولى : الإخراج من العدم إلى الوجود أو من بطون الأمهات بعد النطفة والعلقة إلى الحياة الدنيا .

(والثانية : البعث من بطون القبور إلى محل الاستقرار .

وقيل : هو مبالغة فى البيان والإيضاح لشدة الاهتمام به .

وقيل من باب التأكيد كقولهم أمس الذاهب .

وهذه الأقوال متقاربة والله أعلم . ا هـ فتح البارى ج ١ ص ١١٨ - شرح مسلم ج ١ ص ١٦٢ .

قلت : والأقرب أنه البعث من القبور للحشر لوصفه أو قيده بالآخر . والله أعلم .

(٢) سورة المؤمنون آية ٨١ - ٨٢ - ٨٣ .

(٣) سورة النازعات آية ١٠ - ١١ - ١٢ .

الدنيا ماض قد انقضى وانطوى من زمان بعيد . وذلك درس من دروس التربية فى ذات الوقت الذى هو من دروس العقيدة . وكان ﷺ يحدث أصحابه عن اليوم الآخر وأهواله ومايننتظر الكفار من ألوان العذاب البشع وما ينتظر المؤمنين من ألوان المتاع التى لاتخطر على قلب بشر وأن طاعة الله ورسوله هى الطريق إلى هذا المتاع الخالد الدائم وأن الكفر بالله ورسوله هو طريق النار .

وذلك يزيد الصورة القرآنية تجسداً فى وجدانهم فيعيشونها اللحظة كأنما يرونها رأى العين وتنفعل بها نفوسهم فيعيشون فى خشية من ذلك اليوم الرهيب[١] .

- من الأدلة النقلية على ذلك :

هذا معروف عند الأنبياء عليهم السلام من آدم إلى نوح إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ . وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم من الجنة ﴿ **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾[٢] .

وإبليس لعنه الله هو مقر بها حيث قال : ﴿ **رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾[٣] .

وقال نوح عليه السلام مخاطبا قومه : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا** ﴾[٤] . وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾[٥] .. وغير ذلك من الآيات كما أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، وعن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على**

(١) انظر منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٤ - ٢٥ .

(٣) سورة ص آية ٨٠ - ٨١ .

(٤) سورة نوح آية ١٧ - ١٨ .

(٥) سورة إبراهيم آية ٤١ .

الكفارين ﴾[1] . وهذا اعتراف منهم بأن الرسل قد أنذرتهم لقاء يومهم هذا .

وقد أمر الله – سبحانه – خاتم الأنبياء أن يقسم به على وقوع المعاد فقال : **﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة ... ﴾**[2] الآية .

غرابة فكرة البعث :

ولما بعث محمد ﷺ كانت فكرة البعث غريبة تقابل بأشد الاستنكار مصداق ذلك قوله تعالى **﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد . أفترى على الله كذبا أم به جنة ﴾** .

وكانت الإجابة الصارمة عن هذه الاستفهامات تقرير ذلك مع إهانتهم **﴿ بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾** .

أى ليس الأمر كما زعموا ، بل هو أصدق الخلق ، ومن ينكر البعث فهو غدا فى العذاب ، واليوم فى الضلال عن الصواب .

ثم وجهت سياط الاستفهام تلدغ أجسامهم وتسفه عقولهم **﴿ أفلم يروا إلى مابين أيديهم وماخلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض ، أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾**[3] .

شبهة المنكرين للبعث والرد عليها :

شبهتهم أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت فى جوانب العالم واختلطت بأمثالها من العناصر فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع وذلك ماعبر عنه القرآن بقوله تعالى :

---

(١) سورة الزمر آية ٧١ .

(٢) سورة سبأ آية ٣ .

(٣) سورة سبأ آية ٧ – ٨ – ٩ وانظر شرح الطحاوية ص ٤٥٦ ومابعدها مشاهد القيامة ص ٣٦ – الإيمان ص ٥٨ ومابعدها – توحيد الخالق ج ٢ ص ١٥ فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٣١٣ .

﴿ **وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾[1] . فأجاب الله سبحانه – بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمر ممكن بل هين على الله ﴿ **فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة** ﴾[2] ومن أبدع شيئا على غير مثال سابق سهل عليه إعادته ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ...** ﴾[3] .

وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (قال الله كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى . وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد) . وفى لفظ : (وأنا الصمد الذى لم ألد) الخ .[4] .

وهناك ردود كثيرة ذكرها الشوكانى فى تفسيره[5] .

الجدل فى قضية البعث بين الرسول ومشركى مكة كما يصوره القرآن .

قد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول ﷺ والمشركين . وقد اشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل مع بساطتهاووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت والبعث والحشر، ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح والبساطة، فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد الفناء المسلط على الأجسام ﴿ **وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾[6] ؟ ذلك أنهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا شيئا ثم كانوا ﴿ **أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا** ﴾[7] ﴿ **هل أتى على**

---

(١) الإسراء آية ٤٩ .

(٢) سورة الإسراء آية ٥١ .

(٣) سورة الروم آية ٢٧ .

(٤) البخارى ج ٣ ص ٢٢٣ . وانظر معارج القبول ج ١ ص ٤٠ – ٤٨ .

(٥) انظر فتح القدير ج ٣ ص ٢٣٤ .

(٦) سورة الإسراء الآية ٤٩ .

(٧) سورة مريم الآية ٦٧ .

الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾[1] .

فجاء جواب هذا السؤال : **﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم ﴾**[2] أى إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم على ذلك . وقيل المعنى : إنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم . قال النحاس : وهذا قول حسن لأنهم لايستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديدا وإنما المعنى قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ماشئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبعثتم كما خلقتم أول مرة .

وقيل إن كنتم تزعمون أنه لاخالق لكم ولارب لكم فهلا كنتم خلقا لايفنيه الموت كالحجارة والحديد وماهو أكبر فى صدوركم من ذلك .

فإن قلتم كنا خلقا على هذه الصفة التى لاتقبل الفناء فما الذى يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقا جديدا ؟ .

وللحجة تقدير آخر وهو :

لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما فإن الله قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال ، ومن يقدر على التصرف فى هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة فما الذى يعجزه فيما دونها ؟ .

ثم أخبر أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم : (من يعيدنا) ؟ إذا استحالت أجسامنا وفنيت فأجابهم بقوله : **﴿ قل الذى فطركم أول مرة ﴾** فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به تعلل المنقطع وهو قولهم (متى هو) ؟ .

فأجيبوا بقوله : **﴿ قل عسى أن يكون قريبا ﴾** لأن الرسول لا يعلم تحديد موعده .

---

(١) سورة الإنسان الآية ١ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٥٠ – ٥١ .

قلت : وهذا التعبير فى كلام الله واجب الوقوع ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾[1] .

ثم يصور مشهدا سريعا لذلك اليوم ﴿ **يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا** ﴾[2] . مشهد يصور أولئك المنكرين للبعث وقد قاموا يلبون دعوة الداعى وألسنتهم تلهج بحمد الله ليس لهم سوى هذه الكلمة قول ولا جواب .

وهو جواب عجيب ممن ينكرون ذلك اليوم كله[3] .

جدل آخـــر .

والآن ندخل فى جدل آخر لكن الشبهة هى هى ... .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾[4] إلى آخر السورة .

قال صاحب شرح الطحاوية فى شرح هذه الآيات : **فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتى بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها بألفاظ تشابه هذه الألفاظ فى الإيجاز ووضوح الأدلة وصحة البرهان لما قدر . فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد . اقتضى جوابا فكان فى قوله :** ﴿ **ونسى خلقه** ﴾ ماوفى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة .

ولما أراد الله – سبحانه – تأكيد الحجة وزيادة تقريرها فقال : ﴿ **قل يحييها الذى أنشأها أول مرة** ﴾ فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى على

---

(١) سورة الحج الآية ٦ – ٧ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٥٢ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ج ١٥ ص ٩٧ – ٩٨ – فتح القدير ج ٣ ص ٢٣٤ ، شرح الطحاوية ص ٤٥٩ – ٤٦٠ – فى ظلال القرآن ج ١٥ ص ٢٢٣٣ .

(٤) سورة يس آية ٧٧ – ٧٩ .

النشأة الأخرى . إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز .

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه أتبعه ذلك بقوله ﴿ **وهو بكل خلق عليم** ﴾ فهو عليم بتفاصيل الخلق وجزئياته وموا‌ده وصورته فكذلك الثانى (أى الإعادة) فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيى العظام وهو رميم ؟ .

ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر[1] يقول : العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لابد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة ، أكد بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل والجواب معا فقال : ﴿ **الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾[2] .

فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذى هو فى غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة .

فالذى يخرج الشىء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات ، وعناصرها ، ولا تستعصى عليه هو الذى يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إنكار إحيائه للعظام وهى رميم .

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشىء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر ، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على مادونه بكثير أقدر وأقدر ، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً فقال سبحانه ﴿ **أوليس الذى خلق السمٰوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم** ﴾[3] . فأخبر أن الذى أبدع السمٰوات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر

---

(١) ألحد الرجل فى الدين لحدا وإلحادا طعن فيه وجادل ومارى وعدل ومال ومنه اللحد فى القبر لأنه يميل إلى ناحية منه . وأشرك بالله سبحانه وألحد فى الحرم استحل حرمته وانتهكها . ا هـ قاموس ج ١ ص ٣٣٥ – مصباح ج ٢ ص ٢١٢ . وقال ابن عباس (الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه) وقال قتادة وغيره : (هو الكفر والعناد) وقيل غير ذلك ، انظر تفسير الطبرى ج ٢٤ ص ٧٨ وابن كثير ج ٧ ص ١٧١ ، فتح القدير ج ٤ ص ٥١٨ .

(٢) سورة يس آية ٨١ .

(٣) سورة يس ٨٢ .

أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يحيى عظاما صارت رميما فيردها إلى حالتها الأولى[1] ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[2] .

من أسباب نزول هذه الآيات .

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (جاء العاص ابن وائل إلى رسول الله ﷺ ، بعظم حائل ففتته فقال : يا محمد أيبعث هذا بعد مارم ؟ قال نعم . يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم) .

ولابن أبى حاتم من طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى نحوه ، وسموا الإنسان أبى بن خلف وقيل غير ذلك[3] .

وكم فى القرآن من مثل هذا الاحتجاج كما فى قوله تعالى :

﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقنكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾[4] .

ففى هذه الآيات من الدلالات العقلية مايمحو كل شك – لكل عاقل منصف – حول هذه القضية – ويزيل كل استغراب . ويفند شبه المعاندين لكن الشمس تخفى على العمى . والمهتدى من هداه الله .

---

(١) شرح الطحاوية بتصرف بسيط ص ٤٦٠ – ٤٦١ .

(٢) سورة غافر ٥٧ .

(٣) لباب النقول فى أسباب النزول ص ١٨٧ .

(٤) سورة الحج آية ٥ – ٧ . وفى مكيتها خلاف بل فى مدنيتها والجمهور أنها مختلطة منها المكى ومنها المدنى وهو الأصح كذا فى تفسير القرطبى ج ٥ ص ٤٣٩٣ .

وقد نبه صاحب الظلال إلى معنى لطيف تضمنته هذه الآيات بقوله :

(وأن هذه الأطوار التي يمر بها الجنين ثم يمر بها الطفل بعد أن يرى النور لتشير إلى أن الإرادة المدبِّرة لهذه الأطوار ستدفع بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال إذ إن الإنسان لايبلغ كماله فى حياة الأرض ، فهو يقف ثم يتراجع (لكيلا لا يعلم من بعد علم شيئا) فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان .

فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة فهى تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة . وهى تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان .

وهكذا تلتقى نواميس[1] الخلق والإعادة ونواميس الحياة والبعث ونواميس الحساب والجزاء . وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر الذى ليس فى وجوده جدال)[2].

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ﴾[3] **﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾**[4] .

فهاتان الآيتان وأمثالهما تقرران أن الإيمان بالمعاد والحساب والجزاء هو من مقتضيات توحيد الله فى صفاته الكاملة وأسمائه الحسنى .

فهذا الركن من لوازم الركن الأول من أركان الإيمان . ومن كفر به لم يكن مؤمنا بالله عز وجل . لأن ذلك يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله فى خلقه وتعطيل صفاته – سبحانه . **﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ﴾**[5] . ومن لوازم هذا الكفر احتقار الإنسان لنفسه

---

(١) النواميس جمع للموس وهو السر جمعه أسرار وله عدة معان كلها فى اللسان فى مادة نمس ج ٦ ص ٢٤٤ . ولعل المراد به هنا أسرار الخلق والحياة والبعث أو سنن الله فى الكون .

(٢) فى ظلال القرآن ج ١٧ ص ٢٤١١ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ١١٥ .

(٤) سورة القيامة الآية ٣٦ .

(٥) سورة العنكبوت الآية ٢٣ .

باعتقاده أنه خلق عبثا وأن وجوده فى الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصير المليء بالنكد والهموم والمصائب والظلم والبغى والآثام وأنه يترك سدى ، فلا يجزى الظالم بظلمه والعادل بعدله والمصلح بإصلاحه والمفسد بإفساده والمسيء بإساءته .

فالإيمان بالبعث واليوم الآخر هو الذى يليق بجلال الله وعدله وحكمته ويحكم به العقل وتطمئن إليه الفطرة السليمة[1] .

وبهذا يتبين إمكان إعادة الأجسام بعد استحالتها ترابا – إلا عَجْب الذنب – ثم ينشئها الله منه نشأة أخرى كما فى الصحيحين وغيرهما عن النبى ﷺ (ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب[2] ومنه يركب الخلق يوم القيامة[3] .

وفى لفظ لمسلم : (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْب الذنب) .

هذا وأدلة اليوم الآخر مستقصاة فى الكتاب والسنة بالجملة والتفصيل كل نقطة منه تستحق رسالة مستقلة . وماذكرته فمن باب الإجمال إلا أنى سلطت الأضواء شيئا ما على بعث الأجساد لأن القرآن الكريم صرح عن المشركين بإنكارهم ذلك . وإذا ثبت بعث الأجساد وإحياؤها فسائر التفاصيل من باب أولى .

أهمية الإيمان باليوم الآخر :

لقد حفل القرآن الكريم بذكر اليوم الآخر واهتم بتقريره فى عدة مواضع ونبه إليه فى عدة مناسبات . وأكد وقوعه بشتى الأساليب العربية . فما مدى تلك الأهمية ؟ .

---

(١) انظر الإيمان لمحمد نعيم ياسين ص ٦٦ – ٦٧ – الوحى المحمدى ص ١٧٨ – ١٧٩ – الإسلام يتحدى ص ١١٠ ومابعدها .

(٢) عجب الذنب بفتح المهملة وسكون المعجمة هو العظم الذى فى أسفل الصلب عند العجز ويسمى العصعص ا هـ – نهاية ابن الأثير ج ٣ ص ١٨٤ – ٢٤٨ . وقال أيضا : جزء لطيف فى أسفل الصلب .

(٣) البخارى ج ٣ ص ١٨٢ – ٢١٢ – مسلم ج ٨ ص ٢١٠ ، النسائى ج ٥ ص ٩١ ، وانظر دراسات قرآنية ص ٦٣ – ٦٤ .

١ - من مظاهر هذا الاهتمام بهذا اليوم العظيم فى كتاب الله أنه كثيرا ماربط الإيمان به بالإيمان بالله عز وجل بقوله : ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾[١] الآية وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا** ﴾[٢] الآية . وقوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** ﴾[٣] ، الآية . وقوله تعالى : ﴿ **ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾[٤] وغير ذلك من الآيات كثير .

٢ - ومن مظاهره أيضا : إكثار القرآن من ذكره حتى أنك لاتكاد تمر على صحيفة من صحائف القرآن الكريم إلا وتجد فيها حديثا عن اليوم الآخر وماسيكون فيه من الأحداث والأحوال بأساليب كثيرة ومتنوعة كذلك تجد القرآن يفصل ذلك تفصيلا قلما تجده فى أمور الغيب الأخرى .

٣ - ومن ذلك أيضا : كثرة ماسماه الله من الأسماء التى يدل كل واحد منها على ماسيقع فيه من الأهوال كقوله تعالى : ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآيتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديداً ، أو لم يروا أن الله الذى خلق السمٰوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا** ﴾[٥] .

﴿ **يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا** ﴾[٦] وأمثال ذلك كثير .

ماهى الحكمة من ذلك الاهتمام ؟ .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٦٢ .

(٣) سورة التوبة الآية ٢٩ .

(٤) سورة الطلاق الآية ٢ .

(٥) سورة الإسراء الآية ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ .

(٦) سورة طه الآية ١٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ – إن من لايؤمن باليوم الآخر يعيش فى هذه الدنيا كالحيوان لايدرى ما الحكمة التى من أجلها خلق . لايدرى هل الحكمة من الحياة جمع المال ، لكنه يجمع المال . والمال لايغنى عنه شيئا ولايبقى معه ولايدرى هل الحكمة من الحياة أن يحوز الشهرة . لكن السلطان والجاه لايبقيان ولايمنعان عنه الخروج من الحياة ﴿ **ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانية** ﴾[1] .

٢ – إن الإيمان باليوم الآخر له أثر عظيم فى حياة الإنسان لأن الإيمان به وبما فيه من حساب وجزاء وجنة ونار (وو .. له أشد الأثر فى توجيه الإنسان وانضباطه والتزامه بالعمل الصالح وتقوى الله عز وجل) .

٣ – شتان بين اثنين أحدهما لا يعتقد ذلك ولايقيده غير مصلحته الشخصية ومنفعته الذاتية وآخر يعتقد بيوم يحاكم فيه الإنسان على ماقدم من أعماله وأقواله أمام أحكم الحاكمين يثيب على الخير ويعاقب على الشر .

فالأول منفلت من أى ضابط سوى هواه وشهوته والغاية عنده أنانية تبرر أية وسيلة مهما كان الضرر ، لايخاف إلا عقاب المسئولين ، فإذا أمنهم أو أحكم الخطة لمغالطتهم انطلق كالحيوان المفترس .

والآخر منضبط فى حدود الحق والخير والصلاح . وهذه الأمور لها وزنها عند الله سبحانه وتعالى فى ذلك، اليوم ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾[2] ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . إن الذين آمنوا وعملوا الصلحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنٰت عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا** ﴾[3] وأمثال ذلك كثير .

---

(١) سورة الحاقة الآية ٢٨ – ٢٩ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٨ – ٩ .

(٣) سورة الكهف آية ٢٩ – ٣٠ – ٣١ .

٤ – ولما كان الإنسان مفطورا على طلب المصلحة لنفسه ودفع المفسدة عنها كان الإيمان باليوم الآخر مقويا للوازع النفسى عنده ، ذلك الوازع الذى يرغب فى الخير ويصد عن الشر . ولذلك كانت عناية القرآن بكثرة التذكير به والتفنن فى تصويره حتى يتعمق ذلك الوازع فى قلب المؤمن ويشتد تأثيره .

هذا ومن الملاحظ أن الحديث عن اليوم الآخر ، مازال مستمرا فى السور المدنية بعد قيام المجتمع المسلم . والدولة المسلمة ووجود جيل من الناس يؤمن بالله واليوم الآخر ويجاهد فى سبيل الله فيقتل ويقتل نتيجة إيمانه بالله وباليوم الآخر كما وصفهم القرآن ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون** ﴾[1] الآية .

كما يلاحظ أن الذين آمنوا بالفعل ليسوا فى غنى عن التذكير باليوم الآخر . ولو علم الله أن مجرد الإيمان باليوم الآخر يكفى لما عاد لتذكيرهم المرة بعد المرة[2] .

فلا شك أن هناك يوما يلقى الناس فيه ربهم فيحاسبهم حسابا دقيقا على حياتهم الأولى ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾[3] .

فإما نار تحرق الجلود وتأكل الأكباد ، عذاب سرمدى ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما** ﴾[4] ﴿ **نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة** ﴾[5] ﴿ **فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض**

---

(١) سورة التوبة الآية ١١١ .

(٢) لمزيد من التفاصيل . انظر الإيمان ص ٥٨ – ٥٩ . العقائد الإسلامية ص ١٦١ ومابعدها . دراسات قرآنية ص ٦٤ – ٦٥ توحيد الخالق ج ١٢ ص ١٥ – ١٦

(٣) سورة الزلزلة آية ٧ – ٨ .

(٤) سورة النساء الآية ٥٦ .

(٥) سورة الهمزة آية ٦ – ٧ .

إلا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد ﴾[1] **﴿ ونادوْا يامالك ليقضى علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾**[2] .

وإما جنة عرضها السمٰوت والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . **﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾**[3] . **﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السمٰوات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾**[4] .

فأهل الجنة خلود ولا موت ، وأهل النار خلود ولاموت لأن ملك الموت قد ذبح بين الجنة والنار ، كما فى الصحيحين وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى وابن عمر رضى الله عنهم مرفوعا : (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جىء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى مناد ، يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحا ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم) (وفى لفظ كهيئة كبش أملح) ثم قرأ **﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون ﴾ ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾** .

وفى لفظ آخر : (يجاء بالموت يوم القيامة) .

وفى لفظ : (إذا دخل أهل الجنة الجنة ...)[5] .

وللترمذى : « فيضجع فيذبح فلولا أن الله قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحا وكذلك أهل النار لماتوا ترحا) كما رواه أحمد وابن ماجه والدارمى[6] .

---

(١) سورة هود الآية ١٠٦ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٧٧ .

(٣) سورة السجدة آية ١٧ .

(٤) سورة هود الآية ١٠٨ . وقد ذكر الله الخلود فى الجنة فى مواضع كثيرة من القرآن . أما ذكر الخلود الابدى لأهل النار ففى ثلاثة مواضع من القرآن فى سورة النساء ١٦٨ – ١٦٩ ، سورة الأحزاب : ٦٤ – ٦٥ ، وسورة الجن ٢٢ . ولا رابعة لهن .

(٥) البخارى ج ٣ ص ١٥٧ ، ج ٤ ص ١٣٦ ، مسلم ج ٨ ص ١٥٣ والآية الأولى فى سورة مريم ٣٩ . والثانية فى سورة الدخان ٥٦ .

(٦) سنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٨ ص ٦٠٢ – ٦٠٣ والدارمى ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

أثر الإيمان باليوم الآخر فى سلوك المؤمن .

إن الإيمان باليوم الآخر له أثر عظيم فى حياة الإنسان والإيمان به مرتبط بالإيمان بالله ومتمم له لأن من آمن بأن هناك بعثا وحسابا وثوابا وعقابا يتجه إلى الأعمال التى تقربه من الله اتقاء عذابه وطمعا فى ثوابه . وقد مدح الله سبحانه من يتصف بتلك الصفات . فقال بعد ذكر بعض الأنبياء ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾[1] .

والمؤمن مكلف فى الأرض بعدة تكاليف منها : أنه مكلف بإقرار منهج الله فى الأرض لتكون كلمة الله هى العليا ، ويكون النظام الربانى هو القائم بين الناس ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز** ﴾[2] .

ولكن الجاهلية لا تترك هذا الأمر يتم فى يسر ، لم تصنع ذلك مرة واحدة خلال التاريخ ، ولابد من جهاد لإقرار منهج الله ، جهاد يحرم الإنسان حتى من المتاع المباح ، ويعرضه لأن يفقد ماله أو راحته ، أو أمنه أو أهله بل قد يعرضه للتعذيب والتشريد ، وقد يعرضه للموت بوسيلة من وسائل القتل ، وذلك غير القتال فى سبيل الله وما يصاحبه من المشقة والحرمان الذى يصل به إلى الموت فى ساحة القتال .

فماذا يعوض المؤمن عن ذلك كله ، ويغريه بتحمل العذاب فى الحياة الدنيا بشتى صنوفه ، إلا ذلك الإيمان الجازم بأن كل حرمان يتعرض له فى الأرض - فى سبيل مرضاة الله - جزاؤه النعيم الخالد الذى لاينفد ؟ .

وماذا يمنعه من التقاعس - خوفا من عذاب الأرض - إلا الإيمان الجازم

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٠ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٥ .

بأن عذاب الله عن هذا التقاعس هو العذاب الأشد ، والذى يجل عن الاحتمال ؟ .

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾[1] . وأمثال ذلك من الآيات كثير .

قال ابن كثير : (أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد فى سبيله)[2] .

وفى صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب قال : يا رسول الله لأنت أحبُّ إلَّى من كل شىء إلا من نفسى . فقال النبى ﷺ : (لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال له عمر : فإنه الآن والله لأنت أحبُّ إلَّى من نفسى . فقال النبى ﷺ : الآن ياعمر) كما رواه الإمام أحمد فى مسنده[3] .

وفى حديث آخر مرفوعا : (والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين)[4] .

لذلك كان التذكير الدائم – للمؤمنين – باليوم الآخر لكى يتقووا على الجهاد ولاتقعد بهم مشقاته وعذاباته وحرمانه على المضى فيه ابتغاء مرضاة الله ولهم على ذلك، الجنة والنعيم المقيم ، **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ﴾**[5] الآية .

كذلك ثقلة الأرض عنيفة فى الحس البشرى شديدة العنف بقدر عنف الدوافع

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٦ .

(٣) البخارى ج ٤ ص ١٤٩ – مسند أحمد ج ٤ ص ٣٦٦ .

(٤) البخارى ج ١ ص ١٣ – مسلم ج ١ ص ٤٩ .

(٥) سورة التوبة الآية ١١١ وانظر التفاصيل فى (دراسات قرآنية) ص ٦٧ – ٦٩ .

الفطرية وضغطها على الحسن ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾[1] .

قال شيخنا : (ولا شيء يمكن أن يعين الإنسان على ضبط هذه الدوافع والوقوف بها عند الحدود المأمونة التى فرضها الله قدر مايعينه الإيمان باليوم الآخر الذى يعوض فيه الإنسان عن كل حرمان تعرض له فى الأرض ، بنعيم دائم لاينفد . فضلا عن كونه نعيما أجمل وأصفى وأجود . وأى بديل يمكن أن تضعه البشرية لضبط الدوافع ، ووقفها عند حدها لايمكن أن يقوم مقام الإيمان باليوم الآخر أو يفعل مفعوله فى النفس . وهذه تجارب البشرية كلها قد عجزت عما قامت به التربية الإسلامية فى إحكام ويسر وهى ترتكز إلى هذا الإيمان العميق باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب . أحد البديلين هو الدولة والقانون ، والإسلام لم يغفل الدولة والقانون حين قامت الدولة فى المدينة ولكنه يعلم أن عين الدولة لايمكن أن ترى كل حالة ويد القانون لايمكن أن تطولها ، والبديل الآخر هو طرح الأرض جانبا وإهمال الجسد ونبذه واحتقاره كما تصنع البوذية[2] والرهبانية لتطهر الروح فيختل توازن الإنسان بكبت هذه الدوافع الفطرية واستقذارها ، وتختل الحياة البشرية بتعطيل دفعتها الإيجابية المتحركة الفاعلة فى واقع الأرض ولكن التربية المرتكزة على الإيمان باليوم الآخر هى وحدها التى تحفظ للإنسان توازنه فى الأرض ، ولا تعطل دفعة الحياة)[3] مع

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤ .

(٢) البوذية نسبة إلى بوذا رجل من الهندوس ينتسب إلى قبيلة ساكيا من طبقة الكشتريا كان لها السلطان على الأرض الواقعة بين مدينة بنارس وجبال الهملايا شمال نهر الكنج وكان أبوه أحد نبلاء هذه القبيلة ومن المترفين والمتمتعين بالجاه العريض وكان متزوجا من نبيلة تدعى (مايا) فكان بوذا الثمرة الأولى لهذا الزواج وماتت أمه فى الأسبوع الأول من ولادته فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد فاحتضنته خالته فترعرع ونشأ نشأة أبناء الملوك وتزوج ابنة أحد الأمراء ورزق منها بولد سماه (راهولا) فلما بلغ (بوذا) تسعة وعشرين عاما لعبت برأسه أفكار شتى تتجاذبه أحاسيس متباينة (كالشيخوخة والمرض) كانت صدى للحياة الهندوسية التى كان يحياها فى جانب ولحياة الترف من جانب آخر ، واستقر به الرأى أن يدع حياة الترف ليبدأ فى حياة الزهادة والتقشف لعله يصل إلى سر الكون وخلع جميع ماكان عليه من الثياب واكتفى برقاع أو شجر يستر عورته وصار يلقى بجسمه بين الأشواك والحصى حتى اضمحل جسمه فنشر أفكاره .. انظر التفاصيل فى الأديان والفرق لعبد القادر شية الحمد ص ٥٤ ومابعدها .

(٣) منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٥٤ . وانظر الظلال ج ٣ ص ٣٧٣ .

التطلع المستمر إلى ترقية الحياة ورفعها إلى الأفق الذى توجه إليه الآية الكريمة ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنت تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد** ﴾ . ففى هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا وفيه زيادة رضوان الله ، ثم يصفهم القرآن الكريم بأنهم ﴿ **الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾[1] .

وفى كل صفة من صفاتهم تتحقق سمة ذات قيمة فى حياة الإنسانية وفى حياة الجماعة المسلمة ، فى الصبر ترفع على الألم ، واستعلاء على الشكوى ، وثبات على تكاليف الدعوة وأداء لتكاليف الحق وتسليم لله واستسلام لما يريد بهم من الأمر وقبول لحكمه ورضاه وفى الصدق اعتزاز بالحق الذى هو قوام الوجود وترفع عن الضعف ، فما الكذب إلا ضعف عن كلمة الحق اتقاء لضرر أو اجتلابا لمنفعة[2] .

قلت وهذا المتاع الموعود هو الذى تطاولت إليه أعناق أولئك المعذبين وهان عليهم الموت فذاك بلال يشتد عليه التعذيب . يقول : أحد أحد[3] وذاك سعد يبول على جلد بعير فيحرقه ويستفه ليقوى عليه[4] وهكذا غيرهما كل ذلك ابتغاء رضوان الله وما فى ذلك اليوم الآخر من النعيم المقيم .

(٧) الإيمان بالقضاء والقدر .

الإيمان بالقدر هو الركن السادس للإيمان . وقد سبق ذكر حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفيه (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)[5] .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥ - ١٧ .

(٢) انظر الظلال ج ٣ ص ٣٧٥ - ٣٥٦ .

(٣) سيأتى ذلك فى ص ٣٠٩ من هذا البحث .

(٤) سيأتى ذلك فى ص ٣٤٥ من هذا البحث .

(٥) البخارى ج ١ ص ١٨ - مسلم ج ١ ص ٢٩ .

والقدر مصدر تقول : قدرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أقدره بالكسر والفتح قدرا وقدرا إذا أحطت بمقداره .

قال النووى : (ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء فى القدم وعلم – سبحانه – أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهى تقع على ما قدرها سبحانه وتعالى) وقريبا من هذا قال الحافظ ابن حجر ثم قال : « هذا هو المعلوم من الدين بالبراهين القطعية وعليه كان السلف من الصحابة وخيار التابعين إلى أن حدثت بدعة القدر (أى إنكاره وأن الأمر أنف) فى أواخر زمن الصحابة » . .

وقد روى القصة مسلم فى صحيحه[1] .

وقد تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه[2] .

فهل القضاء والقدر شيء واحد أم هما شيئان ؟ .

اختلفت عبارات العلماء فى تعريفهما . فمنهم من جعلهما شيئا واحدا ومنهم من عرف القضاء تعريفا مغايرا للقدر فقال :

القدر علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات فى المستقبل .

والقضاء إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته . وقال النووى نقلا عن الخطابى معنى القضاء هنا الخلق كقوله تعالى ﴿ **فقضاهن سبع سمٰوات فى يومين** ﴾ أى خلقهن .

وقد عكس بعضهم فجعل تعريف القضاء للقدر وتعريف القدر للقضاء والأمر محتمل ومن عرفهما تعريفا واحدا قال : هو النظام المحكم الذى وضعه الله

---

(١) انظر مسلم مع شرحه للنووى ج ١ ص ١٥٣ – ١٥٤ . فتح البارى ج ١ ص ١١٨ .

(٢) ذكره النووى فى شرح مسلم ج ١ ص ١٥٥ .

ملحوظة : ذكر بعض الباحثين أن بدعة القدر ظهرت فى العراق على يد رجل نصرانى أسلم فتنصر فأخذ عنه معبد الجهنى فى العراق وغيلان الدمشقى فى دمشق فدعا إليها معبد زمنا غير قصير حتى قتل مع ابن الأشعث على يد الحجاج . وأما غيلان فقد استمر داعيا إليها بالشام إلى أن أمر الوالى هشام بن عبد الملك بضرب عنقه . ا هـ . انظر تاريخ المذاهب الإسلامية ج ١ ص ١٢٥ – ١٢٨ لمحمد أبو زهرة .

لهذا الوجود والقوانين العامة والسنن التى ربط بها الأسباب بمسبباتها[1] .

وهذا المعنى هو الذى وردت به آيات القرآن التى ذكرت القدر مثل قوله تعالى : ﴿ **وكل شيء عنده بمقدار** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[4] .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . قال : وعرشه على الماء)[5] قال النووى قال العلماء المراد تحديد وقت الكتابة فى اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير فإن ذلك أزلى لا أول له وعرشه على الماء قبل خلق السموات والأرض . والله أعلم[6] .

وقال صاحب الأجوبة الأصولية :

(الإيمان بالقدر هو التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره وأنه الفعال لما يريد لايكون شيء إلا بإرادته ، ولا يخرج شيء عن مشيئته ، وليس فى العالم شيء يخرج عن تقديره ولايصدر إلا عن تدبيره ، ولامحيد لأحد عن القدر المقدور ، ولايتجاوز ما خط فى اللوح المحفوظ وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصى .

ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم وجعلهم مختارين لأفعالهم غير مجبورين

---

(١) انظر الإيمان لمحمد نعيم ياسين ص ٩٨ ، العقائد الإسلامية لسيد سابق ص ٩٥ ، شرح مسلم ج ١ ص ١٥٥ . الوحى المحمدى ص ٢٣٢ - ٢٣٥ .

(٢) سورة الرعد الآية ٨ .

(٣) سورة الحجر الآية ٢١ .

(٤) سورة القمر الآية ٤٩ .

(٥) صحيح مسلم ج ٨ ص ٥١ .

(٦) انظر شرح مسلم ج ١٦ ص ٢٠٣ .

عليها ، بل هى واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم(*) ، والله خالقهم وخالق قدرتهم يهدى من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون[1] . ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾[2] .

وغير ذلك من الآيات والأحاديث كثير .

وقد ذكر ابن تيمية درجات الإيمان بالقدر فى العقيدة الواسطية وحاصله أنها أربع درجات :

الأولى : الإيمان بعلم الله الأزلى بأعمال العباد قبل أن يعملوها .

الثانية : كتابة ذلك فى اللوح المحفوظ .

الثالثة : مشيئته النافذة وقدرته الشاملة .

الرابعة : إيجاد الله لكل المخلوقات وأنه الخالق وكل ماسواه مخلوق[3] .

خفاء القدر وكراهة الخوض فيه .

يكفي المؤمن ما أشرنا إليه ، وأن الله عليم بكل شيء ، وخالق كل شيء ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه عادل لا يظلم أحدا وأنه حكيم منزه عن العبث .

وما علم الله حاجتنا إليه بينه لنا ، وما طواه عنا لا يجوز أن نتكلف البحث عنه فنختلف ونهلك . فإن عقولنا محدودة ، خلقها الله لعبادته وللإسهام فى عمارة الأرض لا لاكتشاف الغيب الذى استأثر بعلمه فليس أمامنا إلا التسليم والإيمان . وقد نهى الرسول ﷺ عن الخوض والتعمق فى القدر . فقد أخرج

(*) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ فى سورة البلد . وقوله تعالى ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ من سورة الشمس .

(1) الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ٢٣٠ .

(2) سورة الحديد الآية ٢٢ .

(3) انظر العقيدة الواسطية لابن تيمية مع شرحها محمد خليل هراس ص ١٣٠ - ١٣٣ - مراجعة عبد الرزاق عفيفى . ط . ثالثة .

ابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون فى القدر فكأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان من الغضب فقال : (بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم تضربون القرآن بعضه ببعض ، بهذا هلكت الأمم قبلكم)[1] .

وقد أحسن بل ما أحسن ماقاله الإمام الطحاوى رحمه الله :

(وأصل القدر سر الله تعالى فى خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبى مرسل ، والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه كما قال تعالى فى كتابه .

﴿ لايسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾[2] .

فمن سأل لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين[3] . وقال على رضى الله عنه لما سأله رجل عن القدر فقال (طريق مظلم فلا تسلكه . قال فأخبرنى عن القدر . قال بحر عميق فلا تلجه ، قال أخبرنى عن القدر فقال سر الله خفى عليك فلا تفشه)[4] .

هل هناك حكمة من قدر الشر ؟ .

إن الطبيب يقطع بطن المريض ، فإذا رآه الجاهل حسبه عدواً للمريض ولكنه

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه ج ١ ص ٣٣ . وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات كما فى الزوايد كذا قال محققه محمد فؤاد عبد الباقى فى الصفحة نفسها وهذا الموضوع خطير جدا . كم زلت فيه من أقدام نسأل الله العافية . وقد صنفت فيه المصنفات الضخمة كشفاء العليل لابن قيم الجوزية . قال النووى (وقد أكثر العلماء من التصنيف فيه ومن أحسنها وأكثرها فوايد كتاب الحافظ الفقيه أبى بكر البيهقى) وفى نظرى الاقتصار على مجمله خير من التفاصيل .

ولايبعد أن يكون البحث والتعمق فيه كالتعمق فى الروح . وقد قال الله تعالى **﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾** الإسراء الآية ٨٥ .

وقد ذكر النووى كلاما جيدا حول هذا الموضوع فى شرح مسلم ج ١٦ ص ١٩٦ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٣ .

(٣) انظر شرح الطحاوية ص ٢٧٦ .

(٤) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٦٢٠ مكتبة الرياض الحديثة .

يقطع بطن المريض لحكمة غابت عن ذلك الجاهل .

ولولا قدر الجوع ما عمل الناس شيئا لينالوا قدر الأكل ، ولولا قدر المرض لما مات أحد ولما شعر أحد بنعمة الصحة .

ولولا قدر الحياة ما جاء أحد إلى الأرض .

ولولا قدر الموت لتزاحم الأولون والآخرون على هذه الأرض .

ومع هذا فقد منح الله الإنسان سمعا وبصرا وعقلا ، وأنزل إليه كتابا يهديه إلى الخير . وكل هذه المواهب الإلهية تعرف الإنسان بأقدار الخير وتدعوه للانتفاع بها وتبين له أقدار الشر وتحذره منها كما قال تعالى : ﴿ **ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين** ﴾[1] . فعلى الإنسان أن ينتفع بأقدار الخير ويتجنب أقدار الشر وأن يدفع قدر الشر بقدر الخير كأن يدفع قدر الجوع بقدر الأكل ، وقدر المرض بقدر الدواء .. وهكذا[2] .

أثر الإيمان بالقدر :

إن النفس المؤمنة بالقدر لتنعم بنعمة لاتعدلها نعم الدنيا كلها ، إنها نعمة الرضا . تعلم النفس المؤمنة أن الله قدر لها الخير أو الشر ، فلا تبطر ولا تجزع فهى شاكرة صابرة أمرها كله خير ، كما قال عليه الصلاة والسلام (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[3] .

إن الرضا والصبر اللذين يثمرهما الإيمان بالقدر هما التسليم لقدر الله فى المصائب والنوائب والصبر على طاعة الله تعالى والصبر عن معصيته وعلى أنواع المكاره ، وليس المقصود بذلك الرضا بالكفر والعصيان ولا الصبر على الذل فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية والهوان،فليكن رضاك تبعا لرضا ربك

---

(١) سورة البلد آية ٨ - ١٠ .

(٢) توحيد الخالق ج ١ ص ٩٣ من القسم الأول .

(٣) رواه مسلم ج ٨ ص ٢٢٧ - الدارمى ج ٢ ص ٢٢٦ - مسند أحمد ج ٥ ص ٢٤ عن أنس رضى الله عنه .

وصبرك فى طاعة الله وفى سبيله[1] .

تشويه لأثر الإيمان بالقدر والرد عليه .

يقول أعداء الإسلام ، والجهال من المسلمين – سواء أكانوا من الجهال حقيقة ، أم من الذين ينقلون كلام أعداء الإسلام ثم يصفون أنفسهم بأنهم مثقفون – إن الرضا بالقدر أو التسليم له هو القعود عن العمل ، والقعود عن تغيير الواقع السيىء لأنه قدر من عند الله ، لا ينبغى مقاومته ! .

فمن أين جاء أولئك الجهال بهذا المعنى الغريب على الإسلام ؟ .

وهل هذا المعنى كان غائبا عن الرسول ﷺ وهو يتلقى الوحى من الله ويتعلم الإسلام الصحيح من عند الله ؟ .

وفيم إذن كان جهاده المتواصل لتغيير الواقع السيىء الذى كانت عليه الجزيرة العربية والأرض كلها وقتذاك ؟ ألم يكن ذلك الواقع السيىء قدرا من عند الله ؟ .

فكيف تجوز مقاومته ، إذن؟ إذا كان معنى التسليم لقدر الله هو هذا المعنى المنتكس الذى لم تعرفه الأمة الإسلامية إلا فى عصر انحدارها وتدهورها ؟ .

سيقول قائل منهم : إنه ﷺ قاومه وسعى إلى تغييره بأمر من الله . ونقول : نعم .. وهذا الأمر من الله قائم من ذلك الحين إلى أن تقوم الساعة .. لم يطرأ عليه تعديل ولا تبديل ، ولم يقل الله – سبحانه – إن هناك أمدا معينا يطالَبُ الناس فيه بالتغيير ، ثم يبطل بعد ذلك الأمر ويجىء بدلا منه التسليم للواقع السيىء والقعود عن تغييره .

لم يقل الله ذلك وإنما قال – سبحانه – ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾[2] . وقال : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها**

---

(1) انظر الإيمان لمحمد نعيم ياسين ص ١١١ .

(2) سورة التوبة الآية ١٠٥ .

بين الناس وليعلم[1] الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾[2] .

(١) قال ابن عباس : فى مثل هذا لنرى ، أى : من يصبر على مناجزة الأعداء كما فى تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٠٧ .

وقال الشوكانى : (وليعلم الله) معطوف على علة مقدرة كأنه قال : نداولها بين الناس ليظهر أمركم وليعلم وقيل غير ذلك . انظر التفاصيل فى فتح القدير ج ١ ص ٣٨٤ .

قلت : ومعلوم عند السلف أن الله سبحانه علم الأشياء قبل إيجادها وقبل كتابتها فى اللوح المحفوظ ولم يزل عالما بها .

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩ - ١٤٠ . وانظر دراسات قرآنية ص ٩٣ - ٩٤ .

الفصل الثانى

تقرير الصلاة والزكاة ومكارم الأخلاق

وفيه مباحث ثلاثه :

(١) تشريع الصلاة

(٢) تشريع الزكاة

(٣) الدعوة الأخلاقية ومنها ثلاث نقاط :

ا ـــ الدعوة إلى مكارم الأخلاق

ب ـــ تحريم الكبائر

جـ ـــ محو التقاليد الجاهلية



(١) تشريع الصلاة[*] :

اعلم أن الصلاة من أهم أركان الإسلام بل أقواها بعد الشهادتين ، وهى من أقوى الصلة بين العبد وربه ، يرتاح بها المؤمن ويتقرب بها إلى ربه فتزداد رغبته وتقوى صلته بمعبوده . وقد عنى الإسلام بها وشدد النكير وحذر أعظم التحذير من تركها .

فهل هى عبادة عريقة أم جديدة ؟ .

قال الحافظ : (ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما كان وقع الأمر به فى صلاة الليل من غير تحديد) .

وذكر الحربى إلى أن الصلاة كانت مفروضة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى . وذكر الشافعى : عن بعض أهل العلم أن صلاة الليل كانت مفروضة ، ثم نسخت بقوله تعالى : ﴿ **فاقرءوا ماتيسر منه** ﴾[1] فصار الفرض قيام بعض الليل ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس ، واستنكر محمد بن نصر المروزى ذلك وقال : (الآية تدل على أن قوله تعالى ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾إنما نزلت

(*) الصلاة أصلها فى اللغة الدعاء ومنه قوله تعالى ﴿ **وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾ أى ادع لهم وقد وردت لعدة معان لغة وشرعا وليس هذا مقام التفصيل فيها فمرجعه كتب الفقه والمراد هنا الصلاة التى هى علم لهذه العبادات المعروفة ذات الأركان والأذكار المحصوصة .

(١) سورة المزمل الآية ٢٠ .

بالمدينة لقوله تعالى ﴿ واخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾ والقتال إنما وقع بالمدينة لا بمكة والإسراء كان بمكة قبل ذلك،قال الحافظ : وما استدل به غير واضح لأن قوله تعالى ﴿ علم أن سيكون ﴾ ظاهر فى الاستقبال ، فكأنه سبحانه امتن عليهم بتعجيل التخفيف قبل وجود المشقة التى علم أنها ستقع لهم . والله أعلم)[1] .

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد أن الصلاة عبادة قديمة لا تخلو شريعة المرسلين منها قال الله تعالى لنبييه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسمٰعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾[2] ، وقال تعالى عن إسماعيل عليه السلام ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾[3] وقال تعالى عن عيسى عليه السلام ﴿ وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ﴾[4] . وقال فى حق زكريا عليه السلام ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب .. ﴾[5] وقال تعالى بعد ذكر عدد من الأنبياء بعد قصة إبراهيم ولوط ، وما امتن الله به على إبراهيم من الولد : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ وقال تعالى بعد المدح لعدد من الأنبياء عليهم السلام ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾[6] .

وقد أمر الله سبحانه كليمه موسى عليه السلام بها فى ساعات الوحى الأولى ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾[7] .

ومن وصايا لقمان لابنه كما فى القرآن الكريم ﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٤٦٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٥ ، والمراد بالركع السجود المصلين . اهـ فتح القدير ج ١ ص ١٤١ .

(٣) سورة مريم الآية ٥٥ .

(٤) سورة مريم الآية ٣١ .

(٥) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

(٦) سورة مريم الآية ٥٩ .

(٧) سورة طه الآية ١٤ .

بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾[1] .

هذه الآيات تثبت أن الصلاة من العبادات التى لم تخل شريعة منها وإن لم تعرف بالتحديد وإنما عرف التحديد بعد بعثة محمد ﷺ .

قال ابن إسحق بعد أن ذكر فترة الوحى ونزول سورة الضحى :

(ثم إن جبريل أتى رسول الله ﷺ حين افترضت عليه الصلاة فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى فانفجرت منه عين من ماء زمزم فتوضأ جبريل عليه السلام ومحمد ينظر إليه ، ثم ذكر الوضوء كاملا ثم قام فصلى ركعتين وسجد أربع سجدات على وجهه ، ثم رجع النبى ﷺ .. فأخذ بيد خديجة رضى الله عنها حتى أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة ..)[2] .

ثم أورد ابن هشام حديث الصلاة التى صلاها جبريل بالنبى ﷺ عند البيت مرتين وبين له فيها أوقات الصلوات الخمس . وقال له فيما بين الوقتين .

وقد استنكر السهيلى إيراد هذا الحديث هنا فليس ذلك محله ، لاتفاق أهل الصحيح أن ذلك كان صبيحة الإسراء بعد البعثة بخمسة أعوام أو قبل الهجرة بعام ونصف وقيل بعام وقيل بعام وشهرين وهذا الأخير هو ماذهب إليه ابن قيم الجوزية .

وقال ابن كثير : (صلاة جبريل هذه غير الصلاة التى صلاها به عند البيت مرتين فبين له أوقات الصلوات الخمس أولها وآخرها ، فإن ذلك كان بعد

---

(١) سورة لقمان الآية ١٧ .

(٢) السير والمغازى ص ١٣٦ – ١٣٧ – السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٢٤٤ – البداية ج ٣ ص ٢٤ .. السيرة النبوية ابن كثير ج ١ ص ٤٢٧ – السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٢٥ – ٤٢٦ – الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٢ وزاد كان أول شىء فرضه الله بعد التوحيد الصلاة وأن جبريل علم النبى ﷺ الوضوء والصلاة وعلمه اقرأ باسم ربك وكان يصلى صلاة الضحى المرجع نفسه ص ٣٩ . قال السهيلى هذا الحديث لايكون أصلا فى الأحكام الشرعية لأن مداره على ابن لهيعة وهو ضعيف اهـ . الروض الأنف ج ٣ ص ١٣ . وعلى فرض صحته فالوضوء على هذا الحديث مكى بالفرض مدنى بالتلاوة لأن آية الوضوء مدنية وفيها ذكر التيمم والوضوء كان مفروضا اهـ . الروض ج ٣ ص ١٤ .

فرضيتها ليلة الإسراء)[1] .

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : (فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين فى الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر)[2] .

قال ابن كثير : (لعل عائشة أرادت أن الصلاة كانت قبل الإسراء تكون ركعتين ركعتين ثم لما فرضت الخمس فرضت حضرا على ماهى عليه ، ورخص فى السفر أن يصلى ركعتين كما كان الأمر عليه قديما . وعلى هذا لايبقى إشكال بالكلية . والله أعلم)[3] .

وذكر المزنى أن الصلاة قبل الإسراء كانت صلاة قبل غروب الشمس ، وصلاة قبل طلوعها ويشهد لذلك قوله سبحانه : ﴿ **وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار** ﴾[4] .

وقال يحيى بن سلام مثله[5] .

قلت : ومما يؤيد القول بمشروعية الصلاة قبل الإسراء والمعراج حديث ابن إسحق : إن النبى ﷺ وأصحابه كانوا يصلون فى شعاب مكة مستخفين . وتقاتلوا مع المشركين وضرب سعد بن أبى وقاص رجلا من المشركين بلحى بعير فشجه[6] . ومعلوم أن ذلك فى بدء الدعوة وقبل دخول دار الأرقم .

وحديث عروة ابن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرنى بأشد ماصنع المشركون برسول الله ﷺ قال : (بينما رسول الله ﷺ - يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ - ولوى

---

(١) انظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٢٤٥ - البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٤ زاد المعاد ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) متفق عليه البخارى ج ١ ص ٧٤ واللفظ له - مسلم ج ٢ ص ١٤٢ - أبو داود بعون المعبود ج ٤ ص ٦٣ - النسائى ج ١ ص ١٨٣ - الموطأ ج ١ ص ٢٤ - المسند لأحمد ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ١١٨ .

(٤) سورة غافر الآية ٥٥ .

(٥) انظر التفاصيل فى الروض الأنف تحقيق عبد الرحمن الوكيل ج ٣ ص ١١ - ١٢ ومابعدهما .

(٦) انظر السيرة - ابن هشام ج ١ ص ٢٦٣ .

ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله)[1] .

وحديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : (بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد إذا سجد فانبعث أشقى القوم) .

وفى رواية أخرى عنه : (بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش إذ جاءه عقبة بن أبى معيط بسلا جزور فقذفه على ظهر رسول الله ﷺ فلم يرفع رأسه فجاءت فاطمة فأخذته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك ..)[2] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (قال أبو جهل لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبى ﷺ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة)[3] وزاد الترمذى (عيانا) .

وفى رواية عن أبى هريرة .. زيادة ولأ عفّرن وجهه بالتراب فأنزل الله سبحانه ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى** ﴾ إلى قوله ﴿ **أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى** ﴾[4] .

وقد ذكرت الصلاة فى أوائل مانزل من القرآن بعد سورة العلق ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾[5] . ﴿ **ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين** ﴾[6] . وقد كان المؤمنون مأمورين بالصلاة فى ابتداء

---

(١) البخارى ج ٣ ص ١٨٣ .

(٢) مسلم ج ٥ ص ١٨٠ .

(٣) البخارى ج ٣ ص ٢١٩ وسنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٩ ص ٢٧٧ –٢٧٨ و[illegible] حسن غريب صحيح .

(٤) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ٢٣٩ – تحفة الأحوذى ج ٩ ، ص ١٧٨

(٥) سورة المزمل الآية ٢٠ وذلك على القول بمكية السورة كلها وعلى القول بذلك باستثناء آية ﴿ واصبر على مايقولون ﴾ والتى تليها . انظر تفسير القرطبى ج ٨ ص ٦٨٢٣ .

(٦) سورة المدثر آية ٤٢ ٤٤ .

الإسلام وهم بمكة وبالزكاة أيضا وإن لم تكن ذات النصب ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ..** ﴾ الآية[1] .

وهنا يرد سؤال هل هذه الروايات الدالة على فرضية الصلاة قبل الإسراء والمعراج هل هى قيام الليل المذكور فى أول سورة المزمل عند من يقول بأنه كان مفروضا ثم نسخ بقوله تعالى ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ من آخر السورة فصار الفرض قيام بعض الليل ثم نسخ بالصلوات الخمس . ؟ .

وهل كان فرضا على النبى ﷺ وحده كما قرره ابن كثير فى تفسير سورة المزمل ؟ .

أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء ؟ .

أو عليه وعلى أمته كما رجحه القرطبى فى تفسير السورة نفسها ؟[2] .

الإجابة عن هذه التساؤلات تحتاج إلى رسالة مستقلة وليس هذا موضوع بحثنا ولكن بعون الله نريد أن نلمح إلى الأثر الروحى للصلاة فى نفس المسلم لما لذلك من الأهمية .

الأثر التربوى للصلاة فى توثيق الصلة بين العبد وربه .

إن الصلاة الحقيقية التى يريدها الإسلام ، هى المرتكز الأساسى لصلة الإنسان بربه خالق الكون ، وإحياء معانى الإيمان فى قلبه ، فبالصلاة يتذكر الإنسان ربه وخالقه من مبدئها إلى منتهاها . وبالصلاة يتذكر الإنسان اليوم الآخر ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ وبالصلاة يتذكر الإنسان الإيمان بالرسول ﴿ **السلام عليك أيها النبى ..**﴾ ﴿ **وأشهد أن محمدا رسول الله** ﴾ ﴿ **اللهم صل على محمد** ﴾ وبالصلاة يتذكر العبد الكتاب والطريق الذى هدى إليه ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ .

وعلى هذا فالصلاة هى المظهر العملى للإيمان بالغيب كما عبر عنها القرآن

---

(١) سورة النساء الآية ٧٧ .

(٢) راجع للتقريب صحيح مسلم ج ٢ ص ١٦٨ - ١٨٩ وكتب التفسير فى سورة المزمل .

بالإيمان ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾[1] وعلى قدر ما تكون العقيدة واضحة في نفس الإنسان وعلى قدر ما يكون الإيمان يقظا في قلبه تكون استقامته على أمر الله .

ولما كانت الصلاة هي التي بها تحيا عقيدة الحق في قلب الإنسان كانت هي السبب المباشر الذي يجعل الإنسان مستقيما ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون** ﴾[2] .

(ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا)[3] .

فهي اتصال بالله يخجل صاحبه ويستحي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها ، وهي تطهر وتجرد لايتفق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما[4] .

فالصلاة التي يريدها الإسلام تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على مواجهة متاعب الحياة ومصائب الدنيا ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون** ﴾[5] ﴿ **يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾[6] .

عن حذيفة بن اليمان قال : (كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة)[7] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣ – أي وماكان الله ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لايضيع ثوابها ا هـ . تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٣) رواه الطبري في تفسيره ج ٢٠ ص ١٥٥ مرفوعا وموقوفا عن ابن عباس انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٦٠ .

(٤) انظر (الإسلام) لسعيد حوى ج ١ ص ٩٠ مطبعة دار الكتب – بيروت – الطبعة الثالثة – الظلال ج ٢٠ ص ٢٧٣٨ .

(٥) سورة البقرة آية ٤٥ – ٤٦ .

(٦) سورة البقرة الآية ١٥٣ .

(٧) أورده ابن كثير في تفسيره ج ١ ص ١٢٤ ورواه ابن جرير في تفسيره ج ١ ، ص ١٦٠ وأحمد في مسنده وأبو داود في سننه قاله ابن كثير .

قال صاحب الظلال رحمة الله عليه : (وما يزال هذا الينبوع الدافق فى متناول كل مؤمن يريد زادا للطريق ، وريا فى الهجير ، ومددا حين ينقطع المدد، ورصيدا حين ينفد الرصيد إنه لابد للإنسان الفانى الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى يستمد منها العون ، حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة ، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع ، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهى عنيفة ، حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة فى عمره المحدود ، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئا ، وقد أوشك المغيب ، ولم ينل شيئا ، وشمس العمر تميل للغروب ، حينما يجد الشر نافشا والخير ضاويا[1] ، ولا شعاع فى الأفق ولا معلم فى الطريق .

هنا تبدو قيمة الصلاة أنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفانى والقوة الباقية .. أنها الروح والندى والظلال فى الهاجرة ، أنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود .

إن هذا المنهج الإسلامى منهج عبادة . والعبادة فيه ذات أسرار ومن أسرارها أنها زاد للطريق ومدد للروح وجلاء للقلب ، وحيثما كان تكليف كانت العبادة هى مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف فى حلاوة وبشاشة ويسر .إن الله سبحانه حين انتدب محمدا ﷺ للدور الكبير الشاق والثقيل قال له : ﴿ **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا** ﴾ الآيات . [2] .

قلت : وذلك بعد الدعوة إلى التوحيد والإنذار عن الشرك بقوله تعالى : ﴿ **يأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر** ﴾ .

وفى الصلاة يشعر المؤمن بالسكينة والرضا والطمأنينة وكان النبى ﷺ يقول : (أرحنا يابلال) [3] أى بالصلاة وكانت قرة عين النبى ﷺ ، كما

---

(١) ضوى الولد ضوى من باب تعب : إذا صغر جسده وهزل فهو ضاوٍ مصباح ج ٢ ص ١٢ .

(٢) فى ظلال القرآن ج ٢ ص ١٤٢ ، وانظر روح الدين الإسلامى ص ٢٤٢ ، لعفيف عبد الفتاح طباره – بيروت – الطبعة السابعة عشرة .

(٣) والحديث أخرجه الدار قطنى وأبو داود بإسناد صحيح كذا قال العراقى فى المغنى عن حمل الأسفار مع الإحياء للغزالى ج ١ ص ١٦٥ ط . بيروت ومسند أحمد ج ٥ ص ٣٦٤ .

في مسند أحمد[1] **إنه يبدأ صلاته بالتكبير فيحس بأن الله أكبر من كل مايروعه ومن يروعه في هذه الدنيا . ويقرأ فاتحة الكتاب فيجد فيها تغذية للشعور بنعمة الله (الحمد لله رب العالمين . الرحمٰن الرحيم) وتغذية للشعور بعظمة الله وعدله (مالك يوم الدين) وتغذية للشعور بالحاجة إلى الصلة بالله وإلى عونه ـــ سبحانه ـــ ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾** وتغذية للشعور بالحاجة إلى هداية الله **﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .**

فلا عجب أن تمد الصلاة المؤمن بحيوية هائلة وقوة نفسية فياضة .

وقد بين الرسول ﷺ مبلغ الأثر النفسي للصلاة ، وما يسبقها من وضوء وذكر لله تعالى ، وكيف يستقبل المؤمن المصلي يومه ويبدأ حياته الجديدة كل صباح فقال : (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب كل عقدة عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة فاصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلانا)[2]

وحينما يستمد المؤمن المدد ـــ من خلال الصلاة ـــ من القوة العظمى التي تهيمن على الكون ، يجد مايقويه على فعل الخير وترك الشر ومجانبة الفحشاء والمنكر ومقاومة الجزع عند الشر والمنع عند الخير فهي تغرس في القلب مراقبة الله تعالى ورعاية حدوده والحرص على المواعيد ، والتغلب على أنواع الكسل والهوى وجوانب الضعف الإنساني **﴿ إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾**[3] ، **﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾**[4] وما نرى من مصلين قد ضعفت أخلاقهم وانحرف سلوكهم فلابد أن صلاتهم

---

(١) مسند أحمد ج ٣ ص ١٢٨ - ١٩٩ - ٢٨٥ - بلفظ (قم يابلال فأرحنا بالصلاة) ج ٥ ص ٣٧١ .

(٢) البخاري ج ١ ص ١٩٩ - بهذا اللفظ ومسلم ج ٢ ص ٨٧ (كل عقدة يضرب عليك ليلا طويلا) وليس فيه (فارقد) من حديث أبي هريرة .

(٣) سورة المعارج آية ١٩ - ٢٣ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

جثة بلا روح ، وحركات جسم بلا حضور عقل ، ولا خشوع قلب وإنما الفلاح للمؤمنين ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ (١) ، أما المتظاهرون بالصلاة دون أن ترقق قلوبهم أو تفتح للخير صدورهم فما أحقهم بوعيد الله : ﴿ **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾ (٢) .

والحاصل أن الصلاة تذكرنا أنه لامعبود إلا الله ، إياك نعبد

ولا مستعان به إلا الله	وإياك نستعين
ولا هادى إلى صراط الحق غيره	اهدنا الصراط المستقيم
وأنه المستحق للتعظيم وحده	سبحان ربى العظيم
وأن له السيادة والعلو	سبحان ربى الأعلى
وأنه المنعم المتفضل	ربنا ولك الحمد

(٢) الزكاة :

الزكاة هى النمو والزيادة ، وإخراج قدر معلوم من أموال الأغنياء ليرد على الفقراء . وهى من العبادات المالية الاجتماعية الهامة القديمة ، عرفت فى الرسالات السابقة ، وقد قرنها الله بالصلاة فى عشرات المواضع من القرآن الكريم . ومنذ فجر الإسلام فى مكة والمسلمون أفراد معدودون مستخفون بدينهم ، مضطهدون فى ديارهم كان هذا الجانب موضع عناية بالغة فى القرآن الكريم .

تارة يذكرها بلفظ الزكاة ، وتارة بلفظ الصدقة ، وأخرى بلفظ الإنفاق فسورة الضحى من أوائل مانزل من القرآن ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ﴾ . وفى سورة المدثر يسجل القرآن اعتراف المجرمين فى النار بسبب تركها وترك الصلاة ، ﴿ **قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٢ .

(٢) سورة الماعون آية ٤ - ٧ وانظر العبادة فى الإسلام ص ٢١٩ - ٢٢١ ليوسف القرضاوى مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٥ هـ .

(٣) سورة المدثر : ٤٣ - ٤٤ .

وفى سورة القلم يقص الله ــ سبحانه ــ على المسلمين قصة أصحاب الجنة التى اعتزموا أن يصرموها بليل ليحرموا منها المساكين ﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لايدخلنها اليوم عليكم مسكين** ﴾ [1] . الآيات .

وقال تعالى منكرا على الذين طلبوا قتال المشركين فى أوائل العهد المكى ، ثم تقهقروا عنه بعد ما فرض فى المدينة وبديلا عن القتال ، أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقال : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أوأشد خشية** ﴾ [2] الآية . وسيأتى مزيد من الكلام حول هذه الآية الكريمة إن شاء الله تعالى فى الكلام على بيعة (العقبة الكبرى) وسبق أن ذكرت الأدلة على قدم مشروعية الصلاة ، وهى فى الوقت نفسه مقرونة بالزكاة ، فارجع إليها وتأكيداً لذلك قد ذكرها الله فى مواثيقه لبنى إسرائيل فى عدة مواضع من القرآن الكريم ، ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق بنىٰ إسرائيل لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ..** ﴾ [3] الآية . وقال تعالى ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل** ﴾ [4] وغير ذلك من الآيات كثير . [5] .

وقد أخبر الله ــ سبحانه ــ عن أهل الكتاب أنهم أمروا بالصلاة والزكاة

---

(١) سورة القلم : ١٩ – ٣٣ .

(٢) سورة النساء : ٧٧ .

(٣) سورة البقرة : ٨٣ .

(٤) سورة المائدة : ١٢ .

(٥) انظر العبادة فى الإسلام للقرضاوى ص ٢٣٥ ومابعدها .

بعد عبادة الله وحده فقال : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ [١] .

هذه الأدلة توضح قدم شرعية الزكاة فى الرسالات السابقة مع شقيقتها الصلاة .

ذكر الخلاف :

فهل فرضية الزكاة بالنسبة للرسالة الخاتمة فى مكة كما سبقت الإشارة إلى ذلك أو فى المدينة ؟

فيها للعلماء أقوال : قول بأنها فى مكة والآية التى فى سورة الأنعام محكمة ومكية . وقول بأنها منسوخة . وقول بالندب . وقول بأنها فرضت فى المدينة . استدل القائلون بفرضها فى مكة بالآيات المذكورة سابقا فى سورة المدثر والمزمل والقلم وغيرها .

وبقوله تعالى ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ [٢] وإن الآية مكية ومحكمة قال الفخر الرازى لا نسلم أن الزكاة ماكانت واجبة فى مكة بل لا نزاع أن الآية المدنية وردت بإيجابها إلا أن ذلك لايمنع أنها كانت واجبة فى مكة .

وقيل إن هذه الآية مدنية واستدل القائلون بفرضيتها فى المدينة بقوله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض** ﴾ [٣]. وهذه الآية مدنية وأن الزكاة نفسها لم تفرض إلا فى السنة الثانية من الهجرة .

واستدل القائلون بالندب بأن الآية ﴿ **وآتو حقه يوم حصاده** ﴾ محمولة على الندب .

كما اختلفوا فى الحق المذكور فى قوله تعالى ﴿ **وآتو حقه يوم حصاده** ﴾ وهل هو منسوخ أم لا ؟ .

---

(١) سورة البينة : ٥ .

(٢) سورة الأنعام : ١٤١ .

(٣) سورة البقرة : ٢٦٧ .

فقال جماعة من أهل العلم هذا الحق هو الزكاة المفروضة وممن قال به أنس وابن عباس وطاووس ومالك وغيرهم نقله عنهم القرطبى .

ونقله ابن كثير عن أنس وسعيد وغيرهما .

ونقله ابن جرير عن ابن عباس وأنس وغيرهما .

وقال قوم ليس المراد به الزكاة وإنما المراد به أن يعطى من حضر من المساكين يوم الحصاد القبضة والضغث ونحو ذلك وحمله بعضهم على الوجوب وبعضهم على الندب .

قال القرطبى : (وقال على بن الحسين ومجاهد وعطاء وغيرهم هو حق فى المال سوى الزكاة) رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا .

وقال قوم : هو حق واجب غير الزكاة ، وهو غير محدود بقدر معين وممن قال به عطاء كما نقله عنه ابن جرير .

وقال قوم : هى منسوخة بالزكاة منهم ابن عباس وابن الحنفية ، وسعيد بن جبير والنخعى وغيرهم . واختاره ابن جرير ، وعزاه الشوكانى فى تفسيره للجمهور ، وأيده بأن هذه السورة مكية ، وآية الزكاة نزلت بالمدينة فى السنة الثانية بعد الهجرة .

واستدل ابن جرير للنسخ بالإجماع على أن زكاة الحرث لاتؤخذ إلا بعد التذرية والتنقية ، وزكاة التمر والثمر لاتؤخذ إلا بعد الجذاذ والجفاف فدل على عدم الأخذ يوم الحصاد فعلم أن الآية منسوخة .

وقد أطال الكلام حول هذا فى تفسيره .

وقال ابن كثير : (فى النسخ نظر ، لأنه قد كان شيئا واجبا فى الأصل ، ثم إنه فصل بيانه وبين مقدار المخرج وكميته ، قالوا وكان هذا فى السنة الثانية من الهجرة ، ثم قال فى تفسير سورة المؤمنون ، وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة فى قوله تعالى : ﴿ **والذين هم للزكاة فاعلون** ﴾[1] زكاة النفس من

---

(١) سورة المؤمنون : ٤ .

الشرك والدنس كقوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ [1] وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا [2] .

ويستفاد مما ذكر أن الزكاة المطلقة شرعت فى العهد المكى امتدادا لشرعيتها فى الرسالات السابقة كما ذكر آنفا . والذى شرع فى العهد المدنى هو التفصيل والتنظيم الدقيقان حيث لم يسبق إلى ذلك دين سماوى ولا تنظيم أرضى مثل تحديد المقادير التى تجب فيها الزكاة ومتى تجب والمقدار الذى يجب إخراجه والعشر ونصف العشر وربع العشر . والله أعلم .

نكتفى بهذا الإجمال إذ ليس يهمنا أكثر من هذا فمحله كتب الفقه .

وإنما نريد أن نشير إلى الأثر التربوى للزكاة فى بناء مجتمع إسلامى مترابط متكافل يحقق الأخوة الإسلامية . والله المستعان .

الأثر التربوى للزكاة فى بناء مجتمع إسلامى متكافل :

إن مرتكز نظام المال فى الإسلام الزكاة ، فهى بمثابة العمود الفقرى فيه . إذ إن نظام المال فى الإسلام يقوم على أساس الاعتراف لله بأنه المالك الأصيل وبالتالى الاعتراف بأنه له وحده حق تنظيم قضية التملك والحقوق فيه ومآله .

والزكاة هى التعبير العملى عن هذا كله لأنها أهم الحقوق التى جعلها الله فى الملك . والزكاة لما لها من الأهمية تولى الله ـــ سبحانه ـــ توزيعها من فوق سبع سمٰوات حيث بين مصارفها الثمانية فى قوله تعالى : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾ [3] .

---

(١) سورة الشمس : ٩ – ١٠

(٢) انظر التفاصيل فى جامع البيان للطبرى ج ٨ ص ٥٢ – ٥٩ – تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٥٣٥ – ٢٥٣٦ . التفسيرالكبير للفخر الرازى ج ١٣ ص ٢١٣ – ٢١٤ – الناشر دار الكتب العلمية طهران ط . ثانية . اضواء البيان لمحمد الامين الشنقيطى ج ٢ ص ١٨٩ – ١٩٠ مطبعة المدنى محاسن التأويل لمحمد جمال القاسمى ج ٦ ص ٢٥٢٥ – ٢٥٢٦ طبعة الحلبى .

(٣) سورة التوبة : (٦٠) .

ومن هنا تعلم أن الزكاة ليست تفضلا وإحسانا من إنسان إلى آخر وإنما هى حق معلوم كما قال الله تعالى : ﴿ **وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ [1] بحيث لا يشعر الغنى بالعظمة على الفقير ولا يشعر الفقير بالذل والهوان بل يعتبر ذلك حقا فرضه الله له فى مال الغنى فهى حق الفقير بصفته أخا للغنى فى الدين والإنسانية .

فقد جعل الإسلام المجتمع كالأسرة الواحدة يكفل بعضهم بعضا ، بل كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله .

لحديث النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ﴾ .

وفى رواية بتقديم الحمى على السهر .

وفى لفظ : المسلمون بدل المؤمنين وفيه ذكر العين والرأس بدل العضو [2] .

فمن حق الفقير الذى لايستطيع أن يعمل أو يستطيع ولا يجد عملا أو يعمل ولا يجد كفايته من عمله ، أو يجد ولكن حل به من الأحداث ما أفقره إلى المعونة ، من حق هذا أن يعان ويشد أزره ، وليس من الإيمان ولا من الإنسانية أن يشبع بعض الناس حتى يشكوا التخمة ، وإلى جوارهم من طال حرمانه حتى أنّ من الجوع .

ولايجوز للمؤمن أن يعيش فى دائرة نفسه ، مغفلا واجبه نحو الآخرين من ضعفاء ومساكين فهذا نقص فى إيمانه موجب لسخط الله عز وجل فى الدنيا والآخرة . وفى هذا يقص علينا القرآن مشهدا من مشاهد الآخرة بين أهل اليمين فى الجنة وأهل الشمال فى النار ، فأصحاب اليمين ﴿ **فى جنات يتساءلون عن المجرمين ماسلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم**

---

(١) سورة الذاريات : ١٩ .

(٢) مسلم ج ص ٢٠ - البخارى ج ٤ ص ٥٣ بلفظ (ترى المؤمنين فى تراحمهم ..) .

المسكين ﴾[1] فهنا كان ترك إطعام المسكين من موجبات الدخول فى سقر .

وأروع من ذلك وأعجب أن القرآن لا يكتفى بإيجاب إطعام المسكين — ومثل إطعامه كسوته ورعاية ضروراته وحاجاته — بل يزيد على ذلك فيجعل فى عنق كل مؤمن حقا للمسكين أن يحض غيره على إطعامه ورعايته ويجعل ترك هذا الحض من لوازم الكفر بالله والتكذيب بيوم الدين **﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ﴾**[2] . فقهر اليتيم وإهمال الحث على رعاية المسكين جعلا دليلا على أن القلب خلو من الإيمان بالآخرة والتصديق بالجزاء .

ويقول تعالى فى شأن أصحاب الشمال : **﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه.ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانية ﴾**[3] .

ثم يصدر الله عليه الحكم الذى يستحقه **﴿ خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾** . ثم يذكر أسباب هذا الحكم الشديد : **﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ﴾**[4] . ومن ذلك قوله تعالى **﴿ كلا بل لاتكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين**[5] **﴾** .

ولم تر الدنيا كتابا كالقرآن الكريم يجعل إهمال الحث على العناية بالمسكين من موجبات الجحيم والعذاب الأليم .

والزكاة — مع أنها حق الفقير — حق الجماعة أيضا ، فالإنسان لم يكسب المال بجهده وحده بل شاركت فيه جهود وأفكار وأيد كثيرة بعضها عن قصد

---

(١) سورة المدثر : ٤٠ — ٤١ .
(٢) سورة الماعون : ١ — ٣ .
(٣) الحاقة : ٢٥ — ٢٩ .
(٤) الحاقة : ٣٠ — ٣٤ .
(٥) سورة الفجر : ١٧ — ١٨ .

وبعضها عن غير قصد ، بعضها ساهم من قريب ، وبعضها ساهم من بعيد ، وكلها أسباب عاونت فى وصول المال إلى ذوى المال . فإذا نظرنا إلى التاجر مثلا كيف جمع ماله وحقق كسبه رأينا للمجتمع عليه فضلا كبيرا فممن يشترى ولمن يبيع وبمن يسير إذا لم يكن المجتمع . وهكذا الزارع والصانع وكل ذى مال . فمن حق المجتمع ممثلا فى الدولة التى تشرف عليه وترعى مصالحه ، وتسد خلات أفراده أن يكون لها نصيب من مال ذى المال .

فإذا لم يكن فى المجتمع المسلم أفراد فقراء أو مساكين لوجب على المسلم أن يؤدى زكاته ولابد لتكون رصيداً للجماعة المسلمة تنفق منه عند المقتضيات ولتبذل منه فى سبيل الله وهو مصرف عام مادام فى الأرض إسلام .

والزكاة فيها معنى الطهارة ومعنى النماء . طهارة لنفس الغنى من الشح البغيض وفى الجانب الآخر طهارة لنفس الفقير من الحسد والضغن على ذلك الغنى الكانز لمال الله عن عباد الله ﴿ **الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده** ﴾ [1] .

وهى طهارة للمجتمع كله أغنيائه وفقرائه من عوامل الهدم والتفرقة والصراع ولعل هذا ما تهدى إليه الآية الكريمة ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ [2] طهارة للمال ، فإن تعلق حق الفقير بالمال يجعله ملوثا لا يطهر إلا بإخراجه منه .

ولهذا روى عن النبى ﷺ (إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره) [3] . وأكثر من ذلك ما روى أنه قال : (حصنوا أموالكم بالزكاة) [4] وما أحوج الأغنياء إلى هذا التحصن ، وخاصة فى عصرنا الذى عرف المبادىء الهدامة والثورات الحمراء .

ثم هى نماء لشخصية الغنى وكيانه المعنوى حتى يسدى الخير ويصنع

---

(١) الهمزه : ٢ — ٣ . والسورة مكية قيل المراد بذلك الأخنس بن شريف ، وقيل غيره وقيل هى عامة . انظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٠١ .

(٢) سورة التوبة : ١٠٣ .

(٣) رواه الحاكم كما فى العبادة فى الإسلام ص ٢٥٩ .

(٤) أبو داود فى المراسيل كما فى المرجع نفسه .

المعروف،ويبذل من ذات نفسه ويده لينهض بإخوانه فى الدين والإنسانية،وليقوم بحق الله عليه يشعر بامتداد فى نفسه ، وانشراح واتساع فى صدره ، ويحس بما يحس به من انتصر فى معركة ، وهو فعلا قد انتصر على ضعفه وشيطان شحه وهواه ، فهذا هو النمو النفسي والزكاة المعنوية .

والزكاة أيضا نماء لشخصية الفقير حيث يحس أنه ليس ضائعا فى المجتمع ولا متروكا لضعفه وفقره ينخران فيه حتى يعجلا بهلاكه ، كلا إن مجتمعه ليعمل على إقالة عثرته، ويحمل عنه أثقاله، ويمد له يد المعونة بكل مايستطيع، وبعد ذلك هو لايتناول الزكاة من فرد يشعر بالاستعلاء عليه ويشعر هو بالهوان أمامه ، بل يأخذ حقه من يد الدولة حرصا على كرامته أن تخدش ولو قدر للأفراد أن يكونوا هم المعطين بأنفسهم . فالقرآن يحذرهم المن والأذى ، **﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ﴾** [1] .

والزكاة وسيلة من وسائل الضمان الاجتماعى الذى جاء به الإسلام،فإنه يأبى أن يوجد فى مجتمعه من لايجد القوت الذى يكفيه والثوب الذى يزينه ويواريه والمسكن الذى يؤويه . فهذه ضروريات يجب أن تتوافر لكل من يعيش فى ظل الإسلام . والمسلم مطالب بأن يحقق هذه الضروريات وما فوقها من جهده وكسبه . فإن لم يستطع فالمجتمع يكفله ويضمنه ولا يدعه فريسة الجوع والعرى والمسكنة . هكذا علم الإسلام المسلمين أن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله [2] .

(٣)الدعوة الأخلاقية :

الأخلاق علم يبحث عن معنى الخير والشر ويبين ماينبغى أن تكون عليه معاملة الناس مع بعضهم بعضا، ويشرح الغاية التى ينبغى أن يقصدوا إليها فى أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغى . ولاشك أن الأخلاق من الدعائم الأولى لحفظ كيان الأمم .

لذلك كانت رسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرا ماتحث على الأخلاق

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٣ .

(٢) العبادة فى الإسلام ص ٢٥٣ - ٢٦٠ - الاسلام ج ١ ص ١٠٦ - ١٤٥ .

الفاضلة ، وجاء القرآن مشددا على الاستمساك بها لأنها هى التى تحقق الفوز بالنعيم الأخروى [١] .

إن الأخلاق الإسلامية ارتقاء بالإنسان إلى كمالاته .

كما أن الفارق بين الإنسان والحيوان هو أن الإنسان، بما أوتى من طاقات كان مكلفا ، وأن الحيوان لنقصان طاقته لم يكلفه الله بشىء وأن الإنسان الذى يرفض أن يقوم بعبء التكليف قد أقام نفسه بمنزلة الحيوان، ولذلك فقد سقط عن رتبة الإنسان ، وقد ذكر الله عز وجل فى أكثر من آية من القرآن أن الكافرين ليسوا جديرين بصفة الإنسانية ، وأنهم حيوانات بل شر منها وأضل ، لأنهم عطلوا حكمة وجودهم ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هو أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ [٢] . وقال تعالى : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون** ﴾ [٣] .

وقد يغضب بعض الناس لهذا الكلام ، ولكن لو تأملت حال الكافرين وجدت عمليا أنهم يعتبرون الحيوانية هى المثل الأعلى ويسعون للارتقاء نحوها . فهؤلاء الذين يدخلون نوادى العراة لماذا يفعلون هذا ؟ [٤] ، أليس من أجل تقليد الحيوان ؟ وهؤلاء الذين يرون إباحة الزنى مع أى امرأة أليسوا يقلدون ماتفعله كثير من الحيوانات وما يأباه بعضها ؟ .

وهؤلاء الذين لاتضبط تصرفاتهم بميزان صحيح دقيق ما الفارق بينهم وبين عالم الحيوانات ؟ إن الحقيقة السافرة أن الكافر عمليا طريقه فى الحياة هو طريق الحيوانية وهدفه الأعلى هو الانغماس فى حمأتها وإذن فالحقيقة التى لاشك فيها أن الكافر يعطل جوانب إنسانيته والحقيقة أن كل ماكلفنا الله عز وجل هو تأكيد لأنسانيتنا ورفع لمستواها والسير فى خط التمييز عن الحيوان إلى منتهاه .

---

(١) انظر روح الدين الإسلامى ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) سورة الأعراف : ١٧٩ - قال ابن كثير : (أى هيأناهم وبعمل أهلها يعملون) ج ٣ ص ٥١٤ . قلت وهذا من القدر الأولى كما فى مسلم مرفوعا (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض ، بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) ج ٨ ص ٥١ .

(٣) سورة الأنفال : ٥٥

(٤) كما كانت تفعل الجاهلية الأولى فى طوافهم حول الكعبة عراة .

ولا نقصد بالتميز الذى يفقد الإنسان حياته بألا يأكل وألا يتزوج ليتناسل فهذا شيء لابد منه لاستمرار الحياة البشرية والحيوانية ، وحتى النباتية ولكن نعنى بالتميز التميز العقلى والروحى والأخلاقى والسلوكى والاجتماعى الذى يجعل للحياة معنى وللإنسانية خصائصها الواضحة [1] .

لذلك تجد القرآن الكريم كثيرا ما يندد بأخلاقيات الجاهلية منذ اللحظة الأولى مع التنديد بفساد تصوراتهم الاعتقادية ، واستمر معه حتى النهاية ، وقد أشرت إلى ذلك فى (الوثنية) ، وفى ذلك دلالة واضحة معينة لاينبغى أن تغيب عن أذهاننا وهى أهمية العنصر الأخلاقى فى هذا الدين وتعمقه إلى الجذور العقيدية ذاتها ، وارتباط التصور الاعتقادى بالسلوك الأخلاقى فى شتى مناحى الحياة .

إن الأخلاق ليست شيئا ثانويا فى هذا الدين وليست كذلك محصورة فى نطاق معين من نطاق السلوك البشرى إنما هى ركيزة من ركائزه كما أنها شاملة للسلوك البشرى كله .

يندد [2] القرآن بأخلاقيات الجاهلية منذ السورة الأولى سورة العلق بل يندد بها قبل أن يتحدث عن الفساد العقيدى ذاته [3] ، وكأنه ينبهنا بذلك إلى أن الفساد العقيدى ليس فسادا فطريا ولا فسادا فى التصور المكنون فى داخل الضمير فسحب ، بل إن له آثارا سلوكية عملية يعرف بها ويتيمز **﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾** والطغيان خلق جاهلى ينشأ من فساد عقيدى

---

(١) انظر (الإسلام) ج ٢ ص ٨٦ . سعيد حوى – الطبعة الثالثة ، بيروت .

(٢) ندد به صرح بعيوبه وأسمعه القبيح . ا هـ . قاموس ج ١ ص ٣٤١ .

(٣) يظهر من هذا أن العلق بأكملها قبل المدثر نزولا وفى ذلك خلاف ذكره الواحدى وغيره فقد قال : صدرها أنزل على رسول الله يوم حراء ثم أنزل الله آخرها بعد ذلك بما شاء الله ثم ذكر الخلاف . وليس فى صدرها تنديد بأخلاق الجاهلية وقال الشوكانى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ المراد بالإنسان هنا أبو جهل وهو المراد بهذا ومابعده إلى آخر السورة . وأنه تأخر نزول هذا ومابعده عن الخمس الآيات المذكورة فى أول السورة) . وقال القرطبى نزلت فى أبى جهل وقيل السورة كلها فى أبى جهل نهى النبى عن الصلاة وعليه فليست من أول مانزل ويجوز أن يكون خمس آيات من أولها أول مانزل ثم نزلت بقية السورة . تفسير القرطبى وفتح القدير للسورة نفسها وأسباب النزول للواحدى ص ٦ فتح البارى ج ٨ ص ٦٧٧ وقد ثبت فى صحيح البخارى عن جابر أنه كان يقول أول مانزل من القرآن ﴿ ياأيها المدثر ﴾ ج ٣ ص ٢٠٩ . وانظر الإتقان ج ١ ص ٢٤ .

تصورى « أن رآه استغنى » فحين يتصور الإنسان – بالوهم – أنه قد استغنى بما فى يده من المال والبنين والسلطان المحدود فى الأرض ، فإنه يطغى ويتجبر ، ولكن ما حقيقة الاستغناء هنا ؟ إن الآية تقول ﴿ **استغنى** ﴾ وترك مفهومها يفهم من بقية السياق، وواضح أنه قد استغنى عن الله سبحانه وتعالى .

فإنه حين يكون محتاجا يتذكر الله ، ويدعوه ، فإذا أعطاه الله نسى أن هذا الرزق الذى بين يديه هو من عند الله . ثم نسى حقيقة أخرى أن الله الذى أعطى ما أعطى قادر على أن يسترد ما أعطى ويعيده إلى حالته قبل هذا العطاء .

كلا إن الإنسان لينسى هذه الحقائق فيطغى .

يتوهم أن مابين يديه من الرزق هو من صنع نفسه ، ولا يد لله فيه ، ويتوهم أنه باقٍ بين يديه لايزول وليس لله عليه سلطان فيجره هذا الوهم وذاك إلى تصور خاطىء هو أنه قد استغنى عن الله ـــ سبحانه ـــ ولم يعد فى حاجة إليه ومن ثم يطغى فلا يلتزم حدا من الحدود .

وهذه الأوهام كلها ناشئة عن فساد فى التصور الاعتقادى ، فلو أن هذا الطاغية عرف الله على حقيقته لقدر الله حق قدره ولعلم أنه لا يمكن أن يستغنى عن الله لحظة واحدة لأنه هو وكل مايملك داخل فى ملكوت الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ خاضع لسلطانه ورهن لمشيئته إن شاء أبقاه وإن شاء أزاله ، ولا تستطيع قوة فى السماء ولا فى الأرض أن تمنعه من الله ، لو أنه عرف هذا على حقيقته لزال عنه وهم الاستغناء عن الله ، وزال عنه بالتالى ذلك الطغيان الذى أحدثه وهم الاستغناء ولاستقام سلوكه فى الأرض نحو الله ونحو الناس .

وهكذا ينبع السلوك من التصور ، ويؤدى التصور إلى السلوك [1] .

وإذ' انتقلنا إلى سورة أخرى نجد القرآن كذلك يندد بموقف الإنسان الجاهلى من قضية (عطاء الله)' إن وسع عليه فى الرزق أو قدر عليه رزقه . ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه . فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا بل لاتكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا**

(١) دراسات قرآنية : ص ١٣٠ – ١٣١ .

جما كلا ﴾ [١] .. فأما الإنسان إذا ما آبتلاه ربه فأكرمه ونعمه وبسط له فى الرزق فإنه كما يقول عنه القرآن فى سورة هود (**فرح فخور**) [٢] لاينظر إلى النعمة على أنها ابتلاء من عند الله كما أحس العبد المؤمن سليمان عليه السلام فقال ﴿ **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم.** ﴾ [٣] .

إنما يفرح بما بين يديه من الرزق ــ وتعبير القرآن بالفرح لا يعنى السعادة إنما يعنى الخيلاء والاستكبار فى الأرض بغير الحق ــ وينسى أنه ابتلاء ، ويتوهم أن الله أعطاه لأنه راض عنه فيقول (ربى أكرمن) وإذن فلا عليه أن يتصرف فى ماله كما يشاء ، يعيث فى الأرض فسادا ، ويرصده لخدمة الشيطان ويطغى مادام توهم أنه استغنى ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾ .

وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فهو كما يصفه القرآن فى سورة هود أيضا ﴿ **يئوس كفور** ﴾ [٤] (فيقول ربى أهانن) ولا يصبر للضائقة حتى تمر ، ولا يتوجه إلى الله ليرفعها بل يولى ظهره لله قانطا من رحمته كافرا به .

إنه فى كلا الحالين إذاً يتصرف تصرفا معينا مبنيا على تصور خاطىء والسياق يبرز الجانب السلوكى المنحرف الذى يترتب على التصور المنحرف وإن كان التصور الفاسد هنا لايتعلق بوحدانية الله إنما بتدبير الله والحكمة الكامنة وراء التدبير .

ثم يمضى السياق فيندد بالسلوك الجاهلى تجاه المال المتسم بالشح على الضعفاء والمساكين والافتئات على أصحاب الحق فى هذا المال : ﴿ **كلا بل**

---

(١) سورة الفجر : ١٥ - ٢٠ .

(٢) هى قوله تعالى : ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ﴾ ١٠ هود .

(٣) سورة النمل : ٤٠ .

(٤) ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ﴾ ٩ هود .

قلت : وتارة يكون الإنسان بعكس هذا الخلق كما قال تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض .. الآية ﴾ فصلت ٥١ . وكقوله تعالى ﴿ وإذ مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ يونس ١٢ . وكإيمان المشركين حينما يحيط بهم الموج فى البحر حتى إذا خرجوا إلى شاطىء النجاة إذا هم يشركون وأمثال ذلك كثير .

لاتكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما ﴾ .

وكلها انحرافات أخلاقية تنبع من قلب لا يخشى الله ، ولا يتقيه ، ولا يحس أن المال مال الله ابتداء وأن الله يمنحه لخلقه ـــ على سعة أو ضيق ـــ ليبلوهم فيما آتاهم وينظر كيف تكون مشاعرهم وسلوكهم تجاه ما أعطاهم ، إنما يجعل المال هدفا فى ذاته فيتحول الاستحواذ عليه إلى شهوة متسلطة تستعبده وتفسد مشاعره وسلوكه .

فالأصل فى هذه التصرفات جميعا هو انحراف فى التصور الاعتقادى ولكن القرآن يبرزه من خلال الجانب السلوكى الأخلاقى ، ليؤكد أن انحراف التصور يتبعه انحراف حتمى فى السلوك [1] .

وبالجملة فإن الأخلاق فى المفهوم القرآنى شيء شامل يشمل كل تصرفات الإنسان وكل مشاعره وكل تفكيره ، فهى ليست محدودة بمساحة معينة ولا بعمل معين .

ولايوجد فى الإسلام عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق فالصلاة لها أخلاق هى الخشوع والكلام له أخلاق هى الإعراض عن اللغو والجنس له أخلاق هى الالتزام بحدود الله وحرماته ، والتعامل مع الآخرين له أخلاق هى الوفاء بالأمانة ورعاية العهد ، والإنفاق له أخلاق هى التوسط بين التقتير والإسراف والحياة الجماعية لها أخلاق هى أن يكون الأمر شورى بين الناس ...... وهكذا لايوجد شيء واحد فى حياة المسلم ليست له أخلاق تكيفه ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة .

هذا أمر ، والأمر الآخر ـــ وهو الأهم ـــ أن الأخلاق فى المفهوم القرآنى

---

(١) هذه نماذج اقتطفتها من كتاب (دراسات قرآنية) لشيخنا محمد قطب . وقد كتب تحت عنوان (أخلاقيات لا إله إلا الله) عدة نماذج استخرجها من القرآن الكريم لم أطلع على مثلها وإبرازها فى مثل هذا الثوب الجديد وماتركته أكثر بكثير مما نقلته فقد تكلم على أوائل سورة القلم وأوائل سورة المطففين وأوائل سورة المؤمنون وأواخر سورة الفرقان والشورى والأنعام وغير ذلك وأضيف إلى ذلك مافى سورة الإسراء من آية ٢٣ - ٣٨ ومافى سورة لقمان فى وصاياه لابنه ومافى سورة الحجرات وأمثال ذلك . وانظر روح الدين الإسلامى لعفيف طباره ط ١٧ بيروت ١٩٧٨ م تحت عنوان الأخلاق فى الإسلام ص ٢٠٣ ومابعدها .

هى لله وليست للبشر ولا لأحد غير الله ، الصدق لله ، والوفاء بالعهد لله ، واتقاء المحرمات فى علاقات الجنس لله ، والزكاة لله والعفو والصفح لله ، والانتصار من الظلم لله ، وإتقان العمل لله .. كلها عبادة لله تقدم له وحده خشية وتقوى وتطلعا إلى رضاه .[1] إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . والطيب هو العمل المطابق للشرع الخالص لوجه الله تعالى .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ **يأيها الناس كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾ [2] وقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم** [*] ﴾ . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام .. فأنى يستجاب له) [3] .

أ ـ الدعوة إلى مكارم الأخلاق :

الخلق عبارة عن هيئة راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال فى سهولة ويسر من حسنة وسيئة وجميلة وقبيحة .. من غير حاجة إلى فكر وروية .

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا .

وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقا سيئا .

فإذا ماربيت هذه الهيئة على إيثار الفضيلة ، والحق ، وحب المعروف والرغبة فى الخير ، وروضت على حب الجميل وكراهية القبيح أصبح ذلك طبعا لها تصدر عنه الأفعال الجميلة بسهولة وبدون تكلف ، وتنعت هذه الأفعال بالأخلاق الحسنة ، كالحلم ، والأناة والصبر ، والكرم ، والشجاعة ، والعدل ،

---

(١) دراسات قرآنية ص ١٣٣ – ١٣٩ .

(٢) سورة المؤمنون : ٥١ .

(*) سورة البقرة : آية ١٧٢ .

(٣) رواه مسلم ج ٣ ص ٨٥ – ٨٦ – أحمد فى مسنده ج ٢ ص ٣٢٨ بحذف حرف النداء فى ﴿ يأيها الناس ﴾ فقال : ﴿ أيها الناس ﴾ .

والإحسان ، وسائر الفضائل الخلقية . كما أنها إذا أهملت فلم تهذب التهذيب اللائق بها ، ولم يعن فيها بتنمية عناصر الخير الكامنة فيها أو ربيت تربية سيئة حتى أصبح القبيح محبوبا لها ، والجميل مكروها عندها ، وصارت الرذائل والنقائص من الأقوال والأفعال تصدر عنها بدون تكلف ، إذا كان كذلك نعتت بالأخلاق السيئة ، كالخيانة والكذب والجفاء والغلظة والبذاءة ، وسائر الرذائل . ومن هنا نوه [1] الإسلام بالخلق الحسن ودعا إلى تربيته وتنميته فى المسلمين ، كما ندد [2] بالخلق السيىء وحذر عواقبه [3] .

وقد سبق أن أشرت إلى تنديد القرآن بالسلوك الأخلاقى فى العقيدة المنحرفة وعنايته الواضحة بذلك . ثم تجده فى الوقت ذاته يقابل تلك العناية بإبراز السلوك الأخلاقى الصحيح المصاحب للعقيدة الصحيحة بقوله تعالى ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ [4] .

فالسورة تبدأ بقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التوكيد ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ . ثم تصف هؤلاء المؤمنين ذلك الوصف المطول الذى يعنى بإبراز الجانب السلوكى لأولئك المؤمنين موحيا إيحاء واضحا عن هذه الأخلاقيات من جهة هى ثمرة الإيمان وإن الإيمان ــ من جهة أخرى ــ هو سلوك عملى ملموس يترجم عن العقيدة المكنونة [5] .

---

(١) نوه به تنويها : رفع ذكره وعظمه . مصباح ج ٢ ص ٣٠٤

(٢) ندد به : صرح بعيوبه وأسمعه القبيح . قاموس ج ١ ص ٣٤١ .

(٣) انظر حاشية الترغيب والترهيب . مصطفى عمارة ج ٢ ص ٤١٣ ، مطبعة الحلبى ، منهاج المسلم ص ١٥١ – أبو بكر الجزائرى – طبعة الدار البيضاء الطبعة الثالثة .

(٤) سورة المؤمنون : ١ – ١١ .

(٥) دراسات قرآنية ص ١٣٦ .

وقس على ذلك ما فى سورة الإسراء والفرقان ولقمان وغير ذلك من إبراز هذا الجانب العظيم [١] . وقال ابن عمر : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا وأنه كان يقول : (إن خياركم أحاسنكم أخلاقا) [٢] ، ولما سئلت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها كيف كان خلق رسول الله ﷺ ، قالت كان خلقه القرآن . فقرأت ﴿ **قد أفلح المؤمنون** .. حتى انتهت إلى ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون** ﴾ قالت هكذا كان خلق رسول الله ﷺ [٣] .

فينبغى التأسى به ﷺ والاقتداء به فى أقواله وأفعاله ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ [٤] .

وقد مدح الله سبحانه – نبيه محمدا ﷺ ، على خلقه الكريم فقال : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [٥]. وقد جاء النبى ﷺ – بالدعوة إلى تزكية النفس ، بعد الدعوة إلى العقيدة الصحيحة ، وتنقيتها من شوائب الشرك والانحرافات الضالة ، وذلك بالتزام الفضائل والابتعاد عن الرذائل بكل أنواعها ، قال تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ [٦].

---

(١) اقرأ سورة الإسراء من آية ٢٣ – ٣٩ . وسورة الفرقان من آية ٦٣ إلى آخر السورة . وسورة لقمان من آية ١٣ – ١٩ . وغير ذلك من الآيات المشيدة بمكارم الأخلاق .
(٢) البخارى ج ٤ ص ٥٦
(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٥٤ – فتح القدير ج ٥ ص ٢٦٧ وقال قد ثبت هذا فى الصحيح .
(٤) سورة الأحزاب : ٢١ .
(٥) القلم : ٥ – وردت فى معنى الخلق فى الآية الكريمة معان : منها الإسلام والدين والقرآن . وامتثال أوامر الله ونواهيه ، ورفقه بأمته وإكرامه إياهم والطبع الكريم كذا فى فتح القدير ج ٥ ص ٢٦٧ .
(٦) الأنعام : ١٥١ – ١٥٣ .

قال ابن مسعود : (من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ ، التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الثلاث آيات)[١] . أراد أن النبي ﷺ لم يزل يدعو الأمة من حين بعثه الله تعالى إلى أن توفاه ﷺ - إلى ماتضمنته هذه الآيات المحكمات أمرا ونهيا كقوله تعالى : عن خليله عليه السلام ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[٢] .

(وأن النبي ﷺ - أوصى بكتاب الله ﴿ **وإنى تارك فيكم ماإن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله** ﴾ وفى رواية (ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، اذكركم الله فى أهل بيتى[٣] ...) .

وقد أمر الله - سبحانه - نبيه محمدا ﷺ أن يسلك أسلوب الحكمة واللين والرفق حتى مع ألد أعدائه الذين كذبوه وعاندوه وواجهوه بكل مايملكون من قوة وبشتى الأساليب فقال تعالى ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**[٤] ..) الآية . **نهج ذلك المنهج حتى مع أهل الكتاب بتوجيه الله سبحانه وتعالى إياه بقوله** ﴿ **ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن** ﴾[٥] الآية .

وأختم هذا المبحث بآية هى أجمع آية فى القرآن الكريم للخير والشر[٦] هى قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾[٧] وبقوله ﷺ (إن

---

(١) شبه هذه الوصية بوصية كتبت فختمت أى فلم تتغير ولم تتبدل .

(٢) سورة البقرة : ١٣٢ .

(٣) مسلم ج ٧ ص ١٢٣ . وانظر كتاب قرة عيون الموحدين لعبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب ص ٩ - الناشر مكتبة الرياض - تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٦٣ .

(٤) سورة النحل : ١٢٥

(٥) سورة العنكبوت : ١٤٦ .

(٦) كذا فى الجلالين عن ابن مسعود ص ٢٥٩ .

(٧) سورة النحل : ٩٠ .

من أخيركم أحسنكم خلقا)[1] وفى لفظ (خياركم أحاسنكم أخلاقا) . وبقوله عليه الصلاة والسلام : (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا)[2]. وبقوله أيضا : (إن المؤمن ليدرك بخلقه درجة الصائم القائم) وبقوله (أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن) وفى لفظ (إن أحبكم إلى الله وأقربكم منى أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى الله وأبعدكم منى الثرثارون المتفيهقون المتشدقون)[3]الثرثار : كثير الكلام تكلفا ، والمتشدق : المتطاول على الناس بكلامه تفاصحا وتعظيما ، والمتفيهق أصله من الفهق وهو الامتلاء يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه تكبرا وارتفاعا وإظهاراً للفضيلة على غيره وفى الحديث مرفوعا : المتفيهقون : المتكبرون)[4].

ب - تحـــريم الكبـائـــر :

الكبائر جمع كبيرة وقد اختلف العلماء فى تعريفها . فعن ابن عباس : كل شيء نهى الله عنه فهو كبيرة . وقيل كل ذنب ختمه الله بنار أوغضب.أو لعنة أو عذاب ، وقيل ماأوعد الله عليه بنار أوحد فى الدنيا . وقد سرد فى تعريفها النووى كلاما جيدا وكذلك ابن حجر المكى الهيثمى عدها . إلى ثمانية ، وقد عد الكبائر فوق ستين وأربعمائة[5] .

وقد تحدثنا فيما مضى أن الجزيرة العربية ، بل الناس كلهم كانت قد فسدت عقولهم وأخلاقهم ، ونظام تفكيرهم وفسد ذوقهم واختل إحساسهم كل شيء يسوقهم إلى الشقاء والدمار ، فالشرك والقتل والخمر والفجور واغتصاب الأموال ، واستلاب حقوق الضعفاء ، كل ذلك أمر شائع وبلغت القسوة حدها

---

(١) البخارى ج ٤ ص ٥٥ .

(٢) صحيح ابن حبان . ج ١ ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٤) رياض الصالحين للنووى ص ٢٧٣ - ٢٧٤ - الناشر دار الكتاب العربى ، بيروت .

(٥) انظر شرح مسلم للنووى ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥ ومابعدهما - الزواجر ج ١ ص ٥ - ٦ . والكتاب يتكون من جزءين أدخل فيه كثيرا من الصغائر فى الكبائر ولعله لم يفرق بين الكبيرة والصغيرة . انظر كلام النووى فى الفرق بينهما فى المصدر نفسه .

الأقصى ، فالصغار يقتلون ويؤدون والطغاة يقودون شعوبهم إلى الحروب الطاحنة دون ماغاية ، سوى الحصول على الغنائم والرقيق وتسجيل المآثر الفارغة .

فلما بعث الله سبحانه وتعالى – محمدا – ﷺ – حرم هذه الأشياء كلها وسماها فواحش وكبائر . قال تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن**[1] **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾[2].

قال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله ﷺ – التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : فى الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب . ثم قرأ ﴿ **قل تعالوا ... الآيات** ﴾ . وعن عبادة بن الصامت مرفوعا : (أيكم يبايعنى على ثلاث ، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم** ﴾ حتى فرغ من الآيات . فمن وفى فأجره على الله ، ومن انتقص منها شيئا فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه)[3] . وفى رواية عنه أيضا : – وكان أحد النقباء ليلة العقبة – (إن رسول الله ﷺ قال : وحوله عصابة من أصحابه (بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولاتعصوا فى معروف

---

(١) أى سرها وعلنها : جلالين .

(٢) سورة الأنعام : ١٥١ – ١٥٢ – ١٥٣ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٥٣ – ٣٥٤ . وسيأتى حديث عبادة فى بيعة العقبة الأولى إن شاء الله فى الصحيحين وغيرهما .

فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه .) فبايعناه على ذلك [1].

فأنت ترى أن النبى ﷺ – ماأخذ البيعةِ على أصحابه فى الابتعاد عن هذه المحرمات إلا لفشوها فى المجتمع الذى بعث فيه ولما لها من الأهمية فى الإسلام . وبالابتعاد عنها يرتفع المجتمع من الحضيض إلى مستوى أعلى أو من حمأة الرذيلة إلى مستوى الفضيلة إذ كان المجتمع حينها يرى الفضيلة رذيلة والرذيلة فضيلة كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى نكاح الجاهلية ، من أجل ذلك اشتدت غيرة الله سبحانه ، فحرم الفواحش ماظهر منها ومابطن . قال ﷺ (لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن) . وفى لفظ (مامن أحد أغيرُ من الله ..) [2].

ولمسلم : قال سعد بن عبادة : (لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح عنه ، فبلغ رسول الله ﷺ ، فقال : أتعجبون من غيرة سعد ، فوالله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاشخص أغير من الله ، ولاشخص أحبُّ إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين ، ولاشخص أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك وعد الله الجنة) وفى لفظ : (ليس أحد أحب إليه المدح من الله) وفى لفظ آخر : (لا احدُ أغيرَ – من الله ..) [3]. ولقد حرم الله فى الآيات السابقة الشرك بأنواعه ، من العقيدة إلى التشريع ، بدأت الوصايا كلها به ، لأنه القاعدة الأولى التى لايغنى غناءها شىء آخر من عبادة أو خلق أو عمل ، والنهى عن الشرك أمر بضده ، فالنهى عن الشرك أمر بالتوحيد ، توحيد فى الاعتقاد وفى الربوبية والألوهية ، فالخالق هو المستحق للحاكمية (ألا له الخلق

---

(١) البخارى ج ١ ص ١٢ – ج ٤ ص ١٧٢ – ١٧٤ بألفاظ فى بعضها بلفظ الخبر وفى بعضها بلفظ الأمر .

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٧٨ ، وفى باب الغيرة من كتاب النكاح وفى تفسير سورة الأنعام والأعراف ج ٣ ص ١٢٩ – ١٣٠ .

(٣) مسلم ج ٤ ص ٢١١ – ص ١٠٠ – ١٠١ ، راجع شرح مسلم للنووى ، ج ١٠ ص ١٣٢ – فتح البارى ج ١٣ ص ٣٩٩ . فى شرح الحديث

والأمر)[1] وقد توعد الله مرتكب الكبيرة – لما جاء الإسلام – بتضعيف العذاب وباللعنة والغضب وبعضها بالخلود فى النار فى عدة مواضع من القرآن الكريم .

ج – محو التقاليد الجاهلية :

التقاليد والتقليدات مفرده تقليد ، يستعمل لعدة معان . والمراد هنا مايلى : هو ما انتقل إلى الإنسان من آبائه ومعلميه ، ومجتمعه من العقائد والعادات والعلوم والأعمال .

وقد ذكر الألوسى كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم السيئة المخزية منها والمضحكة كالعقر على القبور واعتقادهم بالهامة والصفر ، والاستعاذة بالجن والتشاؤم بالعطاس ، والطيرة والتنجيم والاستسقاء بالسلع والعشر وربطه فى أذناب البقر والخمر والميسر[2] والأنصاب والأزلام[3] والزنى والقتل والنهب والشرك وهو أشدها وغير ذلك[4] .

ولكن القرآن الكريم ندد كثيرا بالشرك والزنى والقتل والخمر والميسر والأنصاب والأزلام . وقد سبق الحديث على الكبائر إجمالا .

ولايخفى أن هذا المبحث ومبحث الكبائر وأخلاق الجاهلية السابق ذكرهما مادتهما متداخلة كل دليل منهمايصح أن يكون دليلا للآخر كما فى آيات الأنعام والإسراء والفرقان وغير ذلك . وقد سبق ذلك . ونريد أن نضيف إلى ذلك كلمة سريعة حول الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، لما لذلك من الأهمية ، – وإن كان الجميع مهما – لأن المخمور يرتكب سائر الكبائر بلا مبالاة ولاشعور . فلقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة

---

(١) سورة الأعراف : ٥٤ – وانظر الظلال ج ٨ ص . ١٢٣ .

(٢) الميسر القمار كان الرجل يقامر بماله وأهله فيصبح فقيرا ويراه فى يد غيره حزينا سلبيا فكانت من أسباب العداوة والبغضاء . جلالين من تفسير سورة المائدة ص ١٠٠ – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ص ٥٧ .

(٣) الأنصاب : الأصنام ، والأزلام : قداح الاستقسام – جلالين .

(٤) انظر بلوغ الأرب للألوس ج ٢ ص ٣٠١ ومابعدها .

الجاهلية ومن التقاليد المتغلغلة فى المجتمع الجاهلى .

وكانت كلها حزمة واحدة ذات ارتباط عميق فى مزاولتها ، وفى كونها من سمات ذلك المجتمع وتقاليده كانوا يشربون الخمر فى إسراف ، ويجعلونها من المفاخر التى يتسابقون فى مجالسها ويتكاثرون ، ويديرون عليها فخرهم فى الشعر ومدحهم كذلك .

وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح على الأصنام وينضحونها بدمائها وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية التى تشبهها وكان يجرى الميسر عن طريق الأزلام التى هى قداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة – وغيرها – فيأخذ كل منهم نصيبه منها بحسب قدحه ، فالذى قدحه (المعلى) يأخذ النصيب الأوفر ، وهكذا يكون من لانصيب لقدحه . وقد يكون هو صاحب الذبيحة فيخسرها كلها .

وهكذا يبدو تشابك العادات والتقاليد الاجتماعية ، وجريانها وفق حال الجاهلية ، وتصوراتها الاعتقادية . فلم لايبدأ المنهج الإسلامى بمعالجتها ؟

لم يبدأ المنهج الإسلامى فى معالجة هذه التقاليد فى أول الأمر لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة ، فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغائرة جهد ضائع حاشا للمنهج الإسلامى أن يفعله . إنما بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى ، عقدة العقيدة . بدأ باجتناب التصور الجاهلى الاعتقادى جملة من جذوره ، وإقامة التصور الإسلامى الصحيح مقامه .

بين للناس فساد تصوراتهم عن الألوهية ، وهداهم إلى الإله الحق وحين عرفوه بدأت نفوسهم تستمع إلى مايحبه منهم ومايكرهه وماكانوا قبل ذلك ليسمعوا أو يطيعوا أمرا ولانهيا وماكانوا ليقلعوا عن مألوفاتهم الجاهلية مهما تكرر النهى وبذلت النصيحة . إن عقدة الفطرة البشرية هى عقدة العقيدة ومالم تنعقد هذه العقيدة أولا ، فلن يثبت فيها شىء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعى ، ومالم تفتح بمفتاحها فستظل ملتوية الدروب مغلقة السراديب كلما كشف منها زقاق انبهمت أزقة ، وكلما ضاء جانب منها أظلمت جوانب ، وكلما حلت منها عقدة تعقدت عقد ، وكلما فتح منها درب سد دروب

ومسالك ، .... إلى مالا نهاية .

لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامى فى علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها إنما بدأ من العقيدة ، وبعد امتداد جذورها فى الأعماق النفسية بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية فى الوقت الذى يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال ، لأنهم لايعلمون لهم خيرة فيما يأمر الله به أو ينهى عنه أيا كان[1] .

وكانت المرحلة الأخيرة الحاسمة من مراحل تحريم الخمر هى قوله تعالى : **﴿ ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾** وعلل ذلك بقوله تعالى **﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾**[2] .

[احتجاج المشركين بالتقليد]

ولما دعاهم النبى ﷺ إلى ترك هذه التقاليد السيئة وقبل أن ينقادوا للدخول فى الإسلام ، كانوا يحتجون بتقليد الآباء والأجداد فى أستمرارهم على ماهم عليه من الضلال وعدم اتباع دعوة الرسول ﷺ حينما دعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة ماسواه ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾[3] .

وهذه المقالة سبقهم إليها أشباههم من الأمم السالفة المكذبة للرسل تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم **﴿ كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾**[4] وهكذا قال هاهنا : **﴿ وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا**

---

(١) انظر فى ظلال القرآن ج ٢ ص ٩٧٣ - ٩٧٤ .

(٢) المائدة : ٩٠ - ٩١ .

(٣) سورة الزخرف : ٢٢ . والمراد بالأمة هنا : الدين كقوله تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ الأنبياء : ٩٣ . انظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢١١ . القرطبى : ج ٧ ص ٥٨٩٤ والمعنى ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة .

(٤) الذاريات : ٥٢ - ٥٣ .

آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[1] . ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم فى هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال : ﴿ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾[2] . فكان مصير المكذبين والمعاندين ماسبق بيانه فى الاستدلالات التاريخية وبالنسبة لمشركى قريش ، والله أعلم ، فقد أذاقهم الله عذاب الدنيا يوم بدر بالقتل والأسر وجدب السنين والأمراض وسيذيقهم العذاب الأكبر فى الآخرة ﴿ ولنذ يقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾[3] . ولما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية فهاج ذلك أضغانهم وقالوا لأبى طالب إما أن تكفه عنا أو ننازلك وإياه فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين[4] .

وقدم ذم القرآن الكريم الجامدين على تقاليد الآباء والأجداد ذما شديدا بل سفه عقولهم فقال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون[5]) ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا أولوا كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون ﴾[6] ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير[7] ﴾ .

---

(١) الزخرف : ٢٢

(٢) الزخرف : ٢٤ .

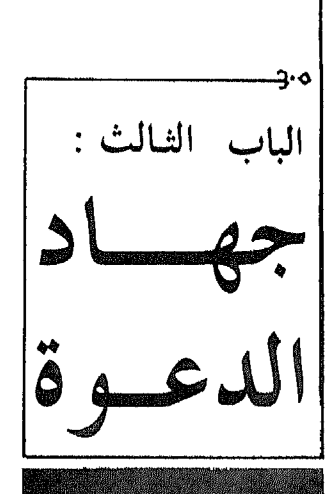
(٣) السجدة : ٢١ . قال ابن عباس يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها . وقيل عذاب القبر وعن ابن مسعود : أنه ماأصاب كفار قريش يوم بدر . لأنه لم يبق بيت إلا دخله الحزن . انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٤) انظر تفسير الطبرى ج ٥ ص ٦٠ - ٦١ وتفسير القرطبى ج ٧ ص ٥٨٩٤ ، ابن كثير ج ٧ ص ٢١١ .

(٥) سورة البقرة : ١٧٠ .

(٦) سورة المائدة : ١٠٤

(٧) سورة لقمان : ٢١ .


٣٠٥
الباب الثالث :
جهـــاد
الدعـوة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد :

اعلم أن الجهاد ذروة سنام الإسلام ومنازل أهله أعلى المنازل فى الجنة ، كما لهم الرفعة فى الدنيا فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة .

وكان الرسول ﷺ فى الذروة منه ، فاستولى على أنواعه كلها ، فجاهد فى الله حق جهاده بالقلب والدعوة والبيان والسيف والسنان وكانت أوقاته موقوفة على الجهاد . ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا ، وأعظمهم عند الله قدرا .

أمره الله بالجهاد من حين بعثه فقال : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا** ﴾[1] فهذه السورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن .

« الدعوة تقول : لا إله إلا الله ، والمشركون يقولون هناك آلهة مع الله وهناك سلطان بشرى يحكمْ الناس باسم هذه الآلهة . والدعوة تقول إن الولاء لله وحده ، والملأ يريد الولاء لنفسه وسلطانه »[2] . ومن هنا نشأ الصراع ، إنه صراع عقائدى ، فقد يكون أشد من الصراع الدموى ، إذ الشرارة الأولى للصراع الدموى هو الصراع العقائدى .

قال الشوكانى فى تفسير هذه الآية : ﴿ **جاهدهم بالقرآن ، واتل عليهم مافيه من القوارع ، والزواجر ، والأوامر والنواهى . وقيل الضمير يرجع إلى**

---

(١) سورة الفرقان : ٥٢

(٢) منهج التربية الإسلامية لشيخنا محمد قطب ج ٢ ص ٥٨ .

الإسلام ، وقيل بالسيف والأول أولى وهذه السورة مكية ، والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة[1] .) ويظهر من هذا أن الجهاد أعم من القتال .

وقد قسم ابن قيم الجوزية الجهاد إلى أربع مراتب :

١ — جهاد النفس .
٢ — جهاد الشيطان .
٣ — جهاد الكفار .
٤ — جهاد المنافقين .

كما قسم جهاد النفس إلى أربع مراتب ، وهذا مايعنينا ، قال الحسن البصرى« إن الرجل ليجاهد وماضرب يوما من الدهر بسيف[2] » :

الأولى : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى لافلاح لها ولاسعادة فى معاشها ومعادها إلابه ، ومتى فاتها علمه شقيت فى الدارين .

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إذا لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه ، وتعليمه من لايعلمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ماأنزل الله من الهدى والبينات ولاينفعه علمه ولاينجيه من عذاب الله .

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله .

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين ، فإن السلف مجمعون على أن العالم لايستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه ، فمن علم وعلم وعمل فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السماء .

---

(١) فتح القدير ج ٤ ص ٨١ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٧٤ .

وقد قسم جهاد الشيطان إلى مرتبتين :

أولاهما : جهاده على دفع مايلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة فى الإيمان .

الثانية : جهاده على دفع مايلقى إليه من الإرادات والشهوات .

وجهاد الكفار والمنافقين أربع مراتب ، بالقلب ، واللسان ، والمال ، والنفس . وجهاد الكفار أخص باليد ، والمنافقين أخص باللسان .

وجهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات ، فعلى مراتب الحديث .[1] .

وقد وعد الله المجاهدين فى سبيل الدعوة إلى الله بالهداية إلى الصراط المستقيم وأن الله معهم فى كل تصرفاتهم ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[2] .

قال ابن عطية (هى مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفى ، وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته) وقال ابن عباس وابن أدهم (هى فى الذين يعملون بما يعلمون) وقيل نزلت فى العباد .

وقال أبو سليمان الدارانى : (ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين .. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[3] ...)

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٤٢ - ٤٥ .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(٣) انظر تفسير القرطبى ج ٧ ص ٥٠٨٠ - ٥٠٨١ - فتح القدير ج ٤ ص ٢١٢ - تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢١٤ - ٢١٥ .



الفصل الأول

تحمل الأذى



تحمل الأذى :

اعلم بأن الأذى والسخرية والتربص و و و ... برسل الله وأتباعهم والناهجين نهجهم من بعدهم هو من طبيعة الدعوة إلى الله سبحانه .

إنك لاتكاد تجد رسولا أو داعية سالمه قومه وتقبلوا مايدعوهم بل يقابل بالعكس ولكن للباطل صولة ثم يضمحل ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾[1] ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ [2] . وقد سبقت الإشارة إلى بعض نماذج مما حدث بين بعض المرسلين وأقوامهم لاسيما الملأ منهم وهذه سنة الله فى خلقه واستمرارها – خير شاهد – إلى عصرنا الحاضر لن تتغير فلن تجد لسنة الله تبديلا ، وهانحن الآن نستعرض بعضا مما حصل بخاتم المرسلين ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ﴿ **سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولاتجد لسنتنا تحويلا** ﴾[3] .

وقد استمرت الدعوة فى مهدها ثلاث سنوات سرية كما سبق وذلك بتوجيه

---

(١) سورة الرعد : ١٧ .

(٢) سورة غافر : ٥١ – أى تشهد الملائكة للرسل بالبلاغ وعلى الكفار بالتكذيب . جلالين .

(٣) سورة الاسراء : ٧٧

من السماء . فلما أنزل الله سبحانه – عليه قوله : ﴿ **فاصدع بما تؤمر**[*] ﴾ امتثل أمر ربه فجهر بالدعوة هو وأصحابه فوقفت قريش منه موقف السخرية والاستهزاء حتى عاب آلهتهم وسفه أحلامهم وبين لهم أن ماهم عليه جهل وضلال ، فجاهروه وصحبه بالعداوة وصمموا على مخالفته عصبية وجهلا ، لعجزهم عن مقارعة الحجة بالحجة ، لجأوا إلى أسلوب المفحم ، وهو السباب والشتم والإيذاء ، والتعذيب ، ومن هناك بدأ دور المحنة والبلاء وكان دورا شاقا ، رغم حدب أبى طالب على رسول الله ﷺ وقد أوذى المؤمنون غاية الإيذاء ، لاسيما العبيد والضعفاء [١] .

وبما أنا قادمون على تلك المرحلة الشاقة لنا أن نتساءل ؟

فيم هذا العذاب الذى لقيه النبى – ﷺ – وأصحابه وهم على الحق ؟ . ولماذا لم يعصمهم الله – سبحانه – منه وهم جنوده يدعون إلى دينه ويجاهدون فى سبيله ؟.

الجواب قد سبق وهو : هكذا طبيعة الدعوة إلى سنة الله فى خلقه وتاكيدا لذلك : ليعلم الدعاة أن الطريق إلى الدعوة الصحيحة ليست مفروشة بالورود بل مملوءة بالأشواك والمخاطر والتضحيات فعليهم أن يستعدوا لاجتياز هذه العقبة الكؤود ، فلو شاء الله أن تكون مفروشة بالورود لكانت كذلك ولكن حكمته خلاف هذا . ﴿ **ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ [٢] .

والإنسان مكلف فى الدنيا ، والدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمة الله من أهم متعلقات التكليف ومن لوازم العبودية لله تعالى إذ لامعنى لها بدونه وهو يستلزم تحمل المشاق ، قال البوطى : (ومن أجل هذا كان واجب عباد الله فى هذه الدنيا تحقيق أمرين : أولهما التمسك بالإسلام وإقامة المجتمع الإسلامى الصحيح . ثانيهما : سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر وبذل المهج

(*) سورة الحجر ٩٤ .

(١) اقتباس بسيط من فقه السيرة للغزالى ص ١٠٦ – ١٠٧ ، البوطى ص ١٠٧ والسيرة لابى شهبة ج ١ ص ٢٩٨ .

(٢) سورة محمد : ٤

والمال من أجل تحقيق ذلك)[1] . قلت : ولعله يريد بذلك غير العهد المكى وإذا كان كذلك فالوجهة سليمة لأن النبى ﷺ أول مابدأ – فور وصوله المدينة – ببناء المسجد والمجتمع الإسلامى وسيرته ﷺ تشير إلى ذلك بالفتوحات فى عهده وتبعه الخلفاء الراشدون وهذا لايعنينا الآن ، وإنما يعنينا العهد المكى الذى ظل المسلمون – فى نظر مشركى مكة – عصاة ثائرين ورسولهم ينادى بالجنون ﴿ **وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لوماتأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين** ﴾[2] ويرمى بالسحر والكذب ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب** ﴾[3]

ويستقبل بنظرات ملتهمة ناقمة ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وماهو إلا ذكر للعالمين** ﴾[4] ويستقبل المسلمون بالهزء والسخرية ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون** ﴾[5]

فانقلب هذا إلى تنكيل وتعذيب وسفك دماء المستضعفين بل وصلت ويلاته إلى بعض الأقوياء كأبى بكر وسيأتى ذلك إن شاء الله .

– ميزان الإسلام :

فإن قيل مالحكمة من هذا الابتلاء ؟

فالجواب : إن هذا سنة ربانية – لاتتبدل ولاتختلف – عن سنن الدعوة إلى الله تعالى ، إذ لو ترك الناس لدعوى الإسلام لاستوى الصادق والكاذب وفى عصرنا لكفت شهادة الميلاد ولكن هناك ميزان ، هو الفتنة والابتلاء ، مصداق

---

(١) فقه السيرة للبوطى : ص ١٠٧

(٢) سورة الحجر : ٦ – ٧ .

(٣) سورة ص : ٤ – ٥ .

(٤) القلم : ٥١ – ٥٢ وهى من أوائل مانزل .

(٥) المطففين : ٢٩ – ٣٠ وهى مكية .

ذلك قوله تعالى : **﴿ آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾**(١) .

قال ابن جرير : (ولقد اختبرنا الذين من قبلهم من الأمم ممن أرسلنا إليهم رسلنا فقالوا مثل ماقالته(٢) أمتك يامحمد بأعدائهم وتمكيننا إياهم من أذاهم كموسى إذ أرسلناه إلى بنى إسرائيل فابتليناهم بفرعون وملئهم وكعيسى إذ أرسلناه إلى بنى إسرائيل فابتلينا من اتبعه بمن تولى عنه فكذلك ابتلينا أتباعك بمخالفيك من أعدائك (٣) .

وقال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآيات : **﴿ آلم أحسب الناس ﴾** استفهام إنكار وقيل توبيخ وتقريع . ومعناه أن الله – سبحانه وتعالى – لابد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ماعندهم من الإيمان كما جاء فى الحديث الصحيح : (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة اشتد بلاؤه وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة)(٤) .

وهذه الآيات كقوله تعالى : **﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾**(٥) ومنه قوله تعالى : **﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين وَنَبْلُوَا أخباركم ﴾**(٦). وكقوله تعالى **﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم**

---

(١) العنكبوت : ١ – ٣ وهذه السورة مكية على خلاف فى بعض آياتها المذكور فيها الجهاد والنفاق ولكن الراجح مكيتها .

(٢) يطلق القول أحيانا ويراد به الفعل كحديث (إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا ثم ضرب بهما الأرض . متفق عليه كما فى سبل السلام ج ١ ص ٩٥ .

(٣) جامع البيان ج ٢٠ ص ١٢٨ .

(٤) سنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٧ ص ٧٨ – ٧٩ . وقال الترمذى حديث حسن صحيح . مسند أحمد ج ١ ص ١٧٢

(٥) سورة آل عمران – ١٤٢ – أى لايحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين فى سبيله والصابرين على مقارنة الأعداء تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٧٧ ، ج ٢ ص ١٨٠ بتصرف .

(٦) سورة محمد الآية ٣١ .

البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾[1]

ذكر الله ذلك تسلية للمؤمنين ليصبروا كما صبر من قبلهم من الأمم فلا بد من الامتحان بأنواع التكاليف مما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان وكما يفعله أهل المعاصى مع أهل الطاعات من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان بالله والعمل بما أمر به)[2] .

وهكذا سنة الله فى ابتلاء المؤمنين وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين منذ الرسالات السابقة إلى أن تقوم الساعة كما جاء فى الحديث : عن خباب بن الأرت رضى الله عنه – قال : (شكونا إلى رسول الله – ﷺ – وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا له : ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيه فيجاء بالميشار[3] فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ومايصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب ومايصده ذلك عن دينه . والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لايخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .)[4]

مصداق ذلك أوائل سورة العنكبوت .

وقد رويت عدة أحاديث فى أسباب نزول صدر هذه السورة أوردها السيوطى فى لباب النقول والواحدى فى أسباب النزول وابن جرير وغيرهم . ولكن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب كما هو مقرر .

قال ابن عطية : (وهذه الآية وإن كانت نزلت فى سبب خاص فهى باقية فى أمة محمد موجود حكمها بقية الدهر وذلك أن الفتنة من الله باقية فى ثغور

---

(١) سورة البقرة : ٢١٤ .

(٢) انظر المصدر نفسه وفتح القدير ج ٤ ص ١٩٢ – ١٩٣ .

(ملاحظة)

مثل آية ﴿ أم حسبتم ﴾ ذكر فى عدة سور من القرآن فى البقرة والتوبة آية : ١٦ وفى سورة محمد . وقد أخذت عن تفسير ابن كثير من هنا وهناك ليعلم ذلك .

(٣) الميشار بالياء التحتية المهموزة وبدونها وبالنون كما فى فتح البارى ج ٧ ص ١٧٦ .

(٤) البخارى ج ٢ ص ٢٨١ – ٣٢١ بألفاظ متقاربة .

المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك واستحسنه القرطبى وقرره الشوكانى وغيره . وفيه تثبيت للنبى ﷺ كأنه قيل له إن نوحا لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه ولم يؤمن منهم إلا قليل فأنت أولى بالصبر لقلة لبثك وكثرة أمتك .[1]

وقال سيد قطب رحمة الله عليه :

(إن الإيمان ليست كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر فلا يكفى أن يقول الناس آمنا .

وهم لايتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به

إن الإيمان أمانة الله فى أرضه لايحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة وفى قلوبهم تجرد لها وإخلاص ، وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة وعلى الأمن والسلامة والمتاع والإغراء)[2]

- تنوع الفتن :

أنواع الفتن وأساليبها قد ذكر منها سيد قطب أشياء هامة فى الظلال وهى مما ينبغى للدعاة اليوم معرفتها وسنذكر بعضا منها حيث قال :

١ - ومن الفتنة أن يتعرض الداعية للأذى من الباطل وأهله ثم لايجد النصير الذى يسانده ويدفع عنه ولا المنعة لنفسه ولا القوة التى يواجه بها الطغيان . وهذه هى الصورة البارزة المعهودة فى الذهن ولكن هناك صورا شتى أعنف

---

(١) اسباب النزول ص ١٩٥ - لباب النقول ص ١٧٠ - تفسير ابن جرير ج ٢٠ ص ١٢٩ - تفسير القرطبى ج ٦ ص ٥٠٤٠ وأما بالنسبة للخلاف فى صدر سورة العنكبوت فقد سبقت الإشارة إلى أن الراجح مكيتها كما قال ابن جرير وابن كثير وسيد قطب وقال فى الظلال : ج ٢٠ ص ٢٧١٨ - إن الآية الثامنة نزلت فى إسلام سعد ابن ابى وقاص وماكان بينه وبين أمه سبب إسلامه كما فى صحيح مسلم وغيره (وقد سبق ذلك) وإسلامه كان فى مكة قطعا وعليه فيحمل ذكر الجهاد فيها جهاد النفس وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس وممن قال من أن سبب مانزل فى سعد وأمه الآية الثامنة من العنكبوت هم المفسرون السابق ذكرهم والسيوطى والواحدى فى المرجع السابق نفسها .

(٢) فى ظلال القرآن ج ٢٠ ص ٢٧٢٠ .

وقد تكون أدهى وأمر .

٢ – هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه . وهو لايملك عنه دفعا .

وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله فى الرحم التى يعرضها للأذى والهلاك كما فى قصة إسلام سعد بن أبى وقاص وما جرى بينه وبين أمه . (وقد سبق بيان ذلك)(*) .

٣ – وهناك فتنة الغربة فى البيئة والاستيحاش بالعقيدة (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)[1]

٤ – وهناك الفتنة الكبرى : هى فتنة النفس ، والشهوة ، وجاذبية الأرض والرغبة فى المتاع والسلطان مع المعوقات والمثبطات فى أعماق النفس وفى تصورات أهل الزمان .

٥ – فإذا طال الزمن وأبطأ نصر الله كانت الفتنة أشد وأقسى . وكان الابتلاء أشد وأعنف ولم يثبت إلا من عصم الله .

وهؤلاء هم الذين يحققون فى أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى أمانة السماء فى الأرض ، وأمانة الله فى ضمير الإنسان .

وحاشا لله أن يعذب المؤمنين بالابتلاء وأن يؤذيهم بالفتنة ولكنه الإعداد الحقيقى لتحمل الأمانة ، فهى فى حاجة إلى إعداد خاص لايتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق ، وإلا بالاستعلاء الحقيقى على الشهوات أو بالصبر الحقيقى على الآلام ، أو بالثقة الحقيقية فى نصر الله أو فى ثوابه على الرغم من طول الفتنة ، وشدة الابتلاء[2] .

فعلى دعاة الإسلام أن يجعلوا نصب أعينهم قول الرسول ﷺ : (ألا إن

(*) راجع ص ١٤١ فى هذا البحث .

(١) مسلم ج ١ ص ٩٠ – الدارمى ج ٢ ص ٢٢٠ عن أبى هريرة وابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا .

(٢) انظر الظلال لسيد قطب ج ٢٠ ص ٢٧٢٠ – ٢٧٢١ .

سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة)[1].

* * *

- نماذج من تحمله ﷺ أذى المشركين :

أ - من ذلك حديث عمرو بن العاص لما سأله عروة بن الزبير عن أشد ماصنع المشركون برسول الله ﷺ قال (بينا رسول الله ﷺ ، يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله - ﷺ - ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ - وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم[2]).

ب - والمرة الثانية قصة سلاء الجزور :

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : بينا النبى - ﷺ - ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبى معيط بسلاء جزور فقذفه على ظهر النبى ﷺ - فلم يرفع رأسه فجاءت فاطمة عليها السلام - فأخذته من ظهره ودعت على من صنع فقال النبى - ﷺ - اللهم عليك الملأ من قريش أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة وأمية بن خلف وأبى بن خلف (شعبة الشاك) فرأيتهم قتلوا يوم بدر فألقوا فى بئر غير أمية أو أبىّ ، إذ تقطعت أوصاله فلم يلق فى البئر [3].

وفى رواية لمسلم : (ثم دعا عليهم ثلاث مرات فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته وكانوا سبعة نفر منهم عقبة بن أبى معيط) .. وفى رواية أخرى له : (وفيهم أمية بن خلف)[4] ولم يشك الراوى قلت وهو الصواب لأنه قتل يوم بدر كما فى مسلم وأبى قتل يوم أحد[5] طعنه النبى

---

(١) انظر جامع الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٧ ص ١٤٦ - ١٤٧ (حديث حسن غريب) .

(٢) البخارى ج ٣ ص ١٨٣ وانظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٢٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٢١ - اى البخارى .

(٤) مسلم ج ٥ ص ١٧٩ . ١٨٠ .

(٥) كما فى البداية والنهاية ج ٣ ص ٤٤ - ونور اليقين ص ١٣٩ . الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيميه ج ٤ ص ١٥٨ .

ﷺ – طعنة فى ترقوته كانت سبب هلاكه وهو راجع ولم يقتل غيره .

ومازال عقبة فى مواصلة أعماله الجنونية فبصق فى وجه النبى – ﷺ – تلبية لرغبة صديقه أبى بن خلف حينما بلغه أن عقبة جلس إلى النبى – ﷺ – وسمع منه فقال وجهى من وجهك حرام إن أنت جلست إليه أو سمعت منه ، أولم تأته فتتفل فى وجهه ففعل ذلك عدو الله فأنزل الله تعالى : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتىَ ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا** ﴾ [1]

وفى رواية (إن عقبة دعا النبى ﷺ – إلى وليمة بمناسبة قدومه من سفر فأبى النبى أن يأكل إلا أن يشهد عقبة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فشهد بذلك ...[2]) الحديث .

قال ابن كثير : (وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم كما قال تعالى : ﴿ **يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾[3] ، **فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعض على يديه قائلا : (ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) (ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) .**[4]

وسواء فى ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبى أو غيرهما)[5] .

جـ – وكان أبو جهل من أشد المشركين عداوة لرسول الله ﷺ قال ابن إسحق :

(كان رسول الله – ﷺ – يصلى فلما سجد جاءه أبو جهل فوطىء عنقه فأنزل الله تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ﴾[6] إلى آخر السورة . .

---

(١) الفرقان : ٢٧ – ٢٨ .

(٢) انظر السيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦١ – لباب النقول . ولم يذكر البصق . ص ١٢٦ – روح المعانى ج ١٩ ص ١١ – السيرة النبوية أبو شهبة ج ١ ص ٣٥١ .

(٣) الأحزاب : ٦٦

(٤) الفرقان : ٢٧ · ٢٨ يعنى من صرفه عن الهدى إلى طريق الضلالة .

(٥) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١١٦ .

(٦) سورة العلق : ٩ .

وفيه : فقال رسول الله ﷺ – والله لئن عاد لتأخذنه الزبانية فانتهى فلم يقدر)[1] .

وقد ذكر الوطء على العنق الشريف : رؤوف شلبى نقلا عن الحلبية وفتح البارى وزاد :

(حتى كادت عيناه تبرزان) وأسند ذلك الفعل إلى عقبة بن أبى معيط)[2] ولم أجد ذلك فى الفتح .

قلت : وهذا يتعارض مع رواية البخارى والترمذى وغيرهما من أن أبا جهل لم يقدر على تنفيذ خطته الإجرامية لما رأى من الهول .

(قال ابن عباس : قال أبو جهل لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن عنقه فبلغ النبى – ﷺ – فقال : لو فعله لأخذته الملائكة)[3] .

وقد وقع عند البلاذرى : (نزل اثنا عشر ملكا من الزبانية رؤوسهم فى السماء وأرجلهم فى الأرض) .

وأخرج النسائى عن أبى هريرة نحو حديث ابن عباس وزاد فى آخره (فلم يفجأهم منه إلا وهو أى أبو جهل ينكص على عقبه ويتقى بيده فقيل له . فقال : إن بينى وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة فقال النبى ﷺ – (لودنا لاختطفته الملائكة عضوا عضوا)[4] كما رواه مسلم عن أبى هريرة مطولا وأحمد فى مسنده من طريق المعتمر عن أبيه وفيه (لودنا منى) الحديث[5] .

ومع هذا فلا تقوى رواية ابن إسحق ومانقله رؤوف شلبى عن السيرة الحلبية من أن أبا جهل أو غيره وطأ عنق الرسول ﷺ ناهيك أن النفى ثابت فى كتب الحديث الصحيحة لاسيما البخارى بخلاف كتب السيرة فإنها تحتاج إلى

---

(١) السير والمغازى لابن إسحق ص ٢٣٠ .

(٢) الدعوة الإسلامية لرؤوف شلبى ص ٣٧٤ .

(٣) البخارى ج ٣ ص ٢١٩ – الترمذى بتحفة الأحوذى وقال حسن صحيح ج ٩ ص ٢٧٩ .

(٤) انظر فتح البارى ج ٨ ص ٧٢٤ . بهذا اللفظ

(٥) مسلم ج ٨ ص ١٣٠ – المسند ج ٢ ص ٣٧٠ .

تمحيص ودراسة والقول ماقالت حذام[1] فإن قيل آن الثبت مقدم على النفى فيقال إذا تساويا فى القوة ولامساواة هنا والنفى بالبرهان مقدم على الإثبات بدونه . وإن قيل : لم شدد الأمر فى حق أبى جهل ولم يقع مثله فى حق عقبة ابن أبى معيط حيث طرح سلاء الجزور على ظهره ﷺ وهو يصلى ؟ فالجواب : لأنهما وإن اشتركا فى مطلق الأذية حال صلاته لكن زاد أبو جهل بالتهديد ، وبدعوى أهل طاعته وبإرادة وطء العنق الشريف . وفى ذلك من المبالغة مااقتضى تعجيل العقوبة لو فعل ذلك، ولأن سلاء الجزور لم تتحق نجاسته وقد عوقب عقبة ومن شاركه فى فعله فقتلوا يوم بدر .[2]

د - حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت للنبى ﷺ (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك مالقيت وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ماأردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[3] فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وماردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم،فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال : يامحمد فقال : ذلك فيما شئت[4] إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبى ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئا) .

وفى مسلم : (وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ...)[5]

ولم يكن سكوت النبى ﷺ وتحمله أذى المشركين فى هذه المرحلة

---

(١) أى القول السديد المعتد به وهو مثل يضرب فى التصديق . مجمع الأمثال ج ٢ ص ١٠٦ .

(٢) انظر فتح البارى ج ٨ ض ٧٢٤ .

(٣) قرن الثعالب ميقات أهل نجد المعروف بقرن المنازل . حاشية صحيح مسلم ج ٥ ص ١٨١ .

(٤) قوله (ذلك) مبتدأ خبره محذوف تقديره كما علمت أو كما قال جبريل . وقوله (ماشئت) استفهام وجزاؤه مقدر أى إن شئت فعلت هكذا قال الحافظ فى الفتح ج ٦ ص ٣١٦ وفى الهامش مالفظه قال : مصحح طبعة بولاق لعل فيه سقطا والأصل والله أعلم (وقوله ماشئت استفهام وقوله إن شئت شرط ، وجزاؤه مقدر) .

(٥) متفق عليه البخارى ج ٢ ص ٢١٤ - ٢١٥ ، مسلم ج ٥ ص ١٨١ .

للدعوة عن خنوع أو ذل ولكن سكوت خاضع لتخطيط دقيق وضعه قائد المسيرة محمد ﷺ على ضوء الوحى الربانى الذى يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال** ﴾[1]الآية .

وقد تم تنفيذ هذا المخطط بكثير من الحرص ، ولو أن أية مقاومة بدت من الرسول ﷺ فى فجر الدعوة لكانت الشرارة الأولى التى تقع فى برميل البارود فتفجر الموقف تفجرا عنيفا ولن يكون ذلك فى صالح الداعية والدعوة نظرا لقلة أصحابه وكثرة عدوه وقوته [2] .

وسيأتى الكلام حول هذه الآية إن شاء الله فى بيعة العقبة الكبرى إنه سيبقى متحملا للأذى لايبدى أية مقاومة حتى يصلب عوده ويستكمل قوته ويقيم دولته . وعندئذ يبدأ الصدام بقوة تمكنه من انتزاع النصر بفضل الله عز وجل .

هـ - وكان من أشد المستهزئين برسول الله ﷺ - عمه أبو لهب ، بل أشد عليه من الأباعد إذ كان يرمى القذر على بابه لأنه كان جارا له وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية (حمالة الحطب) إذ كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر . فأنزل الله - **سبحانه - فيهما ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾** إلى آخر السورة . وحين سمعت مانزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر ، وفى يدها فهر[3] من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله فلا ترى إلا أبا بكر فقالت ياأبا بكر أين صاحبك فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله إنى لشاعرة ثم قالت : مذمما عصينا ، وأمره أبينا ، ودينه قلينا . ثم

---

(١) سورة النساء : ٧٧ .

(٢) التفسير السياسى للسيرة محمد رواش قلعه ص ٥٢ .

(٣) الفهر حجر على مقدار الكف . هامش بن هشام ج ١ ص ٣٥٦ .

انصرفت . فقال أبو بكر يارسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال مارأتني لقد أخذ الله ببصرها عني .[1]

و - وحينما كان يخرج رسول الله ﷺ - يدعو الناس بأن يقولوا لا إله إلا الله ، كان يتبعه عمه أبو لهب حيث ذهب يقول : أيها الناس لايغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم إنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى وكان يسفي على رسول الله ﷺ - التراب . وفي رواية في سوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله .[2]

وفي سيرة ابن إسحق عن طارق قال : رأيت رسول الله ﷺ مرتين : رأيته بسوق ذي المجاز .. وعليه حلة حمراء فسمعته يقول : أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وهو يقول : أيها الناس لاتطيعوا هذا فإنه كذاب . فقلت : من هذا ؟ فقيل هذا غلام من بني عبد المطلب فقلت من هذا الذي يرميه بالحجارة ؟ فقيل : عمه أبو لهب ..[3]

ز - وفي يوم من الأيام عرض لرسول الله ﷺ - سفيه من سفهاء قريش فألقى عليه ترابا فرجع إلى بيته فأتت إحدى بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي فجعل يقول : أي بنية لاتبكيني فإن الله مانع أباك . فلزم بيته وأقل الخروج لأن قريشا نالت منه بعد وفاة عمه أبي طالب زوجه خديجة - رضي الله عنها - مالم تكن تنال ولاتطمع فيه ، وسمي ذلك العام عام الحزن .

وكان من النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ - الحكم بن أبي العاص ، وعدي بن الحمراء والعاصي بن وائل والأخنس بن شريف والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وغيرهم وابن الأصداء الهذلي وكانوا جيرانه عليه الصلاة والسلام . وبئس الجوار .

وكما كانوا يطرحون عليه رحم الشاة وهو يصلي كانوا يطرحونها في برمته

---

(١) انظر السيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ - تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٣٦ - فتح البارى ج ٨ ص ٧٣٨ .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤١ .

(٣) السير والمغازى ص ٢٣٢ لابن اسحق .

إذا نصبت له فكان إذا طرحوا شيئا من ذلك يحمله على عود ثم يقف على بابه ثم يقول : يابنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ ثم يلقيه فى الطريق .

قال ابن كثير : (وعندى أن غالب ماروى فى طرحهم السلاء بين كتفيه وهو يصلى وخنقهم له عليه الصلاة والسلام حين حال دونه أبو بكر وكذلك عزم أبى جهل – لعنه الله – على أن يطأ على عنقه وهو يصلى فحيل بينه وبين ذلك ،كان بعد وفاة أبى طالب . والله أعلم .[1]

ح – إلى الطائف :[2]

بضع سنين من مبعثه ﷺ – قضاها بين أهله وعشيرته وبين سائر قريش يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ماسواه فما كان منهم إلا السخرية والعناد والجحود رغم شهرته ﷺ بالصدق والأمانة حتى لقبوه بالصادق الأمين .

ولم يكتفوا بالتكذيب بل لجأوا إلى أسلوب المنقطع عن الحجة وهو السب والشتم والأذى كما سبق أن ذكرنا بعض النماذج من ذلك .

وبعد وفاة عمه أبى طالب الذى كان يدافع عنه ويحميه بتسخير الله إياه وبعظيم حكمته سبحانه وتعالى حيث كان درعا حصينا له ولدعوته – عليه الصلاة والسلام – من الأعداء . وبعد وفاة زوجه خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها التى واسته بنفسها ومالها وكانت تؤازره وتؤانسه وتهون عليه أمر الناس .

لما كان ذلك اشتد عليه الحزن لفراقها ولما نالت منه قريش ولم يستجب له إلا القليل معظمهم من الضعفاء والعبيد ، وهم لايستطيعون حمايته بل ولا حماية أنفسهم والمسلمون آنذاك ، وإن كان فيهم من له القدرة علي الدفاع عن نفسه

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٤ – ١٣٥ . السيرة النبوية ابن هشام ج١ ، ص ٣٥٤ – ٣٦٢ – ٤١٦ . نور اليقين للخضرى ص ٤١ – ٤٤ .

(٢) كان ذلك بعد الخروج من الشعب وبعد وفاة أبى طالب وخديجة أم المؤمنين رضى الله عنها وذلك فى أواخر السنة العاشرة من البعثة وسمى ذلك العام عام الحزن ، انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧١ – فتح البارى ج ٧ ص ١٩٤ . الحلبية ج ٢ ص ٤٠ – ووضعته هنا لتسلسل النماذج .

أو عن رسول الله ﷺ لكن مانسبة الشامة البيضاء فى الثور الأسود ؟ بل ظروف الموقف لاتساعد على ذلك – لهذا خرج الرسول ﷺ – إلى الطائف – قبيلة ثقيف ماشيا على قدميه ذهابا وإيابا وحده . وقيل معه زيد بن حارثه يلتمس النصرة والمنعة بهم من قومه حتى يبلغ رسالة ربه ، ولكى يخفف عن نفسه بعض الأحزان التى كان يحملها . فلما دعاهم إلى الله تعالى ردوه – مع الأسف – ردا منكرا ، وأغلظوا له الجواب ومكث بضعة أيام يتردد على منازلهم دون جدوى .

فلما يئس أو أيس[1] الرسول عليه الصلاة والسلام منهم قال : إذن فاكتموا عنى كراهية أن يبلغ قريشا فتزداد عداوتهم وشماتتهم فلم يفعلوا . وأغروا عليه سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به يقفون فى وجهه فى الطريق يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه – وزيد بن حارثة يحاول – عبثا الدفاع عنه حتى شج رأسه – بأبى هو وأمى – واضطروه إلى أن يلجأ إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وكانا فيه فصرفا الأوباش عنه .[2]

وهنا استوحش الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام – لذلك الحاضر المرير – وثابت[3] إلى نفسه ذكريات الأيام التى عاناها مع مشركى قريش ، إنه يجر وراءه سلسلة ثقيلة من المآسى ، توفى عمه الذى كان يحميه ، وزوجه التى كانت تؤنسه وتشد أزره فهتف قائلا :

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى[4]، أم إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى . ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له

---

(١) اليأس القنوط ضد الرجاء . ومنه قوله تعالى : ﴿ ولاتيأسوا من روح الله ﴾ يوسف – ٨٧ .
وبعضهم يقول : أيس مقلوب من يئس . ا هـ . قاموس ج ٢ ص ٢٦٠ – مصباح ج ١ ص ٣٨ .
(٢) أخلاط ورذال الناس . ا هـ . أساس البلاغة ص ١٠٠٣ وسند هذه القصة صحيح اخرجها ابن إسحق عن مجد بن كعب القرظى فى سلامع تفاصيل ذكرها الألبانى فى تخريج أحاديث فقه السيرة للغزالى ص ١٣٢
(٣) رجعت قاموس خاص ٤٢ .
(٤) تجهمه استقبله بوجه كريه . قاموس ج ٤ ص ٩٢ – هامش السيرة ابن هشام .

الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك[*] .

فأرسل الله تعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين[1] على أهل مكة فقال رسول الله ﷺ (أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لايشرك به شيئا)[2] .

وقد حصل للنبى ﷺ أذى كثير لانستطيع حصره قالوا ساحر كذاب .. مجنون شاعر كاهن ..

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأى المرسلين ﴾[3] .

إن موكب الدعوة إلى الله موغل فى القدم، ضارب فى شعاب الزمن، ماض فى الطريق اللاحب[4]،ماض فى الخط الواصب[5] مستقيم الخطى ثابت الأقدام يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ويقاومه من الضالين التابعون والمتبوعون ، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة ، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء والموكب فى طريقه لاينحنى ، ولاينثنى ولاينكص[6] ولايحيد ، والعاقبة هى العاقبة مهما طال الزمن ، ومهما طال الطريق . إن نصر الله دائما فى نهاية الطريق **﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل**

(*) ذكره ابن إسحق بدون سند ، وأورده ابن كثير بدون سند أيضا فى المرجعين السابقين ، وأشار إلى مثل ذلك الحافظ فى الفتح ج ٦ ص ٣٥ ، وكذلك رواه ابن جرير ١ - ٨٠ - ٨١ من طريق ابن إسحق ، والطبرانى فى الكبير فى حديث عبد الله بن جعفر ، قال الهيثمى (٦ / ٣٥) وفيه ابن إسحق ، وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات ، وحكم عليه الألبانى بالضعف ، انظر تخريج أحاديث فقه السيره للغزالى ص ١٣٢ ، ولكنى أرى أنوار النبوة تشع من خلال كلماته والله أعلم .

(١) هما جبلا مكة اللذان هى بينهما .

(٢) انظر السيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٩ - ٤٢٠ - البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٥ - ١٣٦ البخارى ح ٢ ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، مسلم ج ٥ ص ١٨١ ، فقه السيرة للغزالى ص ١٣٠ - نور اليقين ص ٦ - ٦٧ - مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب ط . بيروت ٧٥ .

(٣) سورة الأنعام : ٣٤ .

(٤) اللاحب: الواضح ا هـ . قاموس ح ١ ص ١٧٢ .

(٥) مفازة واصبة أى بعيدة المدى . ا هـ . المرجع نفسه .

(٦) من باب قعد : والنكوص الإحجام عن الشيء . مصباح ج ٢ ص ٢٩٦ .

لكلمات الله ولقد جاءك من نبأى المرسلين ﴾ .[1]

كلمات يقولها الله سبحانه - لرسوله - ﷺ - للذكرى وللتسرية وللمواساة والتأسية . وهى ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله - ﷺ - طريقهم واضحا ودورهم محددا ، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ثم ماينتظرهم بعد ذلك كله فى نهاية الطريق ، إنها تعلمهم أن سنة الله فى الدعوات واحدة ، كما أنها كذلك وحدة لاتتجزأ دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب وتتلقى أصحابها بالأذى، وصبر من الدعاة على التكذيب ، وصبر كذلك على الأذى ، وسنة تجرى بالنصر فى النهاية ، ولكنها تجيء فى موعدها . لايعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى ، والتكذيب ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين ، ولايعجلها كذلك عن موعدها إن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته وشهواته إنما يرغب فى هداية قومه حبا فى هدايتهم ويأسا على ماهم فيه من ضلال وشقوة ، وعلى ماينتظرهم من دمار وعذاب ، فى الدنيا والآخرة .

لايعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله ، فإن الله لايعجل لعجلة أحد من خلقه ولامبدل لكلماته سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم أم تعلقت بالأجل المرسوم .[2]

﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولاتستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾[3] .

توجيه يقال لمحمد - ﷺ - وهو الذى احتمل مااحتمل، وعانى من قومه ماعانى، وهو الذى نشأ يتيما .. وهو الذى لقى من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين . وهو الذى خرج مرات يستنصر القبائل والأفراد وحده وهو الذى يقابل بالسخرية والرجم بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان فما

---

(١) سورة الأنعام : ٣٤ .

(٢) فى ظلال القرآن ج ٧ ص ١٠٧٧ - ١٠٧٨ .

(٣) سورة الأحقاف : ٣٥

يزيد أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهال الخاشع النبيل .

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه : ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولاتستعجل لهم** ﴾ ألا إنه لطريق شاق طريق هذه الدعوة ومرير . حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ في تجردها وانقطاعها للدعوة وفى ثباتها وصلابتها وفى صفائها وشفافيتها[1] .

تحتاج إلى التوجيه الربانى بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين وماهى إلا حياة خاطفة ثم يلاقون المصير المحتوم ثم يلبثون فى العذاب الدائم[2] .

فعلى دعاة الإسلام أن يصبروا ويثبتوا ويتسلوا بما لحق بالرسول ﷺ من الأذى والمتاعب ، ولايهولنهم قوى الطغيان فالعاقبة للمتقين وهى إحدى الحسنيين ، والله لايخلف الميعاد ، فقد وعد المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا** ﴾ [3] .

فما حقيقة ذلك الإيمان ؟ وماحقيقة هذا الاستخلاف ؟

إن حقيقة الإيمان التى يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنسانى كله ، وتوجه النشاط الإنسانى كله ، فما تكاد تستقر فى القلب حتى تعلن عن نفسها فى صورة عمل ونشاط وبناء موجه كله إلى الله – سبحانه – لايبتغى به صاحبه إلا وجه الله ، وهى طاعة لله ، واستسلام لأمره فى الصغيرة والكبيرة ، لايبقى معها هوى فى النفس ، ولاشهوة فى القلب ولاميل فى الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله ، يتمثل هذا كله فى قول الله تعالى : ﴿ **يعبدوننى لايشركون بى شيئا** ﴾ . – والشرك مداخل وألوان ، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله – ذلك الإيمان

---

(١) يقال ثوب شفيف أى رقيق وهو الذى يستشف ماوراءه . مصباح ج ١ ص ٣٤٠

(٢) المصدر نفسه / الظلال / ج ٢٦ ص ٣٢٧٥ – ٣٢٧٦ .

(٣) سورة النور : ٥٥ .

منهج حياة كامل يتضمن كل مأمر الله به ونهى عنه .

فما حقيقة الاستخلاف فى الأرض ؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم . إنما هى هذا كله على شرط استخدامه فى الإصلاح والبناء وتحقيق الهدف الذى رسمه الله للبشرية كى تسير عليه وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها فى الأرض ، اللائق بخليفة أكرمه الله .

أما الذين يملكون فيفسدون فى الأرض وينشرون فيها البغى والجور ، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان فهؤلاء ليسوا مستخلفين فى الأرض إنما هم مبتلون بما هم فيه أو مبتلى بهم غيرهم ، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله . وهل هذا من الدين الذى يرتضيه الله لهم ويتم تمكينه فى قلوبهم فى شىء ؟

وقد أنجز الله هذا الوعد ومكن النبى ﷺ ، والخلفاء الراشدين من بعده فى الأرض ، وبدلهم بعد الخوف أمنا ، فقد كانوا يمسون ويصبحون فى السلاح، فلما أظهر الله النبى ﷺ على جزيرة العرب وسائر الفتوحات أمنوا ووضعوا السلاح . وهكذا أمن المسلمون إلى عهد الخليفة الثالث ووقعوا فيما وقعوا فيه ، فأدخل الله عليهم الخوف ، فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا فغيربهم[1] .

- نماذج من فتنة الجيل الأول :

سبق أن ذكرت فى مطلع هذا الفصل أن التربص بالدعوة الإسلامية وأصحابها هى سنة قديمة وقد مر بنا بعض ماتحمله النبى ﷺ - من أذى المشركين فى سبيل الدعوة إلى الله سبحانه .

والآن نستعرض أو نلمح إلى شىء مما حصل ببعض أفراد الجيل الأول ، الذين بذلوا أرواحهم رخيصة فى سبيل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

---

(١) من الظلال بتصرف ج ١٨ ص ٢٥٢٨ - ٢٥٢٩ .

فلقد كانت الفتنة عامة ، لم تقتصر على الرسول الداعية - ﷺ - وحده بل انتشرت إلى الأتباع لأن الغرض الرئيسى بل الوحيد فى مخطط القوى المجابهة للدعوة هو القضاء عليها وعلى أصحابها فى مهدها قبل أن تمتد جذورها وتنمو أغصانها وتؤتى ثمارها ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ [1] . فشلت قريش فى مخططها الإجرامى ضد الرسول ﷺ - بشتى الوسائل ، إذ منعه الله بعمه أبى طالب ولم ينالوا منه - كما ذكرنا سابقا - حتى توفى عمه .

لما كان ذلك صممت قريش على فتنة الأتباع كما قال ابن إسحق : (ثم إنهم غدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ - من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة ، إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم . فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ومنهم من يصلب لهم ، ويعصمه الله منهم) وقد سئل ابن عباس رضى الله عنهما أكان المشركون يبلغون من المسلمين فى العذاب ، مايعذرون به فى ترك دينهم ، فقال : نعم ، والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه حتى مايقدر أن يستوى جالسا من شدة الضر الذى به ، حتى أنه ليعطيهم ماسألوه من الفتنة وحتى يقولوا اللات والعزى إلٓهك من دون الله ، فيقول : نعم ، كذلك الجعل[2] ... .

أما من كانت له عشيرة تحميه فقد امتنع بعشيرته شيئا ما ، فهو وإن حصل به شيء بالنسبة لمن لاعشيرة له ، فهو قليل كأبى بكر الصديق رضى الله عنه .

---

(١) التوبة : ٣٢ .

(٢) السير والمغازى ج ٤ ص ١٩٠ - ١٩٣ - السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ، ص ٣١٧ - البداية ج ٣ ص ٤٩ وفى سنده حكيم بن جبير الاسدى عن سعيد بن جبير قال لحافظ ضعيف رمى بالتشيع ا هـ تقريب ج ١ ص ١٩٣ وقال الذهبى شيعى مقل ، وقال أحمد ضعيف منكر الحديث ، وقال البخارى كان شعبة يتكلم فيه ، وقال النسائى ليس بالقوى وقال الدارقطنى متروك انظر الميزات جامع ٥٨٣ وابن إسحاق صدوق مدلس رمى بالتشيع والقدر ، والجمهور على أنه حسن الحديث ، ومحتج به إذا صرح بالتحديث وهنا حرف فزال التدليس فالإسناد ضعيف لأن فيه حكيم بن جبير انظر خلاصة التهذيب تذهيب التهذيب للخزرجى ج ٢ ص ٣٩٧ والتقريب لابن حجر ج ٢ ص ١٤٤ .

١ - أبو بكر الصديق رضى الله عنه :

هو أول السابقين إلى الإسلام من الرجال ، وصاحب رسول الله ﷺ فى الغار ، وفى سبيل الدعوة إلى الله - عز وجل - والدفاع عن رسول الله ﷺ ، ضرب أكثر من مرة ، ففى يوم من أيام الإسلام الأولى قام يدعو الناس إلى الله وإلى رسوله بل قام خطيبا فكان أول خطيب فى الإسلام ، فثار المشركون عليه ، فوطىء وضرب ضربا شديدا وجعل عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين يحرفهما فى وجهه حتى مايعرف وجهه من أنفه وحملت بنو تميم أبا بكر وهم لايشكون فى موته وتكلم آخر النهار فقال : مافعل رسول الله ﷺ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ودنت منه أم جميل[1] - وهى ممن أسلم - فسألها عن رسول الله ﷺ - قالت هذه أمك تسمع قال : فلا شىء عليك منها ، فقالت : سالم صالح ، قال : فإن لله على ألا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى[2] رسول الله ﷺ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ - فرق له رقة شديدة فدعا لأمه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت .[3]

وقد أخرج أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح عن أنس قال : (لقد ضربوا رسول الله مرة حتى غشى عليه فقام أبو بكر فجعل ينادى ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ فتركوه وأقبلوا على أبى بكر) وهذا من مراسيل الصحابة وقد أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن مطولا من حدث أسماء بنت أبى بكر ،

---

(١) اختلف فى اسمها فقيل فاطمة وقيل جويرية بنت المجلل من السابقات إلى الإسلام وممن جمعت بين الهجرتين الى الحبشة والمدينة وهذا احتراز من أم جميل امرأة ابى لهب . وانظر الاستيعاب مع الاصابة ج ١٣ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) اى حتى آتى أو إلى إن آتى ومنه قول الشاعر :
لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر

(٣) انظر سيرة ابن كثير ج ١ ص ٤٣٩ - ٤٤١ . وقد رواه مطولا . قال عبد الله بن محمد فحدثنى أبى محمد بن عمران عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها . وقد بحثت هذا السند فوجدت ان محمد بن عمران صدوق كما قال الحافظ ابن حجر فى التقريب ج ٢ ص ١٩٧ - والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق أحد الفقهاء السبعة وأحد الأعلام . قال ابن سعد كان ثقة عالما فقيها إماما كثير الحديث وقال أبو الزناد مارأيت أعلم بالسنة من القاسم بن محمد فى فقهاء الأمة . أ هـ . خلاصة تذهيب تهذيب الكمال ج ٢ ص ٣٤٦ - الاستيعاب مع الإصابة ج ٦ ص ٣٧٧ - ٣٧٩ ولم أعثر على شىء فى عبد الله بن محمد .

وفيه (فأتى الصريخ إلى أبى بكر فخرج وله غدائر أربع وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، فلهوا عنه وأقبلوا إلى أبى بكر ، فرجع وهو لايمس شيئا من غدائره إلا رجع معه ولقصة أبى بكر هذه شاهد من حديث على أخرجه البزار أيضا[١] .

وأورد ابن عبد البر هذه القصة فى الاستيعاب من حديث أسماء أيضا بنحوه[٢] . وفى رواية ابن إسحق فرجع أبو بكر وقد صدعوا فرق رأسه .[٣]

٢ - عمار بن ياسر[٤] أبو اليقظان

هو من السابقين الأولين إلى الإسلام هو وأبواه وكان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها ، فيمر بهم رسول الله ﷺ - وهم يعذبون فيقول : (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[٥] .

فمات ياسر فى العذاب .

وأغلظت امرأته (سمية) القول لأبى جهل فطعنها بحربة فى موضع عفافها فماتت ، وهى أول شهيدة فى الإسلام .

وشدد العذاب على عمار بالحر تارة وبوضع الصخر على صدره تارة أخرى وكان المشركون يقولون له : لانتركك حتى تسب محمدا أو تقول فى اللات والعزى خيرا . ففعل ، فتركوه . فأتى النبى ﷺ يبكى ، فقال ماوراءك ؟ قال : شر يارسول الله كان الأمر كذا وكذا .. قال فكيف تجد قلبك ؟ قال : أجده

---

(١) انظر فتح البارى ج ٧ ص ١٦٩ . وقد ذكر تعدد القصة بألفاظ منها ماذكرناه .

(٢) الاستيعاب مع الإصابة ج ٦ ص ٣٧٧ - ٣٧٩ فى ترجمة أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

(٣) السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٢٩٠ وبمجموع هذه الروايات يتجه القول بثبوت هذه القصة لاسيما وقد صرح الحافظ فى الفتح بأن إسناد روايتى أبى يعلى والبزار صحيحان عن أنس كما صرح أيضا بأنه حسن فى رواية أبى يعلى المطولة من حديث أسماء والله أعلم . ولعل ذلك كان قبل دخوله فى جوار أبى الدغنة أو بعده فقد رد عليه جواره واستمر فى جوار الله كما فى سيرة ابن هشام ج١ ص ٣٧٣ - ٣٧٤ . البخارى ج ٢ ص ٣٣١ .

(٤) كان عمار مولى لبنى مخزوم قتل فى صفين مع على بن أبى طالب .

(٥) حديث حسن صحيح رواه ابن إسحق فى السيرة ص ١٩٢ . وابن كثير فى السيرة ج ١ ص ٤٩٤ . ووصله الحاكم والطبرانى فى الأوسط وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى. ا هـ . باختصار حاشية فقه السيرة للغزالى تخريج الألبانى ص ١٠٧ .

مطمئنا بالإيمان . فقال : ياعمار إن عادوا فقد فأنزل الله تعالى ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾[1] .

قال ابن كثير : (فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى مايقول . وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالى المكره على الكفر إبقاء لمهجته ويجوز له أن يستقتل)[2] .

وقال أبو شهبة : (ولهج بعض الناس بأن عمارا كفر ، ولكن رسول الله لاينطق عن الهوى فقال : كلا (إن عمارا مليء إيمانا من مفرق رأسه إلىأخمص قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه) ثم ذكر الآية . وكان فيها إعذار للمعذبين فى الله بأن لاحرج عليهم إن جاروا الكفار بطرف اللسان مادام القلب عامرا بالإيمان رخصة لمن خاف على نفسه الهلاك)[3] .

وهو الذى أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه محمد ﷺ[4] وفى سنن النسائى : (مليء عمار إيمانا إلى مشاشه)[5] وقال النبى ﷺ (ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار) . من حديث أبى سعيد عند البخارى .

ولفظ مسلم : عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ – قال لعمار (تقتلك الفئة الباغية) وفى لفظ : (تقتل عماراً الفئة الباغية) .

وفى سنن الترمزى بلفظ : (أبشر ياعمار ، تقتلك الفئة الباغية)[6] .

---

(١) النحل : ١٠٦ . قال الألبانى فى ثبوت هذا السياق نظر وعلته الإرسال كذا فى حاشية فقه السيرة ص ١٠٨ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٢٥ وقال فى السيرة : فهؤلاء كانوا معذورين لما حصل لهم من الإهانة والعذاب البليغ أجارنا الله من ذلك بحوله وقوته . ج ١ ص ٤٩٥ – أورد الأحاديث عن الطبرى والبيهقى وسكت عن الحكم عليها .

(٣) السيرة النبوية أبو شهبة ج ١ ص ٣٥٦ .

(٤) البخارى من حديث أبى الدرداء ج ٢ ص ٣٠٥

(٥) سنن النسائى من حديث على مرفوعا ج ١ ص ٥٢ – باب ١١ والحاكم وقال الألبانى وهذا إسناده صحيح رجاله ثقات . وانظر التفاصيل فى سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى ج ٢ ص ٤٦٦ – ٤٦٧ – المكتب الإسلامى .

(٦) البخارى ج ١ ص ٨٩ ، مسلم ج ٨ ص ١٦٥ – ١٨٦ ، سنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ١٠ ص ٣٠١ .

٣ – بلال بن رباح :[١]

كان بلال صادق الإسلام ، ومن السابقين طاهر القلب . وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : (لا والله) لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو فى ذلك العذاب أحد أحد .

وقد قال له النبى ﷺ (سمعت دق نعليك بين يدى فى الجنة) كما فى الصحيحين[٢] .

فما من المستضعفين أحد إلا وقد واتاهم على ماأرادوا إلا بلال ، فإنه هانت عليه نفسه فى الله فأخذوه فأعطوه الولدان يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد [٣] .

٤ – خباب بن الأرت :[٤]

هو من السابقين إلى الإسلام ، المصدقين برسول الله ﷺ – عذب فى الموجة العارمة التى شنتها قريش على المستضعفين . وقد شكا إلى النبى ﷺ – مايلاقيه المسلمون من التعذيب وطلب الدعاء بالنصرة كما فى البخارى (... ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ومايصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب ومايصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لايخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)[٥] .

---

(١) كان سيده أمية بن خلف ، واسم أمه حمامه ، فداه أبو بكر الصديق بغلام له فأعتقه .
(٢) البخارى ج ٢ ص ٣٠٦ ، مسلم ج ٧ ص ١٤٦ – بلفظ : (خشف نعليك) .
(٣) السيرة النبوية – ابن كثير ج ١ ص ٤٩٢ – ٤٩٤ .

(٤) كنيته أبو عبد الله أصابه سبى فبيع بمكة اشترته أم أنمار أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ، وقيل كان سدس الإسلام اهـ . صفة الصفوة لابن الجوزى ج ١ ص ٤٧٧ ، تحقيق محمود فاخورى خرج أحاديثه محمد رواس قلعة الطبعة الأولى . حلب .
(٥) البخارى ج ٢ ص ٢٨١ – ٣٢١ – بألفاظ متقاربة ومواضع متعددة .

آه قوم تحملوا كل هذا ليبقى لهم إيمانهم فى صدورهم وليوصلوا هذا الإيمان الحار إلى أمم الأرض، ولما وصل الإيمان إلى مسلمى اليوم مرويا بدماء الأبرار، باعوه للشيطان بأبخس الأثمان، وباعوه بالمنصب الزائل، والكلمة الجوفاء، والمال الحقير .. تبالها من صفقة ..[1]

* * *

فى ظلال النماذج :

هكذا سنة الله في عباده، فلن تجد لسنة الله تبديلا حتى مع أنبيائه وأصفيائه، أوذى رسول الله ﷺ – كما أوذى الرسل من قبله.

ومن أجل ذلك أوذى أصحاب رسول الله ﷺ – حتى مات منهم من مات، تحت العذاب رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله – عز وجل –.

ومعلوم أن الحق لايقوم بنفسه، بل لابد من قائمين به، ولابد من تضحيات فى سبيل إقامته ﴿ **والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾. قال الشافعى : ﴿ **لو ماأنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم** ﴾ وفى رواية ﴿ **لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم** ﴾[2]. وقال صاحب الظلال : (والحقيقة الضخمة التى تقررها هذه السورة بمجموعها هى هذه : أنه على امتداد الزمان فى جميع الأعصار وامتداد الإنسان فى جميع الأدهار ليس هنالك إلا منهج واحد رابح وطريق واحد ناج. هو ذلك المنهج الذى ترسم السورة حدوده، وهو هذا الطريق الذى تصف السورة معالمه، وكل ماوراء ذلك ضياع وخسار ..)[3] إلى أن قال : والاستقامة على المنهج الذى يريده الله. فلا يكون الخير فلتة عارضة ولانزوة طارئة ولاحادثة منقطعة. إنما ينبعث عن دوافع ويتجه إلى هدف ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون فى الله، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح والراية الواحدة المتميزة، كما تتضامن من الأجيال المتعاقبة

---

(١) انظر التفسير السياسى للسيرة ص ٦٥.

(٢) أصول الدين الإسلامى ص ٣ لمحمد بن سليمان التميمى بدون ذكر للطبعة، تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٦٩.

(٣) فى ظلال القرآن ج ٣٠ ص ٣٩٦٤.

الموصولة بهذا الجيل المتين .. .

والعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان ، والحركة الذاتية التى تبدأ فى ذات اللحظة التى تستقر فيها حقيقة الإيمان فى القلب .

فالايمان حقيقة إيجابية متحركة ، ماإن تستقر فى الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها فى الخارج فى صورة عمل صالح . هذا هو الإيمان الذى لايمكن أن يظل خامدا ، كامنا لايتبدى فى صورة حية خارج ذات المؤمن، فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت ، شأنه شأن الزهرة لاتمسك أريجها ، فهو ينبعث منها انبعاثا طبيعيا وإلا فهو غير موجود .

فقيمة الإيمان حركة وعمل وبناء ، وتعمير يتجه إلى الله ، ليس انكماشا وسلبية وانزواء فى مكنونات الضمير ، وليس مجرد النوايا الطيبة التى لاتتمثل فى حركة تجعل منه قوة بناء كبرى فى صميم الحياة . أما التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة – أو الجماعة المسلمة – ذات الكيان الخاص ، والرابطة المميزة ، والوجهة الموحدة ، والجماعة التى تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها والتى تعرف حقيقة ماهى مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح الذى يشمل فيما يشمل قيادة البشرية فى طريق الإيمان والعمل والصالح ، فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى[1] .

فإذا ماأدركت طبيعة العذاب الذى يلقاه الداعية المسلم فى طريقه إلى الدعوة إلى الله وإلى إقامة المجتمع الإسلامى ، علمت أنه ليس فى حقيقته عقبات أو سدود تصد السالك أو المجاهد عن بلوغ الغاية – كما يتوهم البعض – بل هو سلوك فى الطريق الطبيعى الذى خطه الله – تعالى – بين المسلم والغاية التى أمره بالمسير إليها . فبمقدار مايجد الداعية من المشقة يجد الغاية ، وهى إحدى الحسنيين .

---

(١) انظر فى ظلال القرآن ج ٣ ص ٣٩٦٤ – ٣٩٦٧ – وفيه كلام قيم لايستغنى عنه الداعية المسلم ولم أقتبس منه إلا اليسير والله المستعان ، وفيه أن الرجلين من الصحابة كانا إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة (والعصر) ثم يسلم أحدهما على الآخر ومثله فى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٤٦٩ .

إذن فلا ينبغى للداعية أن يتوهم اليأس إذا ماعانى شيئا من ذلك ، بل العكس هو الأمر المنسجم مع طبيعة الدعوة ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾[1]

فإن كنت لاتزال تتعجب من العذاب والأذى ، وتستغرب أن ترى ذلك فى سبيل الله — عز وجل — فنحن لانزال نؤكد لك أن هذا هو السبيل وتلك هى سنة الله فى عباده الذين آمنوا به مشط الكثير منهم بأمشاط الحديد ، وأحرق الكثير منهم بالنار فى الأخاديد .[2]

وإن كنت أيضا ماتزال ترى فى العذاب دلائل اليأس والقنوط من النصر فلا نزال نؤكد لك أنك واهم ، بل الحق هو أن تجد فى العذاب والألم سيرا فى الطريق ودنوا من النصر ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾[3] ، ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾[4] ولا يحصل نصر الله — عز وجل — للمؤمنين إلا بشرط نصرهم دينه ، وإعلاء كلمته ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[5]

وقد سبق قول الرسول — ﷺ — لخباب بن الأرت فى أحرج الظروف (وسينصرن الله هذا الدين حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لايخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)[6].

وقد بشر النبى ﷺ ، أصحابه بأن الله سيفتح لهم فارس والروم ، فلم لم تفتح إلا بعد وفاته — ﷺ — ؟ ومن مقتضى فضل رسول الله عند ربه ومدى محبة الله — عز وجل — له أن تفتح فى حياته بدلا من أن يسجل التاريخ فتحها بقيادة أحد أتباعه ؟

---

(١) سورة البقرة : ٢١٤ .

(٢) مستفاد من فقه السيرة للبوطى ص ١٠٩ — ١١٠ ، مع الله للغزالى ١٠٤ — ١٠٥

(٣) سورة الروم : ٤٧ .

(٤) سورة غافر : ٥١ .

(٥) سورة محمد : ٧ .

(٦) البخارى ج ٢ ص ٢٨١ .

الجواب : أن النصر مرتبط بالسنن الإلآهية الكونية الأزلية منها والشرعية الأمرية ولابد قبل النصر من دفع الثمن كاملا ، ولو كان الرسول ﷺ موجودا ، فليست المسألة ربط الفتوحات باسم رسول الله ﷺ ، ولكن لابد أن يبرهن المسلمون على صدقهم فى المبايعة يوم أن وقعوا بالقبول فى قوله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون** ﴾[1] الآية .

فالمثابرة على الدعوة ، والاستعانة على وعثاء الطريق بطول الصبر ، وحسن التأسى برسول الله وصدق الاعتماد على الله ، وتفانى الداعية نفسه فى حقيقة رسالته هو طريق النجاح . ومحاولة الإفلات من هذه السنة العامة لايتاح لأحد .

واسمع إلى يوسف وهو يقول لأخوته ، بعد أن كابد المشاق واجتازها بنجاح ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين** ﴾[2] .

فكأن الآية تشير إلى أن الفرد المتصف بالصبر والتقوى يستحق وصف الإحسان ومع هذا فلابد أن يدركه التوفيق ، وتلحظه عناية الله ، وينجح فى حياته ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾[3] .

وكما تصدق هذه السنة فى حياة الأفراد تصدق فى حياة الجماعات فإن الأمم لاترزق التمكين فى الأرض إلا اذا مرت بأدوار من العمل المضنى والجهاد الشاق وصبرت عل تكاليف الرسالات التى تحملها والتقدم الذى تنشده .

وقد أوضح القرآن السر فى تسويد الأقدمين من بنى إسرائيل ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[4] .

وهذه السنة عريقة ومستمرة بوعد الله للمؤمنين العاملين المخلصين — إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم**

---

(١) سورة التوبة : ١١١ .

(٢) سورة يوسف : — ٩٠ .

(٣) سورة النحل : ١٢٨ .

(٤) سورة السجدة : ٢٤ .

الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ﴾[1] .

فالصبر الطويل واليقين الراسخ هما عدة الإمامة فى الأرض والصدارة بين الناس ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾[2] .

هؤلاء لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم ولن ينسى جهادهم . إنه سينظر إليهم بل إلى جهادهم من عليائه فيهديهم وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء[3] .

فعلى دعاة الإسلام دعاة عصرنا الحاضر أن يعتبروا ، فالمسئولية ليست هينة ، ولكنها يسيرة على من يسر الله عليه بل مستعذبة عند المخلصين ، ويتأسوا برسول الله ﷺ فى القول والعمل ويتسلوا بما حصل عليه وأصحابه من المشاق فى سبيل تبليغ الدعوة إلى الله . ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** .)[4]

---

(١) سورة النور : ٥٥ .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(٣) انظر فتح القدير ج ٣ ص ٧٥ – فى ظلال القرآن ج ٢١ ص ٢٧٥٢ – مع الله للغزالى ص ٨٤ – ٨٦ – فقه السيرة للبوطى ص ١١٠ – ١١١ ، مع تصرف بسيط .

(٤) سورة الأحزاب : ٢١ .



الفصل الثانى :

مواجهة الخصوم

وفيه ثلاث مباحث :

ا ــ مفاوضات قريش الفاشلة .

ب ــ الهجرة إلى الحبشة .

جـ ــ المقاطعة العامة .



اعلم أن مواجهة الناس بالحق ، والقيام على أمره من أهم الخصال التى يحيا بها الدعاة إلى الله – سبحانه – وفى مقدمتهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتعتبر سنة لازمة لسلوكهم ، بل جزءا خطيرا من كيانهم فهم – على بعد الشقة بينهم وبين الضائقين بهم وطول الخلاف – يظلون ثابتين على دعواتهم يشرحون أصولها بدقة ويبينون حدودها بأمانة ولايتلون الحق فى رسالاتهم لرغبة أو رهبة إنهم أوفر أحلاما وأقوى أركانا من أن يستخفهم مستهزىء يحاول النيل منهم .

ولقد استمع رسول الله – عليه الصلاة والسلام – نداء المشركين الساخر حين قالوا ﴿ **يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين** ﴾ [1] فما تحرك من جانب الرسول – ﷺ – شعور قلق ﴿ **وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها** ﴾[2] الآية

وهذا اعتراف من مشركى مكة بأنه – ﷺ – قد بلغ من الاجتهاد فى الدعوة إلى التوحيد وإظهار المعجزات ، وإقامة الحجج ، والبينات ماشارفوا به أن يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم ، فهل يتنافى هذا مع استحقارهم واستهزائهم السابق ؟

يحتمل أنه لامنافاة كما يحتمل أن كلامهم قد تنافى لاضطرابهم وتحيرهم

---

(١) سورة الحجر : ٦ – ٧ .

(٢) سورة الفرقان : ٤١ – ٤٢ .

فإن الاستفهام دال على الاستحقار . والآية الثانية تدل على كمال حجته وعقله عليه الصلاة والسلام . ففيما قصه الله – سبحانه – عنهم تحميق لهم وتجهيل لاستهزائهم بما استعظموه .[1] .

قلت : ولقائل أن يقول : إن هذا من باب التبجح[2] بالتمادى فى الباطل وذلك رذيلة كما أن الرجوع إلى الحق فضيلة . والله أعلم .

– شرف الداعية المسلم ونزاهته :

إن الداعية يعيش فى الحق الذى شرفه الله به ، مثلما يعيش الناس فى أنوار الضحوة الكبرى فهو بأشعتها يهتدى ، وعلى ضوئها يسير ، ومن ثم فمن المستحيل أن يخشى عرفا سائدا أو تقاليد مقررة إذا كان هذا أوذاك ضد مايعرف من حق .

ومن المستحيل أن يتملق الجماهير أو يطلب رضاها ، كيف وهو يرى العامة مرضى ، وفى يده شفاؤهم . ومن المستحيل أن يتهيب فى ذات الله بطش ذى سلطان ، فهو يعامل ربه قبل أن يعامل عباده أيا كانوا (والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أموت دونه ماتركته)[3]

وهو يوقن بأن الحياة والموت والرزق والأجل والخفض والرفع والأمن والقلق ترجع حتما إلى مالك الملك جل شأنه ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك**

---

(١) انظر روح المعانى للألوسى ج ١٩ ص ٢٢ – مع الله – للغزالى ص ٨٠

(٢) البجح الفرح . اهـ . قاموس ج ١ ص ٢١٤ .

(٣) السيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٦ : ومن طريق ابن جرير عن يعقوب بن عتبة ويعقوب لم يدرك أحدا من الصحابة فهو من أتباع التابعين فهذا إسناد معضل . قال الألبانى . ضعيف كذا فى تخريج أحاديث فقه السيرة للغزالى ص ١١٤ ، قلت : لايضر الحكم عليه بالضعف فإن أصول الكتاب والسنة تؤيده أى فى صمود الحق وأتباعه أمام الباطل وأحزابه من ذلك قوله تعالى ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ ٩٤ من سورة الحجر . وقوله تعالى ﴿ يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ المائدة ٦٧ . وأعظم ماأرسل به ﷺ الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك . وهذه الكلمة الحاسمة قالها ﷺ فى معرض المساومة بالكف عن سب الآلهة فكانت الجواب الحاسم والكلمة الخالدة أبد الدهر ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم ﴾ آية ١٥ من سورة الشورى . وقد سكت عنه ابن كثير والله أعلم .

من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾[1]

وكان من الممكن أن تعرض الدعوة على الناقمين والكارهين بأسلوب كليل الحد يهادن الشهوات ويسالم الشرك والخرافات إلى حين .. ولكن الله – سبحانه – لم يرض هذا الأسلوب فقال : ﴿ **فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون** ﴾[2] ليس فى العقيدة مساومة ولاحلول نصفية ، فلا يلتقى الإسلام والجاهلية فى منتصف الطريق ولو جازت المساومة – ولكنها مستحيلة – فى الرسالة السماوية ، لجازت فى أحرج الظروف والمواقف العصبية فى مكة حينما كان النبى ﷺ – وأصحابه القلائل يتخطفون ، ويعذبون ويؤذون فى الله أشد الإيذاء ، وهم صابرون . ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغى أن تقال فى وجوه الأقوياء المتجبرين تأليفا لقلوبهم ، بل مضى – ﷺ – مظهرا لأمر الله لايرده عنه شيء .[3]

وهذا لايتنافى مع أسلوب الحكمة ، فاللين فى موضعه والشدة فى موضعها من الحكمة .

١ – مفاوضات فاشلة :

وقد ذكرنا فيما مضى أن النبى – ﷺ – لما صدع بالدعوة كما أمره الله ، لم يبعد عنه قومه ولم يردوا عليه حتى عاب آلهتهم وسفه أحلامهم وضلل آباءهم لما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل .

وحدب على رسول الله – ﷺ – عمه أبو طالب ،ومنعه وقام دونه ، ومضى

---

(١) سورة آل عمران : ٢٦ .

(٢) القلم : ٨ – ١٠ والادهان هو الملاينة والمسامحة والمدارات وهى إظهار خلاف ماف الضمير . وقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك مع المشركين لأنهم كانوا يدعون إلى دين آبائه . أوهو تعريض بنهيه عن أن يطيع الكفار . اهـ . فتح القدير ج ٥ ، ص ٢٦٨ .

(٣) انظر الظلال ج ٢٩ ص ٣٦٥٨ – ٣٦٥٩ – مع الله ص ٨٠ – ٨١ بتصرف .

ﷺ مظهرا دعوته لايرده شيء ، وكان مشركو قريش يعلمون أن ماجاء به النبى - ﷺ - حق ، ولكن العنادوالجحودوالجمود على تقليد الآباء والأجداد حملهم على التكذيب ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾[1] .

فلما رأت كفار قريش أن أذيتهم لرسول الله ﷺ ، وبطشهم بالمستضعفين من أصحابه لاجدوى لها ، بل كان المسلمون يتزايدون ، ويصمدون صمود الجبال الراسية أمام السخرية والتعذيب وغير ذلك بدافع قوى من الأعماق ، ناتج عن رسوخ العقيدة الصحيحة التى تلقوها من الرسول ﷺ وأن ماعليه أعداؤهم هو الباطل،لما رأت كفار قريش ذلك لجأوا إلى أسلوب آخر يجمع بين الترغيب والترهيب .

- الجلسة الأولى من المفاوضة مع الرسول ﷺ :

لما رأت كفار قريش أن أسلوب السخرية والتعذيب أسلوب فاشل ، سلكوا منهج المفاوضة باللين تارة وبالشدة أخرى ، فاستأذن عتبة بن ربيعة الملأ من مشركى قريش أن يعرض على الرسول - ﷺ - أمورا لعله يقبل بعضها ، ويكف عنهم ، فأتاه فقال له : (ياابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السلطة[2] فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

فقال رسول الله - ﷺ - قل ياأبا الوليد أسمع ..

قال : يابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به فى هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لانقطع أمرا دونك . وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان

---

(١) سورة الأنعام : ٣٣ .

(٢) أى الشرف . هامش السيرة ج ١ ص ٢٩٣ .

هذا الذى يأتيك رئيا[1] تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .

فلما فرغ من كلامه تلا عليه رسول الله ﷺ - صدر سورة فصلت إلى السجدة منها[2] وفى رواية إلى قوله تعالى : ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ فقال عتبة : حسبك حسبك وفى رواية أخرى فأمسك على فيه وناشدهم بالرحم ...[3]

- المرة الثانية مع الرسول ﷺ :

وفى المرة الثانية اجتمع أشراف المشركين حول الكعبة ، وقرروا مايلى : (قالوا نرسل إلى محمد لنعرض عليه من الدنيا مايشاء ونرسل إلى عمه الذى يحميه ، نحذره عاقبة هذا التأييد ليكلم هو الآخر محمدا أن يسكت ، فلا يجر المتاعب على نفسه ووليه ، فأرسلوا إليه ﷺ فأتاهم ، وهو يظن أن قد بدالهم فيماكلمهم فيه بداء[4] ، وكان حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم فقالوا كالمقالة التى قالها عتبة ، فقال ﷺ : (مابى ماتقولون ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .)[5] . .

إلام تهدف هذه الكلمات .. ؟

إذا تأملت هذه الكلمات الشاملة لمعنى الرسالة ، (فى عهدها الأول) تجدها تشير إلى أنها لاتهدف إلى مال أوجاه ، ولكنها تريد أن تنتشل الناس

---

(١) مايتراءى للانسان من الجن . ا هـ . المصدر نفسه .

(٢) السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ . والبداية والنهاية ج ٣ ص ٦٣ قال الألبانى فى تخريج أحاديث فقه السيرة للغزالى وسنده حسن إن شاء الله ص ١١٣ .

(٣) اورده ابن كثير فى تفسيره مطولا من طرق ج ٧ ص ١٥١ - ١٥٢.

(٤) أى ظهر لهم أمر كان خفيا .

(٥) السير والمغازى ص ١٩٧ - ١٩٨ ، ابن هشام ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ ، البداية ج ٣ ص ٥٠ - ٥١ فقه السيرة للغزالى ص ١١٢ - ١١٣ .

من حمأة الشرك والرذيلة ، إلى قمة التوحيد والفضيلة ، فهذه الدعوة لاتسلب عن أحد حقه ، ولاتعطيه غير حقه .

فلم يسألهم ﷺ شيئا من أموالهم ، سنة الأنبياء من قبله ، قال الله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ **وماأسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾ .[1]

وكذلك عن صالح وشعيب وغيرهما .. وقال تعالى : عن محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **قل ماأسألكم عليه من أجر وماأنا من المتكلفين** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **قل ماسألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد** ﴾[3] ...وغير ذلك من الآيات ..

ومن فرط جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة فرفض ذلك ، فأنزل الله : ﴿ **قل ياأيها الكافرون . لاأعبد ماتعبدون . ولاأنتم عابدون ماأعبد** ﴾ إلى آخر السورة وفى رواية لابن أبى حاتم : فقالوا يامحمد فلتعبد مانعبد ، ونعبد ماتعبد ولنشترك نحن وأنت فى أمرنا كله . فأنزل الله ﴿ **قل ياأيها الكافرون** ﴾ إلى آخر السورة .

إن التوحيد منهج والشرك منهج آخر ، ولايلتقيان . فالتوحيد منهج يتجه بالإنسان إلى الله وحده لاشريك له ، ويحدد الجهة التى يتلقى منها الإنسان عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وأخلاقه ، وتصوراته كلها عن الحياة ، هذه الجهة هى الله وحده لاشريك له .. ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس .

وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية والمدعوين ، براءة كاملة ومفاصلة تامة ﴿ **لكم دينكم ولى دين** ﴾[4] .

وماأحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وبغير

---

(١) الشعراء : ١٠٩ .

(٢) سورة ص : ٨٦ .

(٣) سورة سبأ : ٤٧ .

(٤) يقال لكم دينكم الكفر ولى دينى الإسلام . ا هـ . جلالين . البخارى ج ٣ ص ٢٢١

ذلك سيبقى الغبش والمداهنة .. و .. و ..

والدعوة إلى الإسلام لاتقوم على ذلك إنها لاتقوم إلا على الحسم والصراحة كالدعوة إليه أول ماكان .[1] .

ولما فشلت سادات الشرك فى المفاوضة أو المساومة مع النبى ﷺ فى صده عن الدعوة إلى الله – سبحانه – لجأوا إلى أسلوب المفاوضة مع عمه أبى طالب لأنه الذى يحميه .

– وفد قريش إلى أبى طالب :

أبرمت كفار قريش خطة أخرى فمشوا إلى أبى طالب ثلاث مرات

– المرة الأولى : قالوا : ياأبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا .. وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل مانحن عليه من خلافه ، فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ، وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه .

– المرة الثانية : وقد أخذت الدعوة فى النماء بتزايد المسلمين وفى ذلك خطر يهدد مصالح المشركين وسلطانهم فقاموا بمظاهرة حادة قائلين لأبى طالب : إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

إنها لمظاهرة حادة .. قذفوا ذلك الهتاف المعادى للدعوة الإسلامية فى شدة من الغضب إذ لم يسمعوا جوابا من أبى طالب وصار بين أمرين :

أ – عز عليه فراق قومه وعداوتهم .

ب – لم تطب نفسه بخذلان رسول الله – ﷺ ولا إسلامه لهم ، فأراد

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٢٧ – لباب النقول ص ٢٤٤ – فى ظلال القرآن ج ٣٠ ص ٣٩٩٢ – ٣٩٩٣ .

أن يهدىء الموقف فأرسل إلى رسول الله ﷺ وقال له : يابن أخى إن قومك قد جاءوني وقالوا لى كذا وكذا .. فابق علي وعلى نفسك ولاتحملني من الأمر مالا أطيقه .. فظن رسول الله – ﷺ – أنه قد بدا لعمه فيه بداء .[1] .. ولكن الرسول ﷺ – حدد موقفه الحازم تنفيذا لأمر الله – سبحانه : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين** ﴾[2] ولقوله تعالى : ﴿ **فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم** ﴾[3] .

هذا الموقف الحازم ممثلا فى قوله ﷺ : (ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى[4] على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ماتركته .. ثم استعبر رسول الله – ﷺ – فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل يابن أخى ، فأقبل عليه رسول الله – ﷺ – فقال : اذهب يابن أخى فقل ماأحببت فوالله لاأسلمك لشىء أبدا)[5] .

إنه الجواب الحاسم انطلق من فم رسول الله ﷺ بركان تفجر فإذا الجبال الشم تكاد أن تكون كثبانا ، وإذا الإنسان المتعالى المتعاظم يتلاشى فى صفحة الوجود ، فالنفس المؤمنة الكبيرة لاتقبل المساومة على المبدأ ، إنها به تعيش ومن أجله تموت .. تلك هى نفس محمد ﷺ .[6]

– المرة الثالثة : مفاوضة الجنون : لما عرفت سادات الشرك أن أباطالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه لهم وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له ، (ياأبا طالب ،

---

(١) اى ظهر له رأى بعد ماخفى . ا هـ . هامش السيرة – ابن.هشام ج ١ ص ٢٦٦ – اى ضعف عن نصرته .

(٢) سورة الحجر : ٩٤ – ٩٥ .

(٣) الشورى : ١٥ – أى استقم على تبليغ الرسالة . والإشارة إلى ماوصى به الأنبياء من التوحيد . ا هـ . فتح القدير ج ٤ ص ٥٣١ .

(٤) خص الشمس باليمين لأنها الآية المبصرة والقمر بالشمال لأنه الآية الممحوة كذا قال السهيلى كما فى حاشية السيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٦ . ولعله يشير إلى قوله تعالى ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ ١٢ من سورة الإسراء .

(٥) السيرة – ابن هشام ج ١ ص ٢٦٦ – البداية ج ٣ ص ٤٢ – ٤٨ ، وقد أورده ابن كثير فى موضعين فيها وسكت عن الحكم عليه ومن عادته يبين درجة الحديث وقد سبق تضعيف الألبانى له والكلام على ذلك .

(٦) التفسير السياسى للسيرة ص ٤٧ .

هذا عمارة بن الوليد ، أنهد[1] فتى فى قريش ، وأجمله فخذه لك عقله ونصره واتخذه ولدا ، فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا ، الذى قد خالف دينك ودين أبائك وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ؟!! فقال : والله لبئس ماتسومونني[2] أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟! هذا والله مالا يكون أبدا) .

إن هذا لهو ضرب من مفاوضات الجنون ولاغرابة فى ذلك لأن نار الحسد والعداوة أكلت أكبادهم ، حتى فقدوا صوابهم ، ولولا ذلك الفقدان لما عرضوا هذا العرض الذى تأباه حتى سخاف العقول ، كيف يعقل أن يسلم أبو طالب ابن أخيه إلى المشركين أعدائه ليقتلوه مقابل الاحتفاظ بحياة ابنهم وتغذيته .. ومع هذا مازالوا مصرين أنهم أنصفوا أبا طالب إذ قال المطعم بن عدى : (والله ياأبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا . فقال أبو طالب : والله ماأنصفوني ولكنك أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم فاصنع مابدالك[3] .. أى إنصاف هذا؛ ابن يقتل وبديله يغذى ؟ !!

فى يوم من الأيام كان أشراف قريش مجتمعين فى حجر إسماعيل يذكرون مايدعو إليه النبى ﷺ من ترك عبادة الأوثان وإفراد الله بالعبادة . فقالوا : مارأينا مثل ماصبرنا عليه من هذا الرجل قط : سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا وصبرنا منه على أمر عظيم .. فبينما هم فى ذلك طلع رسول الله ﷺ – فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول فعرف ذلك فى وجهه ﷺ فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت فى وجهه فمضى ، ثم مر الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف قائلا : (أتسمعون يامعشر قريش أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح) . فأخذت القوم كلمته حتى مامن رجل إلا وكأنما على رأسه طائر ،

(١) أنهد : أشد وأقوى . وأصل هذه الكلمة التقدم يقال نهد ثدى الجارية إذا برز قدما ا هـ . هامش السيرة ج ١ ص ٢٦٧ .

(٢) تسومونني : تكلفونني . المصدر نفسه .

(٣) السيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٧ – البداية ج ٣ ص ٤٨ .

وصاروا يلاطفونه بالقول انصرف ياأبا القاسم راشدا فوالله ماأنت بجهول) . وفى اليوم الثانى وثبوا له وثبة رجل واحد قائلين له أنت الذى تقول كذا وكذا من عيب آلهتهم ودينهم فيقول ﷺ نعم أنا الذى أقول ذلك .....[1] ترى أن للصبر حدودا ، والحزم والغلظة فى القول ونحوهما من الداعية فى الظروف المناسبة له قيمته كما عرفت،كما أن لأسلوب الرفق واللين قيمته ، والحكمة وضع الشيء فى موضعه . والله أعلم .

- نوع آخر من المفاوضات :

ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشا ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا ، والله مانأمن أن يبتزونا[2] أمرنا . فمشى إليه أشراف قومه فقالوا : ياأبا طالب إنك منا حيث قد علمت ... وقد حضرك ماترى وتخوفنا عليك . وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه ، فخذ له منا وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه .. فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال : يابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك ويأخذوا منك فقال رسول الله ﷺ - نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعم وأبيك ، وعشر كلمات . قال : تقولون لا إله إلا الله ، وتخلصون ماتعبدون من دونه فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يامحمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجيب .

ثم قال بعضهم لبعض إنه والله ماهذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون . فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ثم تفرقوا فأنزل الله تعالى : ﴿ **ص . والقرآن ذى الذكر** ﴾ .. إلى قوله تعالى : ﴿ **أجعل الآلهة**

---

(١) انظر السير والمغازى ، ابن اسحق ص ٢٢٩ - السيرة النبوية للندوى ص ٩٣ .

(٢) ابتزه أمره : سلبه إياه وغلبه عليه . كذا فى هامش السيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٧ .

إلّها واحدا إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة[1] إن هذا إلا اختلاق ﴾[2] فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ : والله يابن أخى مارأيتك سألتهم شططا ..[3]

والظاهر أن هذه المفاوضة كانت بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر ابن الخطاب بعد معركة دامية قام بها عمر حول الكعبة كان النصر فيها حليفه ، وبعد معركة حمزة بن عبد المطلب مع أبى جهل شج فيها رأسه وبإسلامهما عز الإسلام ، إذ كان النبى ﷺ ، يدعو بأن يعز الله الإسلام بأحد العمرين .[4]

فأراد الله – كونا وشرعا – إسلام عمر بن الخطاب ، فاعتز الإسلام والمسلمون بإسلامه لأنه كان ذا شكيمة .

قال ابن مسعود : (ماكنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة ، وكان إسلامه فتحا ، وهجرته نصرا ، وإمامته رحمة ، وفى صحيح البخارى عنه أيضا : (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر)[5]

ويظهر أن سياسة الشرك كانت أحيانا تلجأ إلى العنف وأحيانا تلجأ إلى اللين ظنا منهم أن سياسة الملاينة قد تغريه ﷺ ولكنها سياسة فاشلة وحمقاء منافية لرسالة السماء .. والخلاصة أن المواجهة تعرض الداعية للاضطهاد والتعذيب وانقطاع للرزق كما تهدده فى أمنه وسلامته وقد تكلفه حياته موتا بالتعذيب أو بالقتل ، وذلك إحدى الحسنيين . والله أعلم .

---

(١) يعنون النصرانية لاعتقادهم التثليث . جلالين .

(٢) سورة ص : ١ – ٧ .

(٣) السير والمغازى ص ٢٣٦ – البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٣ – السيرة ابن هشام واللفظ له ج ١ ص ٤١٧ – ٤١٨ – لباب النقول ص ١٨٨ ، تفسير ابن كثير بألفاظ متقاربة ج ٧ ص ٤٦ ، مسند أحمد ج ١ ص ٣٦٢ الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٩ ص ٩٩ – ١٠٠ عن ابن عباس وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . الشطط : الجور .

(٤) عمرو بن هشام أبو جهل ، وعمر بن الخطاب .

(٥) انظر السيرة – ابن هشام ج ١ ص ٢٩٢ – ٣٤٢ – البخارى ج ٢ ، ص ٣٢٣ .

- العبــرة :

في هذا المبحث الذى عرضنا فيه نماذج من مواجهة الخصوم ، وموقف النبى - ﷺ - الفريد فى تاريخ الدنيا ، ضد الإيذاء والإغراء ، التى لايستطيع احتمالها إلاالأنبياء المؤيدون بالوحى ، أو من وفقه الله من غيرهم ، فى ذلك المبحث فوائد وعبر كثيرة لها جانب كبير من الأهمية .

الأولى : وهى توضح حقيقة الدعوة التى قام بها ﷺ - وتفصلها عن كل مايلتبس بها من الأهداف والأغراض التى قد يضمرها عادة أرباب الدعوات والمنادون بالثورة والإصلاح .

فما الذى يضمره - النبى ﷺ - من وراء دعوته ؟

هل يضمر الوصول إلى ملك أو زعامة أو مال .. أو لعل الأمر لايعدو خيالات مرضية تحتاج إلى معالجة ؟ كل هذه الاحتمالات قد يتذرع بها أعداء هذا الدين ، ولكن يالأسرار الحياة العظيمة التى هيأها الله - سبحانه - لرسوله ﷺ .. لقد ملأ الله - عز وجل - حياته بالمواقف والمشاهد التى تدع أرباب الغزو الفكرى حيارى فى الطريقة التى ينبغى لهم أن يسلكوها بل تقطع كل احتمال .

كان من جليل حكمة الله - عز وجل - أن يقوم مشركو قريش بالمفاوضات مع رسول الله ﷺ بعد أن صوروا فى أنفسهم كل هذه الاحتمالات .. وهم أدرى الناس بطبيعة دعوته ، والغاية البعيدة من رسالته ، وبأنه لن ينزل عند شيء من مغرياتهم ، ولكن هكذا أرادت حكمة الله حتى ينطق التاريخ بتكذيب كل من سيأتى من محترفى التشكيك والغزو الفكرى مع الزمن . .

لقد فكر بعضهم طويلا ثم لم يجدوا من سبيل لأداء مهمة التشكيك والغزو إلا أن يغمضوا أعينهم عن الحقيقة ، ويزعموا أن دوافع محمد - عليه الصلاة والسلام - إنما كانت الرغبة فى السيادة والملك ، لكنهم صدموا رؤوسهم فى هذا التفكير بصخور عاتية تقذفهم وتردهم إلى الوراء أشواطا . لقد سخر الله من قبلهم عتبة بن ربيعة وأمثاله لحمل هذه الدوافع والآمال ووضعها بين يدى رسول الله - ﷺ - لينالها قريبة سائغة وليبصر قريشا كلها وقد خضعت له ،

وألقت من يدها السلاح ، ووسائل التعذيب فى وجهه وأصحابه .

فلماذا لم يتحول النبى - ﷺ - إلى هذه الغنيمة التى سيقت إليه مادام أنها الدافع له من وراء دعوته ؟ !

وهل ينصت طالب الملك والزعامة لمن سعى يعرضهما عليه فى مفاوضة طويلة رجاء وتهديدا ويقول لهم أخيرا : (ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىَّ كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا . فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة . وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم)[1]

فهل يصح - بعد هذا - أن يتوهم الفكر بأنه قد يكون مدفوعا برغبة الزعامة أو الطمع فى الغنى ؟ ..

- الثانية : وهى تبين لنا معنى الحكمة التى كان رسول الله ﷺ يتمسك ويتصف بها ، فهل الحكمة أن تضع السياسة التى تراها فى سير الدعوة ، مهما كانت كيفيتها ومهما كان نوعها ؟ وهل أعطاك الشارع صلاحية أن تسلك أى سبيل تراها مادام هدفك من وراء ذلك الحق ؟ .. الجواب : لا ..

إن الشريعة الإسلامية تعبدتنا بالوسائل كما تعبدتنا بالغايات فليس لك أن تسلك إلى الغاية التى شرعها الله لك إلا الطريق المعينة التى جعلها الله - عز وجل - وسيلة إليها وللحكمة والسياسة الشرعية معان معتبرة ، ولكن فى حدود الوسائل المشروعة فقط .. لما سبق فقد كان من المتصور فى باب الحكمة والسياسة أن يرضى رسول الله ﷺ بالزعامة أو الملك على أن يجمع فى نفسه اتخاذها وسيلة إلى تحقيق دعوة الإسلام فيما بعد خصوصا وأن للسلطان وازعا قويا فى النفوس . .

---

(١) السير والمغازى ص ١٩٧ - ١٩٨ - تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٢ ، وفيه فقرأ عليه سورة فصلت إلى السجدة . البيهقى كما فى البداية ج ٣ ص ٦٣ . قال الألبانى فى تخريج أحاديث فقه السيرة للغزالى : وسنده حسن إن شاء الله . ص ١١٢ ،١١٣ .

وحسبك أن أرباب الدعوات والمذاهب ينتهزون فرصة الاستيلاء على الحكم كي يستعينوا بسلطانه على فرض دعوتهم ومذاهبهم على الناس ، ولكن النبى - ﷺ - لم يرض سلوك مثل هذه السياسة والوسيلة إلى دعوته ، لأن ذلك ينافى مبادىء الدعوة نفسها . ولو جاز أن يكون مثل هذا الأسلوب نوعا من أنواع الحكمة والسياسة الرشيدة لانمحى الفرق بين الصادق الصريح فى صدقه والكاذب الذى يخادع فى كذبه ، ولتلاقى الجميع على طريق واحدة عريضة اسمها السياسة والحكمة ، إن الحكمة تقوم على عماد الشرف والصدق فى كل من الوسيلة والغاية . ومن هنا يحتاج أرباب الدعوة الإسلامية - فى معظم حالاتهم وظروفهم - إلى التضحية والجهاد لأن السبيل الذى يسلكونها لاتسمح لهم بالتعرج كثيرا ذات اليمين وذات الشمال .

ومن الخطأ أن تحسب مبدأ الحكمة إنما شرع من أجل تسهيل العمل أو من أجل تفادى المآسى والأتعاب بل السر فى مشروعية الحكمة فى الدعوة إنما هو سلوك أقرب الوسائل إلى عقول الناس . ومعنى هذا أنه إذا اختلفت الأحوال وقامت عثرات الصد والعناد دون سبيل الدعوة،فإن الحكمة حينئذ إنما هى إعداد العدة للجهاد والتضحية بالنفس والمال ، إن الحكمة إنما هى أن تضع الشيء فى مكانه .

وهذا هو الفرق بين الحكمة والمخادعة وبين الحكمة والمسالمة وأنت خبير أن رسول الله ﷺ ، لما استبشر بما رآه مرة من دلائل إقبال بعض زعماء قريش على فهم الدين ، انصرف إليهم بكليته مبتهجا يكلمهم ويشرح لهم مايستفسرون عنه من حقائق الإسلام ، حتى دعاه ذلك الاستبشار والطمع فى هدايتهم إلى أن يعرض عن الصحابى الضرير ابن أم مكتوم ، حينما مر بهم فوقف إلى جانبهم يستمع ، وأخذ هو الآخر يسأل رسول الله - ﷺ - فعاتبه الله على ذلك فى سورة ﴿ **عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . ومايدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى . وماعليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى . فأنت عنه تلهى** ﴾[1]

---

(١) سورة عبس : ١ -١٠ .

قال القرطبي والشوكاني : (أجمع أهل التفسير أن سبب نزول هذه الآيات هو ماذكر[1] . عاتبه الله وأنكر عليه ذلك الاجتهاد – علما بأن غايته مشروعة ونبيلة – لأن الوسيلة قد انطوت على كسر خاطر مسلم ، أو مايدل على الإعراض عنه ، وعدم الالتفات إليه ، من أجل اجتذاب قلوب المشركين فهي ليست بمشروعة ولا مقبولة .

والخلاصة أنه ليس لأحد من الناس أن يغير شيئا من أحكام الإسلام ومبادئه ، أو يتجاوز شيئا من حدوده ، أو يستهين بها ، لأن الحكمة لاتعتبر حكمة إلا إذا كانت مقيدة ، ومنضبطة ضمن حدود الشريعة ومبادئها وأخلاقها .[2]

---

(١) تفسير القرطبي : ج ٨ ص ٧٠٠٣ – فتح القدير ج ٥ ص ٣٨٢ .

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ١١٤ – ١١٩ . وقد ذكر أشياء كثيرة اخترت منها ماذكرته .

المبحث الثانى : الهجرة[1] إلى الحبشة

لما أخفقت كفار قريش فى مفاوضاتها بالإغراء والإرهاب ، فى تعويق الدعوة التى جاء بها محمد ﷺ ، وأدركت أن هدفها بعيد المدى ، عادت سيرتها الأولى تصب غضبها على المؤمنين ، وتبذل كل مافى وسعها لتعذيبهم ، وصدهم عن دينهم .

ولما رأى النبى ﷺ ، مايصيب أصحابه من البلاء وماهو فيه من العافية بمكانه من الله ، ثم من عمه أبى طالب ، وقد أحزنه ذلك ولكنه لايقدر عن دفعه ، فأذن لمن قل نصيره فى مكة أن يهجرها إلى الحبشة لأن بها ملكا لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لهم فرجا .

---

(١) الهجرة هى مفارقة بلد إلى غيره ، وقيل : هى الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ومن بلد البدعة إلى بلد السنة ، وهى فريضة باقية على هذه الأمة إلى أن تطلع الشمس من مغربها لحديث معاوية مرفوعا (لاتنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولاتنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) رواه أبو داود . وقد عورض هذا الحديث بحديث ابن عباس مرفوعا : لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا) رواه أبو داود أيضا ج ٧ ص ١٥٦ – عون المعبود . واختلف فى الجمع بينهما ، فقال الخطابى فى المعالم كانت الهجرة فى أول الإسلام فرضا ثم صارت مندوبة وذلك قوله تعالى : ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة) ١٠٠ النساء نزل حين اشتد أذى المشركين على المسلمين بمكة ثم وجبت الهجرة على المسلمين عند انتقال رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمروا بالانتقال إلى حضرته ليكونوا معه فيتعاونوا إن حزبهم أمر . فلما فتحت مكة ارتفع وجوب الهجرة وعاد الأمر فيها للندب والاستحباب على أن إسناد حديث ابن عباس متصل وحديث معاويه فيه مقال .

ويحتمل الجمع بأنه لاهجرة بعد الفتح من مكة إلى المدينة وقوله (لاتنقطع أى من دار الكفر فى حق من أسلم إلى دار الإسلام . والله اعلم .

انظر عون المعبود ج ٧ ص ١٥٦ – لابى الطيب محمد شمس الحق مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان . الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة – المصباح المنير ج ٢ ص ٣٠٦ – أصول الدين الإسلامى ص ١٤ – ١٥ .

وكان الرحيل إليها تسللا لئلا تستيقظ قريش فتحبط المسيرة ، وذلك فى السنة الخامسة من البعثة النبوية .[1]

وكان أول من هاجر عشرة أو اثنا عشر رجلا وأربع نسوة ، أولهم خروجا عثمان وزوجه رقية بنت رسول الله - ﷺ - منهم الراكب ومنهم الماشى ، ووفق الله - سبحانه - للمسلمين ساعة جاءوا الساحل سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة .

وقد أبطأ الخبر على رسول الله ﷺ إذ كان يتلمس أخبارهم فقدمت امرأة من قريش ، فقالت : يامحمد لقد رأيت ختنك[2] ، ومعه امرأته ، قال : على أى حال رأيتهما ؟ قالت : رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة[3] وهو يسوقها ، فقال : ﷺ - صحبهما الله ، إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط .

ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى مكة لما بلغهم إسلام أهلها ، حتى إذا اقتربوا منها تبينت لهم الحقيقة المحزنة ، وعرفوا أن المشركين أشد كفرا وأذى عما تركوهم فرجعوا مهاجرين إلى الحبشة مرة ثانية .[4]

وقد سرد ابن إسحق أسماء من هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة ثم قال : (فكان هؤلاء العشرة[5] أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة فيما

---

(١) فى شهر رجب كذا قال الحافظ فى الفتح ج ٧ ص ١٨٨ وابن سعد فى الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٨٨ وابن كثير فى السيرة ج ٢ ص ٣ كما أورده فى الهداية عن الواقدى ج ٣ ص ٦٦ . فقه السيرة للغزالى ص ١١٥

(٢) اى صهرك . كذا فى حاشية سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٥ .

(٣) الدبابة الضعيفة التى تدب فى المشى كما فى المصدر نفسه .

(٤) ولم يدخل مكة منهم أحد إلا مستخفيا أو بجوار . وكان عدد ذلك العائدين ثلاثة وثلاثين رجلا منهم عثمان ابن مظعون دخل فى جوار الوليد بن المغيرة وأبو سلمة دخل فى جوار أبى طالب كذا فى السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٣٦٩ . .

قال الحافظ : فكان ذلك فى رمضان فى السنة الخامسة للنبوة) وذلك عندما سجد النبى ﷺ - بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس كما فى البخارى عن ابن عباس ج ٣ ص ١٩٤ - وانظر التفاصيل فى فتح البارى ج ٧ ص ١٨٨ - ج ٨ ص ٦١٤ - ٦١٥ ، وعند الواقدى كان أول من هاجر أحد عشر رجلا وأربع نسوة . انتهوا إلى البحر مابين ماش وراكب فاستأجروا سفينة بنصف دينار . ا هـ . انظر البداية ج ٣ ص ٦٦ . .

(٥) اختلف أهل السير فى عدد المهاجرين الأولين إلى الحبشة . قال بعضهم : أحد عشر رجلا وأربع نسوة وقيل وامرأتان وقيل كانوا اثنى عشر رجلا وقيل عشرة هكذا قاله الحافظ فى الفتح ج ٧ ص ١٨٨ .

بلغنى ثم خرج جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ومعه امرأته أسماء بنت عميس ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة منهم من خرج بأهله معه ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه .

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا وولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلا ومن النساء ثمانى عشرة امرأة)[1] .

وقال ابن كثير : (وقد زعم موسى بن عقبة أن خروج جعفر بن أبى طالب إنما كان فى الهجرة الثانية إليها ، وذلك بعد عود بعض من خرج أولا[2] وما ذكره ابن إسحق من خروجه فى الرعيل الأول أظهر ، لكنه كان فى زمرة ثانية من المهاجرين أولا ، وهو المقدم عليهم ، والمترجم عنهم عند النجاشى وغيره .

كما زعم أن الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة كانت حين دخل أبو طالب ومن حالفه مع رسول الله - ﷺ - إلى الشعب . وفى هذا نظر والله أعلم) .[3]

وقد ذهب إلى هذا القول الخضرى من أن الهجرة إلى الحبشة كانت بعد دخول الرسول وقومه الشعب حيث قال : (وكان ذلك بعد دخول الرسول وقومه الشعب إذ أمر المسلمين جميعا أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضا على الاغتراب فهاجر معظمهم)[4]

وقد خالف هذا القول معظم أهل السير ، وهو ماأثبتناه من أن الهجرة إلى الحبشة كانت فى السنة الخامسة من النبوة . وماسيأتى - إن شاء الله - فى مبحث المقاطعة بأنها كانت فى السنة السابعة من النبوة بعد الهجرة إلى الحبشة على القول الراجح لعدة وجوه :

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٣٢١ - ٣٣٠ . وانظر الروض الأنف ج ٣ ص ٢٠٣ ومابعدها - طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٨٨ - السيرة النبوية ابن كثير ج ٢ ص ٣ - ٥ - الحلبية ج ٢ ص ٣ - ٤ - البداية والنهاية ج ٣ ص ٦٦ - ٦٩ . فتح البارى ج ٧ ص ١٨٨ - ١٨٩ وفيه التفاصيل

(٢) وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٦٧ .

(٤) نور اليقين ص ٦١ .

أ - أن صاحب الحلبية قرر أن دخول الشعب كان فى هلال المحرم سنة سبع من النبوة كما قرر أن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت فى رجب من السنة الخامسة من النبوة .[1]

ب - روى ابن سعد فى الطبقات الكبرى أن قريشا حصروا بنى هاشم فى شعب أبى طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من النبوة .[2]

ج - وجزم به الحافظ فى الفتح[3] فى الكلام على حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حين أراد حنينا (منزلنا غدا - إن شاء الله - بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر)[4] .

ولقد أورد ماذكره أصحاب المغازى والسير فى هذه القصة .. إلى أن قال : (ولما لم يثبت عند البخارى شىء من هذه القصة اكتفى بإيراد حديث أبى هريرة لأن فيه دلالة على أصل القصة لأن الذى أورده أهل المغازى فى ذلك كالشرح لقوله فى الحديث (تقاسموا على الكفر) .

د - قال الواقدى : لاخلاف عند أئمتنا أن عبد الله بن عباس ولد فى الشعب حين حصرت قريش بنى هاشم وأنه كان له عند موت النبى ﷺ ثلاث عشرة سنة .

وقال ابن عبد البر ولد فى الشعب قبل خروج بنى هاشم منه وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين .[5]

هـ - مارواه ابن إسحق عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمه ليلى قالت : كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا فى إسلامنا فلما تهيأنا للخروج إلى

---

(١) الحلبية ج ٢ ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٣ - مطبعة لجنة الثقافة الإسلامية القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ .

(٣) فتح البارى ج ٧ ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٤) رواه البخارى ج ٢ ص ٣٢٦ .

(٥) الإصابة مع الاستيعاب ج ٦ ص ٢٥٨ ، ١٣١ وتوكيداً لذلك مافى الصحيحين عن ابن عباس قال : (أقبلت وأنا راكب على حمار أتان وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام والنبى ﷺ يصلى بمنى إلى غير جدار) البخارى ج ١ ص ٩٧ - مسلم ج ٢ ص ٥٧ وفى لفظ آخر له فى حجة الوداع .

الحبشة جاءنى عمر وأنا على بعيرى نريد أن نتوجه فقال : أين يـاأم عبـد الله ؟ فقلت له : آذيتمونا فى ديننا فنذهب إلى أرض الله - عز وجل - حيث لانؤذى فى عبادة الله فقال صحبكم الله . فذهب ثم جاءنى زوجى عامر بن ربيعة فأخبرته بما رأيت من رقة عمر فقال أترجين أن يسلم ؟ فقلت : نعم . فقال : والله لايسلم حتى يسلم حمار الخطاب) .[1]

وجه الدلالة من هذا أن الهجرة إلى الحبشة قبل المقاطعة لأن إسلام عمر ابن الخطاب كان فى السنة السادسة أو السابعة من النبوة .

و - وممن قال بهذا من المتأخرين الغزالى والندوى .[2]

وبهذا يترجح ثبوت الهجرة إلى الحبشة قبل المقاطعة كما يكون العكس هو المرجوح . وفى المبحث كلام أكثر من هذا اكتفيت بما ذكرت . والله أعلم .[3]

وسبق أن ذكرت لك أن ابن إسحق سرد أسماء المهاجرين الهجرة الأولى إلى الحبشة كما سرد أيضا أصحاب الهجرة الثانية . فراجع السير والمغازى[4]

- **العـــبرة :**

أرأيت ياأخى المسلم كيف هجر هؤلاء الأهل والأوطان وتركوا المال والمتاع لتسلم العقيدة إنهم علموا أن هناك ماهو أسمى من المال والزوجة والمتاع ، إنها العقيدة التى تعمر الصدور باليقين[5] الذى لا أحلى منه ولا أجمل . فروا من مكة دار الكفر التى تفننت فى تعذيبهم إلى الحبشة دار الكفر إذ ذاك ، التى أملوا أن يجدوا فيها من الأمن والسلام مايمكنهم من إقامة شعائر

---

(١) السير والمغازى ص ١٨١ .

(٢) انظر فتح المبين شرح الأربعين ص ٤٢ لابن حجر الهيثمى مع حاشية حسن المدابغى ط . الحلبى بدون تاريخ وقد جزم بأن إسلام عمر فى السادسة . وانظر فتح البارى ج ٧ ص ١٧٨ - فقه السيرة للغزالى ص ١١٥ - السيرة النبوية - ندوى ص ١٠٤ .

(٣) ومن أراد المزيد من الاطلاع فليراجع المصادر المثبتة وغيرها فى مكانها .

(٤) السير والمغازى ص ٢٢٣ - سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٧ - ٨ - ابن هشام - الروض الأنف ج ٣ ص ٢٠٣ ومابعدها .

(٥) اليقين هو العلم الحاصل عن نظر واستدلال ، ولهذا لايسمى علم الله يقينا . ويقن الأمر يقنا من باب تعب إذا ثبت ووضح فهو يقين . ا هـ . مصباح ج ٢ ص ٣٥٨ .

دينهم وتبليغ الدعوة ، ومن هنا أجاز الفقهاء ، التجاء المسلم إلى الكافر ليحميه من أذى كافر آخر ، مالم يكن فى الالتجاء مساومة على دينه .[1]

يؤيد ذلك مافعله النبى ﷺ حينما دخل مكة – بعد رجوعه من الطائف – فى جوار المطعم بن عدى ، فدخل ﷺ المسجد الحرام واستلم الركن وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ، والمطعم وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته ومعه يزيد بن حارثة . ولم ينس ﷺ ذلك الجميل إذ قال يوم بدر (لو كان المطعم بن عدى حيا ثم سألنى فى هؤلاء النقباء لوهبتهم له)[2] أى الأسرى .

وفد قريش إلى النجاشى :

لما خرج المهاجرون من مكة فى طريقهم إلى الحبشة ، خرجت قريش فى طلبهم إلى البحر ، فلم يدركوا منهم أحدا ، فرأوا أنهم قد أصابوا دارا وأمنا فأجمعوا على أن يبعثوا وفدا إلى النجاشى لإخراجهم من بلاده وليردهم عليهم فبعثوا عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبى ربيعة . وفى رواية : وعمارة بن الوليد ، ومعهما الهدايا ، ولم يتركوا من بطارقة[3] النجاشى بطريقا إلا هيأوا له هدية دفعوها إليه قبل أن يتكلموا فى شأن المهاجرين بغية أن يستعينوا بهم على النجاشى فى قضاء مهمتم الإجرامية ، كما كانا مزودين بالحجج التى يطرد بها المهاجرون .

فلما دخلا على النجاشى قالا له بعد أن سجدا له – إن ناسا من سفهائنا فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دين الملك وجاءوا بدين مبتدع ... فقالت بطارقته : صدقا أيها الملك فغضب النجاشى ورأى أنه لابد من تمحيص القضية وسماع أطرافها ، فأرسل إلى المهاجرين ، فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه فدخل فسلم ولم يسجد للملك ، فقيل له لم لاتسجد للملك ؟ فقال :

---

(١) انظر التفسير السياسى للسيرة ص ٦٨ .

(٢) انظر زاد المعاد ج ٢ ص ٥٢ – البداية ج ٣ ص ١٣٧ – ١٣٨ .

(٣) البطارقة من الروم جمع بطريق كالقائد من العرب ا هـ . مصباح ج ١ ص ٥٨ .

إنا لانسجد إلا لله – عز وجل – فقال لهم النجاشى : ماهذا الدين الذى أنتم عليه ، فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

تصوير جعفر للجاهلية والتعريف بالإسلام :

فقال جعفر : مصورا ماكانوا عليه فى الجاهلية : – أيها الملك : (كنا قوما أهل جاهلية[1] نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لاشريك له ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام)[2] وعدد أمور الإسلام .

قال جعفر : فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من الله فعبدنا الله وحده ، وحرمنا ماحرم علينا ، وأحللنا ماأحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قال نعم ، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته[3] ، ثم قال النجاشى : (إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من

---

(١) فى السير والمغازى لابن إسحق (كنا قوما على الشرك) اهـ ص ٢١٤ .

(٢) سبق الكلام على الصلاة والزكاة . والصيام هنا لعله مطلق صيام ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ البقره ٢٨٢ – كيوم عاشوراء ولأنه ثابت فى الصحيحين وغيرهما . البخارى ج ١ ص ٣٤١ – مسلم ج ٣ ص ١٤٧ – وفيه (أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ثم أمر رسول الله ﷺ بصيامه حتى فرض رمضان ..) من حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أما صوم رمضان فلم يفرض إلا فى السنة الثانية للهجرة كما فى سبل السلام للصنعانى ج ٢ ص ١٥٠ .

(٣) الأساقفة جمع أسقف : مرتبة فوق القسيس ودون المطران اهـ . المنجد ج ١ ص ٣٤٠ .

مشكاة[1] واحدة ، انطلقا ، والله لأسلمهم إليكما) .[2]

محاولة أخرى فاشلة :

فلما خرجا من عند النجاشي قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم[3] . فلما كان الغد قال له : أيها الملك : إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه ، فأرسل إليهم فحضروا ، فقال : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

قال جعفر : نقول فيه الذى جاء به نبينا – ﷺ – يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . فأخذ النجاشي عودا من الأرض وقال : والله ماعدى عيسى بن مريم ماقلت هذا العود[4] فتناخرت بطارقته[5] فقال : وإن نخرتم والله ، وقال للمسلمين :

(اذهبوا فأنتم سيوم[6] من سبكم غرم ، ماأحب أن لى جبلا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم)

ورد هدية قريش وقال : ماأخذ الله الرشوة منى حين رد على ملكى حتى آخذها منكم ولا أطاع الناس فى حتى أطيعهم فيه)

وفى رواية ابن مسعود ... مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه

---

(١) المشكاة : الكوة غير النافذة وقيل هى الحديدة التى يعلق عليها القنديل . أراد أن القرآن والإنجيل كلام الله وان مصدرهما واحد ، هو الله سبحانه وتعالى . اهـ . حاشية ابن هشام ج ١ ص ٣٣٦ .

(٢) انظر السير والمغازى ص ٢١٣ . ٢١٤ . السيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٥ ومابعدها – البداية ج ٣ ص ٦٩ – ٧٠ .

(٣) أى شجرتهم التى تفرعوا منها كذا فى هامش ابن هشام ج ١ ص ٣٣٧ .

(٤) يبدو أن عقيدة النجاشى فى المسيح هى عقيدة التوحيد من أنه ليس إلّها ولا ابن إلّه بل مصنوع مربوب وهذا ماكان يدعو إليه أريوس ، وبسببه عقد مجمع نيقية عام ٣٢٥ م لأن النصارى اختلفوا اختلافا كثيرا فى طبيعة المسيح وتعددت المذاهب فى عهد قسطنطين ولمزيد من الإيضاح راجع محاضرات فى النصرانية لأبى زهرة ص ١٤٦ – ١٤٧ – ١٥٨ وقد سبق ذلك .

(٥) قواده .

(٦) أى آمنون .

رسول الله وأنه الذى نجد فى الإنجيل وأنه الرسول الذى بشر به عيسى ، انزلوا حيث شئتم والله لولا ماأنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون الذى أحمل نعليه ، ورد هدية الآخرين وأقام المسلمون عنده خير جوار .[1]

وهكذا أخففت حيلة وفد قريش ، وعاد إلى مكة يجر أذيال الخيبة وانتصر المهاجرون بقيادة جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

وعرفت قريش أنها لن تشبع ضغينتها على الإسلام وأهله إلا فى حدود سلطانها، فأكدت عزمها أن تشفى غيظها ممن يقع تحت أيديها .

- العـــبرة :

إن الاستمساك بالدين وإقامة دعائمه ، أساس ومصدر لكل قوة ، وهو السياج[2] لحفظ كل حق من مال وأرض ، وحرية وكرامة .

ومن أجل هذا كان واجب الدعاة إلى الإسلام والمجاهدين فى سبيله أن يجندوا كل إمكاناتهم لحماية الدين ومبادئه وأن يجعلوا من الوطن والمال والحياة وسائل لحفظ العقيدة وترسيخها ، حتى إذا اقتضى الأمر بذل ذلك كله فى سبيلها وجب بذله **﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾**[3]

ومن يصدق الله يصدقه ، وينصره على عدوه ، ويجعل له من ضيقة فرجا

---

(١) انظر المغازى والسير ابن إسحق ص ٢١٥ - ابن هشام ج ١ ص ٣٣٧ - ٣٣٨ - البداية ج ٣ ص ٦٩ - ٧٣ . قال الحافظ فى الفتح ج ٧ ص ١٨٩ إسناده حسن وقال ابن كثير هذا إسناد جيد قوى وسياق حسن المصدر نفسه . وقال الألبانى : صحيح من حديث أم سلمة كذا فى حاشية فقه السيرة للغزالى ص ١٢١ . وقد رويت هذه القصة بعدة ألفاظ عن ابن مسعود كما فى مسند أحمد وعن جعفر رواها ابن عساكر وقد أوردها ابن كثير فى البداية الجزء والصفحة السابق ذكرها .

(٢) السياج : الحائط : يقال سيج حائطه تسييجا . ا هـ . قاموس ج ١ ص ١٩٥

(٣) سورة التوبة : ٢٤

ومخرجا ، لاتحريف ولاتغيير ، ولا مداهنة للأهواء السياسية وغيرها . مجاهرة بالحقائق الإسلامية ، وليكن مايكون ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[1] ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾[2] ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ [3] .

إن الدين إذا فقد وغلب عليه ، لم يغن من ورائه الوطن والمال ، بل سرعان مايذهب كل ذلك ، أما إذا قوى شأن الدين ، وقامت فى المجتمع دعائمه ورسخت فى الأفئدة عقيدته ، فإن كل ماكان قد ذهب فى سبيله من مال وو ... يعود .

وقد جرت سنة الله فى الكون على مر التاريخ أن تكون القوى المعنوية هى الحافظة للمكاسب والقوى المادية ، فمهما كانت الأمة غنية فى خلقها وعقيدتها السليمة ، ومبادئها الاجتماعية الصحيحة فإن سلطانها المادى يغدو أكثر تماسكا وأرسخ بقاء ، وأمنع جانبا ، ومهما كانت فقيرة فى خلقها مضطربة فى عقيدتها ، تائهة فى نظمها ومبادئها فإن سلطانها المادى يغدو أقرب إلى الاضمحلال ومكتسباتها المادية أقرب إلى الزوال .

وقد توجد أمة تائهة - فى عقيدتها - عن جادة الطريق الصواب ، منحطة فى مستواها الخلقى والاجتماعى ، وهى مع ذلك واقفة على قدميها من حيث القوة المادية ، ولكنها فى الواقع تمر نحو هاوية سحيقة ، مثال ذلك مجتمع مشركى مكة ، وقد توجد أمة تعرت عن المادة فى سبيل الحفاظ على العقيدة الصحيحة وبناء النظام الاجتماعى السليم ، ولكن ماهى إلا فترة قصيرة حتى تجدها قد عادت إليها قوتها المادية مضاعفة معززة مثال ذلك المجتمع الذى بناه الرسول - ﷺ - (فى العهد المدنى) كان فى غاية من الضعف المادى ، وفى النهاية دوخ فارس والروم . [4] .

---

(١) سورة محمد : ٧

(٢) سورة الروم : ٤٧

(٣) سورة غافر : ٥١ .

(٤) انظر فقه السيرة للبوطى ص ١٢٢ - ١٢٣ - السيرة النبوية أبو شهبة ج ١ ص ١٩٣ .

- التحليل السياسى :

هل كانت الهجرة للحبشة ارتجالا أو بعد دراسة ؟

لم تكن ارتجالا ، وإنما كانت بعد دراسة عميقة ودقيقة للموقف قام بها رسول الله ﷺ وفرض لها عدة حلول ، ووجد أن الحل الأمثل هو أن يوجه أصحابه إلى الحبشة لوجهين :

الأول : لأن فى هجرة المسلمين إلى الحبشة إنقاذا للدعوة من أن تجهض[1] فى أيامها الأولى .

الثانى : انطلاق صوت الإسلام على أيدى دعاة مؤمنين إلى خارج الجزيرة العربية وهذا كسب لايستهان به .

وفى اختياره - ﷺ - الحبشة بالذات لتكون مهاجر أصحابه دليل على أنه - ﷺ - قد درس الموقف جيدا ، وعرف أحوال دول العالم آنذاك ، وتبين له من دراسة الموقف أن أنسب مكان للهجرة يومها هو الحبشة ، لأن فيها ملكا لايظلم عنده أحد .

وبذلك يظهر أن النبى - ﷺ - كان يفكر على مستوى دولة قبل أن تكون له دولة ويعمل على مستوى دولة بينما يظهر للناس مجرد محدث أفراد .[2]

وهذا مع الاعتبار بأن هذه الأفكار تحت رعاية الله - سبحانه وتدبيره .

---

(١) أُجهضت الناقة والمرأة ولدها إجهاضا : أسقطته ناقص الخلق اهـ . مصباح ج ١ ص ١٢٣ .

(٢) التفسير السياسى للسيرة ص ٦٦ - ٦٧ .

المبحث الثالث : المقاطعة العامة

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أمنوا فيه على أنفسهم وعقيدتهم وأن دائرة الإسلام قد اتسعت وعز جانبها بإسلام حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه وأن سفارة قريش إليه قد باءت بالفشل بل عادت تجر وراءها أثواب الخزى والعار ، زاد حقد المشركين فقرروا إبرام معاهدة إجرامية ، اذ تقطعت . بهم الأسباب فى الحيلولة بين محمد ﷺ ، وبين تبليغ ماأمر به بعد أن بذلوا كل طاقاتهم فى سبيل ذلك من أنواع التعذيب والأذى والقتل للمسلمين والمفاوضات وغيرها ، وكان من بنود هذه المعاهدة :

١ – ألا ينكحوا بنى عبد المطلب وبنى هاشم .

٢ – ألا يبيعوهم شيئا .

٣ – ألا يبتاعوا منهم شيئا .

تعاهدوا على الوفاء بذلك وكتبوه فى صحيفة علقوها فى جوف الكعبة توكيدا لذلك . وكان فى السنة السابعة من النبوة بعد الهجرة إلى الحبشة وقيل قبلها ، ورجح ابن كثير الأول لما رواه البيهقى وابن هشام[1] عن ابن إسحق وغيره وهو الذى ظهر لى وترجح وقد سبق بيانه فى الهجرة إلى الحبشة والله أعلم .

(١) انظر السير والمغازى ج ١ ص ١٥٦ – السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٣٥٠ فقه السيرة للغزالى ص ١٢٣ – السيرة النبوية للندوى ص ١٠٣ – البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٦ – السيرة النبوية أبو شهبة ج ١ ص ٢٧١

كما نقل عن موسى بن عقبة عن الزهرى أن هذه المقاطعة من قريش كانت بعد أن أجمعت على قتل النبى ﷺ علانية فلما علم أبو طالب بذلك أمر جميع بنى عبد المطلب وبنى هاشم أن يدخلوا رسول الله ﷺ – شعبهم وأن يمنعوه ممن أرادوا قتله . فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية ومنهم من فعله إيمانا ويقينا إلا أبا لهب فإنه ظاهر المشركين .

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ ، أجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم ولايبايعوهم ولايدخلوا بيوتهم ولايقبلوا منهم صلحا أبدا ، ولاتأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله للقتل ، تواثقوا على ذلك وكتبوه فى صحيفة .. نقل هذا ابن كثير وسكت عنه ، وكان أبو طالب ينقل رسول الله ﷺ من فراش لآخر خوفا عليه من الاغتيال[1] ، وممن قال بهذا القول الخضرى وأبو زهرة[2] .

قلت : وقد وهم من قال بهذا القول لأن الاتفاق أو المؤامرة على قتل النبى ﷺ علنا إنما كان بعد موت عمه أبى طالب وبعد الجلسة التى عقدت فى دار الندوة وحضرها رؤساء المشركين ومعهم إبليس اللعين فى صورة شيخ نجدى وترك النبى ﷺ فراشه بعد نزول جبريل عليه السلام يحذره من ذلك ، وبات فيه على بن أبى طالب ، وفى صبيحة تلك الليلة خرج الرسول ﷺ إلى الغار هو وصاحبه فى طريقه إلى الهجرة[3] .

هذا وقد دخل النبى – ﷺ ومن معه من بنى هاشم وغيرهم – فى شعب[4] بنى هاشم مضطرين وقد اشتد الحصار عليهم وانقطع العون وقل

---

(١) انظر البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) انظر نور اليقين للخضرى ص ٦٠ وخاتم النبيين – أبو زهرة ج ١ ص ٥٤٠ ، الناشر دار الفكر العربى الطبعة الأولى . سنة ١٩٧٢ م وقد يحمل هذا القول على المفاوضة الحنونية فى تسليم قريش عمارة بن الوليد لأبى طالب على أن يسلم إليهم محمداً ﷺ ليقتلوه وقد سبق أن ذكرت فى مبحث (تحمل الأذى) أن قريشا لم ينالوا من النبى ﷺ إلا بعد وفاة عمه أبى طالب . رجح هذا ابن كثير كما سبق وابن سعد ذكر ذلك فى الطبقات ج ١ ص ١٩٦ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ج ٩ ص ٢٢٦ – ٢٣٠ – لباب النقول ص ١٠٨ – ١٠٩ وانظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٤٨٠ – ٤٨١ – تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٨٥ – فتح القدير ج ٢ ص ٣٠٤ عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك** ﴾ ٣٠ من سورة الأنفال .

(٤) الشعب بالكسر الطريق فى الجبل وماانفرج بين جبلين ا هـ . مصباح ج ١ ص ٣٣٦ . وهو مشهور بهذا الاسم إلى زماننا هذا يقع شرقى المسجد الحرام ومنه الطريق الصاعد إلى جبل أبى قبيس وفيه لوحات إرشادية .

الغذاء ، حتى بلغ بهم الجهد أقصاه ، وسمع بكاء الأطفال من وراء الشعب وعضتهم الأزمات العصبية حتى رثى لحالهم الخصوم وقد واجه المحصورون كل ذلك بصبر وصمود راسخ كالجبال .

ولم يكتف المشركون بتلك الحملة الشديدة على الإسلام والمسلمين ، بل ألبوا العرب عليهم من كل فج كما لم يكتفوا بما تعاهدوا عليه في الصحيفة الظالمة فحسب ، فهذا نداء الوليد بن المغيرة في قريش (أيما رجل وجدتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه وحولوا بينهم وبينه ومن لم يكن عنده نقد فليشتر وعلى النقد)[1] فيرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من شدة الجوع وليس في يده شيء يطعمهم ، استمروا على ذلك ثلاث سنين وكان لايصل إليهم شيء إلا سرا .[2]

وهانحن أولاء مع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد المحصورين يروى لنا أنموذجا من ذلك الحصار ، روى ابن إسحق بسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : (لقد رأيتني مع رسول الله بمكة فخرجت من الليل أبول ، فإذا أنا أسمع قعقعة شيء تحت بولي فنظرت فإذا قطعة جلد بعير فآخذتها فغسلتها ثم أحرقتها فرضضتها بين حجرين ثم استففتها فشربت عليها من الماء فقويت عليها ثلاثا) .

وعنه أيضا قال : (كنا قوما يصيبنا صلف العيش - بمكة مع رسول الله ﷺ - وشدته فلما أصابنا البلاء اعترفنا وصبرنا له وكان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة وأجوده حلة مع أبويه ثم لقد رأيته جهد في الإسلام جهدا شديدا حتى لقد رأيت جلده يتحشف تحشف[3] جلد الحية حتى أن كنا لنعرضه على قسينا فنحمله مما به من الجهد ومايقصر عن شيء بلغناه ثم أكرمه الله بالشهادة يوم أحد)[4] .

فانظر كيف بلغ الحصار بالمسلمين وكيف ألجأهم أن يطعموا مالا مساغ

---

(١) السير والمغازى ج ١ ص ١٥٩ .
(٢) انظر التفاصيل فى فتح البارى ج ٧ ص ١٩٢ - ١٩٣ .
(٣) يبس وتقلص ا هـ . قاموس ج ٣ ص ١٢٨ .
(٤) السير والمغازى لابن إسحق ص ١٩٣ - ١٩٤ وسكت عنه الألبانى فى تخريج وتصحيح أحاديث فقه السيرة .

له .. وكيف صبر المترفون على شظف العيش[1] بل استعذبوه فى سبيل دينهم وعقيدتهم ذلك هو رباط الإيمان وحده الذى يمسك القلوب ويصبر على اللأواء .[2]

وطبيعى أن يستعجل المسلمون الخروج من هذا المأزق لما وعدوا به من النصر والتمكين ، وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوى الرحم من قريش فكان أحدهم يوقر البعير زادا ثم يضربه فى اتجاه الشعب ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين فيخفف شيئا مما بهم من إعياء أو فاقة .

- الاضطهاد يزيد الدعوة عمقا :

عرفت فيما مضى أن النبى ﷺ - وأصحابه كانوا يعانون آلام الحصار بأنواعه ، ومع ذلك لم يشغلهم عن تبليغ الدعوة وعرضها ، إذ الاضطهاد لايقتل الدعوات بل تزيد جذورها عمقا وأغصانها امتدادا قال ابن هشام بعد أن ذكر ماجرى بين أبى البخترى وأبى جهل بسبب الطعام الذى كان يمد المسلمين به أبو البخترى (فلقيه يوما أبو جهل فنال كل من صاحبه فضرب أبو البخترى أبا جهل بلحى بعير فشجه ووطئه وطئا شديدا) إلى أن قال (ورسول الله ﷺ - على ذلك يدعو قومه ليلا ونهارا وسرا وجهارا مباديا[3] بأمر الله ، لايتقى فيه أحدا من الناس)[4]

قال الغزالى[5] : (ولاأحسب شيئا يربى النفوس على التجرد كهذا التفانى فى الحق للحق ذاته . ثم إن القرآن كان صارما فى قمع المتاجرة بالعقائد والإثراء على حسابها والعلو فى الأرض باسمها) **﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون ﴾**[6].

---

(١) شظف العيش شدته وضيقه ا هـ مصباح ج ١ ص ٣٣٥ .
(٢) الاحتباس والشدة والإبطاء وقع فيها ا هـ . قاموس ج٤ص ٣٨٤ .
(٣) فى هامش السيرة مالفظه : (وفى سائر الأصول منادياً) .
(٤) السيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٤ .
(٥) انظر فقه السيرة للغزالى ص ١٢٦ .
(٦) هود : ١٥ - ١٦ .

- مكاسب الدعوة فى زمن الحصار :

وقد كسبت الدعوة مكاسب عظيمة منها :

ماأفاده الصحابة رضوان الله عليهم من العفة والنقاء والإخلاص التى لايعرف لها فى التاريخ نظير كانوا يلقون غيرهم فى موسم الحج فلم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها بل كسبت أنصارا كثيرا؛إذ بدأ المشركون فى الانقسام والتساؤل حول المقاطعة ، وشرع فريق منهم يعمل على إبطالها ، ونقض الصحيفة الظالمة ، فعند اشتداد الكرب تبدو مطالع الفرج ، وصدق الله القائل : ﴿ **فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا** ﴾ [1] وصدق رسوله - ﷺ - القائل: لن يغلب عسر يسرين[2]. وكما قال ﷺ أيضا : (نزل المعونة من السماء على قدر المئونة ونزل الصبر على قدر المصيبة)[3] وفى رواية (.. لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه فأنزل الله عز وجل ﴿ **إن مع العسر يسرا ... الآية** ﴾ ومما يروى عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال :

صبرا جميلا ماأقرب الفرجا   من راقب الله فى الأمور نجا
من صدق الله لم ينله أذى[*]   ومن رجاه يكون حيث رجا[4]

- هشام بن عمرو يدبر نقض الصحيفة :

وقد تصدى لأبطال المقاطعة جماعة من قريش بزعامة (هشام بن عمرو بن ربيعة) فقد ساءته حال المسلمين لما هم فيه من عناء ، وكان واصلا لبنى هاشم ، ذا شرف فى قومه ، وقد أبلى بلاء حسنا ، إذا مشى إلى زهير بن أبى أمية) وكان شديد الغيرة على النبى ﷺ والمسلمين إذ كانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فناشده حق الرحم قائلا : يازهير ، أرضيت أن تأكل الطعام

---

(١) الانشراح : ٤ - ٦ .

(٢) كذا فى تفسير ابن كثير عن الحسن مرسلا . ومعناه أن العسر معرف فى الحالين فهو مفرد واليسر منكر فتعدد . فالعسر الأول عين الثانى بخلاف اليسر فانه تعدد اهـ . المجرع نفسه ج ٨ ص ٤٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ، من حديث أبى هريرة بلفظ : (نزل) فى الموضعين راجعت فيه نسختين .

(*) معلوم أن الانبياء عليهم السلام قد نالهم كثير من الأذى ، وبعضهم قتلوا ، وهم أصدق الناس فى أقوالهم وأعمالهم .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٤٥٤ .

وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ؟ .. أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى جهل ، ثم دعوته إلى مثل مادعاك إليه ماأجابك أبدا . قال : فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد . والله لو كان معى آخر لنقضتها . فقال قد وجدت رجلا . قال : فمن هو ؟ قال أنا . قال ابغنا ثالثا . فذهب إلى (المطعم ابن عدى) فوافقه وطلب منه رابعا ، فذهب إلى (أبى البخترى) فوافقه على أن ينضم إليهم خامسا ، فذهب إلى (زمعة بن الأسود) فانضم إليهم ، فاتعدوا خطم الحجون[1] ليلا فاجتمعوا هنالك وتعاقدوا على القيام فى نقض الصحيفة فقال زهير أنا أبدؤكم بالكلام .

– تنفيذ نقض الصحيفة :

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس قائلا ، ياأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى . والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة ، قال أبو جهل : كذبت والله لاتشق . قال زمعة : أنت والله أكذب مارضينا كتابتها . قال أبو البخترى : صدق زمعة ، قال المطعم : صدقتما وكذب من قال غير ذلك وقال هشام : نحوا من ذلك ، فنكس أبو جهل رأسه وقال : (هذا أمر قضى بليل) . فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم) وفى رواية ابن إسحق : أن الذى بقى منها القطيعة والظلم والبهتان .[2]

وقد رويت هذه القصة بعدة روايات اكتفينا منها بما ذكرنا والمقام لايسع أكثر من هذا . وقد كان مصير كاتب الصحيفة أن شلت يده على اختلاف فى اسمه والمشهور أنه منصور بن عكرمة .

وهكذا كان مصير الظلم والقطيعة ، جعل الله بأسهم بينهم .

فك الحصار ، وأيد الله الدعوة المحمدية برجال من رؤساء قريش المشركين ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول (... وإن الله ليؤيد هذا الدين

---

(١) الحجون موضع معروف بأعلى مكة وهو الذى نصب النبى ﷺ الراية عليه عام الفتح وخطمه مقدمه . ا هـ . هامش السيرة ابن هشام .

(٢) السير والمغازى ص ١٦١ ابن هشام ج ١ ص ٣٧٤ – ٣٧٦ البداية ج ٣ ص ٩٥ – ٩٧ فقه السيرة غزالى ١٢٣ – ١٢٨ .

بالرجل الفاجر)[1] وكـان مصير الظالمين القاطعين أن قتلهم ذلك المحصورون - الضعفاء مادة آنذاك الأقوياء ، إيمانا حاضرا ومستقبلا - يوم بدر ، ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون** ﴾[2] والبقية الباقية استسلموا يوم فتح مكة ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[3] زد على ذلك مانزل بهم من الجوع والأمراض والدخان، على القول بأنه قد نزل وقد سبق الكلام على ذلك ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[4] .

﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون** ﴾[5]

وأعظم نعمة كفروا بها هى رسالة محمد - ﷺ - إذ أرسله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور فقابلوا هذه النعمة بالجحود فاستحقوا مانزل بهم .

- نتائج المقاطعة :

عجبا لتلك الأحداث كيف تنقلب ضد رغبة مدبريها ؟

ولاعجب .. إنه صنع العزيز الحكيم ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾[6] .. صحيح أن المقاطعة التى فرضها رؤساء المشركين بتلك

---

(١) متفق عليه من حديث طويل عن أبى هريرة - البخارى ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨١ - ج ٤ ص ١٤٥ ، مسلم ج١ ص ٧٣ - ٧٤ وذلك لأن رجلا قتل نفسه من شدة ألم الجراحة وكان أول النهار قاتل قتالا شديدا فى صفوف المسلمين يوم حنين . الدارمى ج ٢ ص ١٥٨ . مسند أحمد ج ٢ ص ٣٠٩ وإن ذلك كان يوم خيبر .
وقال النووى نقلا عن القاضى عياض رحمهما الله تعالى : كذا وقع فى الأصول أى يوم حنين وصوابه يوم خيبر ا هـ . شرح مسلم ج ٢ ص ١٢٢ - ومن ذلك شهود صفوان بن أمية حنينا مع النبى ﷺ وهو مشرك وتعقب بأنه معارض بحديث (لانستعين بمشرك) وقيل لامعارضة لأنه إما خاص بذلك الوقت وإما أن يكون المراد به الفاجر غير المشرك . ا هـ فتح البارى ج ٦ ص ١٧٩ - وحديث فلن أستعين بمشرك : رواه مسلم ج ٥ ص ٢٠١ .

(٢) السجدة : ٢١

(٣) التوبة : ٢٢

(٤) هود : ١٠٢

(٥) النحل : ١١٢ - ١١٣

(٦) الأنفال : ٣٠ =

الصحيفة الظالمة قد ألحقت أذى كثيرا برسول الله - ﷺ - وبقومه . ولكنها جلبت للدعوة خيرا كثيرا فهى منعت ذوى الأغراض الدنيئة من الانتساب إليها إذ ليس لهم فيها مطمع دنيوى لطامع فلم يقبل على هذا الدين الذى جاء به محمد ﷺ إلا من عمرت قلبه حرارة الإيمان ، فلم يطق صبرا على فراقه مهما بلغت التضحية وكل دعوة يتاح لذوى الأغراض الاندساس بين صفوفها فإن مآلها إلى البوار لامحالة لأنهم لايلبثون أن ينحرفوا بها عن أغراضها جريا وراء مصالحهم وتحقيقا لأغراضهم ضاربين بأهدافها الأرض .

وهذا العذاب الذى كان ينال رسول الله ﷺ وأصحابه المؤمنين كان الضمان الأكيد لنظافة المنتسبين للإسلام .

وكان كثير من المشركين عندما رأوا ماأحاط بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن معه من الضيق والشدة فى الشعب قد انقلبوا إلى صفه وأصبحوا من المدافعين عنه ، مما أدى إلى تمزيق الصحيفة الظالمة ، وبذلك وجدت الخلخلة فى صفوف المشركين ، فلم تعد كلمتهم واحدة وظهر لأول مرة من يرفع صوته معترضا على مضايقة محمد ﷺ ومن معه .[1]

* * *

= وأصل المكر فى اللغة الاغتيال والتدبير فى خفاء . وعليه فلا يسند إلى الله إلا على سبيل المشاكلة كما سمى جزاء السيئة سيئة ، ومكر الله استدراجه للعباد من حيث لايعلمون . والمعنى أنهم يخفون مايعدونه لرسول الله ﷺ من المكائد فيجازيهم الله على ذلك ويرد كيدهم فى نحورهم . فتح القدير ج ١ ص ٣٤٤ . ج ٢ ص ٣٠٢ ، المصباح المنير ج ٢ ص ٢٤٣ .

وفى الآية كلام يتعلق بصفات الله تعالى . فارجع إليه فى مظانه على ضوء عقيدة السلف الصالح .

(١) انظر التفسير السياسى للسيرة ص ٩٠ — ٩١ .

الفصل الثالث :

إعداد الدعاة



- إعداد الدعـــاة :

اعلم بأن إعداد الدعاة مهمة ليست فرعية، بل هى أساسية وغير سهلة تحتاج إلى جهود غير قصيرة ، وقد حدد القرآن الكريم هذه المهمة الأساسية للرسول ﷺ بصراحة فقال : ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾[1]

وهذه هى من دعوات إبراهيم عليه السلام إذ قال : ﴿ ربنا **وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[2]

وقد استجاب الله - عز وجل - دعوة إبراهيم عليه السلام ، وبعث فى العرب محمدا ﷺ - مع عموم رسالته - فعلمهم وأحسن تعليمهم وأدبهم فأحسن تاديبهم وأعدهم وأحسن إعدادهم وخرج جيلا فريدا من نوعه يحمل شهادة عالية سماوية ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن**

---

(١) الجمعه : ٢ وقد أحصت هذه الآية من مهمات الرسول ﷺ - التعليم والتربية تعليم الكتاب والحكمة ، وتربية الأنفس عليهما، وكان الجانب الأعظم من حياة الرسول ﷺ مستغرقا بهذا الجانب إذ إنه هو الجانب الذى ينبع عنه كل خير ولايستقيم أى جانب من جوانب الحياة سياسيا أو إجتماعيا أو اقتصاديا أو أخلاقيا أو عسكريا إلا به ، ولايؤتى الإنسان ولاتؤتى أمة ولاتؤتى الإنسانية إلا من التفريط فى العلم الصحيح والانحراف عنه إما إلى الجهل أو إلى مايضر علمه ولاينفع . ا هـ . الرسول : لسعيد حوى ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) البقرة ١٢٩

المنكر وتؤمنون بالله[1] ﴾ ولكن هذا الجيل لم يحصل على هذه الشهادة إلا بعد عناء ودراسة وامتحان شاق فى جميع المراحل التى اجتازها بنجاح،وذلك بعد الانتشال من حمأة الجاهلية إلى قمة الإسلام ، وكما يقال : التخلية قبل التحلية . وقد أشرت إلى نماذج من ذلك الامتحان الذى لايجتازه إلا ذووا الإيمان الراسخ فى القلوب رسوخ الجبال التى لاتزعزعها الرياح والعواصف .

ولكن نريد أن نبين – ولو قدرا يسيرا – كيفية ذلك الإعداد . وهل استغرق ذلك وقتا قصيرا أم العكس . وهلى اكتفى بالإعداد مرة واحدة ، أم لابد من الاستمرار ؟ ومالى ذلك من التساؤلات .

قال شيخنا : (إن العجينة البشرية عجينة عصية ، وأنه لايكفى أن نضعها مرة فى داخل القالب المضبوط لتستقر وحدها هناك ، إنها دائمة التقلب والبروز من هنا ومن هناك بتأثير الدوافع القوية ، والجواذب العنيفة التى تجذبها نحو الأرض وتحركها فيها ، والدعاة بالذات أو الجيل الأول من الدعاة بالذات يحتاج إلى صياغة خاصة ليحمل تكاليف الحق وإنها لتكاليف مرهقة تحتاج إلى تدريب وإعداد خاص . .

إنها ليست نزهة مسلية ولاعرضا قريبا ولا سفرا قاصدا إنها الدعوة إنها تشييد بناء متين يستظل فيه الناس بظل الله فى الأرض ، ويستروحون بناء يقام لله ويكون الحكم فيه لله .. ثم إنه بناء فى حاجة إلى حماية ووقاية من الأعداء الذين يكرهون (لا إله إلا الله) لأنها تسلبهم سلطانهم المغتصب ، وترده إلى الله ، أو لأنها تضبطهم بميزان الله ، وهم يريدون الانفلات بما تمليه عليهم الشهوات . فمن أين لهذه العجينة الطرية العصية أن تخلص من نوازعها وجواذبها وهواتفها التى لاتفتأ تخرجها من قالبها المضبوط ، وتبرز بها من هنا وهناك لتستقيم على وضعها المضبوط حتى تقيم العدل الربانى فى الأرض ، لاتميل

---

(١) آل عمران ١١٠

به المصلحة ولا الهوى ولا الرغبات ؟

ثم أين لهذه العجينة أن تصلب وتنضبط لتحتمل تكاليف الجهاد ، والجهاد قائم بالضرورة لحماية البناء الربانى من الأعداء ؟ . أفى الرخاء تتحول هذه العجينة إلى صورتها المنضبطة فى القالب المطلوب ؟ يعلم الله أن ذلك لايكون ، إن العجينة الناضجة على البارد لاتحتمل الضغط ولاتثبت للصدام ، وسرعان ماتتفلق من هنا وهناك .

(إذن) لابد من صناعة خاصة لأولئك الذين يقومون بالدور الأول ، إزاء الجاهلية ويؤسسون للبناء . وكما تحتاج العجينة إلى حرارة النار لإنضاجها ، فكذلك تحتاج العجينة البشرية إلى حر الابتلاء ، فى حر الابتلاء تثبت العجينة الطرية العصية وتصلب وتصبح قادرة على الصمود والصدام فى حر الابتلاء تترسخ العقيدة وتمتد جذورها فى النفس حتى تتمكن منها ولا تعود تقتلع أبدا ، مهما اشتدت بها العواصف بعد .

إن الإيمان فى الرخاء سهل ، لأنه لايكلف صاحبه كثيرا ، ولايهدده فى أمنه وسلامته ، ولكن حقيقة الإيمان لاتتبين - حتى لصاحبها - إلا بالابتلاء كما تدق المسمار فى الحائط فتحسبه راسخا لأول وهلة مادام ثابتا فى مكانه . ولكنك لاتأمن عليه حتى تختبره ، فتضغط عليه بإصبعك أو تحاول انتزاعه ، ثم لاتعلق عليه شيئا إلا إذا ثبت بعد الاختبار ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولم يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾[1] ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب**)[2] ﴿ **أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة** ﴾[3] ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾[4] .

---

(١) آل عمران - ١٤٣ .

(٢) البقرة : ٢١٤ . إلسـلـك

(٣) التوبة : ١٦ .

(٤) العنكبوت : ١٠ .

كلا .. لابد من الابتلاء لترسيخ العقيدة ذاتها استعدادا لإقامة البناء .)[1]
(أو لإزالة العناصر المزيفة) ولكن ليس فى الجيل الأول من هذا شىء . وقد سبق أن ذكرنا أن العقيدة تقول : لا إله إلا الله وأنه الضار النافع وحده والمدبر بغير شريك . وأنه لايحدث شىء فى الأرض إلا بما أراده الله .[2]

يؤمن الناس بذلك إيمانا سهلا فى الرخاء ، ويحسبونه قضية منتهية لاتحتاج إلى مراجعة ، ثم يحدث الابتلاء ويصبح أهل الحق فى موقف الضعف والهوان والذلة . وأهل الباطل فى موقف السيطرة والسطوة والاستعلاء وفى موقف العدوان كذلك والإيذاء .

فمن ثبت في مكانه واستيقن أن مايصيبه من الضر على أيدى هؤلاء إنما يصيبه بإرادة الله سبحانه ومشيئته لابإرادة هؤلاء ومشيئتهم وأنهم لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . ﴿ **ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها** ﴾[3] فمن ثبت على هذا فقد آمن حقا أن الله هو الضار النافع وحده . ومن تزلزل يقينه ونظر إلى أولئك الطغاة كمن يملك التصرف فى شىء من عند نفسه ، فهو إذن غير صالح لإقامة البناء وكان من الحكمة أن ينكشف قبل إقامة البناء بالفعل ﴿ **ماكان الله ليذر المؤمنين على**

---

(١) منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٥٩ - ٦١ .

(٢) الإرادة نوعان : إرادة كونية قدرية شاملة كتقدير الخير والشر ومنه قوله تعالى ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾ القمر ٤٩ .

وإرادة أمرية شرعية دينية كقوله تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر** ﴾ البقرة : ١٨٥ . وقوله ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم** ﴾ النساء : ٣٦ والفرق بينهما ، أن الإرادة الأمرية الشرعية تستلزم المحبة بخلاف الكونية القدرية ، فإن الله سبحانه وإن قدر الكفر فإنه لايرضاه ولايحبه ﴿ **ولايرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ الزمر : ٧ .

(٣) الحديد : ٢٢

ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وماكان الله ليطلعكم على الغيب﴾[1].

إن الجيل الأول من الدعاة الذى واجه الجاهلية بكل عنفها وضراوتها فى محاربة العقيدة والمؤمنين بها حربا يقصد بها الإبادة الكاملة . هذا الجيل فى حاجة إلى إعداد خاص ليتحمل التكاليف وهى تكاليف باهظة عنيفة ومرهقة[2] .

وهذا الإعداد لايمكن أن يتم فى الرخاء السهل إنما يتم فى الشدة المحرقة . فكما يدرب الجيش المحارب فى الصحراء على احتمال العطش والرمضاء ودرجات البرد والريح العاصفة، فكذلك تم تدريب الجيل الأول من الدعاة فى ذات الجو الذى عانوه ، فيدخلهم ربهم المحنة – كما سبق بيانه – رحمة بهم لاغضبا عليهم ، حتى يعودهم على الجهد ، فلا يجهدهم العمل ولا الاستمرار فيه .

إذن إنها الرحمة والتربية الربانية فضلا على تمييز الخبيث من الطيب من أول الطريق ، إنه التدريب الربانى على تحمل المشاق ، والإعداد الروحى والعقلى والبدنى للقيام بأخطر مهمة فى هذا الكون كله ، مهمة إقامة الخلافة الراشدة فى الأرض ، وهذا ماكان بعد الهجرة النبوية ، ثم إنها فرصة لتدريب من نوع آخر ضرورى للدعاة بصفة عامة وللجيل الأول بصفة خاصة .

إن الداعية لايصلح أن يكون ملتصقا بالأرض خاضعا لجواذبها ، فإن حمله أثقل ، ومهمته أخطر ، حمله أثقل ، لأنه يواجه الجاهلية بضراوتها وإصرارها على إبادة الدعوة والداعية ومهمته أخطر لأنه لايطلب منه أن يكون مجرد مسلم عادى ، بل يكون مثالا لأن أنظار الناس متعلقة به ، تأخذ منه القدوة والعكس بالعكس .

---

(١) آل عمران : ١٧٩ – فلابد أن يعقد شيئا من المحنة يظهر فيه وليه ويفتضح فيه عدوه يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر ﴿ وماكان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ لولا مايعقده من الأسباب الكاشفة لذلك والخطاب قيل للكفار والمنافقين وقيل للمؤمنين والمنافقين وقيل للمشركين وقيل للمؤمنين ولكل توجيه ليس هذا محله فهى وإن كانت ميزت بين أولئك يوم أحد فالعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب . اهـ . ابن جرير ج ٣ ص ١٨٧ – ابن كثير ج ٢ ص ١٥٠ – ١٥١ – فتح القدير ج ١ ص ٤٠٤ وفيه توسع .

(٢) انظر منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٦١ – ٦٢ بتصرف .

فمن أجل أن يكون قادرا على حمل التبعة الثقيلة بشقيها (هما مواجهة التكاليف الباهظة بنفس راضية والارتفاع إلى مستوى القدوة)

من أجل ذلك يلزمه تدريب من نوع خاص يتعود فيه على الحرمان من متاع الأرض ويتعود فيه على التخفف من جواذب الأرض ، والقدرة على الانفلات منها فى لحظة حين يدعو إلى ذلك داع . وهذا مايحتاج إلى التدريب الخاص حتى يكون – على المستوى العملى – مستعدا استعدادا تاما بلا توجع ولاتحسر .[1]

فى هذا التدريب الخاص – داخل الابتلاء – يبعد الإنسان عن متاع الأرض على غير اختيار منه ، وقد يكون على غير رضا منه فى مبدأ الأمر ، ثم تمر الأيام وتطول المحنة ، فماذا يحدث من تحولات فى النفس ؟ إنه فى الحقيقة – يحدث شىء كبير :

أ – يكتشف الإنسان فى نفسه طاقة على الصبر لم يكن يظنها موجودة فى نفسه أو لم يظنها بهذا القدر ، وفى هذا تثبيت له على الابتلاء وتشجيع على احتمال مثله إذا تعرض له فى ظرف آخر كأى تجربة جديدة قد يخشى الإنسان من خوضها فإذا خاضها بنجاح لم تعد تكرثه من بعد ، حتى وإن كانت تكلفه الكثير من الجهد .

ب – يكشف الإنسان أن كثيرا من ضرورات الحياة التى يظنها فى الرخاء ضرورة حياة أو موت ليست فى الحقيقة كذلك ،

فها هو ذا قد حرم منها ، ومع ذلك لم يمت .

وها هو ذا قد حرم منها ومع ذلك لم يفقد من حجم الحياة وعمقها كثيرا فى نفسه بل الأصح هو العكس لقد زادت حياته غنى وعمقا واتساعا بألوان من المشاعر جديدة رفيعة عالية ماكان يحسها فى الرخاء ولاتذوق طعمها ، وماكان يتأتى له أن يتذوقها لولا هذا الحرمان الإجبارى الذى أوقعه فيه الابتلاء على كره منه .

---

(١) انظر منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٦٤ – ٦٥ .

مشاعر وتصورات وأفكار ذات أعماق وأبعاد وذات نور وشفافية[1] وإشراق ، حتى وإن كانت قاعدتها هى الألم ، وغذاؤها هو الدموع . ويحدث أخيرا أن يرى الحياة الدنيا على حقيقتها بحجمها الطبيعي . إن نفس الإنسان كحسه القريب منها تراه أضخم من حقيقته والبعيد عنها تراه أقل من حقيقته ، ضع أصبعك قريبا من عينك تحجب عنك كل ماوراءها من المرئيات رغم حجمها الصغير ، وأبعدها عنك ترها على حقيقتها ، ولاتحجب عنك إلا حظا ضئيلا لايكاد يؤثر فى رؤيتك للأشياء .

والنفس كذلك ، وهى ملتصقة بالأرض خاضعة لجواذبها تراها فى حسها ضخمة جدا ، وهائلة جدا ، وحرية بأن يعيش لها الإنسان كل لحظة من لحظات حياته ، ثم تبتعد عنها — أو تبعد عنها قسرا — فتراها على حقيقتها وترى ماوراءها مما كانت تحجبه وهى قريبة من الحس فتخف الثقلة ، فلا تعود مقيدة ، وتخف الجذبة فلا تعود قاهرة وتخف المشغلة فلا تعودهم الليل والنهار ، وينطلق الإنسان من أسرها بجهد أيسر ، أو بغير جهد حين يبلغ من التدريب مداه . تلك دروس التربية فى المحنة ، وهى دروس — كما ترى — لازمة للجيل الذى يقوم على أكتافه البناء ، الجيل الذى يراد له أن يصنع صناعة خاصة ، سواء فى أثناء مواجهة الجاهلية الضارية أو بعد ذلك حين التمكين .

وفى كلا الحالين يكون المطلوب نماذج فائقة من البشر استطاعت أن تتجرد لله ، وأن تحتمل المشقة فى سبيل الله .

تلك دروس العقيدة ، وهى دروس التربية كذلك ، فهى تقول لهم : لستم وحدكم على الطريق إنما سبقكم أمم ابتليت كما ابتليتم، وطغى عليها الطغاة كما طغوا عليكم،فصبروا على الاضطهاد والتعذيب والتشريد والتقتيل، فكونوا كذلك صابرين مثلهم .. فهذا سبيل الدعاة .

ثم هى تقول لهم : إن الله هو الذى يقدر ذلك كله ، هو الذى يمد للطغاة ليزدادوا كفرا على كفرهم وليبتلى المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، فرسخوا إيمانكم بالله لتخرجوا ناجحين من الابتلاء مستحقين عند الله حسن الجزاء .

---

(١) يقال ثوب شفيف أى رقيق وهو الذى يستشف ماوراءه ، أى يبصر . ا هـ ، مصباح ج ١ ص ٣٤٠ .

ثم هى تقول لهم إن الله هو الذى ينهى المحنة حين يحل الموعد المقدور فى قدر الله إذن فسبيل المؤمن هى الصبر حتى يأتى الله بالتغيير . وهو التوجه لله والتطلع الدائم إليه أن يكشف الغمة عنهم ويقرب الفرج إليهم ، وبذلك يرتبط القلب البشرى بالله مزيدا من الارتباط ويتربى على التطلع الدائم إليه والتوجه إليه فى الكبيرة والصغيرة على السواء .

والرسول - ﷺ - كان يحدثهم بأخبار من كان قبلهم وعن صبرهم فى الابتلاء ويطلب إليهم الثبات والصبر والتعلق بالله .

جاء فى الحديث عن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : (شكونا إلى رسول الله - ﷺ - وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا له : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ، قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيه فيجاء بالميشار[1] فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ومايصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لايخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)[2]

ومع ذلك يعطيهم من نفسه ﷺ النموذج والقدوة فى ذلك كله ، فتمتزج ودروس التربية والإعداد فى مزيج واحد يصنع فى نفوس المؤمنين - دون أن يشعروا - تلك التحولات الضخمة التى حدثت فيخرجون من المحنة ، وهم أصلب عودا وأمضى ثباتا ، وقد ترسخت العقيدة فى نفوسهم فلم تعد تقتلع ، وترسخ ذلك المنهج الإسلامى فى وجدانهم فاستقاموا عليه وتجردت نفوسهم لله وحده ، فلم تعد تبغى لنفسها شيئا إلا الوصول لرضوان الله عز وجل .[3]

وقد كان القرآن وهو يبنى العقيدة فى ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية من حولها كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية فى ضميرها هى وأخلاقها وواقعها .

---

(١) الميشار بالياء التحتية المهموزة وبدونها وبالنون كما فى فتح البارى ج ٧ ص ١٧٦ .

(٢) البخارى ج ٢ ص ٢٨١ - ٣٢١ بألفاظ متقاربة .

(٣) انظر منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٦٨ - فى ظلال القرآن ج ١٠ ، ص ١٥٧٧ .

ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة لا فى صورة نظرية ولا فى صورة لاهوت ولا فى صورة جدل كلامى ولكن : فى صورة تجمع عضوى حيوى وتكوين تنظيمى مباشر للحياة ، ممثل فى الجماعة المسلمة ذاتها . وكان نمو الجماعة المسلمة فى تصورها الاعتقادى وفى سلوكها الواقعى وفق هذا التصور وفى دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها ، كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقيدى وترجمة حية له ، وهذا هو منهج الإسلام الذى يمثل طبيعته كذلك .[1] قال شهيد الدعوة رحمه الله – (لقد خرجت هذه الدعوة جيلا من الناس – جيل الصحابة رضوان الله عليهم – جيلا مميزا فى تاريخ الإسلام كله ، وفى تاريخ البشرية جميعه . ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى . نعم وجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ ، ولكن لم يحدث قط أن تجمع مثل ذلك العدد الضخم فى مكان واحد كما وقع فى الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة هذه ظاهرة واضحة واقعة ذات مدلول ينبغى الوقوف أمامه طويلا لعلنا نهتدى إلى سره .)[2] .

إن قرآن هذه الدعوة بين أيدينا وحديث رسول الله – ﷺ – وهديه العملى وسيرته الكريمة كلها بين أيدينا كذلك، كما كانت بين أيدى ذلك الجيل الأول ، الذى لم يتكرر فى التاريخ ، ولم يغب إلا شخص رسول الله – ﷺ – فهل هذا هو السر ؟ لو كان وجود شخص رسول الله – ﷺ – حتميا لقيام هذه الدعوة وإيتائها ثمراتها ، ماجعلها الله دعوة للناس كافة ، وما جعلها آخر رسالة وماوكل إليها أمر الناس فى هذه الأرض إلى آخر الزمان .

ولكن الله – سبحانه – تكفل بحفظ الذكر وعلم أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله ﷺ ، ويمكن أن تؤتى ثمارها فاختاره الله إلى جواره ، وأبقى هذا الدين من بعده إلى آخر الزمان، وإذن فغيبة شخص الرسول – ﷺ – لاتفسر تلك الظاهرة ولاتعللها فلنبحث إذن وراء سبب آخر :

أ – لننظر فى النبع الذى كان يستقى منه هذا الجيل الأول . فلعل شيئا قد تغير فيه .

---

(١) انظر معالم فى الطريق ص ٣٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ١١ .

ب – ولننظر فى المنهج الذى تخرجوا عليه فلعل شيئا قد تغير فيه كذلك .

– النبع هو هو .. لم يتغير ولن يتغير ﴿ **لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾[1]. ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[2] .

– منهج الأخذ من ذلك المنبع الصافى :

ولكن الجيل الأول لم يكونوا يقرأون بقصد الثقافة والاطلاع ولابقصد التذوق والمتاع لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ولاليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولا يملأ به جعبته ، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله – سبحانه – فى خاصة شأنه وشأن الجماعة التى يعيش فيها وشأن الحياة التى يحياها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه كما يتلقى الجندى فى الميدان الأمر اليومى ليعمل به فور تلقيه ، ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه فى الجلسة الواحدة ، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه فكان يكتفى بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن ، والعمل بهن) وفى رواية من طريق السلمى (فتعلمنا القرآن والعمل جميعا)[3]

– منهج التلقى :

منهج التلقى للتنفيذ والعمل هو الذى صنع الجيل الأول ، ومنهج التلقى للدراسة والمتاع هو الذى خرج الأجيال التى تليه .

وما من شك أن هذا العامل الثانى كان عاملا أساسيا كذلك فى اختلاف الأجيال كلها عن ذلك ، هناك عامل ثالث جدير بالانتباه والتسجيل :

ج – لقد كان الرجل حين يدخل فى الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه

---

(١) سورة فصلت : ٤٢

(٢) سورة الحجر : ٩

(٣) مقدمة ابن كثير ص ١٣ .

فى الجاهلية كان يشعر فى اللحظة التى يجىء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهدا جديدا منفصلا كل الانفصال عن حياته التى عاشها فى الجاهلية .

وكان يقف من كل ماعهده فى جاهليته موقف المتريب الشاك الحذر المتخوف الذى يحس أن كل هذا رجس لايصلح للإسلام وبهذا الإحساس كان يتلقى هدى الإسلام الجديد ، فإذا غلبته نفسه مرة وإذا اجتذبته عاداته مرة وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة ، شعر فى الحال بالإثم والخطيئة ، وأدرك فى قرارة نفسه أنه فى حاجة إلى التطهر مما وقع فيه وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهدى القرآنى .[1]

تلك كانت القاعدة الأولى التى انبنى عليها كل ماجاء بعد ذلك من دروس حتى استقامت تلك النفوس على القمة، ووقفت هناك وقفتها المشرفة العالية تنير الطريق لكل البشرية **﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**[2] **﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾**[3] .

وحسبنا القول بأن هذه الجماعة التى ربيت وأعدت على هدى القرآن وعلى عين الرسول ﷺ هى التى كتبت التاريخ .

هذا وأنه لمن الضرورى لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه فى الحركة على هذا النحو الذى بيناه ، ذلك ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التى طالت فى العهد المكى على هذا النحو لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العلمى للحركة الإسلامية والبناء الواقعى للجماعة المسلمة ، لم تكن مرحلة تلقى النظرية ودراستها ، ولكنها مرحلة البناء للعقيدة وللجماعة وللحركة معا .

---

(١) مستفاد من معالم فى الطريق ص ١١ – ١٧ .

(٢) آل عمران : ١١٠

(٣) البقرة : ١٤٣ – والوسط هنا الخيار والأجود كما يقال قريش أوسط العرب نسبا ودارا أى خيرها وكان النبى وسطا فى قومه أى أشرفهم ومنه الصلاة الوسطى التى هى أفضل الصلوات . ا هـ . ابن كثير ج ١ ص ٢٧٥ .

وهكذا ينبغى أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى .[1]

- تنبيه لدعاة الإسلام المعاصرين :

قال سيد قطب رحمه الله : (إنه ابتداء يجب توجيه الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة من المؤمنين المخلصين الذين تصهرهم المحنة ، فيثبتون عليها ، والعناية بتربيتهم تربية إيمانية عميقة ، تزيدهم صلابة وقوة ووعيا ، مع الحذر الشديد من التوسع الأفقى قبل الاطمئنان إلى قيام هذه القاعدة الصلبة الخالصة إذ ذاك خطر ماحق ، يهدر وجود أى حركة لاتسلك طريق الدعوة الأولى من هذه الناحية ، ولاتراعى طبيعة المنهج الحركى الربانى النبوى الذى سارت عليه الجماعة الأولى)[2] .

قلت : ولذلك التنبيه وجهته وأهميته فقد حدث بالفعل الخطر الماحق الذى توقعه (سيد) رحمه الله فى بعض القواعد أثناء التوسع الأفقى قبل مرحلتى الإعداد والاختبار فانقلبت الحال ظهرا لبطن .

---

(١) انظر منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٧٤ - ٧٦ ، معالم فى الطريق ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) فى ظلال القرآن : ج ١٠ ص ١٥٧٨ .

الفصل الرابع :

الإتجاه إلى دعوة العرب الوافدين إلى الموسم



– تمهيـد :

من المعلوم أن طبيعة النور أن يبدد الظلام ، والإسلام نور ، والشرك ظلام ، فالليل وإن طالت ظلماته فسيمحوها نور الفجر ، فجر الإسلام ، وإنى لأرى أنوار الإسلام وهى تشع قبل طيبة الطيبة ، وعند اشتداد الكرب تبدو مطالع الفرج **﴿ فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا﴾** [1]

وإذا كان الحصار قد ضيق على النبى – ﷺ – ومن معه أسباب المعيشة فإنها لم تمنعه من الاستمرار فى الدعوة ، وإذا كان فى وحشة من قومه فهو فى أنس من ربه ، وسيهيىء له من يؤنسه ويحميه ويؤويه حتى يبلغ رسالة ربه .

وقد سبق أن ذكرت فى (جهاد الدعوة) نماذج مما لاقاه النبى ﷺ – من المتاعب هو وأصحابه فى سبيل الدعوة إلى الله – سبحانه – وماأشرت إليه فى خروجه إلى الطائف لعله يجد ناصرا أو معينا ، حتى يبلغ رسالة ربه ، فردوه ردا منكرا حتى أنهم أدموا عقبيه الطاهرتين ، ومع هذا كله فإنه لم يهدأ له بال حتى يبلغ المهمة التى كلفه الله بها وكان شعار (اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون وإنى لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله)[2] .

---

(١) الانشراح : ٥ – ٦ .

(٢) انظر السيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٩ – ٤٢٠ – البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٥ – البخارى ج ٣ ص ٢١٤ – ٢١٥ مسلم ج ٥ ص ١٨١ .

لقد بقى مستمرا فى تبليغ الدعوة بل متوسعا فى رقعتها ، لأنه لم يكتف بدعوة أهل مكة بل كان يعرض نفسه على القبائل القادمين إلى مكة فى مواسم الحج ، الأمر الذى أزعج سادة الشرك وحيرهم ، لأن الله منحه ملكة فى البيان وذكاء وقادا ، ووجها حسنا ، فكيف يحولون بينه وبين من يقصده ويستمع إليه من الوافدين ؟

فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة - وكان ذا سن وشرف فيهم - فى موسم من مواسم الحج فقال لهم : يامعشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولاتختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، وطال الحوار ودار الحديث وكثر الأخذ والرد ، والوليد ينقض ذلك كله فرجعوا إليه قائلين : فما تقول ياأبا عبد شمس ؟ قال : إن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر جاء بسحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره[1] .

ألا ترى هذه الأحداث المعوقة لسير الدعوة والتى تقف فى وجه صاحبها ﷺ . ولكن هل تراها تعرقل السير ؟ الطرق كثيرة إذا انسدت طريق فالطرق غيرها موجودة ، فهى وإن كانت لها صعوبتها فذلك من سنن الدعوة إلى الله ، لابد من المحاولات العديدة ، ولابد من الصبر ولابد من التضحيات بشتى أنواعها وستستمر المسيرة ، وإن كانت بطيئة ، وتصل إلى الغاية المطلوبة .

فأنت ترى أن رسول الله ﷺ لما وجد صعوبة داخل مكة غير اتجاهه إلى خارجها وذلك مالمسه وأدركه مشركوها إذ دبروا مارأيت . خرج من مكة يدعو الناس فى المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز[2] وفى أى مكان من تجمعاتهم يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، ولهم الجنة فلا يجد أحداً ينصره ولايجيبه حتى أنه ليسأل عن القبائل - فى مواسم الحج - قبيلة قبيلة ويقول : (يأيها الناس قولوا لا إلَه إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم ،

---

(١) السير والمغازى باختصار ص ١٥٠ .

(٢) من أسواق العرب المشهورة يجتمعون فيها للتجارة وللفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب والتحاكم فى الشعر والشعراء .

فإذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة وأبو لهب وراءه يقول : لاتطيعوه فإنه صابئ كذاب ، حتى أن بعضهم ليرد عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك وهو يدعوهم إلى الله ويقول : (اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا)[1] .

روى ابن إسحق وغيره عن ربيعة بن عباد قال :

(إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله ﷺ - يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يابنى فلان إنى رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وأن تخلعوا ماتعبدون من دونه من هذه الأنداد[2] ، وأن تؤمنوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله مابعثنى به ، وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله ، ومادعا إليه ، قال ذلك الرجل : يابنى فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بنى مالك بن أقيش[3] إلى ماجاء به من البدعة ، والضلالة فلا تطيعوا ولاتسمعوا مه فقلت لأبى من هذا الذى يتبعه ويرد عليه مايقول ؟ قال هذا عمه أبو لهب .)

وفى رواية (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ورجل يتبعه يرميه بالحجارة وقد أدمى كعبيه ويقول (أيها الناس لاتطيعوا فإنه كذاب)[4] .

وهكذا استمر رسول الله ﷺ يعرض نفسه فى موسم الحج من كل سنة على القبائل الوافدين إلى بيت الله الحرام ، يتلو عليهم القرآن ، ويعرض عليهم الإسلام ، كما كان يخرج إلى القبائل العربية فى الأسواق وغيرها حتى فى الطرقات ، لايسألهم

---

(١) انظر زاد المعاد ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢) الأنداد جمع ند وهو المثل ا هـ . مصباح ج ٢ ص ٢٦٥ ، ويفسرها ماقبلها من الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك .

(٣) هم قبيلة من الجن تنسب إليهم الإبل الأقيشية تنفر من كل شىء واللات والعزى صنمان من حجارة كان المشركون يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى انظر تفسير الجلالين من سورة النجم وهامش التفسير السياسى للسيرة ص ١١٠ .

(٤) انظر السير والمغازى ص ٢٣٢ - الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٠٠ البداية ج ٣ ص ١٣٨ - ١٤١ - نور اليقين ص ٧٢ .

مع ذلك إلا أن يؤووه ويمنعوه ، وكان يقول : (لاأكره أحدا منكم على شيء من رضى منكم بالذى أدعوه إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه إنما أريد أن تحرزونى مما يراد لى من القتل[1] حتى أبلغ رسالة ربى ، وحتى يقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء فلم يقبله أحد ، ومايأتى أحدا من القبائل إلا قال : قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه ؟ .

وبعضهم كان يقول : أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا وننابذ العرب ؟ الحق بقومك فلا حاجة لنا بك[2] ، وفى رواية كان يقول : (ألا رجل يحملنى إلى قومه فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى)[3] . ومع هذا كله فقد استمر على هذا المنهج منذ أمر بالجهر بالدعوة إلى أن أذن الله له بالهجرة وذلك عشر سنين أو إحدى عشرة سنة حتى امتلأت نفسه ﷺ كمدا وأسى ، لعدم قبول دعوته ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾[4] . ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾[5] ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾[6] .

حينما تتأمل منهج عرضه عليه الصلاة والسلام – الدعوة إلى الله وفى عرض نفسه على الناس فى مواسم العادات والعبادات ، يخرج إلى خارج بلده ، ويتصدى[7] لمن دخله يخاطب الجميع سرا وجهرا حسب مايقتضيه المقام ، حينما تفكر فى ذلك تستطيع أن تستنتج أن الداعية إذا لم يستجب لدعوته عشيرته وقومه فعليه أن يخرج إلى مناخ آخر مناسب ، ولكن – كما يقول بعض الدعاة المسلمون المعاصرون – بعد التعرف أو الدراسة للمنطقة التى يريد الخروج إليها دراسة محيطة بكل أوضاعها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ليعرف المنافذ التى يمكن الدخول منها ، كما يمكنك أن تستنتج من منهجه ﷺ شتى

---

(١) الراجح بل الصحيح هو حديث (ألا رجل يحملنى إلى قومه فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى) وقد سبق الكلام على هذا فى مبحث المقاطعة ، أو يحمل على المفاوضة الجنونية . كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

(٢) انظر سيرة ابن كثير ج ٢ ص ١٥٨ .

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه بإسناد صحيح ، والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبى ، كذا قال الألبانى فى حاشية فقه السيرة الغزالى ص ١١١ .

(٤) الشعراء : ٣

(٥) مهلك أو قاتل نفسك اهـ . ابن كثير ج ٦ ص ١٤٤ . والآية فى سورة الكهف : ٦

(٦) سورة فاطر : ٨

(٧) يتصدى : يتعرض له لعله يهتدى كذا فى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٤٢ .

الأساليب والوسائل لنشر الدعوة وكذلك استمراره بعزيمة صادقة كما أمره الله سبحانه لايريد ملكا ولا جاها ولاتجارة بالمبادىء كما قال أبو شهبة (ولو كان يريد ذلك لفعل كما يفعل السياسيون فى جذب الناس بالأحاديث الكاذبة الخادعة ، ويمنيهم الأمانى الفارغة ، حتى إذا تم له ماأراد نسى ماقاله ورجع فى وعوده بل قد يتنكر لهم وينكل بهم . وهذا فرق مابين النبوة وغيرها ومابين الداعى إلى الحق وطالب الدنيا)[1]
قولوا لا إله إلا الله تفلحوا .

- طلائع المسلمين أو الأنصار :

ولما لم يستجب للدعوة المحمدية أحد من القبائل العربية ، بل ولم يمنعوه من قومه حتى يبلغ رسالة ربه، خرج رسول الله - ﷺ - كعادته فى الموسم لدعوة الناس إلى الله ، ولعرض نفسه وحمايته فساقه الله إلى نفر من الأنصار ، وهم من الخزرج لما أراد الله بهم من الخير - كان قد لقيهم من قبل - فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فصدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم ، ثم انصرفوا إلى بلادهم ، قد آمنوا وصدقوا وكان عددهم ستة نفر .

قال ابن إسحق وغيره : (فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز وعده له خرج فى الموسم الذى لقيه فيه الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم فبينا هو عند العقبة[2] لقى رهطا من الخزرج وهم ستة نفر أراد الله بهم خيرا . فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال أمن موالى اليهود ؟ قالوا نعم . قال أفلا تجلسون أكلمكم قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . قوله تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا** ﴾ الآيات الثلاث .[3]

(وقوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى**

---

(١) السيرة النبوية أبو شهبة ج ١ ص ٤٤٩ .
(٢) يعنى جمرة العقبة التى ترمى فى منى وذلك فى السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية .
(٣) من سورة الأنعام : ١٥١ - ١٥٣ .

عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1] وغير ذلك من الآيات . فقال بعضهم لبعض تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه وأجابوه فيما دعاهم إليه .

وطلب منهم النبى – ﷺ – أن يمنعوه فقالوا إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم فعسى أن يجمعهم الله بك وسنعرض الأمر على عشائرنا ، وموعدك الموسم القادم ، فلما قدموا المدينة دعوا أقوامهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ ، وذكروا لهم ماطلبه النبى ﷺ من المنع .)[2]

١ – بيعة العقبةالأولى :

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، وعلى رأسهم أسعد بن زرارة ، فلقوا النبى ﷺ عند العقبة فبايعوه على نحو بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب . قال ابن كثير : (والمقصود أن هؤلاء الاثنى عشر رجلا شهدوا الموسم عامئذ[3] ، وعزموا على الاجتماع برسول الله – ﷺ – فلقوه بالعقبة ، فبايعوه عندها بيعة النساء[4] ، وهى العقبة الأولى) .

---

(١) سورة النحل : ٩٠

(٢) انظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٤٢٨ باختصار – السيرة النبوية – ابن كثير ج ٢ ص ١٧٦ ، طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٠٣ ، تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٥٣ ، وكثيرا ماكان النبى ﷺ يقرأ هذه الآيات عند عرض الإسلام على القبائل أى آيات الأنعام الثلاث وآية النحل .

(٣) فى العام الثانى عشر للبعثة ، انظر تاريخ الإسلام السياسى ، ج ١ ص ٩٤ .

(٤) يعنى على وفق مانزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية ، وكان هذامما نزل على وفق مابايع عليه أصحابه ليلة العقبة ، وليس عجيبا فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب فى غير ما موطن . كذا قال ابن كثير فى السيرة ج ٢ ص ١٨٠ والحافظ فى الفتح ج ٧ ص ٢٢٢ ، إلا أنه قال بعد فتح مكة أى نزول هذه الآية وبعض العلماء لايستسيغ هذه التسمية أى بيعة النساء حتى إن البعض ينكر العقبة الأولى قال ابن كثير وقال ابن إسحق فكان عبد الله بن أبى بكر يقول : لأدرى ماالعقبة الأولى ثم يقول ابن إسحق بلى لعمرى قد كانت عقبة وعقبة . ففى بعض ألفاظ حديث عبادة (بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى على ألا نشرك بالله شيئا ولانسرق ولانزنى .. الخ . وإن كانت هذه البيعة وقعت عن وحى غير متلو فهو أظهر . والله أعلم . كذا قال ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥٠ – ١٥١ .

– نص البيعة :

روى ابن إسحق بسنده عن طريق الصُّنابحى ، عن عبادة ابن الصامت رضى الله عنه قال : (كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثنى عشر رجلا فبايعنا رسول الله ﷺ – على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض الحرب على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولانزنى ولانقتل أولادنا ولانأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولانعصيه فى معروف فإن وفيتم فلكم الجنة : وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر)[1]

وقد روى هذا الحديث الإمام البخارى بعدة ألفاظ من طريق أبى إدريس الخولانى والصنابحى وغيرهما فى عدة مواضع أن عبادة بن الصامت رضى الله عنه – من الذين شهدوا بدراً ومن أصحاب ليلة العقبة – إن رسول الله ﷺ قال : وحوله عصابة من أصحابه (بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ... الحديث)[2]

وفيه : (فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ...) . كما رواه مسلم[3] عن عبادة أيضا من طريق الزهرى . وفى بعض ألفاظه (فتلا علينا آية النساء ألا يشركن بالله شيئا) .

ومن طريق أبى الأشعث (أخذ علينا رسول الله ﷺ – كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئا ...) وقد عقد البخارى بابا مستقلا سماه (باب بيعة النساء)[*] رواه ابن عباس عن النبى ﷺ ثم ذكر تحته حديث عبادة[4] وغيره ورواه الإمام أحمد فى مسنده .[5]

أقول : وبهذا يتبين ثبوت بيعة العقبة الأولى وثبوت تسميتها بيعة النساء أى

---

(١) السيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٣٣ – ٤٣٤ .

(٢) البخارى ج ٢ ص ٣٢٩ – ج ١ ص ١٢ – بلفظ الأمر والنهى ج ٤ ص ٢٤٧ قال عبادة : فبايعناه على ذلك .

(٣) ج ٥ ص ١٢٧

(*) كأن الضمير عائد على حديث خروج النبى ﷺ – يوم العيد يشق الرجال حتى جاء النساء فقرأ : ﴿ ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ الآية انظر الفتح ج ١٣ ص ٢٠٤ .

(٤) البخارى ج ٤ ص ٢٤٧ – ج ٣ ص ٢٠١ بلفظ أتبايعونى ..

(٥) مسند أحمد ج ٥ ص ٣١٦ – ٣٢٦ .

على وفق بيعة النساء قبل نزولها كما سبق .

وأن الأنصار التقوا برسول الله ﷺ عندها ثلاث مرات الأولى : سته ، والثانية : اثنا عشر ، والثالثة : سبعون كما سيأتى بيانه إن شاء الله .

وقد تكلم الحافظ فى الفتح[1] على حديث عبادة وذكر الخلاف فى ذلك وأكثر من الأدلة بأن لفظ هذه البيعة كان بعد فتح مكة وإنما كان ليلة العقبة البيعة من الأنصار على أن يمنعوا رسول الله ﷺ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ولم تكن الحدود إلا بعد ذلك ، ووافقه أبو شهبة .[2] وسيأتى الكلام على هذا فى بيعة العقبة الثانية إن شاء الله .

وقد استنبط صاحب التفسير السياسى للسيرة من نص البيعة ثلاثة أمور :

أ – الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد ونبذ ماسواه .

ب – الدعوة إلى الاستقامة فى السلوك .

ج – الدعوة إلى الأخذ بالحق المتدفق على لسان الرسول ﷺ من قرآن وسنة .

ومدار الإسلام على هذه الأمور الثلاثة .[3]

وقال أبو زهرة : ونرى أن هذه المبايعة كانت لبيان بعض التكليفات الإسلامية التى لااختلاف فيها وماكانت للإيواء والنصرة لأن النبى ﷺ لم يكن قد قرر الهجرة إليهم ، ولم يكن قد جاءه الأمر بذلك أو الإيحاء به ولأنه لا يأخذ تعهد النصرة قبل عهد الإيمان ... وماكانت هذه التسمية فيما نحسب فى وقت البيعة إنما كانت لمشابهتها لما فى آية مبايعة النساء فى الممتحنة (ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف)[4]

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٦٦ – ٦٨ وفيه أبحاث مفيدة .

(٢) انظر السيرة النبوية ج ٢ ص ٤٥٥ – ٤٥٧ .

(٣) انظر التفسير السياسى للسيرة ص ١١٦ .

(٤) الممتحنة : ١٣ وانظر خاتم النبيين ص ٦٣٠ .

هذا وقد أطال الحافظ فى الكلام على حديث عبادة حسبما أشرنا بما فيه الكفاية .

والذى يهمنا أن الأمور الثلاثة المأخذوة منه هى أهم معالم المجتمع الإسلامى الذى بعث رسول الله ﷺ لإنشائه ، وليست مهمته أن يلقن الناس كلمة الشهادة ، ثم يتركهم يرددونها بأفواههم وهم عاكفون على انحرافاتهم وبغيهم ومفاسدهم .

صحيح أن الإنسان يصدق عليه اسم المسلم إذا صدق بالشهادتين وأحل الحلال وحرم الحرام وصدق بالفرائض لأن ذلك هو المفتاح والوسيلة لإقامة المجتمع الإسلامى وتحقيق نظمه ومبادئه وجعل الحاكمية لله تعالى وحده فى كل الأمور ،

فحينما وجد الإيمان بالله وحده وبرسالة نبيه محمد ﷺ ، لابد أن يتبعه الإيمان بحاكمية الله تعالى ، وضرورة اتباع شريعته ودستوره .(١)

ومن أعجب العجب مايعمد إليه بعض الذين تأسرهم النظم والتشريعات الوضعية ممن لايريدون المجاهرة بنبذ الإسلام وإطراحه ، حيث يحاولون أن يسلكوا مع خالق هذا الكون ، ومالكه مسلكا أشبه مايكون بمسلك الصلح والمفاوضات ، وسبيل المفاوضة عندهم أن يقسموا مظاهر المجتمع بينهم وبين الإسلام ، فللإسلام من المجتمع مساجده وسائر مظاهره العبادية يحكم ضمن ذلك على الناس بكل مايريد ، ولهم منه نظمه وتشريعاته وأخلاقه يغيرون منه ويبدلون كما يريدون ، وهذه هى العلمانية التى فصلت وتفصل بين الدين والدولة ، إذ مدلولها إقامة الحياة على أساس غير دينى وقد تشعر الكلمة فى اشتقاقها أنها تعنى رفع شعار العلم ومن ثم فلا تعارض بينها وبين الإسلام ، وفى ظل العلمانية يستطيع الإنسان أن يتدين بما يشاء ويكفر كما يشاء .(٢)

وفى بيان هذه الحقيقة والتحذير من فهم الإسلام على أنه كلمات وعبادات

---

(١) انظر فقه السيرة للبوطى ص ١٦٤ – محاضرات للشيخ محمد قطب .

(٢) انظر أساليب الغزو الفكرى لعلى جريشة ص ٥٩ – ٦١ – وزميله ومحاضرات لأستاذنا محمد قطب .

فقط يقول الله عز وجل ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا** ﴾[1]

٢ – إرسال البعوث إلى يثرب ، بل طيبة :

لما بايع رجال العقبة الأولى من الأوس والخزرج ، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم ، لم يكتف الرسول ﷺ بإسلامهم وأخذ البيعة منهم بل بعث داعية أو أكثر ليفقه أو يفقها من أسلم فى الدين وليدعوا من لم يسلم إلى الإسلام .

فمن هو هذا الداعية أو الدعاة الذين بعثهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه – إلى طيبة الطيبة كى تتوسع رقعة الإسلام ؟

قيل مصعب ابن عمير وقيل ابن أم مكتوم[2] وقيل أرسلهما معا ، ولكل فريق دليله وقد كثر الخلاف فى كتب السيرة[3] وغيرها حول هذا .

والمشهور أن الداعية المبعوث إلى طيبة هو مصعب بن عمير لأنه أسلم على يده رئيس الخزرج سعد بن عباده وأسيد بن حضير وجميع بنى عبد الأشهل وغيرهم .

مصعب هو أحد خريجى مدرسة دار الأرقم ، المدرسة الجامعة الأولى التى كان مديرها ومعلمها صاحب الرسالة الخاتمة محمداﷺ ، وقد أمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، وكان يصلى بهم لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض[4] .

---

(١) النساء : ٦٠

(٢) قيل اسمه عمرو وقيل عبد الله .

(٣) انظر التفاصيل فى الروض الأنف ج ٤ ص ٩٨ – سيرة ابن كثير ج ٢ ص ١٨٠ – ١٨١ – الطبقات ج ١ ص ٢٠٤ – السيرة ابن هشام ص ٤٣٤ – السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٣ – ١٦٤ – زاد المعاد ج ٢ ص ٥٦ .

(٤) انظر المصادر السابقة نفسها .

من نتائج دعوة مصعب :

نجح مصعب أيما نجاح فى نشر الإسلام وجمع الناس عليه وساعده على ذلك أسعد بن زرارة أحد رجال العقبة الأولى حيث نزل عنده . وقد استطاع أن يتخطى الصعاب التى توجد – دائما – فى طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة حتى أنه كان ليأتيه رئيس القبيلة ، وحربته فى يده ، يريد قتله ، فيخاطبه بأسلوبه الهادىء الحكيم (... أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ماتكره)[1] فيقعد فيسمع منه فيرجع إلى أصحابه وقد أسلم ، فيدعو قومه إلى الإسلام ، وإن أبوا فكلامهم عليه حرام حتى يؤمنوا بالله ورسوله . وهذا مافعله سيد الخزرج (سعد بن عبادة) .

فانتشر الإسلام فى المدينة حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا القليل . فلا تحسبن (مصعبا) كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربى بين يدى زحفه على الشرق فترى الواحد منهم يقبع[2] تحت سرير مريض له ليقول له : هذه القارورة تقدمها لك العذراء ، وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح ، وربما فتح مدرسة ظاهرها الثقافة المجردة ، أو ملجأ ظاهره البر الخالص ، ثم لوى زمام الناشئة من حيث لايدرون ، ومال بهم حيث يريد .

هذا ضرب من التلصص الروحى ، يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين . والذين يمثلون هذه المشاعر يجدون الجرأة على عملهم من الدول التى تبعث بهم فإذا رأيت إصرارهم ومغامراتهم ، فلا تنس القوى التى تساند ظهورهم فى البر والبحر والجو .

أما مصعب فكان من ورائه نبى مضطهد ، ورسالة معتبرة ضد القانون السائد ، وماكان يملك من وسائل الإغراء مايطمع طلاب الدنيا ونهازى الفرص ، كل مالديه ثروة من الكياسة والذكاء قبسها من معلم الدعوة الإسلامية وحامل لوائها محمد ﷺ ، وإخلاص لله جعله يضحي بماله ، وحياته ، وجاهه فى سبيل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٤٣٧ .

(٢) قبع القنفذ كمنع قبوعا أدخل راسه فى جلده . والرجل فى قمصيه ا هـ . قاموس ج ٣ ص ٦٤ .

عقيدته والدعوة إليها ثم هذا القران الذى يتأنق[*] فى تلاوته وبتخير من روائعه مايغزو به الألباب ، فإذا الأفئدة ترق له ، وتتفتح لهذه الدعوة الخالدة .[1]

من النتائج السياسية لدعوة مصعب :

ومن المحتمل أنه كان لمصعب بن عمير مهمة أخرى سياسية ، هى الاطلاع على مجتمع (طيبة الطيبة)[2] وأحواله ومعرفة حقيقة شعوره تجاه الدعوة والداعى والتبدل الذى يطرأ على هذا الشعور ومعرفة الصديق والعدو ومن الموافق ومن المخالف ، والعوامل التى تؤثر فى تلك المدينة وو .... لإعطاء رسول الله ﷺ - الحقائق عن تلك المدينة التى توجهت أنظاره ﷺ إليها لتكون قاعدة لإقامة دولة الإسلام ، وليهاجر رسول الله ﷺ ، بتقدير موقف صحيح لها وليتصرف بسرعة ودقة عندما يجىء وقت الرحيل ولئلا يتكرر الفشل الذى مر به رسول الله ﷺ فى الطائف حين خرج إليها قبل تقدير الموقف[3] (وهذا بغض النظر أن ذلك بتقدير الله تعالى وتوجيه منه سبحانه) .

قلت : ومن هذا نهج بعض الدعاة المعاصرون هذا المنهج من أنه لابد للداعية - إذ أراد الخروج إلى أى بلد - من أن يتعرف عليهامعرفة شاملة لعقائدها وتقاليدها وسلوكها وعاداتها واتجاهاتها أفرادا وجماعات ، ليكون على بصيرة من أمره وليعرف من أين تؤكل الكتف ... فإذا درسها دراسة شاملة وعرف الأبواب والمنافذ التى يستطيع الدخول منها لدعوة الأفراد أو الجماعات دخل منها وعليه البدء بالأهم فالمهم وبالأصل قبل الفرع . وكسب فرد أو أفراد خير من كسب موقف أو مواقف .

وقد كتب فى هذا الموضوع كثير من دعاة الإسلام منهم الشهيد حسن البنا فى رسائله المجموعة والشهيد سيد قطب (فى ظلال القرآن) وفى (معالم

(*) أنق الشىء أنقا من باب تعب . راع حسنه وأعجب وتانق فى عمله أحكمه ا هـ. مصباح ج ١ ص ٣١ . والأنق والتأنق بمعنى اسرار البلاغة ص ٢٣

(١) انظر فقه السيرة للغزالى ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) كانوا يسمون المدينة يثرب فسماها رسول الله ﷺ طيبة وفى لفظ (إن الله سمى المدينة طابه) ا هـ . من حديث رواه الشيخان - البخارى ج ٤ ص ٧١ - مسلم ج ٤ ص ١٢١ .

(٣) انظر التفسير السياسى ص ١١٧ .

فى الطريق) وغيرهما عليهما رحمة الله وعلى سائر الشهداء فى سبيل الدعوة إلى الله عز وجل .

كما كتب فى هذا الموضوع (عبد البديع صقر) رسالة سماها (كيف ندعو الناس) لايستغنى عنها من له علاقة بهذا الشأن . وقد قدم لها الشهيد حسن البنا بقوله (كنت وضعت ملاحظات للأخوة وعزمت على العودة إليها لتكميلها وتنقيحها ونشرها . وقد طالعت هذه الرسالة للأخ (عبد البديع صقر) فرأيت فيها ماكفى وأغنى ..)[(١)]

من أسباب تقبل الأنصار الإسلام :

أ – وضوح عقيدته والدعوة إليها ، واتفاقها مع الفطرة وخلوها من التعقيد وهذا ماجعلها تحتل القلوب عندما خلت من الأغراض الدنيئة .
(قولوا كلمة واحدة تدين لكم بها العرب وتملكون بها العجم .. قولوا لا إله إلا الله تفلحوا[(٢)]) .

ب – أن الأوس والخزرج يعيشون مع اليهود ، وهم أرباب دين – بغض النظر عما فيه من التحريف – ورأوا الفرق بينه وبين وثنيتهم .

ولكن الذى منعهم من الدخول فى اليهودية غطرسة اليهود[(٣)] وتعاليهم لاعتبارهم أنفسهم شعب الله المختار ، ومن عداهم كلاب وخنازير يجب قتلهم ونهب أموالهم وو. . .
وأن اليهودية دين الخاصة من الناس . .
ولابد أن يكون قد صدر كثير من التصريح والتلميح تعبيرا – من الحنفاء – على عبادتهم الأصنام التى لاتسمع ولاتبصر والتى لاتجلب نفعا ولاتدفع شرا .

---

(١) الناشر مكتبة وهبة شارع الجمهورية بعابدين القاهرة ورسالة تحت الطبع (بعنوان كيف تسلك فى جماعة وأخرى كيف تصبح داعية) .

(٢) انظر زاد المعاد ج ٢ ص ٥٥ – ٥٦ – السير والمغازى ص ٢٣٦ والسيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٧ – البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٣ مسند احمد ج ١ ص ٣٦٢ ، راجع ص ٣٢٦ – ٣٦٦ فى هذا البحث .

(٣) الغطرسة : الإعجاب بالنفس والتطاول على الأقران والتكبر . ا هـ . قاموس ج ٢ ص ٢٣٤ .

لذلك كانت الرغبة موجودة فى نفوس وثنى المدينة فى التخلص من هذا الوضع ولكن ماهو البديل ؟

فلما وصلتهم مبادىء الإسلام وجدوها البديل الذى يفوق الوثنية واليهودية معا ، بل لامقارنة بين ذلك . لذلك لم يتأخروا عن الاستجابة للدعوة المحمدية .

ج – كانوا يسمعون من يهود المدينة أن نبيا من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان فيخرج فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم .[1]

وحينما دعاهم ﷺ ، قالوا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه .[*]

د – كانت طيبة إذ ذاك تعيش فى بحر من الدم ، وكان آخر دفقة منه أصاب رشاشها كل بيت من بيوتها هى دفقة حرب بعاث[2] التى أطاحت برؤوس أكثر زعماء الأوس والخزرج .

هـ – كان من صنع الله الحكيم وإرادته الكونية أن يمهد بذلك لهجرته ﷺ إلى يثرب . وأن تكون هى المنطلق للمد الإسلامى فى أرجاء الأرض كلها .

و – كان كل من الفريقين يحاول – عبثا – أن يضع حدا لإراقة الدماء ولكن الأوس ترفض أن تتنازل كما ترفض الخزرج لما يرون فى ذلك من العار ، فلما جاءت دعوة محمد عليه الصلاة والسلام نظر الفريقان إليه على أنه المخلص لهم من الخلافات التى جعلت بحرا من دمائهم خلال مائة وعشرين سنة فأطفأها الله بالإسلام وألف بينهم ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف**

---

(١) ومن الغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بالنبى ﷺ يوم ظهر فيهم ، ولذلك ندد القرآن بمسلكهم المتناقض فقال : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ البقرة ٨٩ .

وانظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٤٢٨ .

(*) انظر السيرة – ابن هشام ج ١ ص ٤٢٩ .

(٢) بعاث من أيام الجاهلية وقع بين الأوس والخزرج هزم فيه الخزرج الأمر الذى جعلهم أكثر استعدادا لقبول الإسلام . ففى الموسم التالى لبعاث أقبل منهم ستة نفر من ساداتهم كانوا ينشدون حلفا لتوحيد كلمتهم مع الأوس أو للتغلب عليهم إذ كان كل منهم يريد الرياسة فلقيهم الرسول عند العقبة فسمعوا لدعوته وأجابوا لأنهم يعرفون نسبه الشريف ثم إن أمه آمنة بنت وهب من بنى النجار أحد بطون الخزرج . ومع ذلك فهو نبى يستطيع أن يؤلف بين قلوبهم . انظر تاريخ الإسلام السياسى والثقافى ج ١ ص ٩٣ – ٩٤ .

بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها)[1] .

العبـــرة :

أرأيت كيف بدأ التحول فى طبيعة ماكان يلاقيه النبى ﷺ طيلة هذه السنوات التى خلت من عمر الدعوة المكية ؟!

لقد أينع الصبر ، وبدأ الجهد يثمر ، واستغلظ زرع الدعوة وأخذ يستوى على سوقه ليعطى النتيجة والغلال .

ولكن فلنلتفت مرة أخرى – قبل البحث عن الثمرة والبشائر – إلى طبيعة ذلك الصبر النبوى العظيم أمام تلك الشدائد المختلفة الجسام .

لقد رأينا أن النبى – ﷺ – لم يقصر الدعوة على قريش الذين لم يألوا جهدا فى إذاقته كل أصناف المحن والمصائب ، بل كان يخرج إلى القبائل بنفسه ويتصدى للداخلين إلى مكة ، كما يعرض نفسه ودعوته على القبائل القادمين من خارج مكة من شتى الجهات بمناسبة مواسم الحج ويبث الدعاة فى خارج مكة . كان يقول : (هل من رجل يحملنى إلى قومه فإن قريشا منعونى أن أبلغ رسالة ربى)[2] وفى الزاد : (فله الجنة فلا يجد أحدا ينصره ولايؤويه حتى أن الرجل ليرحل من مصر أو اليمن إلى ذى رحمه فيأتيه قومه فيقولون له احذر غلام قريش لايفتنك ..)[3] . .

إحدى عشرة سنة تقريبا[*] ، والرسول – ﷺ – (بأبى هو وأمى) يعانى من حياة لاراحة فيها ولا استقرار ، تتربص قريش بقتله وتصب عليه ألوانا من

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ – وانظر التفسير السياسى ص ١١٤ – ١١٥ ، زاد المعاد ج ٢ ص ٥٦ – السيرة ابن هشام ح ١ ص ٢١١ – مختصر السيرة ص ٧٧ – التاريخ السياسى ج ١ ص ٩٢ – ٩٣ .

(٢) حديث صحيح . انظر تخريج أحاديث فقه السيرة ص ١١١

(٣) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٦ .

(*) بالنظر إلى المرحلة الجهرية عشر سنوات ، وبالنظر الى السرية ثلاث عشرة سنة على المشهور وماذكر من المؤامرة على قتله عليه الصلاة والسلام فبعد وفاة عمه أبى طالب على الراجح كما سبق فى (تحمل الأذى) وفى (المقاطعة) ص ٣٤٤ .

المحن والشدائد ، فلا ينقص ذلك شيئا من عزيمته ، ولايضعف من قوته وسعيه . .

إحدى عشرة سنة – تقريبا – والرسول ﷺ يعانى من غربة هائلة مظلمة بين عشيرته وجيرانه – وكافة الجماعات والقبائل المحيطة به فلا ييئس ولايضجر ولايؤثر ذلك على شيء من أنسه بربه عز وجل .

إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل فى سبيل الله وحده هى الثمن والطريق إلى نشأة مد إسلامى زاخر عظيم ينتشر فى شرق العالم وغربه ، تتساقط أمامه قوة الروم وتتهاوى بين يديه عظمة فارس[1] .... وكان من السهل جدا على الله – عز وجل – أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامى الذى بنى فى المدينة بدون هذا الجهاد الشاق .. ولكن تلك هى سنة الله فى عباده . وقد سبقت الإشارة إلى هذا فى (جهاد الدعوة) .

٣ – بيعة العقبة الكبرى :

لما أسلم رجال العقبة الأولى ، وبايعوا رسول الله ﷺ على نمط[*] بيعة النساء[2] وكانوا اثنى عشر رجلا ، برياسة أسعد بن زرارة ، وبعث معهم النبى ﷺ مصعب بن عمير – كما هو المشهور[3] – رجع إلى مكة فى موسم الحج ، بعد عام واحد من مقدمه المدينة المنورة ، مع من خرج من الأنصار المسلمين ، ومع حجاج قومهم من المشركين[4] .

---

(١) انظر فقه السيرة للبوطى ص ١٥٩ – ١٦٠ .

(*) النمط الطريق والجماعة من الناس ثم اطلق اصطلاحا على الصنف والنوع ا هـ مصباح ج ٢ ص ٢٩٧ .

(٢) سبق الكلام على تسمية بيعة العقبة الأولى – بيعة النساء – مع خلاف لبعض العلماء فى عدم استساغتها وهذه التسمية هى ظاهر رواية الصحيحين وماعليه أهل السير والمغازى المتقدمين منهم ابن هشام ج ١ ص ٤٣٣ – وابن كثير فى سيرته ج ٢ ص ١٨٠ – والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٥٠ – ١٥١ . ومن المتأخرين أبو زهرة والبوطى وحسن إبراهيم وغيرهم وانظر خاتم النبيين ص ٦٣٠ . تاريخ الإسلام السياسى والثقافى ج ١ ص ٩٥ – فقه السيرة بوطى ص ١٥٨ . اشتهرت بيعة العقبة الأولى عند هؤلاء وغيرهم ببيعة النساء . وقد سبق كلام الحافظ بن كثير وأنها على وفق مانزلت عليه بيعة النساء عام الحديبية . وقد نزل القرآن موافقا لعمر بن الخطاب فى عدة مواطن . وحيث إن الجميع متفقون على صحة الحديث فصاحب البيت أدرى بما فيه . وقد قال الشافعى من أراد المغازى والسير فعليه بابن إسحق .

(٣) انظر سيرة ابن كثير ج ٢ ص ١٨٠ – ١٨١ – السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٤٣١ – ٤٣٤ . الحلبية ج ٢ ص ١٦٣ – ١٦٤ .

(٤) وذلك فى السنة الثالثة عشرة من البعثة كما فى تاريخ الإسلام السياسى و .. ج ١ ص ٩٦ .

قال ابن هشام : (ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدُوا رسول لله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ماأراد من كرامته والنصر لنبيه ، وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله)[1]

وقد كانوا ائتمروا فيما بينهم فى المدينة قائلين : (حتى متى نترك رسول الله ﷺ ، يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف)[2] .

- اللقاء مع رسول الله ﷺ :

فلما قضوا حجهم وكانت الليلة التى واعدوا فيها رسول الله ﷺ ليلا ناموا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا متسللين مستخفين حتى تم عددهم ثلاثة وسبعون[3] رجلا وامرأتان ، اثنان وستون رجلا من الخزرج ، وأحد عشر رجلا من الأوس ، ومعهم امرأتان .

وقد كان أمرهم الرسول ﷺ ألا ينبهوا فى ذلك الوقت نائما ولاينتظروا غائبا - لأن هذه الحركات كانت خفية من قريش كيلا يطلعوا على الأمر فيسعوا فى نقض ماأبرم - كاتمين أمرهم عمن معهم من المشركين . فوافقهم رسول الله ﷺ هناك وليس معه إلا عمه العباس ، وهو على دين قومه ، ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ليتوثق له ، فلما اجتمعوا عرفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل فى منعة من قومه ، حيث لم يمكنوا منه أحدا ممن أظهر له العداوة والبغضاء ، وتحملوا على ذلك أعظم الشدة ، ثم قال لهم إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وذاك ، وإلا فدعوه بين عشيرته فإنهم لبمكان عظيم . فقالوا قد سمعنا ماقلت . فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ماأحببت .

---

(١) انظر السيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٣٨ .

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٦ - البداية ج ٣ ص ١٥٩ .

(٣) وقد سرد أسماءهم ابن إسحق وابن كثير كما فى السيرة - ابن هشام ج ١ ص ٤٥٤ - ومابعدها - البداية ج ٣ ص ١٦٦ ومابعدها .

الرسول ﷺ يأخذ العهد من الأنصار :

فتكلم رسول ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام ، ثم قال : (أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) .

وفى رواية للإمام أحمد والبيهقى عن جابر .. فقلنا يارسول الله علام نبايعك قال : (تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا فى الله لاتخافوا فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة) قال : فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم وفى رواية البيهقى وهو أصغر السبعين . فقال رويدا ياأهل يثرب . فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله . وأن إخراجه مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم ، وان تعضكم السيوف .[1]

فأما وأنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وأما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله . قالوا امط عنا ياأسعد . فوالله لاندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدا ، قال : فقمنا إليه فبايعناه وأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة[2] .

وقد رواه أحمد أيضا والبيهقى من طريق داود بن عبد الرحمن العطار ويحيى

---

(١) قرر الحافظ فى الفتح أن نص بيعة العقبة الثانية هو نص بيعة العقبة الأولى وأن نص بيعة العقبة الأولى الذى رواه عبادة إنما كان بعد فتح مكة وبعد نزول آية الممتحنة ونزولها بعد الحديبية لأن الحدود لم تشرع فى مكة وأيده أبو شهبة وهذا الكلام له وجهته وتقديره ، ولكن أين نص بيعة العقبة الثانية على القول بأن نص البيعة الأولى كان بعد الفتح ؟ انظر فتح البارى ج ١ ص ٦٦ - ٦٧ - السيرة أبو شهبة ج ١ ص ٤٥٧ .

(٢) انظر السيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٤١ - ٤٤٢ . السيرة ابن كثير ج ٢ ص ١٩٧ - نور اليقين ٧٦ .

(تنبيه) سبق أن وعدت فى ص ٥٣ / أن أذكر كلمة العباس بن عباده الخزرجى فى ليلة العقبة الثانية ، ولم أذكرها اكتفاء بكلمة أسعد بن زرارة ، لأنها ثابتة وموجزة ، وهما متقاربتان فى المعنى .

ابن سليم عن أبى إدريس .[١]

وعند ابن إسحق : فأخذ البراء بن معرور[٢] بيده وقال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك بما نمنع منه أزرنا[٣] فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة[٤] ورثناها كابرا عن كابر[٥] فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان[٦] فقال : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال[٧] حبالا وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا . فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم[٨] أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . وطلب منهم النبى ﷺ - أن يخرجوا إليه اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

وقد سرد ابن هشام أسماءهم جميعا فى السيرة .[٩]

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

كما أورده ابن كثير فى السيرة ج ٢ ص ١٩٥ وقال : (هذا إسناد جيد على شرط مسلم) وكذا فى البداية ج ٣ ص ١٥٩ - ١٦٠ وقال الحاكم صحيح الإسناد ووافقه الذهبى . وقال الحافظ فى الفتح إسناده حسن وقال الألبانى (وفيه علة وهى عنعنة ابن الزبير عن جابر وليس هو من رواية الليث بن سعد عنه ، فلعل تصحيحه أو تحسينه لشواهده . والله أعلم) انظر تخريج أحاديث فقه السيرة ص ١٥٧ .

قلت وعلى التسليم بما قاله من العلة التى هى عنعنة ابن الزبير فقد رواه أحمد والبيهقى من طريق داود بن عبد الرحمن العطار وزاد البيهقى عن الحاكم - بسنده إلى يحيى بن سليم كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبى إدريس وقد قال الحافظ بأن إسناده حسن وابن كثير بأنه جيد والحاكم بأنه صحيح . وبذلك تزول العلة إن شاء الله . والله أعلم . انظر المصدر نفسه .

(٢) بدل أسعد بن زرارة فى رواية الإمام أحمد والبيهقى السابق ذكرهما .

(٣) أى نساءنا فقد يكنى عن المرأة بالإزار كما يكنى عن الإزار بالنفس ويجعل الثوب عبارة عن لابسه ، ومنه قوله تعالى ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال بعض المفسرين : ونفسك فطهر . وقال عنترة : فشككت بالرمح الأصم ثيابه . اى نفسه وذاته كذا فى هامش السيرة - ابن هشام ج ١ ص ٤٤٧ - السيرة أبو شهبة ج ١ ص ٤٦٩ .

(٤) أى السلاح

(٥) أى كبيرا شريفا عن كبير شريف اهـ . مصباح ج ٢ ص ١٨٣ .

(٦) يروى بتشديد الياء وتخفيفها .

(٧) يعنى اليهود .

(٨) أى دمى من دمكم والهدم بالفتح المصدر وبالتحريك كل ماتهدم ومعناه الحرمة أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم . كذا فى ابن هشام ج ١ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ وفى مسند أحمد الهرم وهو التعب والكبر

(٩) المرجع نفسه وأورده ابن كثير فى سيرته ج ٢ ص ٢٠٣ وقال هذا إسناد جيد قوى . وأحمد ج ٣ ص ٤٦٠ - ٤٦٢ من حديث طويل عن كعب بن مالك وصححه ابن حيان كما قال الألبانى فى فقه السيرة ص ١٥٧ .

- نص بيعة العقبة الكبرى عند ابن إسحق :

روى ابن إسحق عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : (بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا وأثره(*) علينا وأن لاننازع الأمر أهله وأن نقول بالحق أينما كنا لانخاف فى الله لومة لائم)[1]

وأورد هذا ابن كثير فى سيرته وسكت عنه .[2]

وقد قرر ابن إسحق أن هذه البيعة ، بيعة العقبة الثانية ، كانت على حرب الأحمر والأسود حيث قال : (وكانت بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله - ﷺ - فى القتال - شروطا سوى شرطه عليهم فى العقبة الأولى ، كانت الأولى على بيعة النساء ، وذلك أن الله لم يكن أذن لرسوله ﷺ فى الحرب ، فلما أذن الله تعالى - له فيها وبايعهم رسول الله ﷺ ، فى العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة)[3]

قلت وهنا إشكال حيث إن الإذن بالحرب لم يكن إلا بعد الهجرة إلى المدينة على مراحله الثلاث كما هو معروف بل مشهور ولعل هذا وهم من الإمام ابن إسحق - رحمه الله بدليل روايته قول بعض الأنصار - عند إتمام بيعة العقبة الكبرى - يارسول الله والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا . فقال ﷺ : (لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم)[4] فرجعوا إلى مضاجعهم فناموا عليها حتى أصبحوا . ومعلوم أنه ﷺ استمر يدعو بمكة حوالى عشرة أعوام[5] بغير قتال ولا جزية بل يؤمر بالكف والصبر

(*) الأثرة بفتح الهمزة والثاء : الاسم من آثر يؤثر إذا أعطى ا هـ النهاية فى غريب الحديث ج ١ ص ٢٢ .

(١) السيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٥٤ .

(٢) ج ٢ ص ٢٠٤

(٣) السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٤٥٤ .

(٤) القائل هو العباس بن عبادة بن نضله والنص رواه ابن هشام عن ابن إسحق فى السيرة النبوية ج ١ ص ٤٤٧ - ٤٤٨ ورواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ٤٦٢ - من حديث طويل عن كعب بن مالك وفيه (لم أومر بذلك) بدل (لم نؤمر)

(٥) نظرا إلى مرحلة الجهر بالدعوة .

والصفح مع تحمله وأصحابه من الأذى والتعذيب والمجابهة العنيفة من أعدائه كفار قريش ، ثم أذن له فى الهجرة وأذن له بالقتال . ثم أمره بقتال من قاتله ثم بقتال المشركين[1] حتى يكون الدين كله لله .

- قريش تكشف أمر البيعة :

وما إن طلع فجر العقبة الكبرى حتى غدت جلة قريش على معسكر الأنصار قائلين : يامعشر الخزرج إنه بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله مامن حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث من مشركى قومهم يحلفون بالله ماكان من هذا شيء وما علمناه ، منهم عبد الله بن أبّى وقال : (والله إن هذا لأمر جسيم ماكان لقومى ليتفوتوا[2] على بمثل هذا وماعلمته كان) - وكان بعضهم ينظر إلى بعض - فانصرفوا عنه) هذا لفظ ابن هشام عن ابن إسحق[3] وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده[4] من حديث كعب بن مالك . ولم يذكر قول ابن سلول .

وبهذه البيعة أخذت خيوط نور تظهر فى الأفق السياسى ، تشير إشارة غير خفية للمخطط السياسى للرسول ﷺ ، وأنه لايهدف بالهجرة من مكة إلى المدينة التخلص من العذاب والاستهزاء ، ولكنه يهدف إلى إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن تشرف عليه وتنظمه دولة تستمد نظامها من الله تعالى تلك هى دولة الإسلام .

فإقامة دولة الإسلام إذن هى الهدف الحقيقى للهجرة الشريفة .[5]

قلت : وهذا مع الاعتبار أنه ﷺ موجه من الله فى كل تصرفاته (وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى)[6] وإذا اجتهد وأخطأ فإن الله لايقره على

(١) انظر التفاصيل فى زاد المعاد ج٢ ص ٩١ .

(٢) تفوت عليه بكذا : فاته به . وفى البداية والنهاية ماكان قومى ليتفرقوا على مثل هذا . ج ٣ ص ١٦٤ .

(٣) انظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٤) ج ٣ ص ٤٦٢ .

(٥) التفسير السياسى للسيرة ص ١٢١ .

(٦) سورة النجم : ٤ ، ٥

ذلك كما فى قصة أسارى بدر .

الحكمة فى عدم الإذن بالقتال فى مكة :

لماذا لم يأذن الله للمسلمين – فى مكة – بالانتصار من الظلم والرد على العدوان ، ودفع الأذى بالقوة ، وكثيرون منهم لم يكن عاجزا عن رد الصاع صاعين مهما تكن قلة المسلمين فى ذلك الوقت ؟

ولماذا الأمر بالكف عن القتال والاكتفاء بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصبر والاحتمال حتى وبعض المسلمين يتجاوز العذاب طاقته فيفتن عن دينه وبعضهم يموت تحت وطأة العذاب ؟

إنى أدع الأجوبة عن هذه التساؤلات لشهيد الدعوة سيد قطب رحمة الله عليه وعلى سائر الشهداء فى سبيل الدعوة إلى الله – سبحانه – وذلك فى ظلال قوله تعالى : **﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكا ﴾** الآية[1] إذ يقول : (أما حكمة هذا فلسنا فى حل من الجزم بها ، لأننا حينئذ نتألى[2] على الله مالم يبين لنا من حكمة ونفرض على أوامره أسبابا وعللا قد لاتكون هى الأسباب والعلل الحقيقية أو قد تكون ولكن يكون وراءها أسباب وعلل لم يكشف لنا عنها ، ويعلم – سبحانه – أن فيها الخير والمصلحة وهذا هو شأن المؤمن أمام أى تكليف ، أو أى حكم فى شريعة الله – لم يبين سبحانه – سببه محددا جازما حاسما – فمهما خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم أو طريقة أداء ذلك التكليف مما يدركه عقله ويحسن فيه فينبغى أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال ولايجزم – مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام الله – بأن مارآه هو حكمة هو الحكمة التى أرادها الله نصا .. وليس وراءها شيء وليس من دونها شيء فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع الله ، ومقتضى مابين علم الله ومعرفة الإنسان من اختلاف فى الطبيعة والحقيقة .

---

(١) سورة النساء : ٧٧ .

(٢) فى الحديث (من يتألى على الله يكذبه) اى من حكم عليه وحلف كقولك والله ليدخلن الله فلانا النار وليسجحن الله سعى فلان وفيه **﴿ ويل للمتألين من أمتى ﴾** يعنى الذين يحكمون على الله ويقولون فلان فى الجنة وفلان فى النار . انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر ج ١ ص ٦٢

وبهذا الأدب الواجب نتناول عدم حكمة فرض الجهاد[1] فى مكة ، وفرضيته فى المدينة ، نذكر مايتراءى لنا من حكمة وسبب على أنه مجرد احتمال ، وندع ماوراءه لله لانفرض على أمره أسبابا وعللا لايعلمها إلا هو ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح .

إنها أسباب اجتهادية تخطىء وتصيب وتنقص وتزيد ، ولانبغى بها إلا مجرد تدبر أحكام الله وفق ماتظهره لنا الأحداث فى مجرى الزمان :

أ - ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد فى بيئة معينة لقوم معينين وسط ظروف معينة ، ومن أهداف التربية والإعداد فى مثل هذه البيئة بالذات تربية نفس الفرد العربى على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته ، ولاتعود ذاته ولا من يلوذون به محورا لحياة فى نظره ودافع الحركة فى حياته ، وتربيته ، كذلك على ضبط أعصابه فلا يندفع لأول مؤثر - كما هى طبيعته - ولايهتاج لأول مهيج ، ليتم الاعتدال فى طبيعته وحركته ، وتربيته على أن يتبع مجتمعا منظما له قيادة يرجع إليها فى كل أمر من أمور حياته ولايتصرف إلا وفق ماتأمره - مهما يكن مخالفا لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس فى إعداد شخصية العربى لإنشاء (المجتمع المسلم) الخاضع لقيادة موجهة ، المترقى المتحضر غير الهمجى أو القبلى .

ب - وربما كان ذلك أيضا لأن الدعوة السلمية أشد أثرا وأنفذ فى مثل بيئة قريش ذات العنجهية[2] والشرف والتى قد يدفعها القتال معها - فى مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناء وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التى أثارت حرب داحس والغبراء وحرب البسوس[3] أعواما طويلة - تفانت فيها قبائل برمتها - وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة فى أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام فلا تهدأ بعد ذلك أبدا ، ويتحول الإسلام من دعوة إلى

---

(١) المراد بذلك القتال . وقد سبق الكلام على أنواع الجهاد فى بابه .

(٢) الجهل والحمق والكبر كما فى القاموس ج ٤ ص ٢٨٨ .

(٣) استمرت أربعين سنة بين عبس وذبيان بسبب لطمة . والبسوس بين بكر وتغلب واستمرت كذلك أربعين سنة بسبب ناقة وقد سبق أكثر من هذا .

تارات وذحول[1] تنسى معها فكرته الأساسية ، وَهو في مبدئه ، فلا تذكر أبدا .

ج - وربما كان ذلك أيضا اجتنابا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم إنما كان ذلك موكولا إلى أولياء كل فرد يعذبونه هم ويفتنونه (ويؤدبونه) .

ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال : هذا هو الإسلام . ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال . فقد كانت دعاية قريش في الموسم في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة : إن محمدا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد والمولى بقتل الولي في كل بيت وكل محلة ؟

د - وربما كان ذلك أيضا لما يعلمه الله من أن كثيرا من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قادته ، ألم يكن ابن الخطاب من هؤلاء ؟

هـ - وربما كان ذلك أيضا ، لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى ولايتراجع وبخاصة إذا كان الأذى واقعا على كرام الناس فيهم . وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - في هذه البيئة - فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى في ذلك عارا على العرب . وعرض عليه جواره وحمايته .. وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب بعد ماطال عليهم الجوع واشتدت المحنة . .

و - وربما كان ذلك أيضا لقلة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة أو بلغت أخبارها متناثرة حيث كانت القبائل تقف على الحياد ، في معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى

---

(١) الذحل بفتح الحاء جمعه أذحال وهو الحقد ويسكن فيجمع على ذحول مثل فلس وفلوس . ا هـ . مصباح ج ١ ص ٢٢١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ترى ماذا يكون مصير الموقف ، ففى مثل هذه الحالة قد تنتهى المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم . ويبقى الشرك وتنمحى الجماعة المسلمة ولم يقم فى الأرض للإسلام نظام ولا وجد له كيان واقعى ، وهو دين جاء ليكون منهج حياة وليكون نظاما واقعيا عمليا للحياة .

ز – فى الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها ، والأمر بالقتال ودفع الأذى لأن الأمر الأساسى فى هذه الدعوة كان قائما – وقتها – ومحققا ، هذا الأمر الأساسى هو (وجود الدعوة) وجودها فى شخص الداعية – ﷺ – وشخصه فى حماية سيوف بنى هاشم ، فلا تمتد إليه يد إلا وهى مهددة بالقطع والنظام القبلى السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع فى حرب مع بنى هاشم ، إذا هى امتدت يدها إلى محمد – ﷺ – فكان شخص الداعية من ثم محميا حماية كافية .

وكان الداعية يبلغ دعوته – إذن – فى حماية سيوف بنى هاشم ومقتضيات النظام القبلى ، ولايكتمها ولايخفيها ، ولايجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها فى ندوات قريش فى الكعبة ومن فوق جبل الصفا ، وفى اجتماعات عامة ولايجرؤ أحد على سد فمه ، ولا على خطفه وسجنه وقتله .. ولايجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلاما بعينه يقوله ، يعلن فيه بعض حقيقة دينه ، ويسكت عن بعضها ، وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف ، وحين طلبوا إليه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم وكونهم فى جهنم لم يسكت .[1] وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا ، أى أن يجاملهم فيجاملوه بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته لم يدهن .
وعلى الجملة كان للدعوة (وجودها) الكامل فى شخص رسول الله – ﷺ – محروسا بسيوف بنى هاشم – وفى إبلاغه لدعوة ربه كاملة فى كل مكان وفى

---

(١) إشارة إلى حديث (من مات على ما مات عليه عبد المطلب فهو فى النار)
رواه ابن سعد فى الطبقات ج ١ ص ١٩٥ وإلى حديث عائشة فى مسلم (أن ابن جدعان لاينفعه كرمه لأنه لم يقل يوما رب اغفر لى) ج ١ ، ص ١٣٦ .

كل صورة ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة ، والتغاضى عن كل هذه الاعتبارات البيئية التى هى فى مجموعها مساندة للدعوة ومساعدة فى مثل هذه البيئة .[1]

(١) فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٧١٣ - ٧١٥ .

المبحث الرابع : قيمة العهد المكى

إذا رجعت إلى المرحلة السرية الفردية تجد أن النبى ﷺ قد ربى الفرد الصالح المؤمن بالله الخائف من عذاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدنيا ، المستهين بالمادة المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية يؤمن بأن الدنيا خلقت له ، وأنه خلق للآخرة .

فإذا كان تاجرا فهو الصدوق الأمين . وإذا كان فقيرا فهو الشريف الكادح ، وإذا كان عاملا فهو المجتهد الناصح وإذا كان غنيا فهو السخى المواسى . وإذا كان قاضيا فهو العدل . وإذا كان واليا فهو المخلص الأمين ، وإذا كان رئيسا فهو المتواضع الرحيم ، وإذا كان جنديا فهو الشجاع المقدام ، وإذا كان قائدا فهو القائد الحكيم وو ...

هؤلاء الأفراد هم اللبنات التى تكونت منها الجماعة الأولى، بل قام عليها المجتمع الإسلامى . وقد نجحت تلك الجماعة فى كل محنة تظهر مواطن الضعف ، وتبرز كوامن النفس ، وذلك من تأثير الإعداد والتربية النبوية ، ومن رقة العاطفة ، ودقة الشعور بالمسئولية ، ومن المستوى الرفيع للأمانة والزهادة والإيثار ، مالم يتوقعه علماء النفس والأخلاق ومن جربوا الإنسان وكتبوا تاريخه فى العصور والأزمان المختلفة .[1]

---

(١) انظر النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن للندوى ص ١٠٠ - ١٠٤ .

- من أثر الإعداد النبوى :

هذه الجماعة التى أنشأتها دعوة الرسول ﷺ وأحكمت إعدادها وتربيتها حسب المنهج الذى ذكرناه بتوجيه من عند الله سبحانه وتعالى .

هذه الجماعة هى القاعدة الأولى ، قاعدة حب الله ورسوله والطاعة لله ورسوله والتلقى من عند الله ورسوله ورفض التلقى من كل مصدر سواه .

وعلى هذه القاعدة انبنى كل ماجاء بعد ذلك من تربية وعقيدة وسلوك ، حتى استقامت تلك النفوس على القمة ، ووقفت هناك وقفتها المشرفة العالية ، تنير الطريق لكل البشرية ، وإذا تعجلنا النظر إلى مجتمع المدينة المنورة - أول مجتمع إسلامى - نجده قام على تلك القاعدة نفسها وإنما توسعت آفاقها حسب الزمان والمكان وملاءمة الظروف . ثم نجد معظم ذلك قائم على كواهل تلك الجماعة المكية فاندمجت بجماعة الأنصار فى المدينة فأصبحت جيلا واحدا وأمة واحدة ، تحمل أو يحمل شهادة عالمية خالدة تتلى فى الليل والنهار ويتعبد بها ، إنها شهادة لخريجى دار الأرقم الذين تعلموا مبادىء الإسلام على يد الموجه التربوى ، الموجه بتعاليم السماء . ذلك هو الرسول ﷺ ، الذى لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . ثم إنها شهادة تناولت جيل الصحابة أجمعين . فهل حصلوا على تلك الشهادة عفوا صفوا ، أم بذلوا فى الحصول عليها الغالى والنفيس ؟

إذا رجعت إلى (جهاد الدعوة) تجد الإجابة الكافية إن شاء الله إذ لايسع المقام تكرارها ، إنها شهادة صادرة من ملكوت السماء والأرض من فوق سبع سماوات من لدن حكيم عليم خبير . وإليك نص هذه الشهادة :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس) فما هو السبب فى الحصول على هذه الشهادة ؟ ﴿ **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[1] فإذا زالت هذه الصفات زالت الخيرية . وهذا على القول بعمومها فى الأمة المحمدية ، وعليه فصحابة رسول الله ﷺ أفضل الأجيال وإن كان لم يخل

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠

من عثرات وكبوات فى الطريق كيوم أحد وحنين - (خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ..)[1]

وإذا كانت هذه الشهادة عامة فهناك شهادات خاصة منها قوله تعالى : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾[2]

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات الجماعة المختارة :

١ - فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ .

فهذا المقداد بن عمرو يقول للرسول ﷺ يوم بدر حينما تكلم فى شأن القتال : (امض لما أراك الله فنحن معك والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى - اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . - ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه)[3]

وهذا سعد بن معاذ يقول الكلمة المشهورة يوم بدر أيضا (.. فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك . والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ومانكره أن تلق بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء لعل الله يريك منا ماتقر به عينك فسر

---

(١) رواه البخارى فى عدة مواضع منها ج ٢ ص ١٠١ كما رواه الترمذى فى الفتن وابن ماجه فى الأحكام .

(٢) سورة الفتح : ٢٩ .

(٣) انظر السيرة النبوية ابن هشام ج ١ ص ٦١٥ وفى صحيح مسلم ج ٥ ص ١٧٠ إن صاحب هذه الكلمة سعد بن عبادة وقد سبق التنبية على هذا فى (الحكمة اختيار العرب لحمل الدعوة) وانظر البخارى أيضا ج ٣ ص ٣ وأسندها إلى المقداد بن الأسود بلفظ (لانقول كما قال قوم موسى اذهب أنت وربك فقاتلا ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك) وبرك الغماد موضع باليمن وقد سبق ذكره .

بنا على بركة الله)[1] .

لقد جاهدوا فى الله حق جهاده ، كان لسان حالهم يقول : (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) النصر أو الشهادة ولذلك كانوا أمام الأعداء كالجبال الراسيات لاتزلزلها العواصف ، بل كانوا كالصواعق على أعداء الله ورسوله ولكنهم رحماء بينهم كما قال ﷺ (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)[2]

٢ – ولقطة تصور هيئتهم فى عبادتهم ﴿ **تراهم ركعا سجدا** ﴾ رهبان فى الليل ليوث بالنهار .

٣ – ولقطة تصور قلوبهم ومايشغلها ويجيش بها ﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾

٤ – لقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله فى سمتهم ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة** ﴾ هذه صفتهم فيها . ولقطات متتابعة تصورهم كما فى الإنجيل ﴿ **كزرع أخرج شطأه** ﴾[3] (فآزره) ﴿ **فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ .

وهكذا يثبت الله – سبحانه – فى كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة ، صحابة رسول الله ﷺ ، فتثبت فى صلب الوجود كله وتتجاوب بها أرجاؤه وتبقى أنموذجا للأجيال لتحقق معنى الإيمان فى أعلى الدرجات . وهكذا (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)[4]

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٦١٥ .

(٢) متفق عليه / مسلم ج ٨ ص ٢٠ والبخارى ج ٤ ص ٥٣ بلفظ ترى المؤمنين فى تراحمهم .. تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى .

(٣) شطأه أفراخه وقيل ورقة وقيل سنبلة وقيل إذا صارت له أغصان وقيل الزرع مادام فى البذر فهو الحب فإذا انشق الحب عن الورقة فهو الفرخ فإذا طلع رأسه فهو الحقل قيل المعنى إن الشطء قوى الزرع وقيل إن الزرع قوى الشطء . فآزره أى قواه وأعانه وشده فهو زرع تام قوى يخرج فرخه من قوته وخصوبته ولكن هذا الفرخ لايضعف العود بل يشده قال قتادة : هذا مثل للصحابة فى الإنجيل سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . انظر فتح القدير ج ٥ ص ٥٦ تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٤٣ ا هـ . حاشية الظلال ج ٢٦ ص ٣٣٣٢ .

(٤) هذا لفظ حديث مرفوع متفق عليه البخارى ج ٢ ص ٦٧ – مسلم ج ٨ ، ص ٢٠ .

إن هذه القاعدة الصلبة من المهاجرين الأوائل هى التى انضم إليها السابقون من الأنصار (أهل العقبة الكبرى) وهى التى تكونت منها القاعدة الأساسية فى المدينة قبل بدر وبعده .

هذه هى القاعدة الصلبة التى اتسعت أبعادها قبيل الفتح ، حتى صارت تتمثل فى المجتمع المدنى بجملته هى التى حرست الإسلام بعون الله تعالى وصانته من الهزات بعد الفتح ، ثم من الهزة الكبرى بعد وفاة رسول الله ﷺ بقيادة أبى بكر خليفة رسول الله حينما ارتدت الجزيرة العربية عن الإسلام ، وهى التى فتحت الفتوحات الإسلامية فى عهد الشيخين ودوخت فارس والروم أعظم الامبراطوريات يومها ، ونشرت الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها .

وهذه الحقائق تكشف لنا عن طبيعة المنهج الحركى للدعوة الإسلامية المتجددة فى أى زمان ومكان ، وكم لها من أبناء كرام بررة فى بلاد الشرق والغرب وفى بلاد العرب والعجم وفى قرون متقدمة ومتوسطة ومتأخرة ، وكم لها من مآثر وبطولات ومحامد ومكارم فى كل ناحية من نواحى الحياة الإنسانية . والفضل فى هذا كله يرجع إلى توجيهات القيادة الحكيمة النبوية الربانية .

هذه الجماعة والقاعدة الصلبة هى التى وصفها الله بقوله تعالى : **﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾**[1]

---

(١) التوبة : ١٠٠ – فقد أخبر الله تعالى فى هذه الآية الكريمة أنه رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان بغض النظر عن الخلاف فى تعيين السابقين فى الآية فقد قيل إنهم المهاجرون قبل بدر وقيل هم أهل بيعة الرضوان وقيل أصحاب العقبة الكبرى من الأنصار وقيل هم الذين صلوا إلى القبلتين ، وقيل هم السابقون إلى الإسلام . وأنا أميل الى القول بأنهم هم الذين هاجروا قبل بدر ، والسابقون من الأنصار هم أهل بيعة العقبة الثانية – وفى ذلك يدخل السابقون إلى الإسلام – لأن فترة الشدة قبل بدر أشد الفترات وظروفها أشد الظروف كما هو معلوم والله أعلم .

والذين اتبعوهم بإحسان هم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة . وليس المراد بهم التابعين اصطلاحا ، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبى ﷺ . فياويل من أبغض الصحابة أو سبهم . بعد هذا الرضا والرضوان والنعيم المقيم والفوز العظيم من رب العالمين . انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٤٢ ، فتح القدير ج ٢ ص ٣٩٨ – الظلال ج ١١ ص ١٧٠٢ – ١٧٠٣ .

هذه الجماعة هى التى وصفها الله سبحانه بقوله : ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾[١]

إنها صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين الذين أخرجوا إخراجا من ديارهم وأموالهم .. أكرههم على الخروج الأذى .. والاضطهاد من عشيرتهم فى مكة ، لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم ﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾ اعتمادهم على الله من فضله ورضوانه لاملجأ لهم سواه ، وهم مع أنهم مطاردون قليلون ﴿ **ينصرون الله ورسوله** ﴾ بقلوبهم وسيوفهم فى أحرج الظروف ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم وصدقوها بأعمالهم وكانوا صادقين مع الله فى أنهم اختاروه ، وصادقين مع رسوله فى أنهم اتبعوه ، وصادقين مع الحق فى أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس .

هذه الجماعة هى التى وصفها الله بقوله ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا**[٢] ، **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[٣]

وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار .

هذه الجماعة من المهاجرين والأنصار التى تفردت بصفات وبلغت إلى آفاق لولا أنها وقعت بالفعل لحسبها الناس أحلاما . يحبون من هاجر إليهم . فلم يعرف التاريخ البشرى كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الأنصار المهاجرين بالحب الكريم والبذل السخى والمشاركة الرضية والتسابق إلى الإيواء .[٤]

---

(١) الحشر : ٨

(٢) اى ولايجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله بهم من المنزلة والشرف والتقديم فى الذكر والرتبة اهـ . ابن كثير ج ٨ ص ٩٥ .

(٣) الحشر : ٩ – قال ابن كثير : أى سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . وقال الشوكانى : التبوؤ فى الأصل إنما يكون للمكان ولكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلا للحال منزلة المحل ويجوز أن يكون على حذف مضاف أى تبوءوا الدار وموضع الإيمان ويجوز أن يكون تبوءوا مضمنا لمعنى لزموا والتقدير لزموا الدار والإيمان ومعنى من قبلهم : من قبل هجرة المهاجرين فلابد من تقدير مضاف ، لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين . ابن كثير ج ٨ ص ٩٤ – فتح القدير ج ٥ ص ٢٠٠ – ٢٠١ .

(٤) انظر الظلال ج ٢٨ ص ٣٥٢٦ .

عرفت تلك الجماعة ربها عن طريق التوجيهات النبوية فأثمرت هذه المعرفة ثمارا يانعة وتركت فى نفوسهم روح الشجاعة واحتقار الموت والرغبة فيما عند الله ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

كان هم تلك الجماعة نشر العقيدة الصحيحة ونشر المكارم وبث المحاسن والفضائل لدين الإسلام وبذل الجهد المستطاع فى دعوة البشر كافة إلى الإيمان والدخول فى دائرته حتى يكون ذلك دين العالم بأسره . جاهدوا فى الله حق جهاده ، لم يهدأ لهم مضجع ولم يقر لهم قرار حتى صارت كلمة الله هى العليا وارتفعت راياتها فى مشارق الأرض ومغاربها ونكس كل باطل يقوم فى وجهها .

هذه الجماعة التى كان يقول الفرد منها : أليس بينى وبين الجنة إلا أن أقتل هذا الرجل أو يقتلنى .. ثم يلقى بنفسه فى المعركة فيستشهد . .

والذى يأخذ تمرات فى يده ، ثم يأخذ فى أكل تمرة منها[1] فإذا الجنة تشده إليها ، ورغبة الاستشهاد فى سبيل الله تملك عليه نفسه فيتعجل الذهاب ولايصبر حتى يكمل تمرته فيلقيها عنه وهو يقول : لئن بقيت حتى أنتهى منها إنها لحياة طويلة . ويذهب إلى الجنة التى تناديه .

نماذج ونماذج ونماذج لاتتسع لها هذه السطور .

ولكن حسبنا أن نقول إن هذه الجماعة التى ربيت على هدى القرآن وعلى عين الرسول ﷺ هى التى كتبت التاريخ[2] بأحرف من نور .

---

(١) إشارة إلى قصة عمير بن الحمام يوم بدر كما فى السيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٢٧ - مسلم ج ٦ ص ٤٤ - وقال أنس بن النضر (إنى أجد ريح الجنة دون أحد) فقاتل حتى قتل فوجد فيه بضع وثمانون بين طعنة وضربة ورمية اهـ . البخارى ج ٣ ص ٢١ - مسلم ج ٦ ص ٤٦ ، سنن الترمذى بتحفة الأحوذى ج ٩ ص ٦١ .

(٢) انظر منهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٧٦ .





الخاتمة



وقد توصلت من خلال البحث إلى النتائج الآتية :

١ - إن طريق الدعوة ليست مفروشة بالورود ، بل مملوءة بالأشواك والتضحيات ، إن طبيعة الوصول بهذه الدعوة إلى غايتها لصعب بل فى غاية من الصعوبة إنها البأساء والضراء والزلزال ؛ إنها تعرض للأذى ، إنها الغربة فى العقيدة ، إنها السجن أو الإخراج أو القتل بشتى أنواعه ، فالغرض الوحيد فى مخطط القوى المجابهة للدعوة هو القضاء عليها وعلى أصحابها فى مهدها .

فإذا طال الزمن وأبطأ النصر ، كانت أشد وأقصى ، مع التعرض لفتنة الرغبات والشهوات وفتنة البعد عن الأهل والأحباء ، ولكن الإعداد الحقيقى لتحمل الأمانة لايتم إلا بالمعاناة العملية .

فالحق لايقوم بنفسه بل لابد من قائمين به ، ولابد من تضحيات فى سبيل إقامته . ولكن ليس ذلك سدودا أمام السالك عن بلوغ الغاية بل سلوك فى الطريق الطبيعى للدعوة إلى الله - عز وجل - فقد مشط الكثير بأمشاط الحديد ، وأحرقوا بالنار فى الأخاديد ولكن العقيدة استعلت فى نفوسهم على العذاب وعلى كل رغائب الحياة .

٢ - ينبغى للداعية أن يلفت العقول والفطر إلى الكون ومايحيط بالإنسان من كل الجوانب يعرض آيات القدرة القادرة التى لايعجزها شىء فى السمٰوات ولا فى الأرض ، فى الخلق ، فى الموت ، فى الحياة ، فى إحداث الأحداث

وتدبير الأمر .. تلك هى منافذ الفطرة التى تلجئها إلى البحث عن الخالق والتوجه إليه .

فقد أخذ القرآن الكريم الإنسان من مواطن اهتمامه فى الكون ونعم الله عليه ، ونقله منها إلى الخالق المنعم ، فأكسبه بذلك الاقتناع بمنطق العقل والشعور ليخامر إيمانه النفس فكرا وعاطفة ، وأن يعرض الداعية ، نماذج مناسبة عن أخبار قوم هدوا فمكن الله لهم فى الأرض ، وأقوام ضلوا فساءت حالهم وخربت ديارهم ووقع عليهم العذاب والنكال يضرب بهم المثل ويدعو الناس إلى العبرة .

٣ - إثارة الوجدان بالثواب والعقاب ، فالإنسان مجبول على حب ماينفعه وبغض مايكرهه لما فيه من غريزة حب الذات ، فمخاطبة العقول وحدها لاتثير وجدانا ، ولاتغذى أرواحا ، فالنفس محتاجة إلى الغذاء الروحى كحاجة الجسد إلى الغذاء المادى ثم التوازن بينهما .

٤ - الدخول إلى النفوس لترسيخ عقيدة التوحيد النقية الواضحة التى جاء بها النبى - ﷺ - كل بحسب المؤثرات ، فالداعية المسلم ينبغى أن يعرف من أين يبدأ وإلى أين ينتهى فالبدء بالأصل قبل الفرع وبالقاعدة قبل البناء وبالتخلية قبل التحلية وكما يقال : المربى هو الذى يبدأ بتعليم صغار العلم قبل كباره .

٥ - استعمال أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ، ياحصين كم تعبد من إله ؟ قال : سبعة فى الأرض وواحد فى السماء . قال : فإذا أصابك الضر فمن تدعو ؟ قال : الذى فى السماء . فإذا هلك الناس من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء . قال : فيستجيب لك وحده وتشرك معه غيره . ياحصين أسلم تسلم[1] .. عرض وأخذ وعطاء وإقناع .

(أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم ماجربنا عليك إلا صدقا[2] . (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى)[3]

(١) الإصابة ج ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ - الحلية ج ١ ص ٤٥٥
(٢) البخارى ح ٣ ص ١٧١ - مسلم ح ١ ص ١٣٤
(٣) سورة يوسف : ١٠٨

ومع هذا فليس فى العقيدة مساومة ولا حلول نصفية فلا يلتقى الإسلام والجاهلية فى منتصف الطريق .. ولو جازت المساومة لجازت فى أحرج الظروف المكية . فالشدة فى موضعها لاتتنافى مع أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ، بل هى من الحكمة (والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أموت دونه ماتركته[1]) .

٦ – تقسيم مراحل الدعوة وتنظيمها من حيث السرية والجهرية ، بدأ الاتصال الفردى مع مراعاة الأقرب فالأقرب فى السر والجهر على السواء .

ثم التكوين ويبدأ من دار الأرقم . وينتهى بالمرحلة المكية وكلها تكوين وإعداد . أما التنظيم السرى الحركى فما انفك عن الدعوة حتى فى المرحلة الجهرية إلى بيعة العقبة الكبرى إلى المجتمع الإسلامى فى المدينة كالتورية فى الغزوات وكالحرب خدعة وكتاب النبى ﷺ لعبد الله بن جحش[*]، وكان حذيفة ابن اليمان صاحب سر رسول الله ﷺ .

٧ – لاعمل إلا بجماعة ، ولاجماعة إلا بقيادة ، ولاقيادة إلا بتنظيم فالخير لايكون فلتة عارضة ، إنما ينبعث عن دوافع ويتجه إلى هدف يتعاون عليه الأفراد المرتبطون فى الله – عز وجل – فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد ، بأعباء الدعوة إلى الله عز وجل فالنوايا الطيبة لاتكفى ، بل لابد من أن تتمثل فى حركة تكون بناء ضخما فى صميم الحياة .

٨ – الصبر والاستمرار فى الدعوة فى حق من لم يستجب وعدم استعجال النتائج وإن طال الزمن ، فالمثابرة على الدعوة والاستعانة على وعثاء الطريق بطول الصبر وحسن التأسى برسول الله – ﷺ – وصدق الاعتماد على الله – سبحانه – هو طريق النجاح ، إن الدم الذى يراق هو غذاء الدعوة ومحاولة الإفلات من هذه السنة العامة لايتاح لأحد ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين** ﴾ فلابد من توفيق الله تعالى .

---

(١) السيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٦ – البداية ج ٣ ص ٤٢ – ٤٨ .

(*) كتب له النبى ﷺ كتابا وأمره ألا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا حيثما أرسله قائد على سرية ..

وكفى بالداعية المسلم المخلص أن يكون الله – عز وجل – معه وهاديه ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين[*] ﴾ ثم لابد للدعوة من سند يهيئه الله – سبحانه – كدفاع أبى طالب والساعين فى نقض الصحيفة ، والنجاشى فى الحبشة حتى وإن كانوا لايدينون بالدعوة مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام (وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1]

واستعجال النتائج قبل أوانها لايتناسب مع طبيعة الدعوة إلى الله فكم لبث نوح فى قومه ، وكم وكم .. غيره من الأنبياء والمصلحين (والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لايخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)[2] وقد حدث هذا بالفعل ، كما هو معروف فى تاريخ الإسلام . ونرجو الله أن يعود هذا عن قريب .

إن على الدعاة أن يؤدوا واجبهم ، وهو أن يختاروا الله – عز وجل – وأن يؤثروا العقيدة على الحياة وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة وأن يصدقوا الله فى العمل والنية . ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم كما يفعل بدعوته ودينه مايشاء وينتهى بهم إلى نهاية من تلك النهايات التى عرفها تاريخ الإيمان أو إلى غيرها مما يعلمه ويراه .

إنهم أجراء عند الله – سبحانه – أينما وحيثماوكيفماأرادهم أن يعملوا عملوا وقبضوا الأجر المعلوم ، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة الى أى مصير ، فذلك شأن صاحب الأمر ، لاشأن الأجير .

٩ – استخدام الوسائل لنشر الدعوة كالتنظيم الدقيق ، العمل المتواصل الاتصال الفردى والجماعى ، تكليف من أ. لم بتبليغ من لم يسلم ، مع استخدام وسائل الإقناع وجمع الناس ودعوتهم كما فعل رسول الله ﷺ حين صعد على الصفا والذهاب إلى أماكن تجمع الناس ودعوتهم ، والخروج إلى البلدان لتبليغ الدعوة كما فعل الرسول ﷺ فى عكاظ وغيرها . كل هذا حسب ماتنظمه القيادة على ضوء المنهج النبوى .

(*) سورة العنكبوت : ٦٩

(١) مسلم ج ٥ ص ٢٠١

(٢) البخارى ج ٢ ص ٢٨١ .

١٠ – إبعاد الأتباع عن ساحة المواجهة إلى حينها ، فسلاحها الصبر والصبر وحده ، وقد ضاق البعض فاستنجد بدعوة القيادة ، فكان الجواب الصارم حديث خباب . وفى ليلة العقبة الكبرى طلب الأنصار الميل على أهل منى بأسيافهم ، فكان الجواب من القيادة الحكيمة (لم نؤمر بهذا) فلما حان الأوان فعلت الأفاعيل ، وكتب التاريخ بالفتوحات الإسلامية فى شتى بقاع المعمورة فكم لها من مآثر وبطولات ومحامد ، ومكارم فى كل ناحية من نواحى الحياة الإنسانية .

١١ – إن الدعوة التى جاء بها محمد ﷺ – أنقذت البشرية من بحر الشقاء إلى ساحل السعادة ، ومن عبادة الأحجار والعبيد إلى عبادة الله وحده ، ومن حمأة الرذيلة إلى قمة الفضيلة ، إنها دعوة خالدة صالحة لكل زمان ومكان .

١٢ – ان الهدف من الدعوة تأسيس القاعدة الصلبة للجماعة التى ستقوم بأعباء تلك الدعوة إلى الناس والتى تتمثل فى : الله غايتهم ، والرسول قدوتهم ، والقرآن دستورهم ، والجهاد فى سبيل الله أغلى أمانيهم . ثم المحافظة على هذه القاعدة وتكميلها وتمحيصها .

وهناك هدف عام هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن يعبد الله وحده لايشرك به شىء (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)[1] .

١٣ – إن قوة الباطل وطغيان الموجة الجاهلية لاتفيد معها موعظة ترق لها القلوب ثم تترك يجرفها التيار الضخم ، ومواجهة الناس بالحق والقيام على أمره من أهم الخصال التى تحيا بها الدعاة إلى الله – سبحانه – وفى مقدمتهم الأنبياء .

إذن فلا بد من احتضان الفرد وتربيته وإعداده إعداداً خاصا وملاحقته حتى يصلب عوده ، وإلا فهو كالنبتة الصغيرة فى مهب الأعاصير . ومرة أخرى أؤكد أنه لابد أن يعمل الدعاة ضد التيار ، ولو قال الصحابة . رضوان الله عليهم لرسول الله ﷺ الأرض مليئة بالشرك والأخطار ولانستطيع القيام بشىء لما

---

(١) السير والمغازى ص ٢٣٢ – البداية ج ٣ ص ١٣٨ – الطبقات لابن سعد ج ١ ص ٢٠٠ نور اليقين ص ٧٢

قامت الدعوة .

١٤ – الداعية إذا لم ينجح فى بلده عليه أن يتحول إلى بلد آخر كما فعل الرسول ﷺ . ومن الأفضل له أن يدرس تلك المنطقة التى يريد الخروج إليها ، دراسة عامة ليعرف المنافذ التى يمكنه الدخول منها قبل الدخول فى نشر الدعوة وأن يكون قدوة يطبق تعاليم الإسلام على نفسه ومن يحيط به ثم يدعو الناس إليها .

١٥ – إن واقع الإسلام المعاصر يعانى من مرارة عودته إلى الغربة ، معاناة شديدة ، مصداقا لقوله ﷺ (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)[١] .

فقد لحق المسلمين النقص والإخلال ، اللهم إلا أفرادا قلة ، هم المصلحون لما أفسد الناس ، فهذه العودة لاترتبط بزمان ولامكان معين ، وإنما تعود كلما انتقل زمام الحكم من أيدى المسلمين إلى غيرهم إذ يحصل الفساد فى الأرض نتيجة ذلك .

إن واقع المسلمين يقرر بأن غربة النبى عليه الصلاة والسلام ، وأسرة ياسر وبلال وغيرهم من خريجي دار الأرقم ، قد عادت للذين قالوا ويقولون ربنا الله لاقيصر ، والحاكمية لله لا للبشر .

إن تعذيب أولئك الغرباء الأوائل وتشريدهم قد عاد على المصلحين فى كل زمان ومكان ، عاد عليهم بالسجون والمشانق والتشريد والتقتيل بشتى أنواعه .

فما هى أداة التحويل التى نحول بها المجتمع إلى المنهج الإسلامى وماهو الخلاص ؟

١٦ – إنه لا أداة لذلك إلا بتربية جيل جديد على المنهج الذى تربت وأعدت عليه الجماعة الأولى فى العهد المكى ، والذى ينبغى أن تكون عليه كل أجيال المسلمين على مدى التاريخ .

---

(١) مسلم ج ١ ص ٩٠ .

والمهم عندنا أمور ثلاثة رئيسية :

الأول : أن نعلم من أين نبدأ ، ثم ماهو المطلوب منا بعد نقطة البدء وماهى وسيلتنا لأداء المطلوب منا .

الثانى : أن نعلم أن الجماعة الأولى التى رباها وأعدها الرسول صلوات الله وسلامه عليه – فى العهد المكى – على عينه ، وحقق فيها منهج التربية والإعداد بكاملها هى القدوة الدائمة لنا بعد شخص الرسول – ﷺ – وأن صورتها الواقعية هى المرجع الدائم لنا فى منهج التربية والإعداد بعد كتاب الله – عز وجل – وسنة رسوله – ﷺ .

وأن هذه الجماعة – ستظل لأجيال المسلمين بل لأجيال البشرية كلها – هى النور الذى يستضيئون به ويحاولون أن ينسجوا على منواله .

فإن استطاع المسلمون أن يعيدوا سيرتها فى أنفسهم فى أى جيل من أجيالهم فهو الخير لهم ولكل البشرية وإن لم يستطيعوا فلن تذهب محاولتهم هباء لأنهم سيكونون – فى أثناء المحاولة – قد ارتفعوا بأنفسهم إلى أقصى طاقاتهم فيكون الخير .

الثالث : أن نعلم أنه لاطريق لنا إلا ذلك الطريق الذى سلكته الجماعة الأولى فى خروجها من جاهليتها حتى استوى بها إلى قمة الإسلام الشامخة .

إن وجهة المسلمين – إن أرادوا أن يعودوا إلى الحياة مرة أخرى وينفضوا عنهم ذلك الهوان المخزى الذى يعيشون فيه – ينبغى أن تكون هى تلك الجماعة الأولى وعلى رأسها رسول الله – ﷺ – قبل أن تكون هى موسكو ، أو لندن ، أو واشنطن أو بكين .. ولابأس – بعد أن يتجهوا إلى تلك الجماعة لينسجوا على منوالها ، ويحاولوا الاقتداء بها – أن يستفيدوا مما يجدونه صالحا للاستفادة به فى تلك البلدان .

وإذا تعجلنا النظر إلى مجتمع المدينة المنورة – أول مجتمع إسلامى – نجده قام على تلك القاعدة نفسها ، وإنما توسعت آفاقها حسب الزمان والمكان وملاءمة الظروف ، فاندمجت جماعة الأنصار فى المدينة فأصبحت جيلا واحدا وأمة واحدة تحمل شهادة خالدة تتلى فى الليل والنهار ويتعبد بها على يد الرسول

والمربى ﷺ – لم ينالوا تلك الشهادة عفوا صفوا ، بل ببذل الغالى والنفيس ، ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾(*) الآية،هذه الجماعة التى تربت على هدى القرآن الكريم وعلى يد الرسول – ﷺ – هى التى كتبت التاريخ بأحرف من نور .(١)

١٧ – إن هذا الدين لم يصل إلينا عفوا صفوا ، وإنما وصل إلينا – كما عرفت – بعد التضحيات بالأوطان ، بالأموال ، بالدماء ، بالأشلاء ، بالمهج التى بذلها الجيل الأول ، رضوان الله عليهم ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، لهذا يجب على المسلمين أن يتمسكوا بهذا الدين ، وأن يعضوا عليه بالنواجذ لأنه نزل من عند الله الخالق العليم بمصالح عباده ومضارهم ، الحكيم فى تدبير أمورهم وفيه سعادتهم فى الدارين .

١٨ – إن الإسلام لم ينتشر بالسيف – كما يقول بعض ذوى الأغرض – وإنما انتشرعن طريق الدعوة بالبرهان والإقناع والموعظة الحسنة حتى خالطت بشاشتة الإيمان وحلاوته قلوب أولئك السابقين المعذبين فى مكة ، ثم سرى سريان الماء فى العود ، وسريان النور فى الظلام ، حتى تجاوز هؤلاء ، واخترق البادية حتى وصل طيبة الطيبة ، وكان الإسلام والمسلمون فى غاية من الكتمان خوفا من سلطة الشرك والمشركين ، لأن زمام السلطة والقوة ليس فى أيدى المسلمين حينها .

فهل تجد فى التاريخ الإسلامى أن الإسلام سل سيفه على بلال وعمار وخباب وغيرهم ؟ فالواقع يقرر أن سيوف الشرك كانت هى القائمة على رؤوس المسلمين ، ولكنها هانت أمام قوة الإيمان ، بل إن بعضهم كان يستعذب العذاب والموت فى سبيل نشر الإسلام .

وهل تجد فى التاريخ أن الرسول – ﷺ – كان يتصدى للوافدين فى مواسم الحج هو وأصحابه بالسيوف ، أم بالدعوة إلى الله – سبحانه – وبأسلوبها الجذاب ؟ وهل كان يرميهم بالحجارة أو يرمونه ؟

(*) سورة ال عمران : ١١٠

(١) الأمور الثلاثة مقتبسة من مهج التربية الإسلامية ج ٢ ص ٨٧ .

وهل تجد فى التاريخ أن الأوس والخزرج سلت فى وجوههم سيوف الإسلام حتى دخلوا فيه مكرهين ، أم حدا بهم الإيمان إلى أن بايعوا متزاحمين ومتنافسين ، على نصره حتى الفوز بإحدى الحسنيين . ؟

ومعلوم أن القتال لم يشرع إلا فى المدينة على مراحله المعروفة ، وقد كان محرما ، ثم مأذونا به ، ثم مأمورا به لمن بدأ بالقتال ، ثم مأمورا به فى مواجهة جميع المشركين ، وذلك لإزاحة العقبات التى تقف فى سبيل الدعوة إلى الله – سبحانه – أما إذا لم تكن صعوبة فى الطريق فلا داعى لاستعمال السيف .

١٩ – إن الجماعة المسلمة ذات الشمول في المنهج ، والوضوح فى الهدف بادئة من إعداد الفرد ، منتهية بإقامة الحكم لله وحده ثم الانطلاق فى الأرض لإعلاء دين الله ، هى الجديرة بالولاء والنصرة .

٢٠ – الدعوة للجماعات الإسلامية العاملة فى الميدان للتعاون فى الأمور المتفق عليها ، وأن يعذر كل منها الأخرى فيما اختلف فيه من الفروع والمناهج والأفكار وكف الحملات الكلامية ضد بعضها البعض ، كيلا تبلبل أفكار العامة ، إذ ليس ذلك من صالح الدعوة إلى الله – عز وجل – بل فى صالح أعداء الإسلام والمسلمين والله الموفق للصواب .

وإنى وأنا أختم هذا البحث المتواضع لأستطيع أن أقول إنى قد أتيت بجديد أو بلغت مرتبة من الكمال ، فكم من باحث طويل الباع ، يكتب بحثا اليوم ، ثم يراجعه غدا ، فإذا هو يقول : لو أننى قدمت هذا لكان أحسن ولو أخرت هذا لكان يستحسن ، ولو أضفت ذلك لكان أكمل ، ولو حذفت ذاك لكان أجمل ، فغاية القول أنى بذلت كل مافى وسعى – حسب ظروفى – وحسبى أنى حاولت إخراج الموضوع على هذه الصورة ، فإن أصبت فبتوفيق الله – عز وجل – وله الحمد والمنة ، وإن قصرت أو أخطأت فذلك طبيعة البشر وأستغفر الله ، وعزائى أن الكمال لله وحده ، وأن فوق كل ذى علم عليما .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين . .

فهرس المصادر والمراجع ، حسب الحروف الهجائية



- أ -

١ – القرآن الكريم
٢ – آدم / للبهي الخولي ، مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة
٣ – الإتقان في علوم القرآن / لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١ مطبعة حجازي بالقاهرة
٤ – إتمام الوفا / لمحمد الخضري مطبعة السنوسي ط / الأولى
٥ – أخبار مكة / لمحمد بن عبد الله بن أحمد الأرزقي ، بدون ذكر الطبع والتاريخ
٦ – الأديان والفرق / لعبد القادر شيبة الحمد ، مطابع شركة المدينة للطباعة والنشر – جده .
٧ – أسباب النزول / لعلي بن أحمد الواحدي ط الحلبي الثانية ١٣٨٧
٨ – الأسئلة والأجوبة الأصولية / لعبد العزيز المحمد السلمان ط / السادسة سنة ١٣٩٧ هـ
٩ – الاستيعاب في أسماء الأصحاب / لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ، تحقيق طه الزيني الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ط / الأولى .
١٠ – أساس البلاغه / لمحمود بن عمر الزمخشري / دار الشعب
١١ – أساليب الغزو الفكري د . علي جريشة ، وزميله محمد شريف الزئبة – الناشر دار الاعتصام – ط الأولى سنة ١٣٩٧ هـ

١٢ - أسد الغابة / لعلى بن محمد الجزرى / الشعب
١٣ - الأسفار المقدسة / لعلى عبد الواحد ط / دار العالم العربى القاهرة
١٤ - اقتضاء الصراط المستقيم ، مخالفة أصحاب الجحيم / لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت ٧٢٨ مطابع المجد التجارية
١٥ - الإسلام يتحدى / لوحيد الدين خان ، المختار الإسلامى للطباعة والنشر القاهرة
١٦ - الإسلام / لسعيد حوى ، مراجعة وهبى سليمان الغاوجى ط / الأولى سنة ١٣٨٩ هـ
١٧ - الإسلام والرسول فى نظر منصفى الشرق والغرب / لأحمد بن حجر آل طامى ، الناشر المكتبة الثقافية .
١٨ - الإسلام دعوة عالمية / لعباس محمود العقاد ط / بيروت
١٩ - الله جل جلاله / لسعيد حوى ، بيروت ط / الأولى سنة ١٣٨٩
٢٠ - الإصابة فى تمييز الصحابة / للحافظ ابن حجر العسقلانى سنة ٨٥٢ هـ تحقيق طه الزينى الناشر مكتبه الكليات الأزهرية
٢١ - أصول الدين الإسلامى / لمحمد بن سليمان التميمى بدون ذكر المطبعة والتاريخ
٢٢ - أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن / لمحمد الأمين الشنقيطى مطبعة المدنى
٢٣ - إنجيل متى
٢٤ - إنجيل يوحنا
٢٥ - الإيمان ، أركانه ، حقيقته ، نواقضه د . محمد نعيم ياسين ، جمعية عمال المطابع التعاونية عمان ط / الأولى سنة ١٣٨٩ هـ
٢٦ - البداية والنهاية / للحافظ أبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى ت سنة ٧٧٤ هـ بيروت / ط / الأولى سنة ١٩٦٦ م .
٢٧ - بلوغ الأرب / لأبى الفضل محمود الآلوسى ط / دار الكتاب
٢٨ - بيان تلبيس الجهمية فى تأسيس بدعهم الكلامية / لشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية تصحيح وتكميل وتعليق محمد بن عبد الرحمن قاسم ، مطبعة الحكومة السعودية مكة المكرمة ط / الأولى سنة ١٣٩٢ هـ

٢٩ – التاريخ الإسلامى العام / لعلى إبراهيم حسن ، مطبعة السنة المحمدية ط / الثالثة

٣٠ – تاريخ الأمم والملوك / للإمام محمد بن جرير الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الناشر دار المعارف بمصر ط / الثانية

٣١ – تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والدينى والاجتماعى / د . حسن إبراهيم حسن الناشر مكتبة النهضة المصرية مطبعة السنة المحمدية القاهرة الطبعة السابعة سنة ١٩٦٤ م

٣٢ – تحفة الأحوذى / للحافظ أبى العلا محمد بن عبد الرحمن الباركفورى ط / المدنى الثالثه سنة ١٣٨٤ هـ

٣٣ – تدريب الراوى / لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ت سنة ٩١١ هـ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ط / السعادة بمصر الثانية سنة ١٢٨٥ هـ – ١٩٦٦ م .

٣٤ – التفسير الكبير / للفخر الرازى الناشر دار الكتب العلميه طهران ط / الثانية

٣٥ – تفسير القرآن العظيم / للحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقى ، تحقيق البنا ، عاشور ، غنيم ط / الشعب بالقاهرة

٣٦ – تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن / لمحمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ط / دار الشعب

٣٧ – تاريخ المذاهب الإسلامية / لمحمد أبو زهرة ، الناشر دار الفكر العربى

٣٨ – التفسير السياسى للسيرة / د . محمد رواس قلعنجى الناشر دار السلام . بيروت

٣٩ – تفسير الجلالين / لمحمد بن أحمد المحلى / عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى الناشر المكتبة الشعبية

٤٠ – توحيد الخالق / للشيخ عبد المجيد عزيز الزندانى ط / الثالثة على نفقة رئاسة المحاكم الشرعية بقطر سنة ١٣٩٧ هـ

٤١ - تهذيب التهذيب / للحافظ ابن حجر العسقلانى . بيروت
٤٢ - تيسير العزيز الحميد / لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ت سنة ١٢٣٣ هـ ، الناشر مكتبة الرياض الحديثة

- جـ -

٤٣ - جامع البيان فى تأويل القرآن / لإمام المفسرين محمد بن جرير الطبرى مصطفى الحلبى الثالثة سنة ١٣٨٨ هـ
٤٤ - تهذيب الأسماء واللغات / لأبى زكريا يحيى بن شرف الدين النووى إدارة الطباعة المنيرية لصحابها ومديرها محمد منير الدمشقى
٤٥ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية / مطابع المجد التجارية
٤٦ - جواهر الأدب / لأحمد الهاشمى ط / السعادة بمصر ٢١ / ١٣٨٤ هـ

- حـ -

٤٧ - حاشية الترغيب والترهيب / لمصطفى عمارة ط / مصطفى الحلبى

- خـ -

٤٨ - خاتم النبيين / محمد أبو زهرة ، الناشر دار الفكر العربى ط / الأولى سنة ١٩٧٢ م
٤٩ - الخصائص الكبرى / للحافظ عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى تحقيق محمد خليل هراس ، الناشر دار الكتب الحديثة

- د -

٥٠ - دراسات قرآنية / للشيخ محمد قطب دار الشروق
٥١ - دراسة فى السيرة النبوية / لعماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة دار

النفائس سنة ١٣٩٤ هـ

٥٢ – الدعوة الإسلامية / للدكتور رؤوف شلبى من مطبوعات مجمع البحوث العلمية القاهرة سنة ١٣٩٤ هـ

٥٣ – الدعوة الإسلامية دعوة عالمية / د . محمد الراوى ، الدار القومية للطباعة والنشر

– ز –

٥٤ – الرسول / لسعيد حوى ط / الثانية سنة ١٣٩١ هـ بدون ذكر المطبعة والناشر

٥٥ – الرسالة المحمدية / د . محمود عبد الوهاب فايد دار الطباعة المحمدية بالأزهر الشريف ط / أولى ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م

٥٦ – روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى / لأبى الفضل محمود الألوسى ط / بيروت

٥٧ – الروح / للإمام شمس الدين أبى عبد الله بن قيم الجوزية ت سنة ٧٥١ ط / بيروت سنة ١٣٩٥ هـ

٥٨ – روح الدين الإسلامى / لعفيف عبد الفتاح طبارة ط / بيروت ١٧ سنة ١٩٧٨ م

٥٩ – الروض الأنف / لعبد الرحمن السهيلى تحقيق عبد الرحمن الوكيل دار النصر للطباعة ط / الأولى سنة ١٣٨٧ هـ

٦٠ – رياض الصالحين ، للإمام أبى زكريا يحيى بن شرف الدين النووى الدمشقى ت سنة ٦٧١ هـ الناشر دار الكتاب العربى بيروت

٦١ – زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزيه ، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف ط / مصطفى الحلبى سنة ١٣٩٠ هـ

٦٢ – الزواجر عن اقتراف الكبائر / لأحمد بن محمد بن حجر المكى ت سنة ٩٧٤ هـ ط / مصطفى الحلبى ط / الثانية سنة ١٣٩٠ هـ

٦٣ – سبل السلام شرح بلوغ المرام / لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعانى

ت سنة ١١٨٢ هـ راجعه وعلق عليه المرحوم الشيخ محمد عبد العزيز الخولى ط / بيروت الرابعة سنة ١٣٧٩ هـ

٦٤ – سفر التثنية ضمن الكتاب المقدس ط / بيروت سنة ١٨٧٠ م

٦٥ – سنن أبى داود مع عون المعبود / لسليمان بن الأشعث بن إسحق ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ط / الثانية سنة ١٣٨٨ هـ

٦٦ – سنن الترمذى بتحفة الأحوذى / لأبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان ط / المدنى الثانية سنة ١٣٨٤ هـ

٦٧ – سنن النسائى / للحافظ ابن عبد الرحمن بن شعيب النسائى ت سنة ٣٠٣ ط / مصطفى الحلبى / الأولى سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م

٦٨ – سنن ابن ماجه / لمحمد بن يزيد القزوينى ت سنة ٢٧٥ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ط / عيسى الحلبى

٦٩ – سنن الدارمى / لعبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، تحقيق عبد الله هاشم اليمانى دار المحاسن للطباعة القاهرة سنة ١٣٨٦

٧٠ – سلسلة الأحاديث الصحيحة / للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى الناشر المكتب الإسلامى سنة ١٣٩٢ هـ

٧١ – السير والمغازى / لمحمد بن إسحق المطلبى ، تحقيق د . سهيل زكار ط / دار الفكر بيروت ط / الأولى سنة ١٣٩٨ هـ

٧٢ – السيرة النبوية / لمحمد بن عبد الملك بن هشام الحميرى ، تحقيق السقاء الأبيارى ، شلبى مصطفى الحلبى ط / الثانية ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م .

٧٣ – السيرة النبوية / للحافظ ابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ط / عيسى الحلبى سنة ١٣٨٤ هـ

٧٤ – السيرة الحلبية / لعلى بن برهان الدين ط / الحلبى

٧٥ – السيرة النبوية / لأبى الحسن على الندوى ، دار الشروق جده

٧٦ – السيرة النبوية على ضوء الكتاب والسنة / د . محمد أبو شهبه دار الطباعة المحمدية بالأزهر

- ش -

٧٧ - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك مع منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل / لمحمد محيى الدين عبد الحميد الناشر المكتبة التجاريه الكبرى بمصر ط / ١٥ سنة ١٣٨٦ هـ

٧٨ - شرح العقيدة الطحاوية / لابن أبى العز الحنفى ، تحقيق جماعة من العلماء خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألبانى الناشر المكتب الإسلامى بيروت ط / الرابعة سنة ١٣٩١ هـ

٧٩ - شرح مسلم مع صحيحه لأبى زكريا يحيى بن شرف النووى المطبعة المصرية ومكتبتها بدون تاريخ

٨٠ - شرح العقيدة الواسطية / لمحمد خليل هراس ، مراجعة الأستاذ الكبير عبد الرزاق عفيفى الناشر المكتبة السلفية بالمدينة ط / الثالثة

- ص -

٨١ - صحيح البخارى بحاشية السندى / للإمام محمد بن إسماعيل البخارى ط عيسى الحلبى الثالثة

٨٢ - صحيح مسلم / للإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى الناشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر

٨٣ - صحيح ابن حبان / أبو حاتم بن حبان بن أحمد المضرى الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ط / الأولى سنة ١٣٩٠ هـ ترتيب الأمير علاء الدين الفارسى تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان

٨٤ - صفوة الصفوة / لأبى الفرج جمال الدين بن على بن محمد بن جعفر الجوزى ت سنة ٥٩٧ تحقيق محمود فاخورى ، خرج أحاديثه محمد رواس قلعه ط / الأولى حلب

- ض -

٨٥ - الضعفاء الصغير / لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى مع :

٨٦ - الضعفاء والمتروكين / لأحمد بن شعيب النسائى كلاهما تحقيق

محمود إبراهيم زايد دار الوعى بحلب ط / الأولى سنة ١٣٩٦ هـ

- ط -

٨٧ - الطبقات الكبرى / لمحمد بن سعد مطبعة لجنة الثقافة الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٥٨ هـ

- ظ -

٨٨ - ظهور الإسلام وسيادة مبادئه / لعبد الحميد بخيت مطبعة المعرفة

- ع -

٨٩ - العبادة فى الإسلام / ليوسف القرضاوى مؤسسة الرسالة بيروت ط / الرابعة سنة ١٣٩٥ هـ

٩٠ - العقيدة فى القرآن / لمحمد المبارك ط / دار الفكر

٩١ - العقيدة الواسطية مع شرحها / لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية مراجعة الأستاذ الكبير عبد الرزاق عفيفى الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ط- الثالثة

٩٢ - عون المعبود شرح سنن أبى داود / لأبى الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادى مع شرح الحافظ بن قيم الجوزية تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان الناشر المكتبة السلفية بالمدينة ط / الثانية سنة ١٣٨٨ هـ

- ف -

٩٣ - الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية / لسليمان ابن عمر العجيلى الشهير بالجمل ت سنة ١٢٠٤ ط / عيسى البابى الحلبى

٩٤ - فتح البارى ، شرح صحيح البخارى / للحافظ أحمد بن حجر العسقلانى ت سنة ٨٥٢ تحقيق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقى وأشرف على طبعه محب الدين

الخطيب ، الناشر المطبعة السلفية ومكتبتها .

٩٥ - فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير / لمحمد ابن على الشوكانى ط / مصطفى الحلبى / الثانية ١٣٨٣ هـ

٩٦ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد / للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ تحقيق محمد حامد الفقى مطبعة السنة المحمدية القاهرة ط / ٧

٩٧ - فتح المبين شرح الأربعين مع حاشية المدابغى / لأحمد بن حجر الهيثمى ط / عيسى الحلبى

٩٨ - فقه السيرة / للشيخ محمد الغزالى ، خرج أحاديثه وصححها محمد ناصر الدين الألبانى الناشر دار الكتب الحديثة بمصر ط / السابعة سنة ١٩٧٦ م

٩٩ - فجر الإسلام لأحمد أمين الناشر مكتبة النهضة المصرية ط / ١١ سنة ١٩٧٥ م

١٠٠ - فقه السيره / لمحمد سعيد رمضان البوطى دار الفكر ط / الثالثة سنة ١٣٩٠ هـ .

١٠١ - فى ظلال القرآن / للشهيد سيد قطب دار الشروق الطبعة الشرعية الرابعة سنة ١٣٩٧ هـ

- ق -

١٠٢ - قاموس القرآن ، أو إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم / للحسين بن محمد الدامغانى تحقيق وتكميل عبد العزيز سيد الأهل ط / الثانية بيروت سنة ١٩٧٧م

١٠٣ - القاموس المحيط / لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادى ت سنة ٨١٧ هـ الناشر مؤسسة الحلبى القاهرة .

١٠٤ - قرة عيون الموحدين فى تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين / لعبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب الناشر مكتبة الرياض

١٠٥ - قصص القرآن / لجاد المولى / البجاوى / شحاته الناشر المكتبة التجارية بمصر ط / ١٠ سنة ١٣٨٩ هـ

- ك -

١٠٦ - الكامل / لمجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد الجزرى المشهور بابن الأثير ت سنة ٦٠٦ هـ تصحيح عبد الوهاب النجار الناشر إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٩ هـ

١٠٧ - كيف ندعو الناس لعبد البديع صقر الناشر مكتبة وهبة القاهرة .

١٠٨ - لباب النقول فى أسباب النزول / لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ت سنة ٩١١ مطبعة مصطفى الحلبى ط / الثانية بدون تاريخ

١٠٩ - لسان العرب / لمحمد بن مكرم بن منظور بيروت سنة ١٣٨٨ هـ

- م -

١١٠ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين / لأبى الحسن على الندوى الناشر دار الكتاب العربى بيروت ط / السادسة سنة ١٣٨٥ هـ

١١١ - مجمع الأمثال / لأحمد بن محمد النيسابورى الميدانى تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٤ هـ

١١٢ - محاضرات فى النصرانية / لمحمد أبى زهرة ، الناشر دار الفكر العربى ط/ الخامسة سنة ١٣٩٧ هـ

١١٣ - محاسن التأويل / لمحمد جمال القاسمى مطبعة عيسى الحلبى ط / الأولى

١١٤ - محاضرات / لشيخنا محمد قطب فى جامعة أم القرى بمكة المكرمة

١١٥ - مختصر السيرة النبوية / لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب . بيروت

١١٦ - مختار الصحاح / لمحمد بن أبى بكر الرازى مطبعة الحلبى سنة ١٣٦٩ هـ

١١٧ - مدارج السالكين / لابن قيم الجوزية مطبعة السنة المحمدية تحقيق محمد حامد الفقى سنة ١٣٧٥ هـ

١١٨ - مروج الذهب / لعلى بن الحسين السعودى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر ط / الرابعة سنة ١٣٨٤ هـ

١١٩ - مسند أحمد / للإمام أحمد بن حنبل الناشر المكتب الإسلامى بيروت وبهامشه منتخب كنزل العمال

١٢٠ - مشاهد القيامة / للشهيد سيد قطب دار الشروق

١٢١ - المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير / لأحمد بن محمد الفيومى مطبعة مصطفى الحلبى

١٢٢ - معارج القبول ، شرح سلم الوصول فى التوحيد / لشيخنا حافظ ابن أحمد الحكمى من مطبوعات الرياسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية .

١٢٣ - معالم فى الطريق / للشهيد سيد قطب دار الشروق

١٢٤ - المعارف / لعبد الله بن مسلم بن قتيبه الناشر دار المعارف بمصر ط / الثانية

١٢٥ - المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام د . جواد على ط بيروت

١٢٦ - مع الله / للشيخ محمد الغزالى مطبعة حسان بالقاهرة ط / الرابعة ١٣٩٦ هـ

١٢٧ - الملل والنحل / لمحمد بن عبد الكريم الشهر ستانى ت سنة ٥٤٨ تحقيق محمد سيد كيلانى ط / الثانية سنة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م

١٢٨ - منهج التربية الإسلامية / للاستاذ محمد قطب دار الشروق ط / الأولى ١٤٠٠

١٢٩ - منهاج المسلم / للشيخ أبى بكر جابر الجزائرى الدار البيضاء ط / الثالثة سنة ١٣٩٧ هـ

١٣٠ - مراحل الدعوة الإسلامية / لحسين جابر مخطوط بحث علمى مقدم للسنة الرابعة فى كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

١٣١ - المنجد فى اللغة والأعلام بيروت ط ٢٢

١٣٢ - الموطأ / للإمام مالك بن أنس ت سنة ١٧٩ مع شرحه تنوير الحوالك / لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشافعى مطبعة مصطفى الحلبى ط / الاخيرة سنة ١٣٧ هـ

١٣٣ - المغنى عن حمل الأسفار مع الأخبار / للحافظ أبى الفضل عبد

الرحيم بن الحسين العراقى ط . بيروت

١٣٤ - ميزان الاعتدال فى نقد الرجال / للحافظ محمد بن أحمد الذهبى ط بيروت دار المعرفة ط / الأولى سنة ١٣٨٢ هـ تحقيق محمد على البجاوى .

- ن -

١٣٥ - نافذة علي الجحيم / صدرت عن الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٦ م

١٣٦ - النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن الكريم / لأبى الحسن على الندوى الناشر المختار الإسلامى القاهرة ط / الرابعة .

١٣٧ - نور اليقين لمحمد الخضرى الناشر المكتبة التجارية بمصر مقابل بنسخة أخرى طبعة دار الفكر بيروت الجميع بدون تاريخ

١٣٨ - النهاية فى غريب الحديث / لأبى السعادات والمبارك محمد الجزرى المعروف بابن الأثير تحقيق محمود محمد الطناحي ط عيسى الحلبى بدون ذكر التاريخ

١٣٩ - الوحى المحمدى / لمحمد رشيد رضا الناشر المكتب الإسلامى ط / الثامنه

١٤٠ - هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى / لمحمد بن قيم الجوزية مؤسسة مكة للطباعة والإعلام .

١٤١ - هداية المرشدين / لعلى محفوظ الناشر المكتبة المحموديه التجارية بميدان الأزهر الشريف / ط / السابعة

١٤٢ - الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث / للحافظ أبى الفداء إسماعيل بن شهاب الدين بن كثير / تأليف أحمد محمد شاكر دار الكتب العلمية بيروت

١٤٣ - علوم الحديث / لابن الصلاح الإمام أبى عمر عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه نور الدين عتر مطبعة الأصيل حلب سنة ١٣٨٦ هـ

١٤٤ - خلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال / للإمام صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجى تحقيق محمود عبد الوهاب فايد مطبعة الفجالة

الجديدة القاهرة سنة ١٣٩٢ هـ

١٤٥ - تقريب التهذيب / للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف الناشر محمد سلطان النمنكانى ط / الأولى سنة ١٣٨٠ هـ

١٤٦ - التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية / لأحمد شلبى ط الخامسة ١٩٧٠ م ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية



فهرس الأعلام المترجمة لهم فى البحث



الفهـــرس

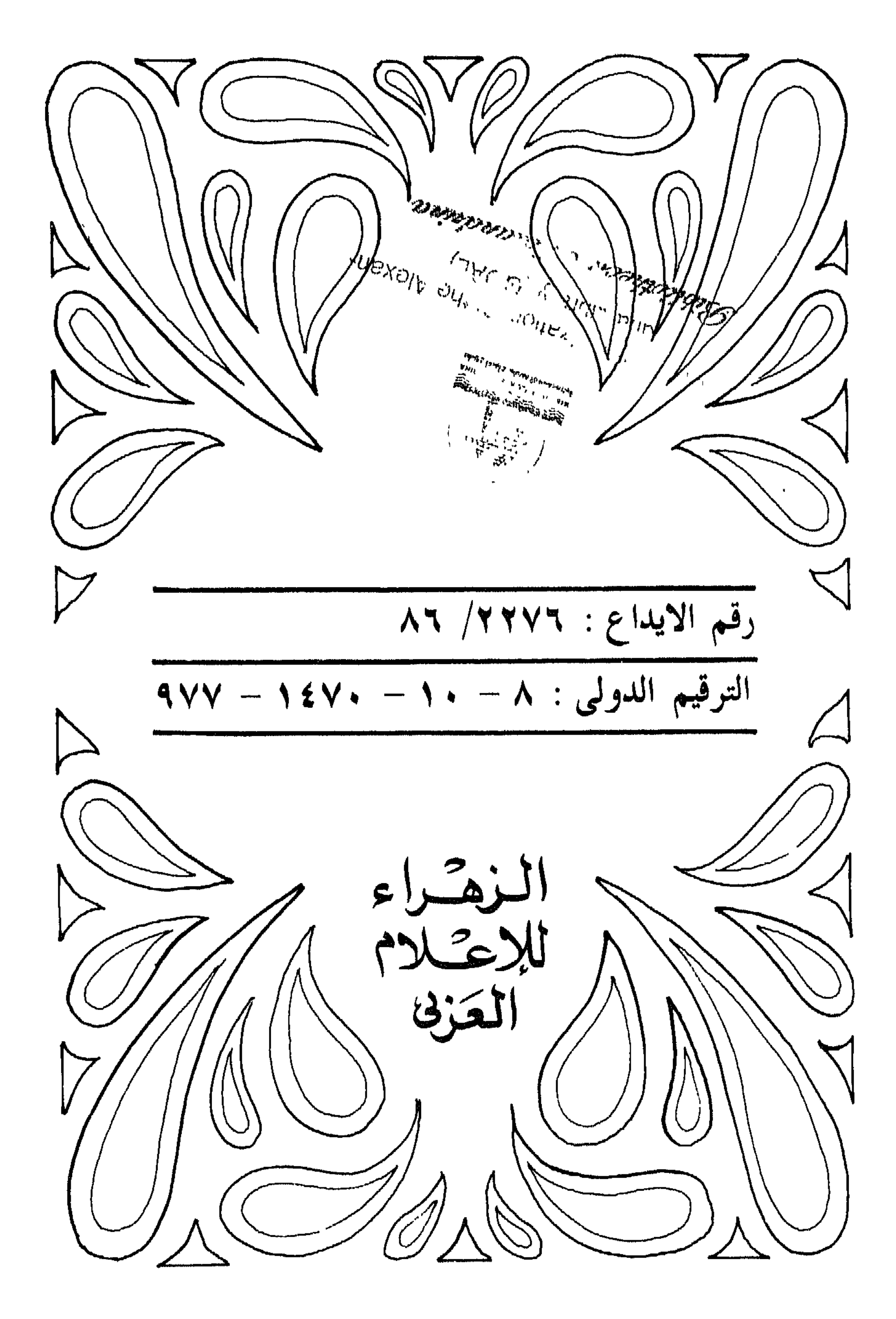












رقم الايداع : ٢٢٧٦/ ٨٦

الترقيم الدولى : ٨ - ١٠ - ١٤٧٠ - ٩٧٧


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





هذا الكتاب ، فى فقه السيرة العملى لبناء أفضل حياة ممكنة على وجه الأرض ، بداية رائدة ينبغى أن تتلوها دراسات . وإذا كان البحث قد اقتصر على المرحلة المكية ، فذلك لأنها الأساس الذى تم عليه صرح البناء الشامخ المقدس ، وإن استكمال بناء ذلك الصرح فيه مجال واسع للباحثين والدارسين .

الناشـــــر

الزهراء
للإعلام
العربى